المركز القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة

الرحَّالة العُثمانى

أوْليا چلبى

الرحلة إلى مصر والسودان وبلاد الحبش

١٠٨٢-١٠٩١هـ

١٦٧٢-١٦٨٠م

الجزء الثالث

مواكب مصر واحتفالاتها

ترجمة وتقديم وتعليق

الصفصافى أحمد القطورى

1494

هذا الكتاب ترجمة للمجلد العاشر من رحلة أوليا چلبى والذى خصصه للحديث عن رحلته إلى مصروالسودان والحبش والتى قضى فيها ثمانى سنوات فيما بين (١٠٨٢-١٠٩١هـ=١٦٧٢-١٦٨٠م). وقد ألَّفها باللغة التركية العثمانية تحت مسمى "أولياچلبى سياحتنامه سي-مصر، سودان وحبش" وبعد الانقلاب الحروفى فى تركيا عقب ثورة ١٩٢٣م والذى أعلن عام ١٩٣٨م. قامت وزارة التعليم بتشكيل لجنة وأعادت نشر الكتاب بالحروف اللاتينية التركية الحديثة عام ١٩٣٨م.

الرحلة إلى مصر والسودان وبلاد الحبش

(١٠٨٢ - ١٠٩١هـ = ١٦٧٢ - ١٦٨٠م)

(الجزء الثالث)

"مواكب مصر واحتفالاتها"

المركز القومى للترجمة
إشراف: جابر عصفور

- العدد : 1494
- الرحلة إلى مصر والسودان وبلاد الحبش (ج٣)
- أوليا چلبى
- الصفصافى أحمد القطورى
- الطبعة الأولى 2010

هذه ترجمة الجزء الثالث من كتاب :

EVLİYA ÇELEBİ

SEYAHATNAMESİ

MISIR, SUDAN, HABEŞ

(1672 - 1680)

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة . ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El-Gabalaya St., Opera House. El-Gezira, Cairo.
e.mail:egyptcouncil@yahoo.com Tel.: 27354524 - 27354526 Fax: 27354554

الرحلة إلى مصر والسودان وبلاد الحبش

١٠٨٢ - ١٠٩١هـ = ١٦٧٢ - ١٦٨٠ م

(الجزء الثالث)

"مواكب مصر واحتفالاتها"

تأليف : أوْلِيا چلَبى

ترجمة وتقديم وتعليق

الصفصافى أحمد القطورى

2010

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

چلبى، أوليا.
الرحلة إلى مصر والسودان وبلاد الحبش (١٠٨٢ -١٠٩١ هـ= ١٦٧٢-١٦٨٠م) (جـ٣) مواكب مصر واحتفالاتها/ تأليف : أوليا چلبى، ترجمة وتقديم وتعليق : الصفصافى أحمد القطورى .
ط١ ، القاهرة : المركز القومى للترجمة ، ٢٠١٠
٣٤٨ ص ؛ ٢٤ سم .
١ - مصر - وصف ورحلات .
٢- السودان - وصف ورحلات .
٣- إثيوبيا - وصف ورحلات .
(أ) القطورى ، الصفصافى أحمد (ترجمة وتقديم وتعليق).
(ب) العنوان ٩١٦,٢

رقم الإيداع ٢٠١٠/٤٦٧٦
الترقيم الدولى I.S.B.N. 978-977-479-922-6
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

المحتويات

الفصل الثالث والخمسون :

الفصل الرابع والخمسون :

إطلالة على محتويات الجزء الثالث

يبدأ هذا الجزء بالفصل السابع والأربعين، ويأتي عقب الانتهاء من الحديث عن النيل وفيضانه والاحتفالات المصاحبة لفتح فم الخليج ، هذا الفصل يتحدث عن الحيوانات الموجودة فى النيل وخواصها والتماسيح وعدوِّها اللدود وغرائبها وطلسماتها وأوصاف أفراس النهر .

ينتقل الرحَّالة إلى الحديث عن الاحتفال العظيم بليلة رؤية هلال شهر رمضان المبارك، والذى يُعرف بموكب ليلة المحتسب ، وكيف تعم الفرحة كل المصريين ، وخروج أهل الحِرَف والمِهَن للاحتفال بهذا الموكب العظيم ... ويبين الأصناف والمهن ودكاكينهم وكم عدد أفراد كل مهنة على أرض مصر العامرة أمِّ الدنيا . ويفرد الحديث عن مواكبهم وما يقدمونه من ألاعيب ومهارات تدل على حرفهم ومهنهم، وبعد أن أشار إلى بعض المهن والحِرَف التى رآها فى مصر القاهرة انتقل إلى الحديث عن الاحتفال الرابع فى مصر، وهو احتفال العيد وما يواكبه من مهرجانات وعادات وتقاليد وأعراف، وما يعم الناس من مباهج ومسرات . ويتحدث عن سماط الوالى واستقباله للأعيان والعلماء والمشايخ والأهالى . لم يهمل أوليا چلبى الحديث عن موكب واحتفال آخر عظيم تقيمه مصر عند استقبال الوالى الجديد، وهو الذى يسمونه موكب الاستقبال ، والولائم التى تُقام فى العَدْلِيَّة بهذه المناسبة ، ثم التحرك من العدلية والدخول إلى القاهرة مصر أم الدنيا.

وكما تحدث عن موكب الاستقبال فقد تحدث عن تنحية الوزراء وما يُصاحب ذلك من مراسم وأعراف وتشريفات، وكذلك عن كل المواكب أى الاحتفالات التى تتم فى مصر عند خروج الخزينة المُرسلة إلى إستانبول والصُّرَّة وكسوة الكعبة، ومواكب تسيير موكب الحج، ووداع قافلة الحج وما يصاحبها قوات وأفواج وخروج

المحمل، وما يصاحب ذلك من احتفالات الدراويش وأرباب الطرق الصوفية جنبًا إلى جنب قوات الأوجاقات (= المعسكرات) الإنكشارية التى تحتفل بالخروج أو المصاحبة للمحمل، ولم يهمل الحديث عن مخصصات كل هذه المواكب والخيرات والهدايا المُرسَلة إلى سكان مكة المُكرَّمة والمدينة المنورة .

كما تحدث الرحَّالة أوليا چلبى عن مواكب استقبال وتوديع القضاة الذين يصلون إلى مصر أو يغادرونها، وعن احتفال شمع العسل والبخور والعود والعنبر الخاصة بالحرمين الشريفين، وبيان خزائن مصر المرسلة إلى سائر الجهات والسلاطين والأمراء والأشراف والسادات، والتى تجاوزت السبعين خزينة. وتحدث عن التشريفات والمراسم المصاحبة لكل خزينة من هذه الخزائن العامرة بالخيرات الوفيرة وبالدنانير الذهبية الكثيرة ، إلخ .

اعتباراً من الفصل الثالث والخمسين يتحدث الرحَّالة عن احتفالات أخرى تحظى بالاهتمام والعناية والبهجة من قبل المصريين، ألا وهى الاحتفالات بموالد منابع الأسرار ومراجع الأبرار من الأولياء والمشايخ ، وبدأ بمولد حضرة البدوى ومشايخه ومواكبه، مروراً بمولد الشيخ البكرى وإبراهيم الگلشنى ... وبعد أن يخلص من ذلك ينتقل إلى الحديث عن المتنزَّهات التى يرتادها العامة والخاصة ويلهو بها أهالى مصر بعد هذه الموالد .

بيَّن الرحَّالة أوليا أغرب الغرائب وطلسماتها وسائر عجائبها، وبيَّن كذلك أعمال أربابها ومهنهم وألاعيبهم . وبعد أن خلص من عجائب الأهرام وطلاسم مصر المحروسة انتقل إلى الحديث عن المأكولات والمشروبات والنباتات والثمرات التى توجد فى أرض مصر ولا توجد فى بلاد الروم، وتحدث كذلك عن الفواكه والنباتات التى تخرجها تربة مصر الطيبة والمشروبات التى رآها وسأل عن كيفية صناعتها وفوائدها، وذكر الأمراض التى يمكن أن تشفيها هذه المشروبات بإذن الله .

لم يشأ أوليا أن يترك هذا دون تبرير، فأردف ذلك بفصل كامل عن أحوال شعب مصر، وعن مُناخ مصر ومياهها والمزايا والعيوب التى تلتصق بالمصريين... وعاداتهم وأعرافهم فى الأفراح والأتراح التى تلم بهم.

يعود الرحّالة العثمانى الذى بقى فى مصر المحروسة زهاء ثمان سنوات، إلى ذكر وبيان ما فى مصر من كبار العلماء والشيوخ والمدرسين والأئمة والخطباء من أصحاب الدعاء المستجاب، وبيان السادة أولياء النعم وأصحاب الخيرات المبذولة وأميرى الأمراء وأصحاب الخانات والوكالات والأعيان الذين تعرف عليهم فى مصر المحروسة .

يرجع أوليا چلبى خيرات مصر وطيبة أهلها إلى عوامل كثيرة ، فإلى جانب مياهها العذبة وتربتها الخصبة التى تجود أربع مرات فى السنة يعود إلى علم النجوم والهيئة ومناخ المدن وخطوط الطول والعرض والأقاليم التى تقع فيها نواحى مصر كلها، ويتحدث عن الأقاليم السبعة وتقسيماتها الأرضية وانعكاساتها المناخية .

لم يقبل الولى العثمانى الدرويش محمد ظلى الشهير بأوليا چلبى أن يتوجه إلى زيارة الدلتا قبل أن يطوف بالأضرحة النورانية للمجاهدين والصحابة الكرام والأئمة والأولياء والقضاة والمشايخ والعلماء والسلاطين القدماء ، مترحِّمًا عليهم، سائلهم الهداية والعون بإذن الله العليِّ القدير .

يزور مشاهد آل البيت الموجودة فى القاهرة أم الدنيا ومشهد الإمام الشافعى، ومشهد الإمام الليث، ويحضر مولد أبى هريرة ، ويزور أصحاب الأضرحة والكرامات فى جبل الجيوشى والقابعين فى أحضان جبل المقطم . وطاف بكل الأحياء الكبيرة وطرق كل الأعيان والأسواق السلطانية .

كان أوليا يقيس المسافة بالخطوة والقدم والارتفاعات بالذراع والشبر والإصبع . يحصى كل ما تقع عليه عيناه فى الجامع أو المسجد أو المشهد أو الضريح من أبواب وشبابيك وزخارف وقناديل وثريات وتحف وأعمدة وقباب، لم تكن تفلت منه شاردة أو واردة إلاَّ وسجلها بين دفتَىْ رحلته .

الفصل السابع والأربعون

فى بيان الحيوانات الموجودة فى النيل

التمساح :

من المعروف أن بالنيل آلاف الأنواع من الأسماك ، ولكن أكبرها هو التمساح ، وهو حيوان مهيب ومضر. وهو موجود أيضًا فى بلاد الروم، وهناك ثلاثة أنواع شبيهة به : السحلية (= كرتنكلة)، ولكلر (= الزاحفة) والوزقة، وهذا التمساح شبيه بها، ولكنه أضخم . له أربعة أقدام وذنَب طويل ، ويسمونه فى اللغة العربية " تمساحًا " وفى اللغة الفارسية " نَهَنْك " وفى اللسان التركى " لَوى " وفى اللغة المغولية " سَلْقُون " ، أما فى ولاية النوبة فيسمونه " وولى"، وفى الولاية العليا يسمونه " شونشار ". مخلوق ملعون ، من هذا النوع ما يصل طوله إلى خمسة عشر ذراعًا وظهره مملوء بالحراشيف السميكة، لا تُجدى معها آلات الحرب، حتى البنادق، إلا تحت أُذنه، فهذا المكان ليِّن وطرى ، فمَنْ يستطع التصويب على شحمة الأذن بالسهم فإنه يصيبه، كما أن ما تحت الإبط ليِّن وخالٍ من الحرشف، أو أن يُصوب إلى رأسه بالبندقية الدرهمية، فلو أُصيب فإنه يُقتل بهذا البارود .

خاصية من خواصه

إن الصيادين يأخذون شحومه، ولو مسحوا به الأجساد المتألمة من شدة الحر فإنها بأمر الله تُشفى، وإذا كان جميع الحيوانات تُحرك فكها الأسفل، فإن التمساح هو الوحيد الذى يَفتح ويغلق فكه الأعلى وفكُّه الأسفل لا يتحرك أبدًا. وبفكه الأعلى

ستون سنًّا، أما الفك السفلى ففيه أربعون سنًّا فقط ، وفى الفك السفلى سنَّان طويلتان ، وبالفك العلوى وبجوار فتحتى الأنف يوجد ثُقبان ، ومن هاتين الفتحتين تخرج السنَّان الطويلتان الموجودتان فى الفك الأسفل . ولكن الفقير أمعن النظر، ونظرت بإمعان دقيق، فليس للتماسيح الصغيرة، أما التماسيح الكبيرة، فعلى طرفى السِّنَّين الطويلتين الموجودين فى الفك الأسفل، وهى كسيف الضحَّاك . وإذا ما قام خروف أو ذئب أو رجل أو حصان أو عجل أو جمل بالشرب من حافة النهر، فبينما الهدف مشغول بالشرب، يقوم التمساح بضربه بذنبه أولاً، ثم يسحب الحيوان الذى خبطه إلى الماء ولا يمهله، بل يَسحبه، أما إذا كان رجلاً أو خروفًا فإنه يلتهمه، ويبلعه فورًا، وشاءت حكمة الخالق أن لا يكون له دبر...! وإذا ما أراد أن يقضى حاجته يخرج من النيل إلى البر، ويدور فى الجزر، وبأمر الله، يتمدد على ساحل النيل، حيث يوجد نوع كبير من الطيور المختلطة الألوان، يُشبه البط الرومى، ساقاه قصيرتان ، ذو منقار ومخالب، وبينما هذا الطائر يجول ويطير، يرى التمساح على الجزيرة، فكما يقترب ابن آوى من الأسد، فإن هذا الطائر يقترب جدا من التمساح ، ويقوم بحركة أو حركتين، وبأمر الله، ما إن يراه التمساح حتى يرتاح. وبعض التماسيح ليس بها حاجة إلى قضاء الحاجة، بل هى تسير مع أنثاها على الجزيرة، ويكون هذا الطائر جوعان، فينقر أنف التمساح عدة نقرات، وبعدة محاولات يفتح التمساح فمه . وأحيانًا تكون التماسيح أنفسها فاغرة أفواهها، فيقوم الطائر المذكور بالدخول من فم التمساح حتى يصل إلى معدته، ويبدأ فى مداعبة معدة التمساح بنقرات متتالية على جدران المعدة، فيقوم التمساح الملعون باسترجاع نجاسته إلى فمه، ويتولى الطائر إخراجها ، والتقاط الدود، والديدان المتراكمة داخل هذه النجاسة وحولها، فيشعر التمساح بالراحة والارتياح، وفى الوقت نفسه يكون الطائر قد شبع، ودفع غائلة الجوع، فقد استفاد هو وأبعد عن نفسه النفوق من الجوع، وخلَّص التمساح من الثقل الذى كان يملأ معدته، إنها حكمة الخالق . وبعض الطيور لا تجد ضالتها فى ما أخرجته، فتعود وتدخل إلى بطن التمساح، وتُخرج قاذورات عديدة، ولكن التمساح يمكن أن يبلع الطائر أيضًا، وهو يبلع ما يكون قد أخرجه ، ولذلك فإن هذا الطائر يتحرك بسرعة

ويكون فى مقدمة فم التمساح . وشاءت قدرة الخالق أن يكون فى قمة رأس هذا الطائر عظمة مدببة، وحادة، فيقوم الطائر بغرس هذا السن المدبب عدة مرات فى فم التمساح ، فما يكون من التمساح تحت تأثير الألم إلا أن يفتح فمه عن آخره كالتنين ، فيخرج الطائر سليمًا . إنها حكمة غريبة عجيبة ، فقد جعل الله طيوراً تعمل فى خدمة التمساح الذى لا دبر له ! [يَفْعَل الله ما يشاء بقدرته].

ومن العجائب

أن التمساح هو تنين هذا النيل المبارك، وجميع المخلوقات تخافه، لأنه يأكلها. وليس فى النيل ما هو أقوى منه أو أشد بأسًا وهجومًا، ولكنه على البر فى غاية البطء ، لأن يديه وقدميه قصيرة، وبطنه تزحف على الأرض، مما يحول دون حركته السريعة، ولا يتجول على البر كثيراً ولا يمكنه البقاء خارج الماء أكثر من ثلاثة أيام ، فبعدها يموت .

في بيـــان العدو اللدود للتمساح

ولكن صاحب العزة قد خلق سببًا لموت هذا التنين، ألا وهو ابن عرس كما يسمونه فى بلاد الروم . خصم شديد للسفن، من ذوات الأربع ، يُشبه التمساح تقريبًا، وإن كان على جسده وَبَرٌ بدل الحرشف. يعيش داخل النيل، ويمكن أن يستقر على البر كالتمساح، يخرج إلى الشاطئ ويتجول فى الجزر، ويزحف على الرمال الناعمة، وهو يتجول ويطوف على الجزر الرملية ، وهو يبحث عن التمساح لأنه هو عدوه اللدود، كما أنه يصطاد الطائر الذى يُخرج قاذورات ومخلفات التمساح . إنه ابن عرس الصغير، فبينما التمساح يخرج إلى البر أو الشاطئ لقضاء حاجته وإخراج قاذوراته ، وهو يسير على مهل، يقترب منه ابن عرس هذا، ولا يراه التمساح ، لأن

قدرة الخالق شاءت أن تكون عيون التمساح أعلى رأسه؛ فلا يرى ما بجانبه، ولا ينظر ذات اليمين، ولا ذات الشمال . ولما يقترب الطائر المعهود، بينما فم التمساح مفتوح، وعندما يدخل الطائر إلى داخل فم التمساح، ينطلق ابن عرس أيضًا داخلاً إلى جوف التمساح، وبقدرة الخالق يتحول هذا التمساح الذى بلا جناح إلى طائر جريح، يُطلق آهاته وهو يخبط نفسه فى الأرض، وتدفعه حلاوة الروح إلى أن يلقى بنفسه إلى المياه. وقد تصادف أن كنا قادمين من أسوان بالسفينة، فشاهدنا تمساحًا عظيمًا فى النيل، ومن شدة ضرباته جعل مياه النيل تتماوج وكأنها بحر متلاطم، وكان كالبرق الخاطف يشق مياه النيل يمنة ويسرة، وينطلق أحيانًا كالسهم خارجًا من المياه، فيصير كالمنارة المشرئبة إلى السماء. وقد لاحظ الفقير إلى ربِّه هذا، فسألت قائلاً : يا حاج رشيد، لماذا يفعل هذا التمساح هكذا؟ قال: يا سلطانى، إن تمساحًا أكبر منه يُطارده. قلت : ولكنه لا يُرى، إنه الآن يبحث عن رفيقته. وخلال حديثنا هذا اتجه التمساح نحو سفينتنا، فطلبت من المماليك أن يرشقوه بالبنادق، فأطلقوا عليه بضع رصاصات فلم تؤثر فيه ، وأخيرًا اتجه نحو الضفة الغربية من النيل، وأخذ يصطدم بالشاطئ وهو يُطلق أنينه ، وبقى على حاله، وهو يحاول تسلق الشاطئ . ونحن بدورنا كنا نتعقبه بالسفينة، فوصلنا إلى حيث هو، فخرجنا إلى البر، وبينما نحن نتابع هذا المنظر إذا بابن عرس يخرج من فم التمساح ، وينطلق هاربًا نحو النيل، ومات التمساح حيث كان . وكان طول قامته بالضبط اثنين وثلاثين قدمًا، وبعضها يكون أربعين أو خمسين قدمًا . وحقا إن التماسيح المفرطة الحجم الموجودة فى النيل عند ولايتى إسنا وأسوان غير موجودة فى أى مكان آخر من النيل . وحتى هناك قلعة يسمونها الحقير الكبير، وهى من مآثر كور حسين بك، وزير ملك بلاد الفونج . وقد مسمروا على باب هذه القلعة، بدلاً من بابها الحديدى ضلفتى باب من جلد التمساح، وكان المسمار المستخدم زنة الواحد ثلاث أوقيات من الحديد، ولم يكن الرأس أو الذنب موجودين . ولقد طلبت قاصداً أن يقيسوا الجلد المستخلص من الجسد بالذراع، فوجدناه أربعة عشر ذراعًا طولاً وسبعة أذرع عرضًا، ولقد تملكنى العجب واستغربت . ويقول المسنون من الفونج إن هناك تماسيح مفرطة فى الطول .

وهناك عدو لدود وخصم خصيم آخر للتمساح، إنه فرس النيل، ويكثر فرس النيل فى ديار النوبة وولاية البربر ومدينة دنقلة، ويكثر خصوصًا فى مناطق الحدود، ولما كان فرس النيل يكثر فى هذه المناطق فقد قلَّت فيها التماسيح . ويُسمى التمساح فى بلاد النوبة وولى، ويسمونه فى الولايات العليا " شوشنار ".

ومن الغرائب

أن هذا التمساح يخرج إلى الجزر ومعه أنثاه ، وإذا ما أرادا الجماع والمعاشرة، فإن الأنثى ترقد على ظهرها . وبينما هما فى حالة الجماع والمعاشرة فإن بعض العربان المبتلَين بمرض بَل صوُ غقْلغى (= السيلان) من أجل دفع هذا المرض، أو بدافع من النفس الأمَّارة بالسوء، يخفون أنفسهم فى الرمال أو بين النخيل، وما إن يفرغ التمساح من جِماعه، وبينما أُنثاه راقده على ظهرها، يظهر الأعرابى من مكمنه ويطلق نعرة، يفر ذكر التمساح على أثرها، ويلقى بنفسه فى مياه النيل محاولاً الخلاص، ولكن الأنثى تظل مستلقية على ظهرها لا تستطيع الحراك، وكأنها سلحفاة لا تستطيع أن تقلب نفسها بسبب قِصَر يديها وهى على البر، فكل مهاراتها تظهر وهى فى الماء معتمدة على ذنبها وفمها، وحتى حين الجماع بعد أن يفرغ الذكر من جماعه، تظل الأنثى كما هى على ظهرها، وحينما لا تنقلب تظل على ما هى عليه. ولما كانت رجلاها إلى أعلى يكون فرجها إلى أسفل، فيقوم الملعون الذى يريد الجماع بتغطية ذنبها بالرمال ودفنه تحت الرمال بكمية كبيرة، ويغطى رجليها بالرمال . وبعد دفن الذنب يقل خوفه ويأتى بالفعل الشنيع، ونعوذ بالله، ولكن الفاعل اللعين يُقسم بأن اللذة التى يشعر بها ليست فى فتاة بكر، ويكرر هذا القسم ويمتدح هذا الفعل السيِّئ ، ويؤكد أنها فيها حرارة شديدة جدًا وفى كل مرة من الجماع، وكأنها بكر ينزل منها الدم وكأن هناك بكارة قد فُضَّت . ويقولون: وبعد الجماع تظل رائحة كأنها رائحة المسك الأنثوى تعطر دماغه . ولا تزول هذه الرائحة المسكية لمدة أسبوع . وبجوار الفرج، وكأنه فرج حبشى، يبدو البياض وكأنه مختتن، أو فرج خطائى منقوش . هم

يقولون ذلك، وهذا حق ؛ فقد أحضروا أُنثى تمساح إلى حاكم جرجة أوزبك بك، وكانت كما حررت سابقًا، كان لها فرج مدور مُنقَّش، وكان لهذه التمساحة - كما يقولون - ظهر مزخرف ومنقوش نقشًا بارعًا مَنْ يره يظن أنه نقش حيوان بوقلمون .

حكايات غرائب تمساح النيل

عندما كان الفقير إلى ربه يطوف ويتجول فى منطقة الشلال، وفى أثناء الكلام، فُتِح الحديث عن التماسيح . كانوا يسمون مضيفنا، وصاحب دارنا " أبو جد الله ". كان شيخًا كبيرًا ومجربًا، عَرف حلو الحياة ومرها، كان محبا صالحًا ، وقد حكى هو نفسه قائلاً : كان فى زمن الشباب لى تمساحة فى النيل، كانت أنثى، كنت أصطاد السمك فى ذلك الزمان بالشبكة وأجففه . وذات يوم وأنا أصطاد مرت هذه التمساحة وهى تتدلل ، وكانت لطيفة هادئة، وعلى الفور عندما رأيتها على هذا الحال ألقيت ببعض السمك الذى اصطدته إليها . وظلت مدة على هذا المنوال، تأتى وتذهب، وكنت دائمًا أقدم إليها السمك . وذات يوم ودون أى خوف أو تردد خرجت إلى البر وتمشَّتْ ، وبعدها رفعت ذنبها واستلقت على ظهرها، وأنا فى ذاكرتى وخاطرى ما يقوم به الأعراب من جماع التماسيح، وعلى الفور دار الأمر فى رأسى، وشمرت ملابسى ، وتم الوصال مرة ، وشعرت بلذه وسعادة ، واستشعرت الصفاء، وذهب عنى الكسل والوهن . وبعدها تناولت نبوتًا فى يدى، وجمعت الرمال حول جنبيها، وبحيث تكون الرمال حول الظهر، ووقفت أتفحصها، ثم وضعت النبوت تحت ظهرها، وقلبتها على جنبها، فذهبت وهى تتهادى، ناظرة إلىَّ، ونزلت إلى النيل، وظلت تلعب، وكأنها قد جُنَّت . وقضيت معها على هذا المنوال ثلاث سنوات ، وكانت عشيرتى التى فى منطقة الشلال جميعها تعرف الموضوع . وكانت إذا لم أصل حيث تكون وأنا أصطاد، كانت تبحث عنى، ولكننى خوفًا من التماسيح الأخرى لم أعد أذهب إلى النيل ، وكانت تمساحتى فى كل مرة تأتى إلى الشاطئ، تنثر من حولها روائح طيبة من الدهن الذى تتركه على الشاطئ، فتفوح الروائح على الشاطئ ... وكنت آخذه فيملأ " زراوية "

جَرَّة، وكنت أبيعها بعشرة قروش لمدة ثلاث سنوات متتالية . وشاءت حكمة الله أن أخرج على إحدى الجزر التى فى وسط النيل ذات يوم، وبحثت عن تمساحتى، وبعد مدة جاءت . خرجَتْ إلى الجزيرة، تجولتْ قليلاً ، وبعدها تدحرجَتْ، وفارقت الحياة ، فرأيت ذلك واسودَّت الدنيا أمام عينى . ولكن فى الحال فتحت عينى، وذهبت الغمامة عن عينى ، فماذا أرى؟ فرأس تمساحتى، وجسدها وكأنها وجه فتاة تُضاهى الشمس فى ضوئها . فذهب عقلى، ولكن أرجلها وفرجها كانت فرج وأرجل تمساحة . وقد كان من الثابت أنها ابنة شيخ كنوز العربان، وأنها بالسحر تحولت إلى تمساح ، وبأمر الله، عندما واتاها النزع أُبطل السحر، ولكنها أسلمت الروح وهى على خلقتها الأولى، وقمنا بدفنها مع سائر الخلق فى هذه الجزيرة .

هذا ما حكاه الشيخ، وقد كان بعض الناس من عشيرته موجودين، وأمَّنوا على أقواله وأكدوا حدوثه، وشهدوا على ذلك، لأن جماع التماسيح فى تلك الديار وقتها أو العراك معها قبل قَتْلها، وصنع الأبواب من جلودها، أو تسميرها على الأبواب، ليس عيبًا، بل هذا من قبيل الشجاعة والبطولة، ومَنْ لا يصارع التمساح ليس فتيا. كما أن بين أهالى تلك الديار منافسة أُخرى، ألا وهى أنهم يزوجون بناتهم بمن يقتل التمساح، أو يقتل الفيل، لأن التمساح هو تنين هذه الديار، وفى غاية الضرر، فهو يزهق أرواح الناس والحيوانات وهم يشربون من مياه النيل، أو يلتهم الصِّبية وهم يلعبون على شاطئ النهر . إنه ملعون فى غاية الضرر . ومسألة جماع التمساح تلك خرجت من هذه الديار، فخصور الناس فيها مبتلاة دائمًا بمرض " بَلْصو غقلغى" أى السيلان، ولدرك خطره يجامعون التمساحة فيتخلصون منه، والبعض لا يرتكب الجماع مع التمساحة بل يطأ جارية حبشية فيتخلص من الداء . والحبشيات يتصفن بالحرارة إلى الحد الجاذب الذى يخلص ما فى جسد الإنسان من المنى وغيره . ولا يبقى فى الجسد شىءٌ، بل تجذبه .

حكمة الله التى اختصت التمساح بخاصية

إن التمساح يقوم بلقاح أُنثاه على البر، وتبيض الأنثى، وبيضتها فى حجم بيضة النعامة ، ولكنها ليست مدوَّرة، بل صُرَاحية ومنقوشة . تدفن الأنثى بيضها فى الرمال وتعود إلى النيل وكل يوم تأتى إلى البيض وترعاه، وبعض البيض يبقى فى العراء وخارج الرمال، ومن شدة الحرارة يُسْلَق بياض البيض داخله، ويتخلَّف من صفاره بعد أربعين يومًا الصَقَنْقُورْ (= السقنقور) . ولكن البيض المدفون فى الرمال يحدث بأمر الله منه التمساح، ويحدث فى دماغ التمساع غشاء كستارة رقيقة ، ويكون مستعدا للعوم والسباحة داخل النيل ولكن بقدرة الله لا تكون هذه الستارة لدى الصَقَنْقُورْ، فيظل على البر، ولما كانت الأنثى تضع ما بين عشر بيضات واثنتى عشرة بيضة، فبعضها يكون تمساحًا، وبعضها صَقَنْقُوراً، وهذا الصَقَنْقُورْ ينزل إلى النيل ويخرج منه، ولا يتوطن أو يستقر فى المياه طويلاً، ويطلق عليه الحكماء الصَقَنْقُور السمكى، والناتج من هذا النوع من الصَقَنْقُور يسمى الصَقَنْقُور البرى وهذا لا ينزل إلى الماء طوال عمره، ولا يشرب الماء طوال حياته بأمر الله، بل هو يعيش فى الرمال والصحراء دائمًا . وقد كتب الحكماء عن فوائده الشىء الكثير، ففوائده جمَّة .

خواص الصقنْقُور (= السقنْقُور)

شاءت حكمة الخالق وصنعه أن يكون للذكر خصيتان وللانثى فرجان، ويخرج الصقنْقُور من الفرج الأيمن، وما يخرج من الفرج الأيسر يكون ضبًّا [يخلق الله ما يشاء ويختار] . ويُصاد الصَقنْقُور والضب للتقوية الجنسية، وزيادة الجماع عند الرجال . ويقومون بعد صيده بإبعاد الرأس والذنب . مثل الثعبان الأروقى السامّ، وذلك بأن يُقطع الرأس والذنب ويبقى الجسد، ويجفف فى الظل، ويُباع بالمثقال المصرى ، بمعنى أنه يباع بالوزن كالذهب . ولو خُلط مثقال من لحم الصقنْقُور بمثقالين من العنب الأسود المجفف، وصُحنت هذه الخلطة فى الهاون، ولو أُكل على معدة فارغة ففى

هـذه الليلة لو كان لهذا الرجل عشر جوارٍ فيكون معهن كالبهلوان (= البطل) يجعلهن جميعًا طوع يده، ويُسعدهن جميعًا. إنه يُقوِّى جدا، ولكن تأثيره مُهلك، وإذا ما عض الصقنْقُورْ إنسانًا، فلو نزل هذا الإنسان فى التو والحال إلى الماء، يُنقذ، ويفسد تأثير السم، ويموت الصقنْقُور، ولكن لو نزل أولاً إلى الماء، فيهلك الإنسان الذى عضَّه، ويُنقذ الصقنْقُور، لذا وجب على الملدوغ أن ينزل إلى الماء فورًا ليجد النجاة والخلاص...

طلَسمات المقياس ضد التمساح

توجد أقوال كثيرة شائعة بين الناس فى أسباب تسمية أم القياس. أحد هذه الأقوال أن هناك ملكًا كانت له ابنة تُضاهى الشمس فى الجمال تُسمى " مقياس "، وشاءت الأقدار ذات يوم، وهى تلعب على شاطئ النيل، أن يخطفها ويبتلعها أحد التماسيح وينصرف، فينغص هذا الحدث حياة الملك، وبينما الملك فى حزن وألم، شاءت قدرة الله أيضًا أن يكون فى هذه المنطقة واحد من كبار أولياء الله الصالحين، ألا وهو الشيخ أبو بكر البطرنى، فيدعو الله لخلاص الفتاة، فيشاء الله أن يترك التمساح الفتاة سالمة فى نفس المكان، فتنجو بنت الملك، فيسعد الملك بنجاتها. فيبنى قصرًا فى هذا المكان، ويطلق عليه اسم ابنته، فيصير قصر أم القياس، وهذا هو سبب التسمية، وبعدها يأمر حضرة الشيخ البطرنى بصنع تمثال أو هيكل تمساح من الرخام، ويأمر بوضع هذا التمثال تحت حوض أم القياس ويدفنونه تحته، ومنذ ذلك الوقت، وإلى الوقت الحاضر، إذا ما مر تمساح بالقرب من أم القياس هذا ينقلب على ظهره فورًا، وما إن يخرج إلى البر حتى يُصرع ويموت، ولهذا لا توجد التماسيح قط فى مدينة مصر ... والسلام.

فرس النيل

يقولون إنه فيما بعد الشلالات وفى ولاية النوبة، يوجد فى النيل فرس، يسمونه فرس النيل، هو حيوان فريد، ويُقال إنه فرس نادر جدا، ولكن عُرْفَهُ وذيله طويلان جدا . يُرى كثيراً على البر، وما إن يرى أن هناك ما يهدده حتى يهرب إلى النيل ، ولكنه يتعيَّش من البرِّيَّة ، فإنه يأكل بقدر ما تأكل عشرة خيول ، ويُخرِّب الحقول والغيطان . وأحيانًا يُعاشر بعض الفرسات، فَتَلد مُهْرًا، يعيش فى البرية، ويكون لطيفًا وظريفًا جدا، وهيئته تجمع كل الحسنات، ولا يتحمل الجفاء كسائر الخيول، ولكنه يُركب، وقد كان لدى حاكم قوص على الكاشف مهر هو ابن فرس النيل، كان عمره سنتين، وخلال هذه الفترة، وذات يوم وهم يلعبون الجريد مع سائر الأغوات على مصطبة على ساحل النيل، وبينما هم جميعًا فى ذوق وصفاء ، ظهر على ساحل النيل فرس من فرسان النيل، فتوجهت كل جيادنا إلى تلك الناحية ، واشرأبت كل آذانها ، وعلى الفور، وفى الساعة نفسها حدث وكأن رعداً على الساحل، وما إن سمعته الخيول، وسمعه المهر ابن فرس النهر حتى وقف على رجليه، وهرب من يد السائس بلجامه وسرجه، وما إن وصل هو أيضًا إلى شاطئ النيل، وخصوصًا أن كل الفرسان الذين كانوا يلعبون الجريد قد هبُّوا وراءه ، وما إن كانوا على وشك الإمساك به حتى ألقى المُهْر بنفسه فى النيل، وغاب بين موجات مياه النهر. ولكنه بعد مدة عاد، وخرج إلى البر، وكانت الدماء تسيل من أنفه، وقد خرج على الشاطئ المواجه من النيل. وعلى الفور خرجت من خلفه دابة الماء التى تُشبه تمامًا دابة الأرض، وأخذت تُطارد المهر وتعضه حتى عاد المُهْر مرة أخرى إلى النيل ، وغابا معًا فى ماء النيل . ومنذ تلك المرة، وهو يخرج من حين إلى آخر إلى البر، ويلعب ويمرح، وأحيانًا أخرى يلعب على سطح الماء ، ثم يغطس ويتجه مع التيار، وعلى الفور خلع بضعة فدائيين من الخدَّام ملابسهم، وألقوا بأنفسهم إلى النيل خلفه، ولحقوا بالمهر ، وأخرجوه إلى الضفة التى نحن بها . وما إن خرج إلى البر حتى انتفض عدة مرات، وعلى الفور خرج خلفه

فرس نهر، فأطلقوا عليه وابلاً من الطلقات، ولم تُصبه إحداها وهو على البر، فعاد إلى النيل مرة أخرى، واختفى . إلا أنه فى اليوم الثالث خرجت جثته إلى شاطئ النيل عند مدينة قنا، ورأوها على حافة النهر. ولم أكن أنا الفقير قد رأيت فُرْجَة كهذه طوال حياتى، وفى هذه الديار يكثر فرس النهر ...

أوصاف متممة لفرس النهر

ولما كان فرس النهر جوادًا شجاعًا، فإنه يتحارب بشدة داخل مياه النيل مع التمساح، وتكون معركة حامية الوطيس ، وينتصر فيها على التمساح، ولا يمكن للتمساح أن يعيش أو يتوطن فى الأماكن التى بها فرس النهر. حقا إنها مشابهة لجياد البر، ولكن ذيولها غاية فى الرقة . وكثير من الأغوات يحبون أن تكون أعراف خيولهم كأعراف الجياد النهرية. وذيله طويل ورفيع كذيل الثور، ولما كانت أقدامه الأمامية ذات أظلاف فإن أكل لحمه حلال . والشعر الذى يعلو جسده مختلف الأنواع، ولكن بأمر الله فإن فكه الأعلى هو المتحرك . يصهل كصهيل الخيل الكحيلانية، يصنعون الدروع من جلوده فى بلاد النوبة ومدينة دنقلة ، ولا يمكن أن تمر فيه السيوف أو الرماح أو المزارق أو الحراب، ولكن يَخترقه الرصاص . ويُصنع من إحليله الكرباج، وفى مصر يستخدم الجلادون الكرابيج المصنوعة من آلات ذكور الجياد ويضربون الناس بها ... نعوذ بالله ...

وشاءت قدرة الله أن يكون فى ماء النيل نوع آخر من السمك، يسمونه السمك الرعَّاد (= الرعاش)؛ ومن يصطده ويود أن يأكله تتجمد يده وتُشل، وإذا ما تركه من يده تعود اليد إلى حالتها الطبيعية . ولهذا فإن جميع الصيادين إذا ما رأوه فى شباكهم يطلقون سراحه، ويلقون به إلى الماء مرة أخرى. ويزن نحو أوقيتين، ولونه أصفر يعرفه الصياد . ولكن إذا ما وُجِد ميتًا على الشاطئ ، فإنهم يأخذونه لخواصِّه الخاصة به . فلو أحضروا رأسه إلى المصاب بالصفرة أو المصاب بالألم وشمَّها أو استنشقها

رويداً رويداً، فإنه بأمر الله يتخلص من دائه . وهذا الأمر مشهور بين الناس بالتواتر، ومن الأمور المتوارثة أيضًا أنهم لو ملّحوا هذ الرأس، وقدّموا نصفه إلى الزوج، والنصف الآخر إلى الزوجة مع المسك ، فإنهما لا ينفصلان أبداً . وهذا الأمر مجرّب جدا، ولكنه لا يؤكل، فقد يكون فيه هلاك المرء . وتزن السمكة من هذا النوع أوقيتين، والرأس مدوّر سميك سمين، وطرى مثل الجبن . ولو تم اصطياد إحداها وماتت، يموت رفيقها، والعكس بالعكس، إنها حكمة من حكم الله العجيبة ...

وهناك خاصية أخرى لهذا النوع من السمك ، فلو عُلّقت واحدة منها ميتة فى عنق المصاب بالحُمّى، فإنه يشفى من مرضه بأمر الله تعالى .

وخاصية أخرى لهذا النوع من السمك، فلو أن رجلاً مصاباً بالصداع ووضعوا سمكة حيّة فوق رأس هذا المصاب، فإنه يشفى بأمر الله تعالى .

خاصية ثالثة، فلو أحضروا قطعة من لحم هذا السمك إلى الرجل [أو المرأة] (= الزوج أو الزوجة)، ووضعوها بجانبه أو بجانبها فإنهما يتحابان، ويظلان على حبهما هكذا حتى الموت، ولا ينفصلان أبداً . وبسبب تأثير هذا السمك، نجد آلاف الرجال فى ولاية الصعيد العالى ظلوا مرتبطين بامرأة واحدة، وظلوا مع زوجاتهم هكذا إلى النهاية .

ومن خواص التمساح ، لو أن رجلاً مصروعًا (أى أنه مصاب بالصرع) " اللهم عافنا " ويخروا هذا الرجل بالبخار (= الدخان) المتصاعد من كبد التمساح المشوية على النيران، بمعنى أنه لو شم المصروع دخان كبد التمساح المشوية، فإن هذا الرجل يُشفى بأمر الله.

وخاصية رابعة ، كما سبقت الإشارة فإن التمساح ليس له دبر، ولذلك فإن فضلاته وقاذوراته تخرج من فمه ، فلو قطّروا بمسمار، أو حرقوا بعض هذه القاذورات، وأدخلوا الدخان فى العين المريضة، فإنها تشفى بأمر الله . ولقد ابتُلى

بالمرض ابن رئيس البلوك فى مصر، وبخاصةً مرض الجذام، وتورم وجهه وتورمت عيناه، وقالوا لو أنه أُخرجت عين التمساح وهو حى وعُلقت فى عنق المصاب بالجذام فإنه يشفى بأمر الله ، أو لو أنه أكل بضع أوقيات من لحم التمساح. وقد فعلوا ذلك، وأكل الابن بضع أوقيات من لحم التمساح وعلقوا فى عنقه العين المستخرجة، والتى أحضروها خصيصًا لهذا الغرض . فَقُشر جسد الابن وتحولَّ إلى اللون الأبيض، وقد رأيته أنا الفقير بنفسى ، فسألت أنا العبد الفقير الغلام بنفسى ، فقال : والله إن لحم التمساح رائحته كرائحة المسك .

ولكن من العجائب المضحكة أيضًا أن هناك حيوانًا آخر يعيش فى النيل يسمونه كلب النيل، وهو كالضبع تقريبًا، يعنى ضبعًا ذئبيًا ، أى أنه حيوان بحرى وبرى، يعيش فى البر والنهر ويأكل منهما، وخصم لدود للتمساح ، يصطاد صغار التمساح، ويلتهمها، وما لم يأكل هؤلاء الصغار، فلو أمكن المرور أو العبور فى النيل من التمساح ، فهو (أى هذا الكلب النهرى) لو دخل مرة أخرى تحت إبط التمساح الضخم فلا يمكن أن يتخلص منه التمساح ، فلا بد وأن يقتله، ويأكل كبد التمساح . إنه مضحك الشكل، له حيل وألاعيب كثيرة، قوائمة الأمامية والخلفية قصيرة، فلو جاع فإنه يختلق الحيل والألاعيب التى يأكل بها التمساح ، وبحيث يضطر المرء إلى الحيرة والإعجاب بهذه الحيل . فمثلاً فى المناطق التى يمكن أن يكون بها تمساح يخرج هذا الكلب النهرى إلى البر، ويتمرغ فى الوحل، ويرقد على حافة النيل فى الشمس . فيراه التمساح الغبى فيظنه صيداً، فيخرج بذنبه، ويبتلعه . وعلى الفور يتجه الكلب نحو كبد التمساح مباشرة ، ويشق بطن التمساح ويخرج منه ، ولا يكون هناك مفر من موت هذا التمساح الذى تدفعه حلاوة الروح إلى الخروج إلى البر . ولذلك فإن الفلاحين الذين يقطنون على سواحل النيل يكونون فى مأمن من شر التمساح، حتى ولو بعُضْوٍ واحد من أعضاء هذا الكلب المائى الذى يحضرونه عندهم، ولكن الغريب أنه لو اصطاد أحد من الشعب هذا الكلب النهرى، فإنهم يعيدونه ثانيًا إلى النهر، ويطلقون سراحه ، وذلك لأن خصيتيه مفيدتان لآلام المرض، وفى غاية النفع للحمى المحرقة، ومع ذلك فإن الكلب النهرى يستطيع أن يعيش دون خصيتيه، أى يمكنه أن

يعيش وهو خصىٌ . ولو تصادف وخرج من شباك الصيد مرة أخرى فعلى الفور ينام كلب النهر على ظهره، ويرفع ساقيه، وكأنه يُظْهر نفسه للصيادين، ويريهم أنه خصى، فيعرف الصيادون أنه دون خصيات، وأنه قد وقع فى الشباك سابقًا، فيعيده الصيادون إلى المياه وسط الضحكات من فعلته هذه، ويعرفون أنه مدرك لما يحدث له. إنه كلب ظريف، ومضحك ...

* * *

لو قمنا بتحرير كل المخلوقات التى رأيناها فى هذا النيل، ووصفناها كما رأيناها لأصبح لها مدوَّن خاص بها، وذلك لأن النيل المبارك نهر عظيم كالبحر المتلاطم، والبلاد التى تتلو جنوب بلاد أسوان يسمونها البلاد العليا، وهى ممالك شاسعة، ولكنها غير معمورة . وشرق هذه البلاد، وعلى ساحل ناحية يسمونها أبواب، وعند هذه الناحية يكون النيل سبعة أفرع ، وتجرى إلى ممالك عدة فى الجانب الغربى وترويها ، وبعدها تعود إلى النيل الأصلى ويختلط بعضها ببعض . ولكن كل واحد من هذه الفروع يأتى على لون مغاير، ثم تختلط .وحتى سنة ١٠٨٢ هـ = ١٦٧١ م وفى عصر أبى الخير إبراهيم باشا، كان النيل يظل يجرى لمدة شهرين ومياهه خضراء تمامًا ، وأصحاب الطباع والطبيعة يخافون أن يشربوا منه خلال هذه المدة، بل يحضرون مياههم من المطرية وغيرها من المناطق ذات المياه العذبة اللذيذة ، حيث السواقى والأسبلة العذبة التى يشربون منها . والبعض يبحث عن المياه الأنقى فيتجهون إلى عند قليوب بعد ثمانى ساعات، حيث بئر الوزير هامان وزير فرعون، وتُسمى بئر هامان . هى بئر عظيمة، وما زالت الدواليب والسواقى تدور وتمتلئ من اثنى عشر موضعًا منها. مياهها رائقة عذبة ، وخدَّام بعض ذوى اليسار والغنى يقومون بإحضار المياه من بئر هامان ويشربون منها ولا يشربون من مياه النيل الخضراء تلك ... والسلام.

وهنا ننهى الحديث عن النيل المبارك وقِطْعه ووفائه وأوصافه وخواصه وأسطوله، وبيان الحشرات التى تعيش فيه، وخواص الحيوانات التى تجرى فى مياهه، وأتممنا هنا موكبه ، ولسوف نبيِّن المواكب الأخرى .

الفصل الثامن والأربعون

أوصاف الموكب العظيم الثالث والاحتفال بليلة رؤية هلال شهر رمضان المبارك، يعنى موكب ليلة المحتسب

كان فى مدينة مصر العظيمة (= القاهرة) اثنا عشر احتفالاً ، وموكب ليلة المحتسب[1] هذا موكب عظيم ، هو موكب العارفين العاشقين والعلماء ، وهم فى مدينة مصر يطلقون عليه موكب النسوان (= النساء)، لأن السيطرة على النساء فى هذه الليلة أمر صعب ، فلا بد وأن يذهبن للفرجة على هذا الموكب . ولأن الذهاب إلى هذه الليلة شرط من شروط عقد النكاح، فالقانون المصرى هكذا . وقبل الموعد بأسبوع يستأجرن الدكاكين فى الأسواق الرئيسية ويدفعن من قرش إلى خمسة عشر قرشًا إيجاراً ، أو يذهبن إلى معارفهن الذين يسكنون فى هذه المناطق . وخلاصة الكلام أن بعض الرجال لا يمكن أن يسأل أهل بيته قائلاً : أين كنتِ ؟ إنها فرحة عجيبة، فجميع أهل مصر تشملهم الفرحة الغامرة بمقدم ليلة رمضان الشريفة ويقيمون لها فاصلاً جميلاً من الترحاب والاستعداد .

---

(١) **ليلة المحتسب** : هى ليلة رؤية شهر رمضان ، وكان يُقام فيها احتفالات عظيمة يُشارك فيها كل أرباب المهن، وتحدث عنها أولياچلبى بإسهاب فى حينه . (انظر : ليلة المحتسب فى رحلة أولياچلبى إلى مصر القاهرة أم الدنيا).

والمحتسب هو المصطلح الذى يدل على الموظف المكلف بمراقبة أرباب الصناعة والمهن ، والذى يقوم بمعاينة المقاييس والأوزان المختلفة، ويقوم أيضًا بمعاقبة من يتحايل فى البيع والشراء، أو الذى لا يستخدم الموازين السليمة. وقد جاء هذا اللقب من لفظة الحِسْبة، وهو من يقوم ونهى بإذكار أى شخص ونهيه عن فعل القبيح. ووظيفة المحتسب وظيفة قديمة جدا، بدأت فى أوائل عصر الإسلام، وتولاها لسيدنا عمر بن الخطاب سعيد بن العاص فى مكة . (پاقالين، جـ٢، صـ ٥٧٢).

وفى ليلة الرؤية هذه تظل الأسواق والمتاجر والمحالُ مفتوحة حتى الصباح . وتوقد آلاف الآلاف من القناديل ، وتزدان مدينة مصر، وتُصبح فى أبهى صورها، وكل إنسان يعرض متاعه أمام دكانه وهى فى أبهى صور العرض، فالجميع ينتظر بأهله وعياله، ويعشق موكب المحتسب .

وكانت بداية الاحتفال بليلة الرؤية هكذا، منذ عصر اليوم الذى يُظن أنه الأول من رمضان يجتمع الجميع ، العلماء والأعيان والأمراء والقواد وأرباب الديوان، ويبقون فى الديوان العظيم. إن الأمر فى النهاية هو حساب المحتسب ، ففى يوم الشك، أى فى اليوم التاسع والعشرين من شهر شعبان المعظم، يكون يوم الكر والفر بالنسبة للمحتسب ، فهو يرسل من يخبر مولانا مصر بيوم الشك، وينبهه إلى الأمر . كما أن المحتسب نفسه يتلقى الخبر اليقين من قاضى العسكر ، حتى يُرسل بالبشارة إلى السلطان (= الحاكم) فمنذ القدم هناك تعظيم وتوقير لمقدم شهر رمضان المبارك فى الشعائر الإسلامية . ويقتضى الأمر أن يأتى كل عباد الله المسلمين إلى باب الشريعة بالمواكب، وذلك لاستطلاع الخبر . وبقيت المواكب على نفس المراسم التى انتقلت منذ ذلك الحين، ومن يسعده الحظ بمشاهدة هذا الموكب فإن اللسان لن يطاوعه فى التعبير أو توصيف أو تحرير ما رأته العين، ولن ينساق القلم وراء اللسان . وفى داخل مدينة مصر، فإن الحاكم المسيطر فى هذه الليلة ونهار هذه الليلة وغيرها هو البك المحتسب ، فى يده أمر مطلق سائر المفعول فى شتى المجالات إلاَّ القتل فقط، فهو المسيطر على كل الحرفيين وأصحاب المهن، وهو القادر على الحبس والتجريم ، وأضحى ذلك عزماً، وسياسة سائرة .

تكون ليلة الرؤية، بمعنى رؤية الهلال أو عدم رؤيته، فى ليلة يوم الشك هذا يقوم الأغا المحتسب والأغا الصوباشى (= مدير الأمن والبلدية) (٢)، كلٌ مع خمسمائة من

---

(٢) **الصوباشية** : أمين البلدية (= مدير الأمن) اصطلاح إدارى عثمانى كان يُطلق على كبار موظفى الإدارة فى المراكز والقصبات فى العهد العثمانى ، وكانت أعمالهم تشبه أعمال الضبطية الإدارية فى عصرنا الحالى . وكان عثمان خان – مؤسس الدولة العثمانية – هو أول من أسند هذا المنصب إلى أخيه ، كما أسند أعمال الحكومة إلى ابنه أورخان بك ، وذلك بعد فتح قره حصار (عاشق پاشازاده تاريخى، ص ٢٠) ، كما قام السلطان محمد الفاتح بتعيين " سليمان بك " صوباشية بك على إستانبول بعد فتحها ، وفوضه فى أمر تعميرها وإعمارها . (تاج التواريخ، جـ١ ، ص ٤٤٧) .

رجاله فى شكل محتشم، ومنمق جدا، ومعهم رئيس السُّيَّاس وهم يعزفون معازفهم، يمرون حتى يدخلوا من باب العزب فى موكب عظيم . وبعد العصر يصعد إلى الباشا، ويصل إليه فى ديوان الغورى، وعند اللقاء يقبِّل الأعتاب، ثم يقف على قدم ثابتة، فيصدر إليه الپاشا الأمر على الفور، ويُلْبِسه معطفًا سمُّوريا خلعة، ويُمنطقه حزامًا مشغولاً ومطرزًا بالذهب والفضة . وتكون هذه خلعة الباشا للمحتسب، ثم يضع الپاشا بيديه سلطانيتين مزدانتين بالجواهر، وينبه عليه قائلاً : بلغ عنا أرباب شرع الرسول المبين، ومشايخ المذاهب الأربعة الكرام، والقاضى عسكر، السلامَ، وأخبرهم بتمنياتى لهم بالصحة فى شهر رمضان الشريف، وأخبرهم كذلك إن كان غداً رمضان الكريم من عدمه، ويُعتبر هذا تكليفًا بذلك . ومهما يكن الأمر، يُقبِّل المحتسب الأرض بين يدى الباشا، ويتقدم كتخدا الپاشا قائلاً :

يا سلطانى، إن عبدكم المحتسب، بعد أن ارتدى خلعته هذه الفاخرة، ووضع على رأسه العمامة السليمية السلطانية وعليها الشارات السلطانية المزدانة بالجواهر، فكما ترون هو فخور بها، وما الإحسان إلا بالتمام، وبناءً على هذا، ووفقًا لمجريات القانون القديم، فإنه قد جاء يعرض على بساط سلطانى ، أنه، وجميع رجاله من باسطى الآلاى والمطرجية والتفنكجية والشطار والاحتياط، وجميع أفراد المهترخانة وجملة عبيدكم من الأغوات، أنهم جميعًا مستعدون للركوب، وهم يرجون السماح لهم بتسيير الموكب .

ويقوم الكتخدا هو الآخر بتقبيل الأرض بين يدى الپاشا مقدمًا الرجاء السالف، فيقْبل الباشا بدوره الرجاء ، ويصدر أوامره بأن يكون الهدوء والسكينة من ألزم لوازم الأمور وأوجب الواجبات الواجب تداركها، ويقوم المحتسب بتقبيل الأرض بين يديه مرة أخرى، ويخرج هو والكتخدا . ويقوم المحتسب وكتخدا الپاشا بتفقد كتخدا حرس الأبواب (= قپوجيلر) وجملة الأغوات، ويترأس الجميع ، ويُلبسونهم خلع الپاشا الفاخرة، فيقبِّلون الأرض شاكرين، وينصرفون .

وعقب ذلك يقوم المحتسب بدوره بإلباس خلع متوسطة لقُوَّاد ورؤساء الجند المكلفين بالعمل فى الموكب من البلوكات السبعة، ويبصِّرونهم بأقوال الباشا، وينبهون عليهم بحسن معاملة توابعهم حين الضبط والربط ، ويؤكدون على ذلك، ثم يقومون هم بدورهم بتقبيل الأرض قائلين : " الأمر أمركم " ويتجهون إلى الخارج .

بعدهم يأتى الصوباشى، ويقبل الأرض هو والدويدار، ويرتدى كل منهما خلعة فاخرة . وينبه عليهما أيضًا الباشا التنبيهات المغلظة، ثم يخرجان وبعدها يكون جميع عساكر الباشا مستعدين، وعلى أهبة التحرك فى ساحة السراى ... وفى المقدمة يقوم الصوباشى بتطهير الطريق (= تأمين الطريق) بجلاديه . ويمر بالموكب من أمام الباشا، ثم يتلوهم موكب التاتار [٢] سعاة البريد أى النجاب، وموكب الفتية وموكب

---

(٢) تاتار (= طاطار Tatar): مصطلح إدارى يُطلق على حاملى رسائل البريد قبل تأسيس إدارة البريد والبرق فى الدولة العثمانية ، وكان يطلق عليه " أولاق " حامل الرسائل وموصلها أيضًا . هذا يختلف عن " ساعى " البريد ، فالساعى هو الذى يقوم بتوصيل الرسائل والمكاتبات الخاصة ، ثم حل مصطلح التاتار على كل من يقوم بأعمال البريد . وتطلق .عليه بعض المعاجم العثمانية " ساعى سريع الحركة ينقل الرسائل ". وقد قُسمت الطرق إلى مسافات ومراحل، كانت فى كل مرحلة توجد " منزلخانة " يترك فيها التاتار حيوانه سواء أكان خيلاً أم بغلاً . وكان فى كل دائرة أو نظارة أو وزارة عدد من التاتار ، وقد وصل فى بعضها من ٥٠ إلى ٦٠ تاتاريًا .

وكان التاتار يتحرك من العاصمة إستانبول بالفرمان الذى يصدر له من الباب العالى إلى حيث توجه الرسالة ، فمن إستانبول إلى بلغراد ومن إسكدار حتى بغداد . وكانت الأهالى تجتمع فى المحاكم الشرعية فى المدن التى يصل إليها التاتار لقراءة وسماع الفرمان، أو الأوامر والتعليمات التى أحضرها . كما كان الولاة يرسلون معهم تقاريرهم، وكذا الأموال التى يبعثون بها من الولاية إلى العاصمة أو بالعكس .

كانت أوامرهم مطاعة فى كل المنازل التى ينزلونها ، ولا مرد أو مخالفة لما يقولونه ، وكانت تنفق من سرعتهم بضع حيوانات ، كما كانت القطعان تُجر تحت سياطهم . ولا مانع من شنق القيِّم على محطة البريد إذا ما تأخر عن إعداد الدواب اللازمة .

كانت لهم ملابسهم وقيافاتهم الخاصة بهم ، التى يتميزون بها ، وكانت أغطية الرأس الـ" قلباق " الخاصَّة بهم ممنوعة على أى طائفة أخرى أن تلبسها . وكان رئيسهم فى أى دائرة حكومية يُطلق عليه " أغا التاتار". وهو المسئول المباشر عن كل ما يتعلق بالبريد .

المتطوعة وموكب الجشنيگيران (= المتذوقة) وموكب الكيلارجيان (= أمناء العنابر) وموكب مهتران الخيمة وموكب علمان الخاصة السراًجين وموكب المتفرِّقگان وموكب بأوليا وموكب رؤساء الحراس (= قگوجى باشيلر)، واحتياطيُّو الپاشا من ذوى الأسرجة المزدانة بالجواهر، والشطار المستغرقون فى طاساتهم الذهبية، طابقًا فوق طابق، وفى أيديهم سيوفهم المسلَّمِيَّة، ويكون أغا المحتسب مع كتخدا البوابين ورئيس السُّيَّاس . وكما هو الحال فى موكب وزير مصر فإن فرقة الپاشا الموسيقية المكوَّنة من تسعة أطقم تعزف على معازفها وتسير مارة من أمام الباشا، وينزلون من القلعة . ولكن فى هذا الموكب لا يوجد البيرق النبوى الشريف، ولا بيارق أو أعلام أو أطوا غ أخرى وينزلون على هذا المنوال من باب الوزير إلى أسفل، وينضم إليهم مائتا جندى من كل بلوك من البلوكات السبعة ، ولا يزيد العدد عن هذا، لأن هؤلاء من طائفة الجند، ولا بد أن يأخذوا الإحسانات والعطايا بعد الموكب . ولو جاء جند كثير فليس فى مقدور المحتسب أن يقدم لهم جميعًا الهبات والعطايا، فقط يُكلِّف ألفًا وأربعمائة جندى من البلوكات السبعة، ويكونون مدججين بأسلحتهم وبملابسهم الفاخرة ، ويكون فى مقدمة جند الباشا الصوباشى، وفى الصف الخلفى اثنان من اليوزباشية ومن خلفهم جاويشية الجند وهم ممسكون بالعصى الخاصة بهم (= الطوپوز) ومن خلفهم يسير مائتان من المتطوعة = الگوكليان [٤]، ومن خلفهم موكب حاملى البنادق، ثم من خلفهم موكب الچراكسة، ثم موكب المتفرقة، ومن بعدهم موكب العزبان، ثم موكب الإنكشاريين، ويتقدمهم ضباطهم وملازموهم وهم يرتدون ملابسهم المزخرفة والمطرزة بالقصب والقشيب .

---

(٤) **الگوكليان** : قوات من المتطوعين الذين ينضمون إلى الجيش خلال الحروب، ولم يكن أى منهم ينتسب إلى الإنكشارية أو إلى القوات النظامية فيما بعد، وكان رئيسهم يُطلق عليه " كوتللو أغاسى " أى الأغا أو الضابط المتطوع . وكان يحق لأبنائهم الانضمام إلى الإنكشارية ، وهؤلاء هم الذين كانوا يُقيَّدون فى دفاتر الإنكشارية، ولهم علوفة .

وأحيانًا يأتي بعد الشطار ومشاة المحتسب موكب الخيَّالة السباهية، ومعهم سُيَّاسهم من الجند، وعلى التوالي. فعند صلاة المغرب تكون جميع المواكب أمام جامع محمود باشا في ميدان الروميلي، وقد وقفوا هنالك، وتكون المَهْتَرْخَانَة (= الفرقة الموسيقية)(٥) أيضًا في حالة سكون وصمت، ويقوم البك المحتسب، وغيره من الأعيان بأداء صلاة المغرب في جامع المحمودية، ويؤدونها متأخرة بعض الشيء، حتى يحل ظلام الليل، وهنا يكون تمام مواكب أهل الحرف الذين هم تحت سيطرة وإشراف البك المحتسب .

---

(٧) المهترخانة Mehterhane : مصطلح موسيقي يُطلق على الفرقة الموسيقية التي كانت تعزف في العصر العثماني، وكان يُطلق على الفرقة الخاصة بالسلطان " مهترخانة خاقاني " أو " مهترخانة همايون ". والمهتران : مفردها مهتر ، الـ" مهتر " اصطلاح موسيقي يعني الموسيقار الذي يقوم بعزف النوبة أمام باب أحد رجالات الدولة العظام أو القواد الكبار . وتجمع على مهتران أي مجموعة الموسيقيين الذين يعزفون السلام الوطني أو السلطاني أو النوبات المختلفة في الجيش ، وكانوا يقومون بالعزف على الطبل والزمر ، ويطوفون الأحياء تبشيراً بسير المحمل إلى الحجاز ، ويجمعون الهبات والتبرعات لهذا الغرض .

ومنهم " مهتران علم " أي الفرقة الموسيقية المنوط بها عزف سلام العلم أو السلام الوطني في وقت الحرب ، و " مهتران طبل وعلم " وهي الفرقة الموسيقية المكلفة بعزف الموسيقى في القصر السلطاني وفي حضرة السلطان ، وقائدها يُسمى " مهترباشي " . أما الفرقة الخاصة بالسلطان فكانت تسمى و" مهترخانة خاقاني " أو " مهترخانة همايون " . يقول هامر (جـ ١ ١ ص ٣١٣): إنها فرقة الشرف التي تعزف أمام الوزراء والقواد وقت الحرب ، وتذكرهم طبولها بأوقات الصلاة أيضًا عند الجهاد . ويبين أدوات المهترخانة كالتالي : ١٦ زورنا ، و١٦ طبلاً ، و١١ مزماراً ، و٨ نقارات، و٧ أجراس (= صاجات)، و ٤ أوستانات . وكان عددهم ٧٢ فرداً، أما إذا اشترك السلطان بنفسه في الحرب فيتضاعف هذا العدد . وقد ألغي نظام المهترخانة مع إلغاء معسكرات الإنكشارية سنة ١٢٤١ هـ = ١٨٢٦ م، واستبدل به نظام موسيقات الباندو .

الفصل التاسع والأربعون

بيـــــان ما فى مصر أم الدنيـــا من أهل أصناف الحِرَف (= المهن) ودكاكينهم وكم عدد أفرادهم

موكب الصوباشى

جملة أرباب السوق الذين سيتم ذكرهم هنا هم جميعًا تحت إشراف وحكم المحتسب، وهم يقومون بإعداد موكب عظيم، تعظيمًا واستعدادًا . وهم يتجمعون فى موكب وكأنهم سور ، أى عرض سلطانى . وفى جامع المَحْمُودِيَّة يُقدِّم المحتسب الحمد والثناء، وعندما يمتطى صهوة جواده للذهاب أو الانصراف تُطلق مجموعة من طلقات البنادق تعبيرًا عن السعادة ، وتُعزف نوبة من الإنشاد المُحَمَّدِى، بحيث يتردد صدى: الله ... الله ... فى كل الأرجاء داخل مدينة مصر، فيعقبها العرض، ويكون فى المقدمة موكب الصُّوبَاشِى المكوَّن من سبعمائة وخمسين من القَوَّاسين حملة النبابيت، ومعهم ألف من الخيَّالة الأعراب وثلاثمائة من حَمَلَة المشاعل، كما أن جميع مُطْرِبى ومُطَبِّلِى مصر تحت سيطرته وإشرافه، ولهذا فإنهم يعبرون ويمرون بمئات من العازفين والراقصين وضاربى الدفوف والصَّاجات، والكل يحمل المعازف ويتغنى بأجمل الكلمات ، ويكون البعض دجالاً ، والبعض يُطلق صيحاتة: "الحى هو الله ... هو ... هو..." فتهتز الأرجاء وكأنها ساعة القيامة، ويقوم جلادو الصوباشى أفواجًا أفواجًا بالنداء فى جميع الأطراف، وأحيانًا يرددون عبارة « هذا وكيل السلطان والى الولاية ، حفظك الله ، الله ينصر السلطان » يرددون هذا وسط بحر متلاطم من البشر الذين خرجوا للفُرْجَة ، ويردد الناس : "العون لآل عثمان "، ويمر الصوباشى أيضًا وهو فى أبهى

صورة وطنطنة عالية ، وعلى جانبيه آلاف الآلاف من القناديل، ويقومون بإشارات عديدة بالقناديل والمشاعل المشتعلة بجواره، فيتحول المكان إلى نهار مضيء، وغلمانه الذين يبلغ عددهم ما بين أربعين وخمسين متدثرون في ثيابهم وقلانسهم المزركشة ، ثم تَعزف المَهْتَرْخَانَة بالتوالي أربعة أدوار من الموسيقى ، يقدمون هذا وهم يمرون وسط المحتشدين .

ولكن لا يمكن أن ينضم إلى هذا الموكب في ليلة المحتسب هذه أيٌّ من الأعيان أو الأشراف أو العلماء أو الصلحاء أو المشايخ أو السادات أو الأئمة أو الخطباء أو الملالي أو القضاة ، بل الجميع ممن يعملون في السوق السلطانية . وهذه الطوائف المذكورة لا تمر في المواكب، بل تتفرج عليه في السوق السلطانية، فهم ليسوا مكلفين بالركوب في الموكب .

وتظل هذه الليلةَ أحياءُ مدينة مصر مضاءة بالمصابيح والفوانيس حتى الصباح، وتصير وكأنها ليلة القدر. وحسب القواعد السلطانية، يتجمع النسوة والأطفال في كثير من الأماكن، وفيما بينهم الكثير من الظرفاء والجميلات، لدرجة أنهم يطلقون على موكب المحتسب هذا "موكب الجميلات" ، لأنه في هذه الليلة، مهما يكن عدد الجميلات والحسناوات داخل مدينة مصر هذه، فإنهن يستأذنَّ من أمهاتهن وآبائهن ومواليهن، ويكُنَّ في أبهى صورة وأحلى طلعة، ويمتطين صهوة جياد مطهَّمة، ومزدانة، ويكون الممسك بلجام الخيل، أو السائر بجوار السرج ، ابن المهني أو الحرفي ، من الأقارب أو غير الأقارب . وتكون الحسناوات كلهن مرتديات معاطف السَّمُّور ، ولا بد أن يكون ابن الحرفي بدوره مرتديًا لهذا المعطف السموري، وغير ذلك من الملابس المزركشة، وعلى رءوسهم عماماتهم ذات "الشراشيب" المزخرفة، ويسيرون في الموكب وهم يعزفون على المعازف التقليدية . ويطلق بعض العارفين على هذا الموكب "موكب القَشْمَرَان " وبعضهم يطلق عليه" موكب أصحاب الضحاك " . وفي حقيقة الحال، فمهما يوجد في مدينة مصر من أصحاب المساخر والمضحكات فإنهم يخرجون في هذا الموكب ويقدمون في الأسواق شتى أنواع الشقاوات والمضحكات .

وبعد موكب الصوباشى هذا يأتى :

موكب أصناف الفلاحين، يعنى المزارعين

وهم يأتون أولاً لأن حرفة الزراعة أقدم الحرف ، وهى عمل الملايين الذين لا حصر لهم ولا عد لهم منذ حضرة سيدنا آدم ، شيخهم ومرشدهم سيدنا آدم . ثم يتبعهم الكيَّالون، وهم يحملون ألف نوع ونوع من الغرابيل المختلفة، يسيرون وهم يغربلون القمح والشعير والعدس والأرز والفول والحمص وحبات الخشخاش وجميع هذه الحبوب داخل الغرابيل . يكتبون بالحبوب "لا إله إلا الله"، وبسم الله"، و"يا الله "، و"يا شافى "، و"يا كافى"، وغير ذلك من الأسماء ، يكتبونها وهم يهزون غرابيلهم . هؤلاء ليس لهم دكاكين ، ولكنهم جملة ألف نفر ، خمسمائة منهم يغربلون الحبوب والغلال فى صوامع يوسف، وخمسمائة آخرون يعملون فى خدمة أعيان مصر.

وبعد المغربلين يأتى المُنَخِّلون ويمرون بشتى أنواع مناخلهم ، وهم يصنعون الغرابيل والمناخل، وجملة دكاكينهم مائة وسبعون دكانًا ، وعدد أنفارهم ثلاثمائة نفر .

ومن بعدهم يأتى :

موكب أصناف الباْغبَانيَّة

أى البستانية ، ففى داخل مدينة مصر ألفان وستون بستانًا وحديقة وغيطًا . شيخهم هو سيدنا إسماعيل، وجملتهم تسعة آلاف وثلاثمائة بستانىٍ، وجميع الفلاحين والكيالين والمغربلين والبُستانيين، يحملون البلط والفئوس والمناجل والمعاول والمزرات والكواريك، وفى معاصمهم مكتوب: "يا خالق" ، و"يا رازق"، و "يا منعم"، ويا مُغنى"، و" يا غنى"، وغيرها من أسماء الله الحسنى التى تتردد على ألسنتهم . ويسيرون وهم ينثرون أنواعًا مختلفة من الأزهار الجميلة مثل الريحان والسنبل

والمرسين والحناء، وينثرون على رءوسهم ماء الورد ويزيِّنونها بالورود والأكاليل، ويكون فى أيدى البعض منهم الليمون واللارنج وأغصان الحامض، ويكون على رءوسهم أيضًا كيَّال باشى (= الپاشكيال = رئيس الكيالين) والپاشبُسْتانى (= رئيس البستانجية) ويمرون وهم يعزفون معزوفاتهم أيضًا على معازفهم .

موكب أصناف السقائين

ليس لهم دكاكين، وجملة أعدادهم ثلاثة آلاف نفر من الحمَّالين . أصناف السقائين بالحمير ليس لهم أيضًا دكاكين، ومجمل السقائين ثمانية آلاف بالكمال والتمام، بحيث لا يستطيع المرء المرور فى مدينة مصر من كثرة ازدحامهم ، وأصناف مشاة السقائين ، وجملتهم ثمانمائة نفر، وأصناف دكاكين بيع الماء ، وجملتها أيضًا أربعون ألف دكانٍ ، وهم يبيعون الماء الرائق المقطر، وفى دكاكينهم ترى مختلف الطاسات والأكواب والكئوس، وقد وضعوها بشكل جميل يزخرف المكان ، وثمن الماء متروك لكرم الشارب، وإن كان أدنى سعر يُعطى هو نُقْرَة [٦] وجملتهم مائة نفر . وهناك سقائون يحملون قربًا نظيفة مسقَّعة وهم من المشاة المتجولين، وهم يقومون بملء قربهم من الدكاكين ، أما أصحاب دكاكين المياه فهم الذين يبذلون المياه لأرباب الدولة من دكاكينهم .

أما أصناف دكاكين العِرْقسوس، فهم يغلون المياه ويضعون فيها هذا العرقسوس ويبيعونه، وهو ينتج كثيراً فى بلاد الأناضول (= الروم) فى منتشه وآيدين وصاريخان وفى جزيرة أستنكوى . إنه عبارة عن جذور حلوة ، ومياهه نافعة جدا. وقد

(٦) نُقْرة Nukre : مُصطلح ماليٌّ يُطلق على أوائل العملة التى سكَّها العثمانيون، والنقرة فى اللغة العربية تطلق على قطعة الذهب أو الفضة المذابة . وبعد أن فتح العثمانيون مدينة إستانبول ضربوا عملاتهم من الذهب ، وظل هذا المصطلح يُطلق على العملة الفضية. (انظر : پاقالين).

ذكر فى تذكرة داود أنه مفيد جدا لطرد البلغم ومُدِرٌّ جدا للبول فى المثانة ، وبحيث لا يمكن التعبير عن فوائده. وحقيقة الأمر أن مياه النيل بلغمية في مدينة مصر، ويُصاب جملة المصريين منه بالكحة ، ففى جميع الديار، وأينما تَسِرْ تسمع المصريين وهم يكحون مرددين: " أوح ، أوح". ومن لطائفهم أن مَنْ يشرب العرقسوس يقول : "أحُّوه"، ويكوِّر فى فمه كرة من البلغم ويقذف بها، متخلصًا من بلغمه. إن مياهه نافعه ، وجملة الدكاكين المخصصة لبيعه خمسون دكانًا، ولكن جملة أنفارها وأنفاره ألفا رجلٍ . وهم يمرون فى الأسواق والخانات وبين المحلات وهم يحملون جرارهم الفخَّارية منادين على بضاعتهم قائلين: "عرقسوس" ، و"العرقسوس"، و"يا عرقسوس" . ويدفعون منجرة (٧) واحدة لكل كاسة عرقسوس . ومَنْ يشربه فى عز الحر وشدة الحرارة، يَصِرْ جسمه وكأنه قطعة من الثلج ، وشيخ هذه الحرفة هو عُمَر الحلوانى .

موكب أصناف الخوشافجية (= خوش آبجى)

جملتهم أربعون نفراً بدكاكينهم، يبيعون سبعين نوعًا من ماء الخوشاف لشتى أنوا ع الفواكه، وقد صرت أنا العبد الفقير عاشقًا لشربات التمرهندى المسكى، وكنت أدعو للجميع بعشقه، وأنا أشرب منه كل يوم كاسة مثلجة .

موكب أصناف السُوبياجيَّة

أربعون نفرًا بدكاكينهم ، يبيعون نوعًا مما يسمونه سوبيا، وهم يصنعونها من الأرز الأبيض الخاص بدمياط وفارسكور والمنزلة ، ويضعون فيه روائح القرفة

(٧) **منجرة** : عملة معدنية صغيرة كانت مستخدمة فى مصر فى العصر العثمانى و ما قبله، كانت تتغير قيمتها الشرائية من عصر إلى آخر .

والقرنفل والجوز بعد أن يجعلوه كاللبن الحليب . ويشربونه أيضًا مُسَكَّرًا ، وهو يمنح الجسم حيوية ورطوبة، كما يقوى الجسد، ويدفع عنه الحرارة .

موكب أصناف الشرياتية المتجولين

يبيعون جُلَّاب المشمش وجلابيات كل أنواع المشمش فى طاسات مطلية بالنيكل والألومنيوم ، كما يبيعون نقيع زبيب العنب الأسود اللذيذ بحمضيته اللطيفة، كما أن هناك شربات الثعلب (= السَحْلب) ويسمونه فى اللهجة العربية خُصْية الثعلب . وهو يكثر فى البرارى ومناطق المراعى، كما يكثر فى جبل الرهبان . وهو عبارة عن نباتات وفصوص صغيرة كبذور الثوم ، وتُجفف وتُصحن فى الهون، ويُشرب بالسكر والعسل ويُشرب بالزنجبيل، ولكن يُشترط تسويته وإنضاجه، ويُقلَّب مثل الپالوظة حتى لا يتحول إلى كرات صغيرة . إذا ما شُرِب منه فنجانان يُتخلص من وجع الصدر، ويزيد من قوة الإبصار ويقوى البدن .

موكب أصناف بائعى الپالوظة

هم ستة دكاكين، وسبعة أنفار .

موكب أصناف بائعى اللبن (= اللبَّانة)

وعدد دكاكينهم سبعون دكانًا وبها ثلاثمائة نفر، يبيعون أيضًا اللبن الزبادى (= اليوغورت) ، ولكنهم فى الصباح يبيعون الحليب الساخن ، فطائفة العربان مبتلاة بالأمراض فيضعون فيه مسحوق الكاجيك ويتناولونه، والبعض يشربونه فى الفنجان، وليس هناك دكاكين لمشروب الشاى والباديان، ولكن هناك عشرين رجلاً يتجولون بأباريقهم ويوزعونه ساخنًا . أما المشروبات الساخنة فدكاكينها فى كل مكان، ولكن

أكثرها في الحمامات والخانات، وبعضهم يتجول بالأباريق ويبعونها في هذه الأماكن، وهي أحد عشر دكانًا، ومائة وخمسون نفرًا .

موكب الخلاَّلية

وهم جميعًا بجوار جامع شجر الدر، وهم عبارة عن ثلاثمائة محلٍّ لبيع الخل وصناعته ، وأنفار هذه المهنة ألف نفر.

موكب أصناف الطرشجية

أربعون دكانًا، وبها ستون نفرًا .

موكب أصناف القَهْوَجية

يوجد في مدينة مصر وبولاق ومصر العتيقة وفي منتجع قايتباي ما جملته ستمائة وثلاثة وأربعون مقهى ، وهناك مقاهٍ فخمة وعظيمة يتسع بعضها لألف إنسان ، وبها مغنون وعازفون على أربع مقصورات. وهناك قصر للمداحين، وقصر مجمع الشعراء والفصحاء ، يتبارون فيه في تقديم البيان وفصيح الكلام . وبعض المقاهي على شاطئ النيل ، ووسط المروج، وقد شُيِّدت بها الصُّفَّات والمقصورات، وهي مقاهٍ صيفية، ولكن أكثرها شهرة هي مقهى الخرابة، ومقهى الغورية، والمقهى الجديد، ومقهى باب الفتوح، ومقهى باب الشعرية، ومقهى الكتخدا الحَبَشي، ومقهى ميدان الروميلي، ومقهى السلطان حسن. وفي القلعة ثلاثة مقاهٍ ، ومقهى الجمامين، ومقهى الصنقورية. وهذه كلها بها فسقيات وأحواض وسلسبيلات، فهي مقاهٍ عظيمة، وفي كل منها مطربون فضلاء من مختلف المستويات، وعازفون مهرة . تعمل ليلاً ونهارًا، وتعج بالمرتادين، بحيث يعجز اللسان عن التعبير . ولكن كلاً منها عالم من الحسن والجمال، بحيث إن كل واحد منها لو جاء إليه كل سُيَّاح العالم من العرب والعجم والترك، فإنه يتسع لهم جميعًا، ويجد هذا السائح في كل زاوية منه مرشدًا، ويكون به

ضيفًا، ويلتقى فيه أرباب العلم والمعارف . إنها بحق أماكن مجمع المعارف ، ويعمل فى جملة هذه المقاهى ثلاثة آلاف رجل .

موكب أصناف القهوجية الجوَّالة

وليس لهؤلاء دكاكين ، بل يتجولون فى الأسواق السلطانية وبين الخانات، وفى أياديهم أباريقهم اللطيفة، ويبيعون القهوة المسكيَّة الرائحة . وترى أن البعض منهم يعمل بجد ويكسب كثيراً ، ولكن من أهم هذه المقاهى مقهى الخرابة، فإنه يطحن يوميا غلالة من البن، أما مقهى الحبشى فإنه يطحن فى اليوم قنطاراً من البن، ويكسب مكسبًا عظيمًا، وهم يدفعون العوايد لرئيس شُطر الپاشا، لأنهم تحت حمايته .

موكب أصناف (= حِرَفِيّى) بيع اللوز البنوى

ليس لهؤلاء دكاكين، ولكنهم يبعيون بضاعتهم التى هى عبارة عن لب القاون وحبٍّ العزيز ، وجملة هؤلاء ثلاثمائة فرد .

موكب ومهنِيُو باعة الدخان

وهم عبارة عن بائعى الدخان الذين يقومون ببيعه فى المقاهى الستمائة والثلاثة والأربعين، وعدا هؤلاء فإنه فى داخل مدينة مصر ألف وستون دكانًا لبيع الدخان، وهؤلاء جميعًا مسجَّلون فى سجلات الصوباشى، وهم ومعهم جملة أنفارهم ودلاليهم ألفا رجلٍ ، وهم يسيرون فى موكب القهوجية .

حرفيو طحن البن

جملتـهم سبـعون دكـانًا لطحن البن، وفى كل دكان هاونات لطحن مـا بين خمس وعشر غرارات من البن، وجملة مَنْ يعملون بها سبعمائة نفر .

أصناف المدَّاحين

جملتهم سبعمائة نفر، وهم يركبون مع موكب القهوجية ويحتفلون معهم .

أصناف المُقَلِّدين، والمُضْحِكين

عددهم ثلاثمـائة نفر ، وهـم يقومـون باللعب و"القشـمرة" فى المقاهى والخمـارات ومقاهى البوظة (= الجـعة) ، ويمرون وهـم يُقدِّمـون شتى أنواع المُلَح والمضحكات بين القهوجية ، فأولاد الزنا لهم سبعون نوعًا من الحيل واللَّعب .

صناف صانعى الجعة

وهـم ستمائة نفر من المسلمين، يعملون فى خمسة وسبعين محلا للجعة .

أصناف صانعى الخَمرة (أى الخمور)

وهم من الكَفَرة ، لهم مائتا دكانٍ وستمائة نفر . ولما كان هؤلاء من غيرالشرعيين فـهم لا ينضمـون إلى أى موكب ، بل يكونون بعـد الباشـقـهـوجى ، لأنهم من المنكوبين والمنبوذين والمذمومين من الشعب كافة.

ولكن ، كما سبق التحرير، ففى الفصل الثالث هذا يمر كل السقائين، وبائعى المياه والشربات، والمشروبات السكرية ، وجميع بائعى المشروبات، وهؤلاء جميعًا يكونون فى موكب القهوجية، ويمرون وهم يطلقون صيحاتهم المعهودة ، وفى يد كل واحد منهم شمعة من الشمع الكافورى، وآلاف الآلاف من القناديل والمشاعل، ويسيرون ومعهم جملة ضاربى الدفوف والراقصون، يقدمون فنونهم على الطبول والدفوف ومختلف أنوا ع الرق. ويكون كل من رئيس القهوجية ، ورئيس المخللية ورئيس السُّيَّاس معًا ، ويسيرون جنبًا إلى جنب ، وخلفهم مباشرة فرق المهترخانة الموسيقية .

أصناف عَمَلَة الزيت الحـــار

يعنى العاملين فى المعاصر، وهم مائة وسبعون معملاً، وأنفارها ألف وثمانمائة نفر. هؤلاء الحرفيون غاية فى الثراء، ولكنهم غاية الغاية فى القذارة والوساخة والتلوث .

أصناف عَمَلَة زيت السمسم

معاملهم مائتان، وأنفارهم سبعمائة . إنهم يعصرون العصفور والجوز والسمسم، وهم أيضًا أثرياء، ولكنهم أناس متسخون وأقذار، وجميع فقراء مصر يأكلون بالزيت الحار وزيت السمسم والطحينة، وهم يأكلون فى كل ليلة آلافًا مؤلَّفة من برطمانات الزيت الحار، وبخاصة فى ليالى المولد وليالى رمضان وليلة المحتسب (= ليلة الرؤية) فهم يشعلون مئات مئات الآلاف من أرطال الزيت السيرج وزيت البذور . هذا منتشر فى كل ولايات مصر، ولهذا فأُناس هذه المهنة مُنعَّمون ، ولكن لا يتبعهم أحد فى موكبهم، فقط يتبعهم أتباعهم. ويشعلون أنواعًا مختلفة من الدُّهْنيات ، ولهذا فهم يلبسون أثوابًا مزيَّتة ومتسخة ، وبعضهم يسير عاريًا ، وقد حملوا على أكتافهم قِرَب الزُّبد والزيت، ويسيرون بها وسط السوق السلطانية المزدحمة بالناس، ويفتحون طرقهم بهذه القِرَب المزيتة وسط ضحكات الناس وتعليقاتهم . ولهم أيضًا الدفوف والرق والطبول المختلفة ، ولهم أيضًا شباب من العازفين الذين يمرون وهم يعزفون

معارفهم . وجميع أهالى مدينة مصر، خوفًا من هؤلاء، يستأجرون المحلات قبل الموعد بخمسة أو عشرة أيام لكى يتمكنوا من الفرجة والمشاهدة .

أصناف الباشمعمار (المعماريون)

ويتبعهم أصحاب حرف كثيرة :

١- النجارون ، وليس لحرفة النجّارين دكاكين، ولكن جملتهم ثلاثة آلاف من المسلمين وغير المسلمين .

٢- أما حرفيُّو الحجارة فهم يقطعون الحجارة " كفرهاد" فى جبل الجيوشى، وبالقرب من قدم النبى، ويجعلون جبلاً بلا أعمدة، وجملتهم ألفا رجل .

٣- أما حرفيُّو الرُّخَّامة ، أى الذين يشكلون المرمر ويكسون الحمَّامات والأحواض بالرخام ، فدكاكينهم ستون دكانًا وأفرادهم ثلاثمائة نفر، ومعارفهم ومهاراتهم خاصة بهم، ولا مثيل لها فى مكان آخر ، فعمارة مصر مشهورة بالرخام، وآفاق استخدام الرخام بها واسعة .

٤- وحرفيو حفَّارى الآبار، عدد أنفارهم ثلاثمائة.

٥ - أما حرفيو السواقى، والدواليب، وطواحين الخيول، فعدد أنفارهم مائتان وستون نفرًا.

٦ - وحرفة العمَّال، أى عمَّال الزراعة، وجملتهم من بلاد البربر، وليس بينهم أحد من الفلاحين العرب . وجملتهم ألفان، وهم مسجلون، فلا يمكن لأى شخص أن يكون مزارعًا، فمصر بلد العجائب، فالكل يريد أن يكون مربوطًا بالميرى.

٧ - حرفيُّو البالوعات، وهم المكلَّفون بتنظيف ممرات المياه (= المجارى) والمراحيض والحمامات ، وجميع ممرات مدينة مصر ليست بها مواسير للمجارى، بل

هى عبارة عن بيَّارات . ويقوم هؤلاء العمَّال بتطهيرها سنويا، ويقومون بدفن القاذورات فى مدافن بالضواحى . وليس لهؤلاء دكاكين خاصة بهم ، ولكنهم فى صباح كل يوم ينتظرون بفئوسهم وكواريكهم وأدواتهم فى زنابيلهم، فى الصليبة فى ميدان الروميلى وغيرها من النواحى. جميعهم ألف ومائتا رجلٍ .

٨ - حرفيو الجبَّاسة، الذين يعملون بالآجُرِّ والجبس، وليس لهؤلاء دكاكين، ولكن لهم مجابس وقمائن للطوب على شاطئ النيل، وجملة أنفارهم ستمائة رجلٍ .

٩ - أما حرفيو الفخَّارة فهم يقيمون أعمالهم بالقرب من ساقية الغورى ومصر القديمة، وغيرها من الأماكن، فجملة دكاكينهم مائة وخمسون دكانًا، وأنفارهم ألف نفر بالكامل، وهم يصنعون شتى أنواع القلل والأزيار وأنواع البلاَّص والعلب الزخرفية والأوانى الفخارية، ويصنعون كل أعمال الخزف الصينى وخزف الحمَّام وغيره، ومنهم ثلاثمائة وخمسون أستاذًا كاملاً فى هذه المهنة، وهم مختصُّون فى بناء الحمَّامات.

١٠ - حرفيو الجَيَّارة ، ولهم مواقدهم ومحارقهم خارج مدينة مصر، وهم بالقرب من السيدة نفسية ومن مصر العتيقة . وجملة مواقدهم سبعمائة موقد، وأنفارها ألفا رجلٍ .

١١ - حرفيو الجبَّاسة، أى الذين يعملون فى مطاحن الجبس، دكاكينهم مائتا دكانٍ، وعدد أنفارهم ألف ومائتا فردٍ .

١٢ - حرفيو المبلِّطين ، أى الذين يقومون بقطع الحجر الأبيض الشبيه بالرخام، وهم يقطعونه بالمناشير . وهم يقومون بفرش الجوامع والمساجد والخانات بهذا البلاط بدلاً من الرخام ، وجملة من يقومون بقطع هذا الحجر ستمائة رجلٍ .

١٣ - أما حرفيو الكرستة، أى الخشَّابة، فلهم مائتا دكانٍ ، وعدد أفرادهم خمسمائة .

١٤ - جملة الحانوتية ، عدد دكاكينهم عشرة.

١٥- حرفيو المحقَّات والهوادج للحجاج ، عدد دكاكينهم أربعون وأنفارهم مائة وأربعون نفراً.

١٦ - أماحرفيو السرائر فهم الذين يصنعون الأسرَّة من جريد النخيل وخشبه، كما يصنعون الأقفاص التى يوضع فيها السكر، ودكاكينهم خمسون، وأنفارهم ثمانون .

١٧- أما حرفيو الخِرَاطة فدكاكينهم مائة وخمسون دكانًا، وتعداد أنفارهم ستمائة نفر.

١٨ - وحرفيوا الخَرَّاطة ، أى الذين يخرطون الخشب، لهم ثمانية دكاكين فى الدرب الأحمر، وعدد أنفارهم عشرون نفراً، وهم يظهرون مهارة نادرة فى تصديف هذه الأخشاب فى المصادف الهندية.

١٩ -- وحرفيو الزنَّادين، وهم الذين يقومون بصناعة الزناد والقماط ، وعددهم ثلاثون نفراً، وعدد دكاكينهم عشرون دكانًا.

٢٠ - وحرفيو النَّقاشة، ليس لهم دكاكين، بل يعملون وهم فى منازلهم، أو فى المنازل والبيوت التى تُبنى، وجملتهم سبعمائة نفر. ويوجد بينهم أساتذه مهرة فى النقش والرسم مثل بَهْزَاد مانى، بحيث يعجز أمامهم سائر النقَّاشين فى الديار الأخرى.

٢١ - حرفيو صنَّاع العلب، عدد دكاكينهم عشرون دكانًا وأنفارهم ثمانون نفراً .

٢٢ - حرفيو الطنبور، وعدد دكاكينهم تسعة، وعدد أنفارهم عشرون نفراً .

وعلى هذ فإن الأربع والعشرين(*) حرفة التى ذكرناها فى هذا الفصل يبلغ بها عدد أنفار العساكر المختارة تمامًا ١٥٤٦ نفراً، وجميعهم تابعون لأغا المعمار ، وكل

(*) كذا فى الأصل "الأربع والعشرين"!؟

شخص مع حرفته يسير في موكبه في شكل جماعات وهم في فرح ومرح، ويعرضون أروع وأجمل ما عندهم، ويمرون بمعازفهم وكلماتهم، كما يمرون وهم يحملون القناديل والمشاعل والشموع الكافورية والمسارج المختلفة، وبحيث أصبحت معارضهم مختلفة . ويكون على رأس هؤلاء جميعًا المعمار باشي (= رئيس المعماريين) والنقّاشباشي (= رئيس النقاشين) ورئيس السُّيَّاس ، معهم أصحاب المعازف الخاصة بهم، ويمرون وهم يعزفون على آلاتهم الموسيقية .

سادساً : أصناف النجـــارين(*)

أى نجارى السفن ، وشيخهم حضرة سيدنا نوح ، وهم لا ينضمُّون إلى موكب البنائين، بل يرأسهم كتخدا الباب بكل حرفيِّيهم، ويكونون آلايًا خاصا بهم :

١- نجَّارو المراكب ، ليس لهم دكاكين ، بل لهم تكيَّة متصلة بالترسانة فى بولاق، وجملة أفرادهم ثمانمائة وستون فردًا ، وحرفة المزفتين (= قلافاتيجان) وعدد أفرادهم خمسمائة، وهم الذين يملأون ما بين ألواح خشب السفن بالزفت حتى لا تتسرب إليها المياه .

٢ – حرفيو الإطفائية ، ولهم دكاكين، وأنفارهم عشرة أنفار.

٤ – وحرفيو بائعى الزفت والقطران، ولهم سبعة دكاكين، وأفرادهم خمسة عشر نفرًا.

٥ – وحرفيو الكتان المقطرن، ولهم سبعة دكاكين، وعدد أنفارهم أربعون نفرًا.

٦- حرفيو فتَّالى الحبال، ليس لهم دكاكين، وأنفارهم مائة وخمسون نفراً، وهؤلاء هم الذين يفتلون حبال السواقى التى تبلغ أربعًا وستين ألف بئر فى كل ديار مصر، ويفتلونها من عشب الحلْفاء ثم يكوِّرونها .

(*) كذا فى الأصل ، ولم يرد فيه قبل ذلك "أولاً" ولا "ثانيًا" .. إلى "خامسًا" !؟

٧ – حرفيو الأشرعة ، لهم ثلاثة دكاكين، وعدد أفرادهم عشرون فرداً، وهم جميعًا موجودون فى مدينة بولاق .

وجميع البحارة مدججون بالسلاح، وجميعهم يتجولون بالقوارب الصغيرة والفالوكات والزحّافات، وقد زُيِّنت بالأعلام والبيارق، ويطوفون وهم يردِّدون صيحاتهم : "يا مولا ، يا مولا ". وكثيراً ما يلهون، وكأن قبطان بولاق يُطلق نيران بنادقهم على قبطان مصر القديمة، وهؤلاء الجنُّ من الجنود يمرون وهم رافعون أعلام بيارق كتخدا قبطان السويس، ومعهم نقيب النجارين ورئيس السُّيَّاس . وقد اختاروا سبعين أو ثمانين من فتيانهم، وقد ازدانوا بالملابس والأعلام البحرية، ويمرون وهم يعزفون على آلاتهم ومعازفهم الخاصة بهم، ولا يكون فى موكبهم أى شىء سوى الأعلام والبيارق .

سابعًا : وصف موكب أصناف الخبازين وتُجار الغلال

فى مصر أُم الدنيا سبعون دكانًا للخبازة، وهى تكفى لبحر البشر هذا الموجود فى أم الدنيا، وذلك لأن فى بيوتات الأغنياء والأعيان وقصورهم فرنًا مستقلا لكل منهم، وفى منزل أو دار كل فقير يوجد تنور، أى فرن صغير، وكل فرد يخبز فى بيته خبزًا أبيض . وفى الأسواق وعلى جميع النواحى توجد طاولات عليها الخبز، ويبيعه الأطفال والنسوة والبنات ، ولهذا السبب فإن السبعين دكانًا للخبازة تكفى . وجملة الأفراد الذين يعملون فى هذه الدكاكين ستمائة نفر، وهم يسوُّون الخبز فى هذه الأفران بروث البهائم والخيول. وبينما يراه المذهب الشافعى حرامًا لنجاسته ، الضرورة هى التى جعلتهم يستخدمون " فِشْل الخيول " وذلك لأزمة الأخشاب، فالضرورات تبُيح المحظورات، لذلك هم يحرقون الروث والفِشْل ويسوُّون على ناره الخبز ويأكلونه. وشيخ الخبازين هو عمر بن عمران البربرى، وهو الذى ربط حزام سلمان الطاهر فى حضرة رسول الله (صلى الله عليه وسلم). توفى عن سبع وثمانين سنة من عمره، ولذلك فهو مدفون فى البقيع بجوار حضرة العباس .

وبعدهم يأتى كل حرفيِّى الخبز والخبازين أمثال الكنفانية ، وخبازى السميط والشعرية والغُرَيِّبة والبوريك والقطايف ولقمة القاضى، وخبازى المطبَّق والبقسماط، أى أن هناك خمس عشرة حرفة تسير فى موكب الخبازين، ولهم مائتان وخمسون دكانًا . وهؤلاء لا يوقدون الروث أو القشْل الخاص بالخيول ، بل يسوُّون مخبوزاتهم بتبن الفول وقشر اللب، وأنواع مختلفة من البوص والغاب ، وهم يسوُّون هذه الفطائر بهذا الشكل، ويعمل فى هذه الأفران – مع النقص والزيادة – ألفا رجلٍ .

أمَّا أصناف النشاء فمعاملهم أحد عشر معملاً، وأنفارهم مائة وخمسون. وأهل حرفة نخالة الدقيق ، وهؤلاء يأخذون الدقيق من الأفران وينخلونه للفطائر، وعدد أنفارهم مائتا نفرٍ. وأهل حرفة الملاَّحين هم المهتمون ببيع الملْح، وعدد مخازنهم مائة وعشرون مخزنًا . ويضمُّون معهم أصحاب النطرون، وليس فى مصر مَنْ يعرف استخراج الملح من البصل . وعدد أنفار الملاَّحة أربعمائة رجلٍ، وهم أُناس أثرياء . وأصناف الطحانين، وجملة الطواحين التى تدور بالخيول ألفان ومائة وستون مطحنة (= طاحونة) مائة وخمسون منها تابعة للمحتسب، والبقية تحت حماية الأوجاقات (= المعسكرات) الإنكشارية والأغوات، ولكنهم ينضمُّون أيضًا إلى هذا الموكب . وجملة عمَّال المطاحن ثلاث آلاف ومائة وستون نفرًا . ولكنها مأوى للصوص . ويدوِّر كل مطحنة إما فرسٌ، وإما ثور . إنها جديرة بالمشاهدة؛ إنها تُمثل دوران الفلك! وعدا هذه الطواحين، فإن هناك فى كل سراى أو قصر طاحونة خاصة به، وهذا من المقرر له، ولكن لما كنت لم أسأل المحتسب فى هذا الصدد فإننى لا أستطيع أن أقرر عددها .

أصناف تُجار الغلال، وهم فى بولاق وفى مصر القديمة وداخل مدينة مصر ، لهم فيها ألفا مخزنٍ بالكامل . وهم أكثر التجار ثراءً ، وجملة من يعمل فى هذه الحرفة ثلاثة آلاف وثمانمائة رجلٍ . وهم مسجلون بالاسم والرسم فى دفاتر أمين المخازن ودفاتر ناظر المخازن والعنابر، لأنهم فى حالة الاحتياج إلى الغلال يأخذونها من هؤلاء التجار، وهم أيضًا مدججون بالسلاح ومزدانون بأفخر الملابس .

وهؤلاء الذين حررناهم بالكمال والتمام عشرون حرفة، وهم يقومون بشتى الأعمال المختلفة والمتعلقة بالمخبوزات والفطائر واللقمات، ويقدمون منها للأهالى، كما

يصنعون من القطايف ألبسة متنوعة، ومن البقسماط يصنعون المسابح والصمُّون الضخم، ويعملون عمائم المشايخ، ويقدمون فكاهات لطيفة بهذه الأشكال . وفي هذا الموكب يسير نقيب الخبازين مع نقيب المسلِّين، ويسير حولهم غِلْمان مدججون بالسلاح، وهم غاية الأبهة ، ويسيرون وهم يعزفون على معازفهم وآلاتهم الخاصة بهم ، ويعبرون من أمام المحتسب وهم فى كامل أُبهتهم .

ثامنًا : أصناف القصـابة

عدد دكاكينهم ستمائة دكانٍ، وعدد أنفارهم ألف وثمانية قصابين. شيخهم جومرد القصاب، كنيته أبو عقيل، وهو قصاب وادى نصر، لقبه جومرد القصاب، وهو مدفون داخل بغداد .

يُذبح داخل مدينة مصر يوميا ألف ومائتا رأس من الغنم والعجول والماعز والجمال والجاموس، وتُذبح كل هذه الرءوس فى السلخانة الموجودة فى ضواحى مدينة مصر، فى باب الفتوح . وفى هذه السلخانة تُذبح كل أغنام وأبقار وماعز وجمال وجواميس مدينة مصر، لأنها أميرية (= حكومية) ويشرف عليها أمين وإنكشارى وچورباجى . وإذا ما ذُبحت الذبائح فى أى مكان غير السلخانة فإنها تُجرَّم، ويعمل فى هذه السلخانة مائتان من الرجال، ولا تشع النورانية من وجوههم . ومهما كان العدد الذى يذبح فيها من الذبائح فإن جلودها ميرية، وهى من التزام رجل فلاَّح يُدعى على الجلاد.

١– أصناف قصابى العجول ، دكاكينهم سبعون دكانًا، وأنفارهم مائتا نفر، وهم يبيعون أيضًا لحوم الجمال.

٢ – حرفيو قصَّابى اليهود عشرون دكانًا، وبها ثلاثون نفرًا، ولا يشترى أحدهم اللحم، بل هم مخصصون لذويهم .

٣ – أصناف اللَّبَّانة، وهم بائعو اليوغورت (= الزبادى) والقشدة ، ودكاكينهم ثمانون دكانًا، وبها مائتا نفرٍ .

٤ – حرفيو بائعى لبن الماعز، وعددهم مائتان ، وهم يتجولون فى الأسواق بقطعانهم البلدية والماعز الخاصة بهم، ويبيعون ألبانها . فإذا كنت تُريد أُوقية من اللبن مثلاً ، فهو يحلب اللبن من الماعز فى علبة، ويُعطيك الأوقية، وإذا ما كان زيادة فالطريف أنه يُعيده إلى فم الماعز، ويدور فى الأسواق والأزقة وهو ينادى : " ياصباح اللبن " ويسوق الماعز أمامه.

٥ – حرفيو الجِبن الحالوم ، دكاكينهم مائتان وثمانون دكانًا، وأنفارهم ثلاثمائة نفرٍ . وأشهرهم جميعًا وألطفهم جبَّان فى بولاق يُسمونه " ابن الميت "، وهو رجل عربى، والجبن الذى عنده لا مثيل له فى أى مكان آخر فى تنوعه، ولذة جبن الغنم الذى عنده لا تجدها حتى فى جبن الغنم فى الشام الشريف، فهو سريع الهضم، وهو جبن الحالوم . أما جبَّانة اليهود فهم مختلفون، ولا أعلم عددهم بالضبط .

٦ – أصناف المسامط، وهم طباخو رءوس الماشية والأغنام ، عدد دكاكينهم أربعون دكانًا، يعمل بها مائة وعشرون نفرًا، وهم يساعدون القصابين .

٧ – حرفيو باعة الكبد ، ويبيعونها نيئة وكذا مسوَّاة، وليس لهم دكاكين، بل يبيعونها فى الطبلات والزنابيل، وعددهم مائتا نفرٍ .

٨ – حرفيو الكرشة، لهم ثمانون دكانًا، وأنفارهم مائة وعشرون نفرًا، وهم أيضًا يعاونون الجزارين ، وليسوا من أتباع الطبَّاخين .

٩ – حرفيو الدباغة ، ولهم أربعون مصنعًا، يعمل بها ثلاثمائة نفر.

وأصحاب هذه الحرف العشر المذكورة يمرون وهم مدججون بأسلحتهم، وكل منهم يحاول أن يعرض متاعه ، فالجزار يعرض أغنامه السمينة ، وقد تمنطق بالحزام الفضى أو المزخرف، وقد وضع فى خصره مجموعة معدَّاته، وزيَّن خصره بالخناجر المزدانه بالجواهر. وبعضهم وضع القرون الفضية التى تذكر بكل أنواع القرون المعروفة ، وقد وضعوا بعض الذبائح فوق عربات الخيل ، وقد بدت سلاسلها

الذهبية. ويسير نقيب الجزارين وقد التف حوله فتيانه المدججون بالسلاح والمعازف التي تعزف معزوفاتهم المعهودة لهم ، إن موكبهم من المواكب المزدانه بجميع أنواع الزخارف .

تاسعاً : أصْناف الطباخين

عدد مطاعمهم ستمائة، وعدد أفرادهم ألف ومائة طباخ، شيخهم سيدنا إبراهيم، وهم في حماية رئيس طباخي الباشا الوالي، هو حكيمهم (= قاضيهم) يسب ويضرب ويقتل ويطرد من المهنة ، جميع الضبط والربط في هذه المهنة في يده وحوزته . لا يجرؤ الأغا المحتسب على وضع يده على أي من ممتلكات مَنْ يتصل بهذه المهنة ، ولكن ينضم إلى هذا الموكب الباشخليفة (= رئيس خلفاء) رئيس الطباخين، ورئيس طباخي المدينة، ويسيران مجاورين لرئيس السُّيَّاس . ثم يأتي بعدهم رئيس أصناف الكبابجية ، وعدد محلاتهم (= مطاعمهم) مائة مطعم، وأفرادهم مائتان وستة أنفارٍ. ومن بعدهم أصناف اليخنجيَّة ، ومحلاتهم مائة ، وطباخوهم ثلاثمائة طبَّاخ يخني ... وبعدهم أصناف الطباخة باللبن والبالوظة، وعدد دكاكينهم أربعون دكانًا، وأنفارهم سبعون نفرًا. ثم يأتي من بعدهم أصناف طباخي الخضراوات، وهم الذين يُعِدُّون السلاطة والسبانخ والملوخية، والبامية والباذنجان، والقلقاس والقرنبيط والزعتر، والطرب (= الفجل) والجرجير والعجور، كما يبيعون القثاء والخيار ... وعدد دكاكينهم مائتا دكانٍ، وعدد أنفارهم مائتان وخمسون بائعًا.

ثم يأتي بعدهم أصناف الحلوجية ، وعدد محلات الحلويات ثمانون دكانًا، وعدد أنفارهم مائتا حلوجيٍّ، وما يُقَدَّم في مصر من حلويات ولبنيات لا يمكن تناولها أو مصادفتها في ديار أُخرى، وشيخهم هو حضرة عُمَري الحلواني.

ثم يأتي بعدهم أصناف صنَّاع السكاكر (= السّكريات) وعدد دكاكينهم مائة وخمسون دكانًا، وعدد أفرادهم مائتا فردٍ، أما معامل (أي مصانع) صناعة السكر فعددها أربعون معملاً، وعمَّالها ثلاثمائة عامل ميريٍّ، وهم يعملون في صناعة سكر المعياد الذي يُسلَّم إلى وكيل خرج السلطان لإرساله إلى الأستانة .

ثم يأتى بعدهم أصناف صنَّاع البالوظة ، وعدد دكاكينهم ثمانون دكانًا، وأنفارهم مائة نفرٍ.

ثم يأتى بعدهم أصناف طباخى الأسماك ، وعددهم مائة نفرٍ، وعدد دكاكينهم ثمانون دكانًا . وأصناف صيادى السمك وجملتهم ستمائة صياد وكلهم ميريون .

وجميع هؤلاء الأصناف والحرفيين وأصحاب هذه المهن يعرضون بضائعهم وأعمالهم على الملأ، وهم يسيرون يقدمون أنواعًا مختلفة من الفكاهات والطرف، ويمرون وفى مقدمة موكبهم رئيس طباخى المدينة، وخليفة طبَّاخ الباشا، ورئيس سُيَّاسهم، ومن خلفهم المهترخانة (= الموسيقى) وهم يعزفون معزوفاتهم الخاصة بهم .

عاشرًا : موكب أصناف البقَّالين وباعة الأسواق والصابونجيَّة وبائعى اللب

شيخ هؤلاء جميعًا هو الولى عزى بن نبَّاش، أطال الله فى عمره، فقد عاش حتى بلغ المائة والعشرين من عمره . وعند وفاته دفن فى القدس الشريف، بالقرب من عين سلوان . وجملة هؤلاء الطائفة وما يخصهم من دكاكين تبلغ ألفًا وستين دكانًا وألفى رجلٍ ، يرتدون ملابس وأثوابًا نظيفة، ومكلفة ومكملة . يمرون وعلى رأسهم نقيب البقَّالين، ورئيس السُّيَّاس، ومعهم طاقم المهترخانة (= الموسيقى) وهم يحملون معازفهم ويمرون وهم يقدمون طرائف ومعزوفات لطيفة ...

حادى عشر : موكب أصناف الجرَّاحين [الحكماء]

عياداتهم عشرون عِيادة، وأنفارهم ستون جرَّاحًا ، شيخهم أبو عبيد القصَّاب، عُمِّر طويلاً، وقبره فى لحصة .

ثم يأتى بعدهم أصناف الحكماء (= الأطباء) وعياداتهم تسع عشرة عيادة، وعدد أفرادهم أربعون . شيخهم سيدنا لقمان ... وفى عصر صاحب الرسالة الغراء ذى النون المصرى، وهم يتمنطقون بحزام سيدنا على كرَّم الله وجهه .

ويأتى بعدهم أصناف صنّاع المعاجين ، عدد دكاكينهم مائتا دكانٍ، وعدد أنفارهم مائتان وعشرون نفراً، وهم هاشميون، وواقفون وقوفًا على أسرار المعاجين، وهم بارعون فى استخدامها .

ثم يأتى بعدهم أصناف صنّاع ماء الدواء ، وهم يقومون بعصر الزعتر والنعناع والهندباء ولسان النور ، وغيرها من الأعشاب، ويستخرجون مياهها، وجملة هؤلاء الحرفيين ليس لهم دكاكين، ولكنهم يشتغلون فى منازلهم . وهم سبعون شخصاً .

ويُعبِّر عن كل هؤلاء الحرفيين ثلاثمائة وستون جنديًا، وهم مدججون بالسلاح، ولكنهم يمرون وعلى رأسهم نقيب الأطباء فى وقار وأدب جم ، ويسير رئيس الجراحين، ورئيس الحكماء مع رئيس سُيَّاسهم ، على رأس الموكب ومن خلفهم المهترخانة تعزف على معازفها المعهودة ...

ثانى عشر : موكب أصناف السيَّافة

محلاتهم مائة وعشرة محلات، وأفرادهم ثلاثمائة. ثم يتبعهم أصنَاف الحدَّادة ، وعدد محلاتهم ثلاثون محلاً، وأنفارهم خمسة وستون نفرًا. ومن بعدهم اصنْاف صنَّاع المزارق ، ولهم عشرة دكاكين بجوار جامع السلطان حسن، وعدد أنفارهم عشرون نفرًا. وجميعهم فى حاجة إلى العزبان . ثم أصناف صنّاع السكاكين ، وعدد دكاكينهم مائتا دكانٍ وكُورٍ ، وأنفارهم مائتان وستون نفراً . ثم يأتى بعدهم أصناف صنَّاع الحناء ، ودكاكينهم عشرون دكانًا، وبها ثلاثون نفراً، ليس لهم مساعدون . ثم أصناف صنَّاع البنادق، ولهم ثلاثون دكانًا، وبها خمسة وسبعون نفراً. وبعدهم أصناف الوزَّانة ، خمسة وخمسون نفراً يعملون فى عشرين دكانًا . ثم أصناف صنَّاع شنك البنادق ، ثمانية عشر رجلاً يعملون فى عشرة دكاكين . ثم أصناف صنَّاع البارود ، يتجمعون داخل باب الحديد، لهم عشرة دكاكين، يعمل بها ثمانية عشر نفراً، شيخهم

هو جمشيد[٨]، وهم تابعون لرئيس (= نقيب) صناع الذخيرة . ثم يأتى بعدهم أصناف صنّاع فتيل البنادق ، دكاكينهم ستة، وأنفارهم أحد عشر، ولكن هناك ألفين ممنْ يفتلون الكتان ويجعلونه فتائل، وهم من قوم البربر، وهم أيضًا يمرون وهم ممسكون فى أياديهم بعض الفتائل، ويحملون على أكتافهم فتائل وقد اشتعلت أطرافها ، ويسيرون وهم يتمازحون بلغاتهم .

وجملة هؤلاء الذين ذكرناهم ألفان وثمانمائة واثنان وخمسون رجلاً ، يسيرون فى الموكب وهم يطلقون بنادقهم ويلوحون بأسلحتهم ، وفى مقدمة موكبهم يسير نقيب صُنَّاع السيوف (= السُّيَّاف) ونقيب صنَّاع البنادق، ومعهم رئيس سيَّاسهم ، ومن خلفهم موسيقاهم وهى تعزف معازفهم المعهودة لهم .

ثالث عشر : موكب أصنـــاف الحـــدَّادين

شيخهم حضرة سيدنا داود، لهم مائتا دكانٍ، بها ثمانمائة نفر . ولكن شيخهم فى عصر النبوة أبو زيد مسلم ، من المعمَّرين ، وقبره فى صنعاء . أصناف صنَّاع الحدوات ، عدد دكاكينهم أربعون دكانًا، وأفرادهم مائة وخمسون نفرًا . ثم أصناف صنَّاع المسامير ، عددهم مائة وعشرون، يعملون فى عشرين دكانًا، وهم مهرة . ثم يأتى أصناف صنَّاع الأسرجة ، وهم أسفل تكية الگلشنى، محلاتهم ستة، وأنفارهم

(٨) جمشيد : المقصود هنا جمشيدهو، من سلالة البيشداديين الذين ساد حكمهم على إيران فى الأزمنة القديمة ، كان الشاه الرابع فيها ومن أقواهم . تتسم حياته بالأساطير ؛ فيقال إن حكمه استمر ٧٠٠ عام، وهو الذى أسس مدينة أصطخر وزيَّنها بالعمارة والعمران، ويُعتقد أنه هو الذى اتخذ من النيروز عيدًا وجعله بداية السنة الإيرانية ، وهو الذى أوجد أيضًا مذهب عبادة الشمس قبل ظهور الزرادشتية ، وما زال " تخت جمشيد " يذكر فى التاريخ دليلاً على العظمة والبهرجة . كان يقسم بالعدل والشجاعة ، ومن هنا يضرب به المثل . للمزيد عن سيرته : (انظر : ش . سامى . قاموس الأعلام جـ٣ صـ ١٨٣٤) .

عشـرة . ثم أصناف صنَّاع القواطع ، ودكاكينهم سـتة، وأنفـارهـم عشـرون نفـرًا. ثم أصناف صنَّاع المناشير ، وهم يصنعـون مـختلف أنواع المناشـير ، دكاكينهم سـتة، وأنفارهـم عشرون نفرًا. ثـم أصناف الفحَّاميَّة ، وهـم بالقرب من البوندوقاني وبجانب النظامية وفي غيرها ، لهم خمسون دكانًا، ويعمل بها ستون نفرًا . ثم أصناف القفَّاله ، وهم يصنعون أقفالاً متعددة ، لهم عشرة دكاكين، يعمل بها خمسة عشر نفرًا . ثم أصناف صنَّاع المفاتيح ، عدد دكاكينهم خمسون دكانًا، وأنفارها مائة وتسعـون نفرًا. ثم أصنـاف صناع المِهْمازَ، وعدد دكاكينهم أربعون دكـانًا، يعـمل بها مـائة وخـمسـون صانعًا . ثم أصناف صنَّاع المقصات ، دكاكينهم عشرون دكانًا، وعدد أنفارها ستون نفرًا. ثم أصناف صنَّاع النعال، أنفارهم خمسة عشر نفرًا يعملون في عشرة دكاكين، ثم أصناف بائعي الحديد ، لهم خمسة عشر مخزنًا، وأنفارهم عشرون نفرًا . ثم أصْناف الخُردة ، وهم أسفل الشيخونية وفي ميدان الروميلي، لهم ستون دكانًا، يعمل بها ثمانون نفرًا. ثـم أصناف مُركِّبي حدوات الخيول ، وهـم الذين يركِّبون نعال وحدوات الخيول، دكاكينهم ثمانون، وأنفارهم بالكامل مائتان . ثم أصْناف مركبي حدوات الحمير، دكاكينهم مائتا دكانٍ، وعدد أنفارها ثلاثمائة نفر، وبقدر كثرة حمير مصر يكثر حرفيو مركِّبي حدوات الحمير .

وجملة أنفار هذه الحرف الخمس عشرة الذين عددناهم ٢٠٠٢ أنفار، ولهم عساكرهم المدجَّجون بالسلاح ، وكل منهم يعرض على بساطه شتى أنواع بضاعته، ويتمازحون وهم يمرون . يمرون وفي مقدمتهم نقيب الحدادين، ونقيب النعَّالة، وجملة شبابهم مدججون بالسلاح، ويمرون ومن خلف نُقبائهم موسيقاهم، وهم يعزفون معزوفاتهم المعهودة .

رابع عشر : أصناف صنَّاع القازانات

شيخهم هو أبو حبيب محيي الدين البخاري، جملة دكاكينهم خمسة وستون دكانًا، يعمل بها بالكامل ستمائة نفر، ولكنهم ليسوا بمهارة أسطوات أساتذتهم الروم،

بعدهم أصناف صنَّاع المصافى، معاملهم ثلاثة، يعمل بها أربعون، وهم الذين يقومون بتصفية النحاس . ثم أصناف التناجران، ودكاكينهم فى خان الخليلى والصالحية وبالقرب من قلاون، وجملتها مائة وخمسة عشر دكانًا، وعدد عمَّالها مائتان وخمسة عشر نفراً وجميعهم تُجَّار أثرياء، ففى دكان كل منهم ومخازنه ما لا يقل عن خمسة آلاف أو عشرة آلاف قرش من النحاس والأوانى النحاسية، كما يوجد لديهم ترميم وتعمير القازانات . كما أن تَناجر (= حلل) الكاشفية موجودة عندهم، لأنها لا تُصنع فى مصر، فجميعها تأتى من بلاد الروم بالسفن . ثم أصناف القصديرية، دكاكينهم مائة وخمسون، وعدد أنفارهم ثلاثمائة . ثم أصناف صنَّاع الصب ، حقا إنهم أساتذه مهرة فى النفخ وإثارة الرياح العجيبة ، مجاميع أقفاص النوافذ فى الجوامع والعمارات الخيرية، وجميع الأسبلة المصنَّعة وأبوابها ونوافذها هى من إنتاج أياديهم، ولكنهم حقا ليسوا وقفًا على ديار مُعيَّنة، محلاتهم سبعون محلا، وأفرادهم خمسمائة نفر .

وجملة هؤلاء الحرفيين والموزعين على خمس مهن (= أصنافهم) ألف وخمسة وستون نفراً، مدججين بالسلاح، فى يد كل منهم مشاعل مشتعلة بالشمع الكافورى، ويسيرون والمصابيح مضاءة فى أياديهم، يسير فى مقدمتهم القازانجى (= رئيس القازانجية) ورئيس المصهراتية، ويسيران جنبًا إلى جنب، ومن خلفهم المهترخانية وهم يعزفون معزوفاتهم المعهودة.

خامس عشر : موكب أصناف الجواهرجية

شيخهم نصر بن عبد الله الذهبى، وقد ربط سلمان فى خصره النطاق الطاهر، دكاكينهم خمسمائة، أنفارهم ألفان وأكثرهم من طائفة القبط ، ولهم أسطوات مهرة وفى منتهى الغرابة . أصناف باعة الجواهر ، لهم عشرة دكاكين، وأنفارهم عشرون نفراً. ثم أصناف الساعاتية ، شيخهم حضرة سيدنا يوسف، دكاكينهم خمسة، وأنفارهم اثنا عشر نفراً. ثم أصناف ضاربى السكَّة ، رئيسهم مقره فى

الضرنجانة (= دار سك العملة) هو شخصية منفردة خاصة، ولا احتمال لأن يكون رجلاً آخر، ولا يختلط بالآخرين، ولا يدخل عليه أحد، كما أن الدمغجي باشي (= رئيس الدمغجية) رجل خاص وفريد، ولا تُسند هاتان المهمتان إلا إلى ذوات من خاصة الخاصة . ثم أصناف خردجيَّة الذهب ، لهم عشرة دكاكين، بها عشرون رجلاً، وهم يصنعون الخردة الفضية من كناسة الجواهرجية والصرَّافة وغيرهم، وهم يستخرجون الخردة (= القطع المتناهية الصغر) من هذه الكناسة . وهم وجملة أفراد الضرنجانة (= دراسك العملة) ثلاثمائة نفر، لهم أغا أمين وأغا ناظر وأغا لأصحاب العيار (= المعيارجية) وأغا وزَّان وأغا صرافباشي (= رئيس الصيارفة) ولكن هناك أصناف صرَّافة الأسواق، دكاكينهم مائتا دكان صرافة، يعمل بها ثلاثمائة وخمسون صرافًا، نصفهم موظفون في ديوان مصر، وهم يعدُّون البضائع والأموال التي ترد من ملتزم كل ديوان . ثم أصناف القالجيان (= مُصَفُّو الذهب) وهم الذين يقومون بصهر الذهب والمعادن وتصفيتها من الشوائب، لهم ثلاثة دكاكين، يعمل بها عشرون نفرًا . ثم أصناف قلمكاران (= نقَّاشي المعادن) وهم الذين يقومون بنقش وزخرفة المعادن ، لهم عشرون دكانًا، وبها ثلاثون نفرًا. ثم أصناف الحكاك وهم الذين يقومون برسم وشغل المعادن والسيوف وما شابه ذلك ، لهم أربعون دكانًا، بها ستون نقَّاشًا . أما أصناف قاطعي الأختام فهم ثلاثة أنفار، في ثلاثة دكاكين . ثم أصناف الصيرمة ، وهم الذين يقومون بتطريز العباءات والملابس بخيوط الذهب والفضة، والقصب، ولهم ستة دكاكين، يعمل بها اثنا عشر رجلاً، وهؤلاء دائمًا يعملون في تطريز الكسوة الشريفة للكعبة المشرفة. ثم أصناف تشكيل البرونز ، الدكاكين والأنفار تابعون للأمير چلبي ، ليس لهم مثيل ، هم أسطوات مهرة، ويُحكى عن هذا الأمير چلبي أنه أحضر زوجين، من أغنام مكة، وشاء الله سبحانه وتعالى أن تلد دائمًا زوجين، وما زالت أغنام مكة تنتشر في مصر من نتاجها . ثم أصناف صانعي الصفائح ، لهم ثمانية دكاكين، يعمل بها ثمانية عشر ناظرًا، كلهم من اليهود ، وهم الذين يصنعون الصفائح، والعلب من الصفيح المطلي والمقصود من أجل حفظ الأشياء .

وجملة هؤلاء الجواهرجية وحرفيِّيهم الذين سجلناهم تبلغ ٢٩٣١ نفراً، وكل منهم يظهر مهارته وشتى أنواع معارفه ، يسيرون وهم يتمازحون فى المواكب ، ويسير فى المقدمة رئيس الجواهرجية، وأمين دار سك العملة، وناظرها، ورئيس الدمغجية، وهم مزدانون بالجواهر التى تغطيهم، يسيرون ومعهم رؤساء سُيَّاسهم، ومن خلفهم موسيقاهم وهى تعزف مقطوعاتهم المعهودة .

سادس عشر : أصناف الخياطين (أى الترزية)

شيخهم سيدنا إدريس، ولكن فى عصر النبوة شيخهم هو داود الظاهرى . دكاكينهم سبعمائة، أفرادهم ثلاثة آلاف، معظمهم من مسيحيى الروم، وقلة منهم من المسلمين. ثم أصناف سوق الجند ، وهم فى أعماق السلطان حسن، لهم أربعون دكاناً، ولكن على الرغم من أنهم على طريق سلطانى عامٍ، فإنهم يجتمعون نحو خمسة آلاف رجل ويذهبون يومى الاثنين والخميس إلى خان الخليلى . ثم أصناف الحلاجين ، شيخهم منصور زاهد القطا، معمر يرقد فى بلاد الرى، ولا علاقة بينه وبين منصور الحلاج الذى ظهر فى بغداد. وعدد دكاكين الحلاجين مائة وخمسون دكاناً، بها مائتا حلاجٍ . ثم أصناف ترزيِّى طواقى النساء ، ستون دكاناً أنفارها مائة نفر . ثم أصناف الطواقى ، مائة دكان، بها ثلاثمائة نفر. ثم أصناف أغطية الرأس ، أربعون دكاناً بها ستون نفراً. ثم أصناف منجِّدى الألحفة، خمسون دكاناً، بها مائة وستون نفراً. ثم أصناف خياطى القمصان مائة وخمسون دكاناً، بها مائتان وخمسون نفراً . ثم أصناف الرفائين وهم الذين يرفون الأشياء ذات القيمة من الملبوسات إذا ما أكلتها العتة أو اخترُقت نتيجة خطأ ما، ويعيدونها كالأول، اثنا عشر دكاناً يعمل بها ثلاثون رفَّاءً. ثم أصنْاف خياطى اليمبة ، شيخهم عمار بن ياسر، عُمِّر طويلاً، وهم أربعون دكاناً، أنفارها ثلاثمائة. ثم أصناف الغرَّالة ، وهم خمسون دكاناً، أنفارها مائة وخمسون. ثم أصناف القزازين ، شيخهم عبد الله بن جعفر الطيار، وهم ثلاثمائة دكان، بها ألف وستمائة قزاز . ثم أصنْاف الزرَّارة ، أربعون دكاناً، أنفارها مائة

وخمسون نفراً، أغلبهم من اليهود . ثم أصْناف الحرايرية ، لهم مائة دكان، يعمل بها مائة وخمسون فى الغورية .

وجملة هؤلاء الأربع عشرة(*) حرفة ستة آلاف وستة وأربعون عدداً، وشجعانهم مدججون بالسلاح، مزدانون يودون عرض جمالهم، يسير فى مقدمتهم رئيس ترزية الپاشا، ورئيس ترزية المدينة، ومعهما، رئيس سُيًّاسهم، يسيرون ومن خلفهم المهترخانة وهم يعزفون على معازفهم مقطوعاتهم المعهودة .

(*) كذا فى الأصل ، " الأربع عشرة"!؟

الفصل الخمسون

فى بيان المهن والصناعات غير الموجودة فى مصر ولكن فى غيرها من الديار

من المعروف بين أرباب المعارف، وقد صار يجرى على أفواه الناس كضرب المثل « أن فى مصر خيولاً كثيرة، ولكن ليس بها صانع حدوات ماهر لها »، وجميع مَنْ بها هم صنّاع حدوات للحمير . وعدد المرضى كثير، والأطباء قليلون، المرضى بعلّة العمى كثيرون، والكحّالة (= أطباء العيون) قليلون. وصار هذا الأمر هو الآخر مضرب الأمثال، وهو صحيح إلى حد بعيد، فلو كان واحد من رجلين عليلاً بأمر الله، ولم يستطع أن يرى شيئًا ما بشكل جيد للعلة التى فى عينيه، يقول الآخر : إن عينيك كعينى ابن العبد المصرى وحقيقة الأمر ؛ فلو أن ابن الروم، ولد فى مصر، فإن عينيه أيضًا تكون مشوشة بأمر الله الحى المتعال، فهذا أمر جار لقلة الأطباء والحكماء . كما يقولون إنه ليس بين المصريين من حاكم ، ففى ما بينهم حاكم شرعى وحاكم عرفى، والحاكم العرفى هو صاحب السطوة والسيطرة ، وما الوالى أو الوزير إلاً كالملتزمين الذين يئول إليهم جمع الأموال فقط . كما لا يوجد فى مصر طواحين مياه، ليس بها عيون متدفقة، ولكن آبارها كثيرة، وليس لديهم موازين خاصة للدقيق أو الزبد والدهون، أو موازين لعسل النحل، بل عندهم ميزان حرير، وبيت شمع، وخماسية، ومشغل خيوط الصيرمة، ودار تحميص، وبيت أسرى، وسوق مغطاة للأشياء الثمينة، والجواهر ذات القيمة . ولكن ليس بها مكان معيّن للميرى، والسوق المغطاة الموجودة هى خان الخليلى، وليس هناك سوق مغطاة سواها. وبسوق خان الخليلى دكاكين خاصة بهذه الأشياء ذات القيمة الثمينة، وليس بها دكاكين خاصة للدقيق، وليس بها

مسامط من أجل تسوية لحوم الماشية كبلاد الروم، ولا يوجد في مصر بوصلة حي أو مَنْ يحدد القبلة بدقة، وليس بها وتّارة، أي مَنْ يصنعون الأوتار للآلات الموسيقية والأقواس، كما لا يوجد في مصر صنّاع الخردل، ولا صنّاع الصلصة، ولا صنّاع الغيراء، كما لا يوجد بها دكاكين لصناعة أو بيع الدروع والتروس، بل تأتي من بلاد الچركس والداغستان، كما تأتي الدروع من الشام وبخاصة من حلب، وتأتيها الجلود من كل البلدان، وتأتيها البنادق والمسدسات من الجزائر، وهذه مقبولة في مصر. وليس بمصر دكاكين لصناعة الأحذية الطويلة، أو الموازين الحديدية، أو الموازين النحاس، ولا صناع المسامير أو المناشير، كما لا توجد محلات لصناعة الآلات الموسيقية، وآلات الطرب كالطبل والدفوف والرباب والكمان وما شابه ذلك . ولكن عندهم صناعة جيدة للزجاجيات، والأطباق، والطاسات. وليس عندهم دكاكين لجلاء وتلميع الألماس، أو محلات الأسلاك الحديدية، بل تأتي جاهزة من بلاد الفرنجة، كما لا يوجد بها محلات للقصدير والرصاص . ولكن هناك رجلاً واحداً مشهوراً يسمى الحاج ناصر، وقد صار ماهراً في صب ألواح الرصاص بعد أن دربّته أنا العبد الفقير على ذلك ، وهو الذي يقوم بصب هذه الألواح وإرسالها إلى مكة المكرمة، وتوريدها إلى دور الشفاء والعمائر الخيرية للخاصكي [٩] باشا، ولكن يأتي إلى مصر

(٩) الخاصكية (= خاصة كي) Haseki : مصطلح يُطلق على الجارية التي يستحسنها السلطان ، وتدخل ضمن محظياته " كانت الفتاة التي تقدم إلى السراى هدية أو تشترى في البداية " أعجمية " أي ما زالت خامًا ، ولم تدرب بعد . ثم تُصبح " قلفه " وفي النهاية تُصبح " خزينة دار ". وللترقي في هذه المناصب كان الأمر يتطلب إلى جانب الجمال العلم والخبرة وحسن المعاشرة ، ومن تَرُقْ للسلطان تصبح " خصكي أو خاصكي " أي خاصته أو محظيته . ويمكن أن يكون للسلطان أكثر من خاصكية قد تكون أربعًا وحتى ثمان محظيات . وقد يختار السلطان من بينهن من يكن زوجاته ، وتكسب لقب "سيدة " بدلاً من محظية . ويعيّن لكل خاصكية أي لكل محظية حرم أو دائرة خاصة بها .

ومن كانت تنجب للسلطان وليا للعهد كانت تُسمى والدة سلطان أي السلطانة الوالدة ، وظلت بعضهن محظيات أي خاصكية للسلطان على الرغم من حصولها على لقب والدة سلطان ، فليس من الضروري أن يتم الزواج . وأول من فكر في أن تكون الزوجة بعقد النكاح هو السلطان عثمان الثاني وإبراهيم ، وكان بعد السلطان محمد الفاتح . وقد أراد الأول بزواجه بابنة شيخ الإسلام أن = يجعل نسله من زوجات ، لا من

من كل البقاع المعمورة كل ما هو موجود بها، كما يأتيها من ولايات الجهات الأربع شتى أنواع الأمتعة . فكل الأشياء ذات القيمة، وغير القيِّمة، موجودة فى مصر أم الدنيا، كما أن هناك بعض الحرف لا تحتاجها مصر، لأن مصنوعاتها تأتى من بلاد الهند واليمن .

= يجعل نسله من زوجات ، لا من محظيات . وكان السلطان إبراهيم إذا أعجبته خاصكية يعقد عليها ويتم العرس ، إلا أن هذه العادة قد استمرت حتى عهد السلطان عبد الحميد الثانى ، ففى عصر هذا السلطان كانت زوجات السلاطين من الخاصكية ، وكان يُطلق على أطفالهن " خاصكى سلطان " وبعده أُطلق لقب " قادين أفندى " على سيدات القصر .

وكان من الأسرار المحرمة الأسر التى تدخل فتياتها إلى السراى، ولم يكن يسمح بتداول المعلومات عن حريم السلطان على الإطلاق ، وذلك بهدف الحفاظ على نسب وسلالة الأسرة العثمانية الحاكمة .

الفصل الحادى والخمسون

فى بيـــــان الاحتفال الرابع فى مصر وهو احتفال العيد
وما يرتبط به من عادات وتقاليد ومباهج ومسرات

الاحتفال الأول هو موكب استقبال وزير مصر عند دخوله إلى مدينة مصر المحروسة، والاحتفال الثانى هو موكب فيضان النيل المبارك، والثالث هو الاحتفال بليلة المحتسب، أى ليلة رؤية [هلال] الأول من رمضان، أما الاحتفال الرابع فهو موكب الاحتفال بعيد رمضان، فهى أيام يزدان فيها العالم ويتزين فيها المحبون .

وسيدات مصر يعقدن النكاح، فى هذا العيد المبارك وذلك من أجل الخروج والتفرج ، كما يحدث فى ليلة الرؤية، ففى هذه الليلة أيضًا لا ينام أحد فى بيته، بل يخرج الجميع للفرجة. منذ اليوم السابق على العيد، أى فى يوم الوقفة، يأتى رئيس فريق الموسيقى وأتباعه إلى فناء قصر الباشا، ويُقام سرادق سليمانى عظيم، وتُقام مظلات أو خيام من أجل العازفين، وتُقام الزينات المختلفة حول السراى، ويُزيَّن الميدان . وفى هذه الليلة يُحضر رئيس طاقم الموسيقيين (= المهترخانة) السلطانية تسعة أطقم من العازفين، وحَمَلة الطبول الشاهانية، ويقدمون اثنى عشر فاصلاً موسيقيا فى الاثنى عشر مقامًا، ويظلون على هذا المنوال حتى الصباح، وكل فاصل من هذه الفواصل الموسيقية وكأنه فاصل حسين بيقرا . وطوال الليل ومع هذه الموسيقى تُقدَّم أدوار القهوة فى أطقمها

المنقوشة والمزخرفة إلى كل الأغوات [١٠] الموجودين فى السرادق، كما يُقدم البخور والشربات .

ويظل الأمر على هذا المنوال إلى أن يحين وقت الصباح، ويُقيم عزيز مصر صلاة العيد فى فناء سراياه . وتكون آلاف الحُصر قد مُدت وفُرشت حول السراى وفى الأفنية المجاورة، وفى هذه الأماكن الفسيحة والمعدة جيداً يؤدى القواد والقادة والأشراف والسادات والأعيان وأرباب الديوان صلاة سنة الفجر فى فضاء السراى، ثم أى سنة . وعقب ذلك يُقيم مؤذن الديوان العالى الصلاة على مقام السيكاه ، ثم يقوم إمام الديوان بتلاوة الآيات الشريفة المتعلقة بالعيد الشريف ﴿ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا ﴾ [المائدة ٥/ ١١٤] . وغير ذلك من الآيات والأحاديث، ثم تؤدى صلاة الصبح .

---

(١٠) الأغوات (= آغالى) Agalar : مصطلح عسكرى وإدارى كان يستخدم فى العصر العثمانى ، ويُطلق على كبار موظفى الدولة .

كانت الأغاوية من المناصب المهمة قبل تنظيمات ١٨٣٩ م = ١٢٥٥ هـ . وكان يُطلق بصفة عامة على ضباط الإنكشارية ، ثم بدأ يُستخدم لمن لا يعرفون القراءة والكتابة وكبار ملأك الأراضى الزراعية ، كما كان يعنى الكرم وعلو الجناب والفضيلة .

ولُغويا تدل على السيد الكبير والشقيق الأكبر ، ويُطلق على العم ، ويُطلق كذلك على رئيس الحى وصاحب الكلمة فيه، وعلى رئيس القبيلة أو العشيرة . ثم بدأ يأخذ أشكالاً مختلفة وفقًا للوظائف التى يتولاُها، فهناك أغوات الديوان وأغوات الإنكشارية وأغوات الحرم ...

وأغوات الحرم كانوا يُختارون من الطواشية الذين قاموا بالخدمة فى الحرم، وبين الحريم السلطانى وفى قصور العظماء ورجالات الدولة . وكان يُطلق عليهم " حرم همايون "، وبعضهم كان من الطواشية البيض والبعض من الطواشية السود . وظل الأمر كذلك إلى أن تم إلغاء هذه العادة فى زمن السلطان أحمد الثالث ١١٢٧ هـ = ١٧١٥م ، كما كان منهم أغوات الإنكشارية .

وبعدها يقوم الفراشون برفع الحصر كافة ، ويظل أهل الديوان، كل منهم ثابت فى موقعه . ويكون كتخدا الوالى وأغوات النوبتچية الاثنا عشر فى كامل خلعهم السمُّورية وهم فى وضع الاستعداد، ويكون الپاشا بدوره فى أتم أُبّهته، وخلعته الحمراء السمورية، وقد وضع على رأسه العمامة السليمية وقد زيَّنها بجوهرتين رائعتين، وعن يمينه وعن يساره السلحدار(١١) . وما إن يخرج إلى ديوان قايتباى حتى يكون الكتخدا عن يمين كرسى عرشه وعن يسار الكرسى صاحب المدينة، وخلف الباشا يكون السلحدار، وعلى رأسه فراء أحمر وكأنه لبدة إنكشارية مزركشة، وفى قدميه الحذاء الچركسى الأصفر، وقد ارتدى شلواره القطيفة المزركش، وقد أمسك بيده سيفًا مرصعًا بالجواهر الوامضة، كما يقف على نفس المنوال الچوخه دار وهو فى أبهى زينته . وكانا يقفان جنبًا إلى جنب خلف ظهر الباشا، وملاصقين لقفاه تمامًا . كما يكون أغوات الداخل أصحاب المراتب الاثنا عشر، وقد ارتدوا الفراء السمورى المزيَّن، يقفون بدورهم خلف الباشا تمامًا . أما أمام الباشا فقد كان يقف كتخدا الجاويشية، وبجواره رئيس المتفرقة، وعلى بُعد قريب منه رئيس المترجمين ثم كتخدا حراس البوابات، وبعدهم أغوات الديوان الاثنا عشر وهم بخلعهم الفاخرة، وفى أياديهم عصيان فضية . ويقومون بمرافقة الباشا عند نزوله من درجات سلالم ديوان قايتباى، ويرافقونه حتى الركاب، ويكون فرسه المطهم والمزين بالجواهر والذهب فى أتم الاستعداد، وما إن يمتطى صهوة جواده حتى يتقدمه جلادو المحتسب والصوباشى، ويسير أمامه سائر الأغوات حسب الترتيب وهم مترجلون ، وما إن يسيروا مائة خطوة حتى يهب سائر الميرميران (= القواد) لاستقباله، وينزلوا عند ديوان سليم خان . ولكن

(١١) السلحدار : لقب لواحد من الأركان الكبار فى القصر العثمانى ، وعلى الرغم من أنه كان يسمى سلحدارى شهريار فقد عرف بأنه السلحدار، وكان السلحدار فى الفترات الأولى يعد وظيفة مهمة لواحد من المقربين إلى السلطان ، وكان فى المراسم والأعياد يركب الفرس ويسير على الجانب الأيمن للسلطان ، ويضع على كتفه اليمنى سيف السلطان ويضع الكوفية من القطيفة الحمراء اللون على رأسه (پاقالين. ج٣ صـ ٢٢١).

فى زمن جانبولادزاده حسين باشا - فى شىء من التواضع - كان يسير من ديوان قايتباى مترجلاً حتى يصل إلى الديوان السليمى وذلك تعظيمًا وتبركًا وتيمنًا بأعتاب أجداده . وعند وصوله مترجلاً، كانت تُحيط به الدعوات الخيِّرة من أهل الديوان، وهم يرددون: أطال الله فى عمركم، وعمَّره بخير الأعمال . فعندما وضع سليم خان أساس عرشه فى هذا الديوان . كان الأمر كذلك، بينما المعازف والطبول تدق حول الديوان، وهم فى الخيام والسرادقات المقامة لهم . وكان الشىء نفسه يحدث عند خروج الباشا أمير الحج، فقد كانت الطبول تدق وكأنها طبول الحرب .

وما إن يصل الپاشا حتى يقوم أميرالحج والپاشا القائمقام والپاشا الدفتردار(١٢) والأمير أبو الكلام وسائر الأمراء، بمصاحبته والاتجاه إلى الخارج . وعلى الفور يقوم أمراء الچركس الأربعون وكتخدا الجاويشية ورئيس المتفرقة والأغا المترجم وسائر أرباب الديوان، بتقبيل يده على عجل ، وبعدها يعود ويركب فرسه، ويكون فى مقدمته سائر الأغوات وهم على صهوة جيادهم . ثم ينصرف الأمراء تباعًا فى ثنائيات متتالية . ثم يتبعه جلاد المحتسب والصوباشى وجملة الشطار، وهم فى أبهى صورهم من الطاسات الذهبية، وحاملو البنادق والزمزميات، يتجهون نحو جامع قلاوُن، وتكون عندئذ الشمس قد بدت واضحة فى كبد السماء، فيردد جميع المؤذنين تسع تكبيرات، ويقام النداء لصلاة ركعتى العيد ، فتؤدى ركعتان سنة العيد، وبينما يصعد الخطيب

(١٢) **دفتردارية** : مصطلح مالى وإدارى كان مستخدمًا فى الدولة العثمانية ، والدفتردار هو ماسك الدفتر، وكان يُطق عليه فى المصطلح الإسلامى "المستوفى". كان ماسك الدفاتر فى الدولة العثمانية يُعتبر من أركان الدولة المهمين ، وقد حدد السلطان محمد الفاتح فى (قانون نامه آل عثمان) رتبة ومهام الدفتردار، وكان موكلاً بهم تسجيل وقيد دخول ومصروفات شتى الإدارات ، وحدد الفاتح ألقابهم ، وكان هناك (دفتردار خاصى) و (دفتردار أمينى) أمين الدفتردار . والدفتر خانة المكان الذى تُحفظ فيه دفاتر الحسابات . ودفتردار خاقانى هو المسئول عن حسابات السلطان . وهناك دفترخاقان أمينى، ودفتر خاقان ناظرى ، ثم دفترخاقان نظاراتى أى وزارة دفتر السلطان، وكان كتخدا الدفتر من الموظفين المهمين فى الدوة العثمانية .(انظر : محمد ذكى باقالين . عثمانلى تاريخ ديملرى وتملرى سوزلفى. جلد ١).

على المنبر، يقوم كتخدا القپوجية بإلباس الخطيب جُبة من الصوف الأبيض. وبينما الخطيب يتلو من فوق المنبر يقوم خدم الجامع بنثر البخور والمسك والعنبر من المباخر المتقدة، ويقومون بتعطير الجميع . وبعدها يقوم الباشا بمصافحة الخطيب والمشايخ ، ويقوم بالإحسان على كل منهم بألف پارة . وبعدها يعود موكب الپاشا مختصراً حتى يستقر فى ديوان الغورى وسط تصفيق الجاويشية، وعندما يستقر على رأس السماط المحمدى الممتد، تقدم ثلاثة آلاف طبق من شتى الأطعمة المسكيَّة والعنبريَّة الروائح، وتقدم الأطعمة النفيسة وتبذل النعم . ويكون على يمين الپاشا أمير الحج والقائمقام بك وسائر الأمراء والبلوكات، وعن يساره يجلس الدفتردار بك وأغوات بلوكات أبى الكلام، حتى يجلس أغا العزبان فى نهاية الصف النائى . أمَّا رئيس الجبجية[١٣] ورئيس الطوپچية[١٤] ورئيس عربات المدفعية والأغا المحتسب ورئيس الفاقلة، والصوباشى

---

(١٣) **الجبجى** Cebeci Cebe ---- Cebeci / Cebeci Ocagl : مصطلح عسكرى معناه مدرع ، أو مصفَّح . وكان يُستخدم فى العصر المملوكي للدلالة على الشخص الذى يرتدى الزرد ، وكان يُطلق عليه فى العصر العثمانى بكتر. bekter وقد شمل أيضًا قوات البيادة (= المشاة) الإنكشارية المسئولة عن إعداد السلاح وكل لوازمه وصيانتها وتقديمها من جديد إلى القوات المقاتلة . وكان يطلق عليه معسكر الجباجية، وكان لهم جاويشيتهم وكتبتهم ومعسكراتهم الخاصة بهم، وكان بينهم أيضًا فرقة خاصة بالألغام والبارود والمفرقعات. وكان يرأسهم جبه جى باشى. " أى قائد أو رئيس الجبجية، وكانت لهم جبخانات خاصة بهم، أى دور لحفظ المهمات العسكرية والمفرقعات والألغام... إلخ. ... (انظر : پاقالين).

(١٤) **الطوبجية** Topçuluk : مصطلح عسكرى كان يُطلق فى العصر العثمانى على معسكر المدفعية ، وكان يُطلق على قائده طوبجوباشى = Topçubasl . ثم تحول هذا اللقب إلى مشير (= فريق)الطوبخانة عام ١٢٨٤ هـ = ١٨٦٧ م، وكان هو القائد المسئول عن صناعة المدافع وإعداد وتدريب أطقم المدفعية على مستوى الجيش العثمانى . ليس بين أيدى الباحثين سجلات تحدد تاريخ ظهور منصب الطوبجوباشى العسكرى بالضبط، وإن كان قد ورد ذكره فى قانون محمد الفاتح، حيث كان الطوبجو باشى من أغوات (= قواد) القوات العسكرية ، وإن كان مكانه فى التشريفات يأتى فى المؤخرة (انظر : پاقالين).

وكتخدا الجاوشية ورئيس المتفرقة ورئيس المترجمين، فهؤلاء جميعًا هم خدَّام الديوان السلطانى، ويقومون بالخدمة ولا يجلسون مع الباشا على نفس السماط ، ولكن على الطرف الآخر من الأطباق التى تضاهى الجبال، فيدعو كتخدا الجاوشية المسنين فى البلوكات السبع ورئيس المتفرقة، ويفد هؤلاء جماعات جماعات ويأخذون أماكنهم على السماط، وما يكون من الباشا إكرامًا وتعظيمًا لهؤلاء إلاَّ أن يلقى إلى كل منهم ببعض من النعم التى أمامه، كأنْ يرسل بدجاجة أو بحمامة، وقد تصل إلى المقصود أو تتجاوزه أو لا تصله ، وقد تسقط على لحية البعض أو على رأس الآخر ، ويتقبل الجميع هذا وسط فرحة وسعادة من الجميع . وعلى هذا المنوال يقوم الباشا بتقسيم بعض القطع من الشواء الذى أمامه. وما إن يطلق " باسم الله " ويباشر تناول الطعام . حتى تهم الأيادى والأفواه المنتظرة فى النواحى والضواحى من ديوانخانة الغورى بالتهام ما يقرب من اثنى عشر ألف طبقٍ فى ضعف قامة الإنسان، ويغوص الجميع وعلى رأسهم الإنكشاريون فى هذه النعم اللذيذة . ويدخل أرباب الديوان وخدَّامه، وفى طرفة عين يعلم الله كم عدد الأيادى التى امتدت لتلتهم هذه الأطباق الاثنى عشر ألفًا، ويجعلونها نظيفة تمامًا . وخلال هذه "اليغمة"، كان صدى الارتطام يدوى فى الأرجاء حتى يصل إلى داخل أرجاء سراى مصر ! وقد تابعت أنا الفقير هذا الصدى من الحى . واللهو الذى كان يتردد، وفجأة صمت الصوت عقب التهام هذه الأطباق النفيسة، وما هى إلا برهة حتى يدخل مائتان من خدَّام الباشا وعملة مطبخه، ويرفعوا هذه الأطباق الخاوية فى طرفة عين مرسلين إياها مع الدادابانات ، فتتكوم كالجبال . ثم يتجه الباشا لتحية أرباب وأهل السماط الخاص، ويدعو الجميع، وهو على رأس السماط، مانحًا كل من يدعوه ما يستحق من التعظيم والتقدير . وكان بكوات الجراكسة دائمًا على رأس كل رمَّة، وكثيرًا ما كانوا ينهضون مفسحين الطريق لمشايخهم، ومشايخ الديوان السبعة والسبعين، والذين هم جميعًا من قُدامى البلوكات السبعة . وكان الباشا أيضًا يمازحهم بإلقاء أجزاء وقطع من اللحوم المختارة، وكان بعضها أيضًا يسقط على اللحم والبعض على الرءوس، ويلتقط بعضهم هذه القطع قبل

أن تستقر . وكان الپاشا إذا ما أشار على رئيس المتفرقة وكتخدا الجوايشية والترجمان بالجلوس، كانوا يجلسون، ثم ينهضون فوراً مرة أخرى ليقوموا بالخدمة، ويدعون مشايخهم إلى السماط، ولكن الپاشا لم يكن يغفل النظر إلى أغوات الديوان الاثنى عشر ذوى الخلع، وإلى أغا حاصل الخرج (= المصروفات) ؛ فهم وقوف على أقدامهم للخدمة، وهم يتناولون طعامهم فيما بعد . ثم ينهض الپاشا، ويجلس فوق سجادة سليم خان، فينهض الأمراء كافة، وينتظرون إلى أن يغسلوا أياديهم . خلال تلك الأثناء يشير رئيس القپوجية إلى رئيس المهترخانية، فيطلقون نوبة من طبلاتهم؛ يقوم پاشجاويش الإنكشارية بإعطاء إشارته إلى رئيس الطوپجية الموجود فى برج القلعة، فتُطلق المدفعية أربعين طلقة تعظيماً لقدرة الخالق، فيتردد الصدى من جبل الجوشى (= الجيوشى) ويكون الصدى عظيماً، وفى لمح البصر يقوم رئيس ذواقة الپاشا ومائتان من مساعدية برفع الأطباق، وفى أعقابها ينزل ثلاثة آلاف طبقٍ ، وفى بعض الصحون قِبَاب من العصيدة، وبداخلها الحمام المحشوُّ والديوك والأرانب، ويكون هذا محطَّ مشاهدة وفرجة أرباب الديوان . وبعد ذلك تُرفع سائر الصحون والأطباق ، وعلى الفور يقوم فرّاشو وعرافو الديوان - كتقليد مستمر منذ أيام السلطان فرج والسلطان قلاوُن والسلطان قايتباى - بإحضار الأباريق والطسوت المصنوعة من البرونز والنحاس الأصفر والتى تُشبه الذهب ، والقطع مختلفة الأنواع من الصابون، ويتقدم رئيس العرافة، ويُقبل آخر بالصابون المسكى والعنبرى، فيغسل الپاشا يديه، ويغسل الجميع بعده أياديهم على هذا المنوال . ثم يستقر كل إنسان فى مكانه، ثم يقوم المنشد بترتيل الدعاء المستوحى من الآية الكريمة ﴿ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ ﴾ . ثم ينتقل بعد التلاوة إلى الحديث عن حضرة النبى المصطفى (صلى الله عليه وسلم)، وعندئذ يقف الجميع من أشراف وأعيان .تكريماً وتعظيماً، وبعد أن يتم ذكر الدعاء مرتين لسلطان آل عثمان والمسح بالأيدى على الوجوه، ينهض الجميع وقوفاً أيضاً، وبهذا يكون قد تم الدعاء . ثم يبدأ البكوات فى النهوض، ويتجهون فوجا إثر فوج حتى يصطفوا على الترتيب، وبينما هم يقومون

بالسلام يكون جاويشية الديوان مستمرين فى تصفيقهم . وعلى هذا المنوال يقوم أمراء الچركس الأربعون بالسلام ، ثم يقوم الجاويشية بالسلام أيضًا وسط التصفيق، ثم يتبعهم أغوات البلوكات السبعة بالسلام وسط التصفيق، ثم يتبعهم قُدامى معسكر الإنكشارية، ثم كتخدا الجاويشية، ورئيس المتفرقة، ورئيس التراجمة، وبعد أن يُسلم كل هؤلاء ينهض جاويشية الديوان، وجميع أرباب الديوان، وينهض الپاشا بدوره، ويسلم على جاويشية الديوان، وهم يصفقون له أيضًا، ثم يدخل الپاشا قاعة العرض، ويتجه الجاوشية إلى دورهم، ثم يجلس الپاشا على كرسى فى قاعة قايتباى، فيبدأ الكتخدا بتقبيل يديه، فيلبسه خلعة سمُّورية، ويستقر فى مكان، ثم يتلوه مسئول (= محوِّل) المدينة ثم أفندى الديوان، ثم الإمام أفندى، ثم المؤذن أفندى، ثم المقابله جى (= التشريفاتچى) أفندى، ثم كتخدا القاپوجية، ورئيس البوابة الرئيسية، وأغا الرسائل، وأمين بيت المال، وحاصل الخرج، وأصحاب المراتب الاثنتى عشرة، ثم يتلوهم سائر رؤساء الحرس (القاپوجية) على الترتيب، ثم أغوات واجب الرعاية على الترتيب، ورئيس المتفرقة مع توابعه، تم دلى باشى (رئيس الفتية) وتوابعهم، وأغا الگوگلويان (= المتطوعة) مع توابعه، وعازفو المتفرقة الفرق الثلاث المهترخانية مع أنفارهم، ورئيس مهترخانة الخيمة مع توابعه، والأغا وكيل الخرج (= الصرف)، ورئيس الطباخين وتوابعه، ورئيس الخبازين وتوابعه، وأمين المطبخ، ورئيس الكيلارجية وتوابعه، وكاتب المنصرف، وكاتب الكيلار، وكاتب الخبز، وكاتب بيت المال، وكاتب أمين الشعير، وكاتب الإسطبل، ورؤساء الماطارجية (= حملة زمزميات المياة)، والشطار، والمتذوقة مع توابعهم، وأغا الإسطبل الأميرى مع الأنفار، ورئيس السرَّاجة، ورئيس اليدكچية (= الاحتياطية)، وغيرهم من موظفى السراى، ويقوم الپاشا بإلباسهم خلعًا من الجوخ والقماش القيِّم، ويقبِّلون يدى الپاشا، ويُكرَّمون ، لأن هؤلاء من المقدَّمين فى وقت الحرب . فعازف المهترخانة الرئيس، ورئيس فرقة الخيمة، ووكيل الخرج، ورئيس الطباخين، ورئيس الذاوَّقة، ورئيس حَمَلة المشاعل، هؤلاء الشخصيات الست يُخلع عليهم بالخلع الفاخرة، ويظل رئيس المهترخانة ورفاقه يعزفون المقامات الاثنى عشر والفصول الاثنى عشر فى ليلة العيد حتى الصباح . ويكون رئيس مهترخانية

الخيمة السلطانية قد زين ميدان السراى، ويخدم فى السرادق هو والمائة والخمسون نفراً من أعوانه .

كما أن رئيس الطباخين إلى أن يتمكن من تسوية الخمسة عشر ألفًا من الأطباق طوال خمسة أيام وخمس ليالٍ، يكون هو ومساعدوه قد أصبحوا كبابًا، كما يقوم رئيس المتذوقة ومعه مائتان من أتباعة بحمل هذه الكمية من الأطباق، كما أن رئيس المشعلية يقوم هو والخمسون من أتباعه بإضاءة السراى وميدانه فى ليلة العيد بمائتى شعلة، وكذلك يقومون بإيقاد آلاف كثيرة من القناديل والمصابيح فى ديوان قايتباى، وديوان الغورى . ويُخلَع بالخلع الفاخرة على هؤلاء وعلى مساعديهم، كما يُحسَن على جاويشية الآلاى بعشرة دنانير ذهبية لكل منهم ، وبعد أن يقوم سائر الأغوات بالسلام ينصرفون كلٌّ إلى حيث أتى .

أما أغوات الداخل، وهؤلاء هم الغلمان الخواص، ففى البداية يقوم الإمام الخاص، باب العالم، والمؤذنون الخواص، ويقبلون الأيدى، ومن بعدهم الأغا الخازن خزينة دار (= صاحب الخزينة)، والسلحدار (= صاحب السلاح)، والچوقدار (= صاحب الملابس)، والنشانجى (= حامل النياشين)، والمهردار (= حامل الختم)، وكاتب الخزينة، وكاتب الهدايا (= المحلول)، ورئيس الكيلارجية [15](= مؤذن السراى)،

---

(١٥) **الكيلارجية** : اختلفت أعدادهم من عصر إلى آخر، فبينما كانوا نحو أربعين وصل عددهم إلى (١١٧)، وفى النصف الثانى من القرن ١٨مُنِح أكثر من خمسين ذوّاقة من مسنيهم أغاوية البلوكات .

يُمنح الذواقة يوميات حسب رتبهم ، وبلغت يومية الفرد منهم أربعين أقجة فى منتصف القرن ١٧ ، وكان يقدم لهم كل سنتين بدلات لأحزمة كحلية اللون وقفطان من القطن ، وكانت لهم مخصصاتهم من السلخانة العامرة شهريا، وكانوا يبيعونها ويقسمون أثمانها، وكان السلطان يُكلِّف بعضهم بتوصيل بعض الرسائل المهمة إلى بعض الولاة .

خلال أيام الجلوس والأعياد كان من القوانين المعمول بها المثول بين يدى السلطان وتقبيل يديه ونيل عطاياه ، وكانوا يأخذون أماكنهم بين المتفرقة أصحاب العلوفة والمتفرقة أصحاب التيمار . وكانت هناك ذواقة من السيدات يُطلق عليهن (جاشنكيرأوسطه) وعملن فى الحرم السلطانى وفى قصور والدة سلطان . (انظر : محمد ذكى پاقالين ، تاريخ ديملرى وترجملى . حـ١صـ٣٣٠- ٣٣١) .

ورئيس القهوجية، وغلام المفتاح، ورئيس العمّامية، ورئيس الچماشيرجية (= الملبوسات)، ورئيس القفطانجية، ورئيس الحلاّقين، ورئيس الدلاكة، ورئيس الحمام، ورئيس الباشكيرجية (= حملة الباشكير)، ورئيس السفرجية، ورئيس الشمعدانية، وأصحاب هذه المراتب العشرين، يُقبِّلون اليد على الترتيب والتوالى، ويكونون جميعًا فى أبهى ملابسهم القماشية المزينة والمطرّزة . وهم فى طلعتهم البهية يسيرون على الترتيب، ويقبِّلون أيدى الپاشا ، ثم يعقبهم ستون أو سبعون طواشيا حبشيا أو من بلاد الفونج من الذين أُهدوا إلى الپاشا ، وهم المكلَّفون بحمل الهدايا التى تأتى إلى الوالى الپاشا ، ويقبِّلون هم أيضًا يد الپاشا . ثم يأتى من بعدهم رئيس الفرقة الموسيقية الداخلية مع طاقمه المكوَّن من ثلاثين فردًا ، ويقبِّلون اليد الكريمة، ثم من بعدهم ستة من جاويشية فتيان الداخل يقبلون هم أيضًا يد الوالى الذى يستريح بعد ذلك كله .

وبعد الظهر يفد أيضًا العديد، بل كل الموجودين من الأعيان والأشراف للسلام على الپاشا ومصافحته . وفى الصباح التالى للعيد، يأتى أيضًا كتخدا الجاوشية، ورئيس المتفرقة، وأغوات التراجمة، ويقفون على أُهبه الاستعداد. وفى بداية اليوم الثانى يفد أربعون نفرًا من مشايخ المتفرقة وكبارهم فى السن ، ويعيِّدون على الپاشا الوالى ويقبلون يديه . وعقب ذلك يُقدم الأغوات خدم الداخل القهوة وهم فى أبهى زيناتهم، ثم يخرجون فيتبعهم آخرون يقدمون دورًا من المُلَبَّس، ثم يخرجون بطور طاوسى ، ثم يدخل آخرون وقد حملوا فناجين القهوة المختلفة الألوان ، وبخاصة اللون الزيتونى والنفطى والأصفر وذات النقوش الخطائية [١٦]، ويقدمون القهوة، وينتظرون حتى يأخذوا فناجينهم . وعقب احتساء القهوة ينصرفون على المنوال نفسه من الأدب والاحترام، وقد حملوا فناجينهم وأدوات القهوة ، ثم يتلوهم للمرة الثانية أغوات الداخل

---

(١٦) النقوش الخطائية : نسبة إلى الرسّام والنقّاش خطائى (على أكبر) الذى عاش فى عهد سليم الأول وسليمان القانونى، له بالفارسية (خطاى نامه) عن الصين ١٥١٦، نُقل إلى التركية على أيام مراد الثالث نحو ١٥٨٢م . (انظر : المنجد فى اللغة العربية والأعلام صـ ٢٧٠) .

بدور آخر وبنوع آخر من الحلويات، وبحيث يدخلون فى بداية الأمر بالمزايت المختلفة الألوان، ويضعونها إلى جوار جميع الضيوف، ثم ينصرفون، ثم يدخل آخرون من أغوات الداخل وقد حملوا الأطباق الفاغفورية (١٧) المليئة بشتى أنواع الحلوى، ثم يتلو ذلك تقديم شتى أنواع الشربات من كئوس وكاسات ذات جمال أخّاذ، ولا يكاد المرء يحصر أنواع الشربات المقدم من شراب الورد والليمون والعنبر والتوت والبنفسج والتمر هندى، وغير ذلك من المشروبات التى لا تحصى ولا تعد . وكان يُخصَّص لكل ضيف غلام يقف أمامه، يقدم له الشربات فى الكأس أو الطاس، وقد أمسك فى يده منشفة ، فيقوم الضيف بعد الشراب بمسح فمه بهذه المنشفة، فيقدم له الغلام بيده اليمنى ماء الورد أو ماء البخور أو العطر السلطانى، أو ينثرون على أيادى الضيوف ماء القاضى أو غيره من الماء المعطر الجميل، ثم ينصرف الغلمان بعد أن يكونوا قد نثروا على كل الأعيان العطريات والروائح النفيسة .

يعقب ذلك فاصل من إلباس الملابس الفاخرة والخلع القيِّمة، وسط حشد آخر من الغلمان الذين ينثرون البخور، من المباخر الفاخرة التى تنبعث منها رائحة العود الماوردى والعود الملبَّس والعنبر الخام، وبحيث يصبح كل الضيوف مستغرقين بالروائح الطيبة الزكية، وتتمايل رءوسهم وأدمغتهم من العطر العنبرى. ولكن عندما يكون المرء بين المصريين فيجب أن لا يُغطى رأسه حينذاك بشال أو ما شابه ذلك، لأنه إذا ما تعطر عدة مرات بعطر مختلف وببخور متنوع، فإذا ما كان رأسه مغطى بالشال وما شابهه، فبعضهم قد يصيبه الجنون، وبعضهم يُصاب بالتسمم عقب تناوله للشربات والقهوة لعدة مرات مع هذا البخور، ولهذا فإنهم يخافون من ذلك . بعد ذلك

---

(١٧) **فاغفور** Fagfur : مصطلح فنى يطلق على كل الأوانى المصنوعة من البورسلين المصنوع فى الصين. ويُستخدم أيضًا على نحو " فاغفورى " . وبين الأوانى الصينية والفاغفورية فرق، فالأخيرة أكثر شفافية ، والمزخرفة بالزهور البيضاء يُطلق عليها خطائى . كما يُطلق فاغفور لقبًا على إمبراطور الصين، وهو مصطلح دخل من فرغانة إلى إيران ، ويستخدمه العرب " باغبور " . (انظر : پاقالين).

ينصرف هؤلاء المشايخ، ويدخل كبار ومشايخ الجاوشية، ويقدِّم لهم أيضًا على النسق نفسه والمنوال السابق، ويتودد إليهم الپاشا الوالى بالكلمات الطيبة وسط هذا الإعزاز والإكرام، ثم يعقبهم كبار ومشايخ السپاهية (= الخيَّالة) ثم مشايخ حملة البنادق (= التفنكچيا)، ثم من بعدهم مشايخ وكبار المتطوعة (= الگنوليان)، ويجرى تكريم وتعظيم كل هؤلاء بشكل زائد عن الحد .

ويُعبِّر ذلك عن التمنيات الطيبة للسلطان من مشايخ وكبار معسكرات الإنكشارية، ويتمنَّون له عيداً سعيداً، ثم يستأذنون فى تقبيل يد الپاشا الوالى حسب كبر سنهم ورتبهم ، ثم يقف كل منهم فى مقامه، ويقدم كل منهم كلمته. ويتم إكرامهم وإعزازهم بالشكل اللائق بهم أيضًا ، لأن للإنكشارية فى مصر اعتباراً عظيماً، وهم فى مصر يضمون بين صفوفهم ما يقرب من ألف من المتقاعدين من الكتخدائية والباشجاوشية والسردارية، وأتقاهم سريرة ، وتُطيِّب خواطرهم جميعًا وينصرفون .

ثم يأتى بعدهم باشجاويش معسكر (= أوجاق) العزبان، فيستأذن من الوالى الپاشا لكى يدخل عليه مشايخ العزبان وعجائزهم ، فيدخل هؤلاء، ويقبِّلون يد الوالى. فى البداية يكون الباشكتخدا (= رئيس المعتمدين)، ثم يتلوه الكل بالترتيب. ويقوم الوالى على النسق السابق بإعزازهم، وإكرامهم بالشكل اللائق بهم . ولكن فى زمن جانبولاد زاده حسين باشا كان يستدعيه قادة معسكرات الإنكشارية والعزبان إلى مقامهم للمعايدة ، وكان هذا يُعد تلطفًا منه ، فكلا هذين المعسكرين لهم مكانة خاصة ، وشهرة عظيمة فى مصر؛ مما كان يستدعى تعظيمهم .

ثم يتلو ذلك دخول وخروج بعض المشايخ الذين يدخلون للمعايدة والتبريك بالعيد، ثم ينصرفون . وعقب خروج هؤلاء، وانتهاء مراسم المعايدة ، يطلب الوالى فرسه قائلاً موسيقاها ، ويخرج الوالى للمسيرة فى المتنزَّه .

كان هذا هو قانون مصر، وقد تم تحرير موكب العيد على هذا النسق الذى رأيناه ، فجملة الأعيان والعظماء والأشراف يستأذنون فى المعايدة على

السلطان ، وهذا بدوره موهبة إلهية، فمن يصل إلى هذه الأيام يكُنْ مزدانًا بشتى أنواع الزينة والبهرجة . ويقوم المصريون أنفسهم بالمعايدة بعضهم على بعض فى شكل أفواج وجماعات، ويتمنون الخير بعضهم لبعض، ويباركون بعضم لبعض بالعيد السعيد ... وخلال هذا اليوم أو أيام العيد لا يُشرب الشربات فى المنازل قط، بل تُشرب السوبيا التى تُصنع من نقيع الأرز ، وقد سبق تحرير أوصافها، وطريقة عملها . وهذه السوبيا تُصنع فى مصر لهذه المناسبة قبل العيد بثلاثة أو أربعة أيام ، وكثيرًا ما يوضع داخلها القرفة والقرنفل، وهى شراب نافع جدا لمن هم يشتكون من بعض الحموضة .. وهو مقوٍّ ونافع ومفرح ويطفئ الحرارة ، وهو خاص بمصر وحدها . وتستمر الاحتفالات بهذا العيد السعيد ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ متواصلة، فهذه الأيام هى كأيام ليلة القدر فى مصر وتزدان ميادين مصر - كميدان الروميلى، وميدان حى الإسطبل الأميرى، وقره ميدان، وميدان مصر العتيقة، وبولاق، وباب النصر وضواحيها، وضواحى حى عابدين، وغيرها من آلاف الميادين - بالمراجيح والدواليب الدوَّارة، وغيرها من اللعب الصبيانية والشبابية التى تُضفى البهجة والفرحة على الجميع .

بيت من الشعر :

عيد گاهه واره لم اول گونده دوللاب سيرينه

گوره لم آيينه دوران نه صورت گوستره .

لنذهب إلى مكان العيد لنتفرج فى ذلك اليوم على الدواليب

لنرى أى صورة ستبديها مرآة الفلك

وانطلاقًا من هذه الفجوة فإن العشاق الصادقين يشاهدون الجمال، ويشغلون البال والخاطر، وهذه تكون نزهة . وإذا كان بين العارفين رجل وحيد فإذا ما رأى مليحة، يتقدم نحوها دون خجل أو حياء ، ويقول لها : ليكن عيدك سعيداً ومباركًا .

ويكون هذا بمثابة قبلة فى حديقة الجمال، ويتمنى لها أن تصل إلى مرادها . إن هذا من العرف السائد فى مصر ، وليس هذا عيبًا ، ولا يُعد هذا أمرًا غير مألوف، فالعرف فى مصر أنه خلال العيد يكثر العشاق والأراذل، وخلال العيد تسير الفتيات والفتيان جموعًا ، جموعًا، ويلعب الصبية والصبايا أفواجًا أفواجًا، ويتجولون فى المتنزّهات خلال أيام العيد . وليس هناك أى احتمال لأى تجاوزات أو اغتصاب لفتى أو فتاة أو سيدة ، فلا يجرؤ أى رجل أن يمد يده على غلام أو صبية، فهناك غاية الأمن والأمان بهذا العدد .

كما أن هناك فى مصر عبرة أخرى، فخلال هذا الخضم الهادر من البشر، ووسط الآلاف، بل مئات الآلاف، لا يمكن أن ترى رجلاً ثملاً فى الطريق العامِّ . ولقد تجولت كثيرًا فى الطرق والمتنزّهات، ولم أصادف مخمورًا قد تردى فى الطريق العامِّ ، أو ثملاً يترنح وهو يسير بين الناس، فهذا أمر معيب جدا . وإذا ما تصادف ذلك، فإنهم يقبضون علية فورًا، ويحضرونه أمام باب داره ويجلدونه، أوينفونه إلى قبرص أو إلى حدود بلاد الفونج ، ويظل إلى ما لا نهاية فى قلعة صاى على نهاية حدود بلاد الفونج هذه . فاحتساء الخمر أو الشراب فى الطريق العامِّ، وبشكل علنى، ممنوع . وشىء منفور منه تمامًا. ولكن الأشياء غير الملومة كثيرة، وفى العيد الشريف يُكثِر المصريون من دعوة بعضهم بعضًا ، ويقيم بعضهم لبعض الولائم ... ولم يُر مَنْ يرتدى شلواره الأحمر ويتجول فوق صهوة جواده الكحيلى لاستكمال مراسم الصحبة.

وخلاصة الكلام فالاحتفال بالعيد الشريف فى مصر يقصر عن وصفه اللسان، ولا يجرؤ على التطاول عليه إنسان ، وهذا من الأمور المعلومة .

الاحتفال الخامس فى مصر، هو الاحتفال بالعيد الأضحى

وفيه أيضًا يكون الفرح والسرور هكذا.

ولكن فى هذا العيد منذ يوم عرفة إلى عصر اليوم الثالث جميع الأهالى والمشايخ والدراويش يكبِّرون التكبيرات المعهودة فى عيد الأضحى، ويطوف بعضهم على منازل ودور وبيوت بعض، متمنين من الله أن يجعل الوقوف بعرفة فى مثل هذه الأيام المباركة ميسورًا، ويصافح بعضهم بعضًا . ولما كان الكتخدا إبراهيم باشا هو متولى مصر، فإن السجلات تُثبت أن أمين قيودات الأغنام قد سجل فى دفاتره أنه قد قُدِّمت أضاحٍ بلغت خمسمائة رأس من الأغنام والعجول والأبقار والجاموس والجمال . وهذا مسجل ومرقوم فى السجلات .

وهكذا يكون الاحتفال بهذا العيد المعظم، وتتحول المدينة إلى بحر من البشر . وهكذا يكون عيد الأضحى فيه السرور والبهجة ، والأضاحى تزيد من بهجته عن عيد رمضان المبارك، وفرحة الناس فيه لا يمكن التعبير عنها .

الفصل الثانى والخمسون

حسب القانون المصرى هو الاحتفال السادس، وهذا الاحتفال احتفال خاص بالوالى ويكون عند دخول الوالى إلى مصر

موكب استقبال الوالى

لقد كان التحرير والكتابة سابقًا عن احتفال الوالى، ولكن الكتابة كانت عن قانون مصر وآلاياتها وطرقا، وأركان الاحتفال ومخصصاته والفرق التى تُشارك وعددها ، ومواجبها السنوية . وأما ذلك الاحتفال الذى نحن بصدد الحديث عنه، فإنه من ألزم اللوازم المتعلقة بالباشا الوالى نفسه، وفيه سنبين جملة الأحوال المتعلقة به .

١ - وصف ما يسمُّونه موكب الاستقبال المصرى

وهو الاحتفال الذى يُعد لاستقبال الوالى الجديد، فقبل مجىء الباشا إلى مصر بشهر مسبق، يتجه الجاوشية[(١٨)] إلى شتى الولايات والمحافظات لجمع العساكر من الجهات الأربع، وذلك بهدف إظهار الجيوش الجرارة، ولإظهار مدى عظمة الجنود المصرية وكثرتها . ويجمعون من نفر ألف، ومن ألف إلى مائة ألف جندى حسب

---

(١٨) **الجاوشية** : اسم الواحد من الموظفين الذى كانوا يستخدمون فى الأعمال المختلفة . وكانت الجاوشية وظيفة قديمة جدا فى الدولة العثمانية ، وفى بداية الدولة العثمانية كانت الجاوشية تكلف بإجراء المخابرات السياسية وتفحص ومراقبة أحوال الدولة ، إلا أن هذه الوظائف كلف بها فى فترات تالية موظفون آخرون . القابى جى والديوان الهمايونى صـ ٣٣٢ جـ١ pakalin .

مقتضيات وظروف كل ولاية، ويتجمع فى مصر جيش كالبحر المتلاطم، ولكن إذا ما تأخر وصول الپاشا إلى مصر براً فإن ضواحى المدينة التى سيصل إليها تختل فيها أمور البيع والشراء، فمن ألزم لوازم أمور پاشا مصر أنه كلما وصل إلى مدينة، يتوالى وصول الرسل والأخبار التى تُنبئ عن وصول الوالى إلى المكان الفلانى فى اليوم الفلانى، وأننا قد وصلنا إلى المكان كذا ... وعلى الفور ينشط مسئول المدينة وقائمقام مصر فى القول والعمل، ويتأكدون من كل شيء ، وبعد ذلك لا بد وأن يصل رسولٌ من غزة، يُعلن أننا بمشيئة الله الرحمن سنتحرك فى الشهر الفلانى وفى يوم كذا من غزة. ومجيء مثل هذا الخبر من ألزم الأمور ، لأنه فى مثل هذا اليوم المحدد يخرج جميع أغوات أوجاقات[19] (= قادة معسكرات) مصر بهداياهم وخيامهم واستراحاتهم للاستقبال .

يخرج أولاً معتمد الجاويشية بخمسين جملاً بحرّاسها ومرخصيها وقد حُملت بماء النيل، وبألف صندوق من سكر النبات، ومائة برطمان من الأشربة (= الشربات) المختلفة، وأنواع متعددة وبلا حصر أو عدد من الفاكهة، وعشرين جملاً أخرى محملة بالخبز الأبيض والچورك ومأكولات ومشروبات متعددة . وكذلك فرس كُحْيلانى مطهم

(١٩) **أغوات المعسكرات (= أوجاق أغالرى)**: مصطلح عسكرى يُطلق على قادة معسكرات الإنكشارية ، ورئيسهم يُطلق عليه أغا الإنكشارية، وكان يُستخدم بدلاً منه فى بعض الأحيان " أركان المعسكر " أي أركان قوات الإنكشارية ، وكانت الرتب التى تلى أغا الإنكشارية كما يلى :

١- سكبانباشى . ٢- كاتب الإنكشارية . ٣- معتمد (= كتخدا) الإنكشارية أى وكيلها .
٤- أغا إستانبول. ٥- أغوات الأناضول الروميلى. ٦- كاتب الفضلاء .
٧- إما الأغا . ٨- قواد الميسرة . ٩- قواد المشاة. ١٠- قواد كلاب الصيد الفرسان.
١١- فرسان الكيان. ١٢- معتمد الميسرة . ١٣- قائد حاملى الرسائل والبريد .
١٤- معتمد (أى كتخدا) البريد . ١٥ - رؤساء البلوكات. ١٦- رؤوساء العنابر .
١٧- ضباط الخدمات .

وكانوا يعينون جميعاً بناءً على تقرير وتوصية أغا (= قائد) الإنكشارية .

باللجام الذهبى والسلاسل الذهبية أيضًا، والسرج مزين بالجواهر واللآلئ، ويكسوة مزدانة، وطواشي وفَرَس مزيَّن، وثلاثة أكياس من الهدايا . وتكون هذه الهدايا عند استقبال الوالى، وعدا هذه الهدايا فما إن يصل إلى مصر حتى تُقدم الهدايا المختلفة باسم الپاشا، وكلٌ حسب مقام ورتبة مقدمها . كما يكون هناك رجال فى غاية الاعتبار والزينة ، وهؤلاء بدورهم ما إن يروا الپاشا حتى يقدموا كل فروض التحية، وتهتز الأرض تحت أقدامهم، وينثروا ماء الزهر والورد . وهم فى غاية الجدية والالتزام العسكرى، وكل واحد منهم فى عقل أرسطو وشجاعته . ثم يعقبه رئيس المتفرقة الثانية[٢٠]، وهو بدوره مثل معتمد الجاوشية يقدم الهدايا، ولكن فرسه لا يكون مطهمًا بالذهب والفضة، وجميع الهدايا ثمينة ونادرة، ويكون فى معيته مائتان من المتفرقة وحَمَلَة الخيام على طول الطريق . ثم يكون ثالث المتقدمين رئيس التراجمة، ويقدم بدوره الهدايا، ولكنها ذات قيمة أقل من سابقيه ، ويسير فى معيته ما لا يقل عن عشرة رجال من الجلادين . ورابع المتقدمين هو الباشجاويش الإنكشارى، ويكون فى معيته ما بين أربعين وخمسين خيمة، ومائتان من رجاله الذين قد وضعوا على رءوسهم الطوغ وارتدوا الصداريات الفضية، ومعهم ملازم إنكشارى فى كامل لباسه التقليدى، على رأس مجموعة من الأفراد الإنكشارية ، وقد جاءوا لاستقبال الپاشا، ولكنهم لا يحضرون هدايا للپاشا، ولما كان هؤلاء الملازمون من المشاة الذين يسيرون على

---

(٢٠) المتفرقة Müteferrika : مصطلح يُطلق على أرباب الخدمة الذين كانوا يعملون فى خدمة السلطان والوزراء ورجال الدولة ، وكان يُطلق على رئيسهم الذى يعمل فى السراى " متفرقة باشى " أى رئيس المتفرقة . أول ما نصادفه أن هذه القوات كانت فى " قانوننامه " محمد الفاتح، وهم الذين يعملون فى خدمة الصدر الأعظم والوزراء ، كما كان أولاد القواد والنيشانجية يؤخذون للعمل فى خدمة السلطان تحت هذا الاسم .

وكان أبناء الصدر الأعظم الذين يلتحقون بهذا العمل يتقاضون ستين أقچة ، بينما أبناء الوزراء يتقاضون خمسين أقچة، وأبناء الأمراء يتقاضون خمسًا وأربعين أقچة. وكان يُطلق عليهم أحيانًا "واجب الرعاية أغالر " أى أغوات يجب رعايتهم . يعملون فى خدمة أغوات الإنكشارية فى سائر بلوكاتهم . (انظر : محمد زكى پاقالين).

أقدامهم، فقد كانوا يأخذون ألف پارة يوميا من الپاشا . ولما كان الباشجاويش يسير هو الآخر فى مقدمة الپاشا الوالى، فقد كان يمنحه ألف پارة يوميا، وسقّاء الإنكشارية يتقاضى ثلاثمائة پارة، وكان جملة الجاويشية يأخذون من الپاشا ثلاثمائة قرش فى الخانكة . وكذلك يتقاضى المتفرقة كان ثلاثمائة قرش، ويأتى مع جميع هؤلاء المتسلم الخاص للوالى ليكون فى استقبال الوالى الجديد أيضًا . ويُحْضِر هو الآخر مجموعة من الأشياء والهدايا لكى تكون ضمن مهمات المواكب، وهذه الأشياء أحذية ونعال وخفاف وغيرها، من المهمات التى تبلغ حمولة ثلاثة جمال، وهذه مخصصة لأغوات الداخل . ويقدمون إلى الپاشا سمُّوراً من الفراء، وسهمًا مرصعًا بالجواهر، وسيفًا مرصعًا أيضًا، وشلوارًا من القطيفة الحمراء، وعمامة سليمية، واثنين من الأعراف، وزوجين من البنادق الچركسية، ودبوسًا مرصعًا بالجواهر، وفرسًا كحيلانيًا، ثم يعقبه كتخدا القائمقام، ويقدم هو الآخر مثل ما سبق من الهدايا وفرسًا بلجام مطرز بالجواهر، وهؤلاء جميعًا يصلون بعد أربعة أيام من تحركهم من مصر إلى الصالحية، ويمكثون بها . وينتظر الجميع وصول الپاشا، لأن مقدمته عندما تصل إلى هنا يكون الپاشا فى العريش، وعندما يعلن التحرك يكون قد وصله كاشف الشرقية وفى معيته ألف من الفرسان بمهماتهم، لكى يساعدوا الپاشا فى قطع هذه الصحراء الممتدة من العريش حتى الصالحية، وهى صحراء جرداء تخلو من الزرع والماء . ويتسلم الپاشا هداياه، ويتحدثون فى لزوم ما يلزم من القول، وتكون ضواحى هذه المدينة قد تحولت إلى خير حال . وفى هذه الليلة الأولى من الوصول يُقيم كاشف الشرقية وليمة للباشا ، وتكون الخيول معدة للحركة من العريش، وتستمر الرحلة ست ساعات، ثم يتوقف الركب للاستراحة، وتقام أماكن الصحبة، ويستريح الپاشا، ويقدم كتخدا الجاوشية، ورئيس المتفرقة ورئيس المترجمين ومعتمد القائمقام جملة هداياهم بعد أن يكونوا قد تشرفوا بالسلام عليه . ولكن يبقى باشچاويش الإنكشارية فى الصالحية لكى يعد لمقدم الپاشا، وفى الصالحية يقدم إفطارًا جزئيا، وما إن يقترب الپاشا من الصالحية بعد مسيرة ست ساعات أخرى حتى يقف باشجاويش الإنكشارية وكل ملازميه " كتفًا سلاح " ، أى يكونون على أهبة الاستعداد، ويقبِّلون الأرض بين يديه، فيلاطفهم

الپاشا، ويتقدم الباشجاويش وملازموه أمام الپاشا فى مكان القائمقام، ويكونون جميعًا فى أبَّهة من الملابس المطنطنة . أو قد يحل المحضر باشى محله، وقد ارتدى على رأسه قلنسوة كبيرة مزركشة بريش البجع، وعلى خصره حزام عريض، ولبس فى رجليه حذاء طويلاً أحمر اللون، وكان يسير مترجلاً أمامه . ولقد أصدر عبدى باشا، أصدر أوامره إلى الباشجاويش بأن يمتطى صهوة جواده على الرغم من كبر سنه. ولكن الباشجاويش اعتذر قائلاً : إن هذا ليس قانون صاحب الدولة، إننا نهاب ركوب الخيل فى مثل هذه المواقف امتثالاً لما يقوم به معسكرنا فى دار السعادة العامرة. فيرد عليه الپاشا: إن لى إذنى الخاصٌ، فأنا بكداشى، وأنا نفسى ولى بكداشى، منذ أربعين سنة سابقة كنست أعتاب التكية البكداشية، وأنا أذنت لك ، اركب فرسك فوراً. وما إن سمع الباشجاويش هذا حتى قبَّل ركبتَى الپاشا راجيًا إياه أن ينقذه من الإصرار على امتطاء صهوة الجواد فى هذا المقام، فلم يعتادوا على ذلك فى معسكر مصر، وحتى [لا أُتهم من شيوخنا بأننى قد أفسدت القانون المعتاد]. ولكن الپاشا أصر على موقفه، وبصعوبة بالغة وإصرار كامل أركبه سبعة مَنْ أشداء رجال الباشجاويش فرسه . قائد عظيم ، مسن حقا، ولكن عشرين رجلاً لا ينزلونه عن صهوة جواده بعد أن يمتطيه، وبعد أن استوى على صهوة الجواد همزه، فانطلق الجواد، فسعد الپاشا بذلك، وأنعم عليه بأربع وسبعين ذهبية . وبهذا الموكب العظيم دخل الپاشا الوالى مدينة الصالحية ، وما إن أخذ موقعه فى المكان المعد لذلك لإقرار العدل حتى مثل أمامه على الفور ديوان مصر، واستمع إلى الدعاوى والشكاوى الكبيرة، وفصل فى الخصومة فوراً . وقد كانوا سابقًا خوَّفوا المصريين من الدفترادار أحمد باشا، مدَّعين أنه لا يأخذ من أحد فى هذا المقام حبَّة، بل هو الذى يُحسن على الجميع، كلٌّ حسب مقامه واستعداده . وقد قضى فى الدعاوى بصفة قاضى عسكر، ولم يكن يفرق بين شخص وآخر . ولما نزل الپاشا هنا فى الصالحية فى أوطاقه (= خيمته) الرئيسية ، ذُبحت مائتان من الغنم وخمسون عجلاً وعشرة جمال،

ونال العربان والعريان كلٌ نصيبه. وبعد الفرجة والاستراحة تحركوا من الصالحية إلى القرين، وطوال الطريق، والسير بجوار الماء الجارى من النيل، كانت جموع الأهالى تقدم الهدايا إلى العساكر والجنود، وأيضًا، وفى منتصف الطريق، أقام كاشف [٢١]الشرقية وليمة عظيمة، وقدَّم هنا أيضًا فرسًا كحيلانيًا أصيلاً . ووصل الباشا إلى قصبة القرين ومكث بها ، وهنا أيضًا أقام ديوان العدل، وجاءته الهدايا من أغوات البلوكات السبعة . وإن شاء الله سوف نكتب عن كل هذه الهدايا عندما يحين الحديث عن قانوننامه (= قانون تشريفات) مصر . ولما كانت مدينة القرين قريبة من بلدة بلبس (= بلبيس)، فقد خرج جميع أهالى البلدة لاستقبال الباشا ، وكان على رأس المستقبلين الروزنامجى[٢٢] ، وجملة أرباب الديوان، وقائد الجراكسة، وأغوات البلوكات السبعة، وقد قبَّلوا جميعًا يد الباشا . وهنا أيضًا أُقيم ديوان عظيم، ولما كانت هنا أيضًا تابعة للشرقية، فقد أقام كاشفها وليمة عظيمة، وامتد سماط الأكل والشرب لمدة أربعة أيام، وصرف عليها خمس عشرة كيسة. وهنا وفى هذا المكان تولى شيخ العربان قائد الدرك ، ولكى يسمح بمرور الجند والعسكر فلا بد وأن يُعقد له اللواء، وعندئذ فقط يمر الجند فى أمن وأمان . وبعد عبورهم فى سلام، تُقرَّر له المشيخة من جديد، وتُقدم له الخلع الفاخرة ، وعندئذ يُقدم شيخ العربان خمسة من أجود الجياد

(٢١) **الكاشف والكشَّاف والكشوفية** : [مصطلح مالى] ، الكشوفية نوع من النقود التى كانت تذهب من مصر إلى الدولة العثمانية . وترد فى الوثائق تحت اسم " مالى كشوفية "، وبعد التنظيمات الخيرية ١٨٣٩ م كان يُطلق عليها أموال الكاشف، وهو الموظف الذى كان يُعيَّن بدرجة متفرق على بعض من نواحى مصر، ويدفع مبلغًا من المال مُقابل الحصول على تلك الوظيفة . والمبالغ التى كانت تُرفع كانت تدخل ضمن خزينة " خرج السلطان " . (انظر : باقالين جـ ٢ صـ ٢٥١).

(٢٢) **الروزنامجى** : تعبير خاص يدل على الموظفين الذين كانوا يمسكون الدفاتر الخاصة بقيد الواردات اليومية والمصروفات، وقد حمل هذا الموظف ذلك الاسم نسبة إلى دفتر الروزنامة الخاص بقيد تلك الأمور، وبعد التنظيمات تحول الاسم إلى كاتب اليومية أو كاتب الوقوعات . (باقالين جـ٢ صـ ٦٠)

ذات الأصــول العربية المؤصلة، ويكون من بينها أيضًا فرسان أصيلتان ، ثم يتحركون من هنا. ولما كان قد بقى نصف مسافة الطريق، فهنا أيضًا يفد جملة الأمراء والقواد وأمير الحج ودفتردار المال العامّ وسائر الأغوات وأعضاء الديوان، ويلتقون بالپاشا هنا ، ومن هنا يتحركون جميعًا فى موكب فخيم إلى قصبة الخانكة، أى الخانقاه(٢٣). وهنا أيضًا أُقيم ديوان عظيم، ولما كانت هذه المنطقة تدخل ضمن تراب منطقة " قليوب " فإن كاشفها يُقيم وليمة وضيافة عظيمة. ويُقدم إلى الپاشا خمسة من الخيول الكحيلانية الأصيلة، بحيث يتجاوز ثمن الواحد منها ألف قرش، وهنا أيضًا تُقدم الخلع الفاخرة إلى شيخ عربان الدشيشة الشيخ صقر ، وتُقرر له المشيخة مرة أخرى .

ويقْدُم الكثير من مشايخ مصر وأعيانها وأشرافها ويلتقون حضرة الپاشا، ويأتى القائمقام فى موكب عظيم ويقبل الأيادى، ويحضر الكثير من الهدايا والجواهر والأغنام، وتُقدم المأكولات والمشروبات والبخور، ثم يتجهون من ضواحى البلدة نحو مصر المحروسة، وهنا أيضًا يقبل الأهالى جماعات وأفواجًا للترحيب وتقبيل الأيادى والانصراف .

٢ - فى وصف ومدح وادى العدلية والوليمة الربانية والديوان العثمانى وأفراح أهالى القاهرة المُعِزِّيَّة

يشهد اليوم الثانى دخول الپاشا فى موكب فخيم إلى العادلية، بعد مسيرة خمس ساعات، ويستقر فى خيمته الشاهانية، ويمتد السماط الرئيسى الذى يتسع لألف

(٢٣) **الخانقاه** : (= الخانكاه Hanlkah) : مصطلح صوفى انتقل من الفارسية خانكاه إلى العربية، ويعنى تكية مؤسساتها . أحيانًا يطلق على كراه " تكه = تكية " وعلى الأصفر " زاوية "، وساكن الخانقاه يُعتبر أعلى رتبة ومقامًا فى التكية ، وتُعتبر مؤسسة دينية بكل ما تحمله من معنى . (انظر پاقالين).

باشا. ويعمل فى خدمة الباشا ما لا يُعد ولا يحصى، وما إن يأخذ أمير السماط موقفه على رأس السماط حتى يتفضل قائلاً: إنا نحن جميعًا عبيد السلطان وخدمه. ويدعو الجميع إلى الطعام قائلاً: تفضلوا. ويدعو الجميع إلى الوليمة، ثم يتوجه إلى حيث الباشا ويدعوه إلى الطعام، فينهض الباشا، ويجلس على رأس السماط ، ويجلس عن يمينه أمير الحج، وعن يساره الدفتردار، ثم الأمراء والقواد وأمراء الچركس كل فى موقعه حسب الترتيب، ثم يجلس أغوات المعسكرات السبعة، وسائر أغوات المعسكرات وشيوخها، ويتناولون طعامهم من السماط المحمدى، وبعد ذلك يدعو جاويشية الآلاى جميع الأغوات إلى الديوان. ثم جلس الباشا فى صُفَّة العدل فى العدلية، فعزفت الفرقة الموسيقية (= المهترخانة) الشاهانية معزوفاتها الموسيقية . وأصغى إلى كل الدعاوى، فأصدر أحكامه القاطعة بفض الخصومة والفصل فيها، ويرفع الديوان إلى الغد، فينادى جاويشية الآلاى بأن المقام هنا سيدوم ثلاث ليالٍ وثلاثة أيام، وينادى بين الخلق بذلك، ويفد إلى صحراء العادلية الصغير والكبير من أهالى مصر، ومَنْ لا يملك خيمة يصاحب الأقارب أو الأصدقاء، أو يستأجر خيمة، أو يجلس فى العراء مع الأحبةً والأصدقاء، ويمكثون فى الخيام ويكون فى هذا الوادى آلاف الخيام والمقارٍ، ويكون هناك تجمع عظيم، وسوق كبيرة للجيش ... وخلال هذه الفترة لا يبقى فى مصر خيمة أو سرادق أو شادر إلاً وهو مقام فى هذا الوادى . ويحتشد الأهالى فى صحراء العدلية والطونخانية وسبيل علام ووادى الغورية، وتكون جميعها مزدانة بمختلف الزينات . كما أن الخيام من كثرة ما بها من زخارف تحول المكان وكأنه حديقة ورد، ويكون المشهد وكأنه جيش الشاه دارا[٢٤]. وطوال مدة الإقامة التى تستمر ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ تستمر الأفراح، وتتحول الليالى إلى نهار مضىء من كثرة القناديل

---

(٢٤) **الشاه دارا** : واحد من شاهات إيران العظام ، وهو التاسع والأخير فى سلالة كيانيان. ظل على عرش البلاد واستمر حكمه ١٢ سنة . فيما بين ٣٤٢ و ٣٣٠ قبل الميلاد. انهزم أمام الإسكندر الأكبر المقدونى وتوفى خلال فراره وانقرضت بموته هذه السلالة . (انظر : ش . سامى . قاموس الأعلام جـ٣، صـ ٢٠٨١).

والمشاعل والفوانيس، وتتحول الليالى جميعها وكأنها ليلة القدر، وأيامها كيوم العيد، وتُطلق فى الليل آلاف طلقات المدفعية من الخيام، والطلقات المتتالية من البنادق والفشنك، والنيران اللامعة ، وتختلط الأرض بالسماء، ويلفُّهما النور والضياء . وعلى كل خيمة أو أُوطاق وعلى أعمدتها، يُشعل ما يزيد عن ثلاثة آلاف قنديل، بحيث يتحول المكان من فرط الضياء وكأنه الشمس الساطعة فى سماء سليمان ، وقد انتصب أمام أوطاق الپاشا عمودان من أعمدة أشرعة السفن، وقد رُبطا معًا، وارتفعا إلى عنان السماء، ومن أعلاهما إلى أسفلهما ربطت بهما القناديل والفوانيس والمشاعل وتدلَّت من الحبال، بحيث تحولت ظلمة الليل إلى ضوء النهار الساطع، وتستمر هذه الاحتفالات والمهرجانات ثلاث ليال وثلاثة أيام متداخلة، وبشكل يعجز اللسان عن وصفه . ثم يمتطى جميع القواد صهوات جيادهم المطهَّمة، ويستعرضون بعض من مهاراتهم ، ثم تتالى هداياهم الثمينة المقدَّمة إلى أعتاب الپاشا، وكلها من أدوات الحرب، وعُدَد الخيل المصنوعة من الفضة والمرصَّعة بالذهب والجواهر . كما أن أغوات البلوكات السبعة، ومصاحبى السلطان، والأغوات السود، وقواد الچركس وأُمراءهم، والروزنامجى أفندى، وأفندية السبعين قلمًا، والأمناء السبعين، والسبعين كشافًا، والملتزمين الذين لا حصر لهم ولا عدد، يتسارع جميعهم فى تقديم الهدايا إلى مقام الپاشا، وتكون هذه الهدايا عبارة عن خيول وطواشية وغيرها من الهدايا العينية . والحاصل أنه تُقدَّم الهدايا إلى مَنْ دون الپاشا، اعتبارًا من كتخداه (= معتمده)، إلى أغواته الذين تبلغ رتبهم أربعًا وعشرين رتبة، يقدم إلى كل منهم الهدية المناسبة، بل تصل الهدايا إلى رئيس السُّيَّاس، وبقية من يعملون فى خدمة الپاشا . وخلاصة الكلام أن الإحسان، والإنعام يطول كل مَنْ له صلة بالپاشا، وعلى المصريين أن يقدموا إلى كل هؤلاء، إلى كل جانب الهدايا المشهودة، ما خف وزنه وغلا ثمنه .

الحاصل : يقدَّم إلى الپاشا ما لا يقل عن مائتين من الجياد المطهَّمة بأفخر أنواع الألجمة والسُّروج، وبكل ما تزدان به خيول الإسطبلات السلطانية، بالإضافة إلى مائتين من الجياد العادية الأصلية . ويقدم كذلك إلى كل واحد من أتباعه الخمسة والعشرين جوادًا مطهمًا، وهدايا أخرى. ويقال أو يقول المصريون إن

أمير خـور (= أميـر الإسطبل) من التحـرك من الصالحيـة إلى أن يصـل إلى العـدلية لا يكف عن تلقـي العوائد والفـوائد هـو ومعتـمد الپاشا، ولا يملأن من تلقى الهدايا . ولو كـان لدىً الإمكـانيـة لتحـرير كل ما وصـلنا عن العـادلية هذه لتحـولت إلى مـثل [ابن] جرير الطبرى.

وطوال هذه الأيام والليالى الثلاث فإن الصرف يكون من كيسة السلطان، أى أنه يُحسب ضـمن مـا يقدَّم إلى السلطان، وهذا هو السـائد منذ أقر ذلك السلطان سليم الأول ، فمنذ ذلك الوقت والمنصرف يُحسب على أنه أربعـون كيسة، بالإضافة إلى ما قيمته خمسـة آلاف پارة من العنبر، وألفان پارة من العود، وتقدم هذه المبالغ إلى رئيس متـعـهـدى المسك، وتُحـسب وتُقيد لدى حـامل الدفـتر (= الدفـتردار). إنهـا مـصـاريف ضخمة لوليمة عظيمة !

وجميع الأطعمة بهذه المناسبة تكون سكَّرية، فطوال هذه الأيام الثلاثة لا يشرب من أى إناء مـاء مطلقًـا، فـالجـمـيع يشـرب الشـربات المحلَّى بالسكَّر، وهذه المدة التى تستمر ثلاث ليالٍ وثلاثة أيام يقضيها المصريون فى المرح والفرح والمصاحبة المرحة . وهم بدورهم يصـرفون فى ذلك أموالاً طائلة، وقد يُضيع البعض منهم كل مـيراثه فى هذا الصدد، وبعضهم يصرف بسفه، وكأنه سفيه يصرف مما ورثة دون عَرَقٍ ، وبعض الأثرياء يصـرفون على طلقـات الفـشـنك وحـدها مـا يزيـد عن ألف قـرش، وكـانت هناك طلقـات من الفـشـنك تسـاوى أربعين قـرشًـا . ولكن الغـريب فى هذا الأمـر أن الأهالى جميعهم يصطنعون هذا الفرح، لأنهم جميعًا من توابع كوكب الزهرة، فأتباع هذا الكوكب يتـخذون من التظاهر بالسعـادة وسيلة . والحمد لله، فجميع أهالى مصر من المؤمـنين، ومن أدناهم إلى أعـلاهم يشعـر بالرضـا والقنـاعة، ومَنْ يكُنْ دخلـه ما يوازى خمس عشرة پارة، فإنه حريص على أن يدخل السرور على أهله وعيـاله . ولا يشبهون فى إسرافهم إخواننا التركمانيين، فهم من أنصار التوسط فى الصرف، مع المحـافظة على البهجة والمرح والفرح . ومن اللافت فى مصـر انتشـار اسمَىْ يا غنى، ويا مغنى، ومشتقاتهما .

٣ - فى بيان دخول وزراء مصر فى موكب عظيم وتحركهم من العدلية إلى مصر القاهرة

فى منتصف هذه الأيام والليالى الثلاث، يقوم المصريون بفك خيامهم وسرادقاتهم، ومقاراتهم، وكذا أغوات الپاشا جميعًا، ويتوجهون نحو مصر (= القاهرة)، وينتقل الأغوات إلى القصور التى أقاموها فى ضواحى مصر وحواليها، وعاد كل شخص إلى موطنه ومقامه ومسكنه، وقد ترك الجميع أثقالهم، وارتدوا الملابس النظيفة الخفيفة البسيطة، وتحول كل واحد فى قصره خادمًا ومضيافًا . وأيضًا يكون موكب الپاشا الذى كان فى العادلية قد وصل إلى مصر المحروسة، وبعد أن يصل الجميع يستعد أغا الإنكشارية، وأغوات البلوكات السبعة، وأغا العزبان، لكى يؤدوا صلاة الفجر مع الپاشا . وبعد الصلاة يتناولون ترويقة الصباح مع القهوة، وبعدها على الفور يهبُّ الآلاى [٢٥] والآلايات الأخرى للعمل والاستعداد فى أماكنهم، ويقوم جملة الجنود الذين لا تُحصى أعدادهم بالاستعداد الكامل، لكى يكونوا رهن الأمر والإشارة، وبعد الدعاء والثناء لعزيز مصر بالعظمة . يركبون جيادهم بلا ركاب، ويكون كل الجاويشية فى هذه الأثناء يدعون للسلطان بطول العمر، وليكون

---

(٢٥) **الآلاى** Alay : مصطلح عسكرى يُطلق على جماعة أو مجموعة متجانسة تمر فى موكب ما ، وأصبحت تطلق على العرض العسكرى ، أو الموكب الذى يمر أمام السلطان أو الملك أو الرئيس فى أيام معينة . ومن أهم الشخصيات فى المواكب أمير الآلاى ، وقائد الآلاى ، وأمين الآلاى ، وكاتب الآلاى.

وكذلك كان يطلق على مجموعة فى التشكيلات والتنظيم العسكرى ، فالآلاى يضم المشاة والخيالة والمدفعية ، ومن نظم الجيش العثمانى أن الآلاى يتكون من أربعة طوابير مشاة ، وخمسة بلوكات فرسان ، وست بطاريات مدفعية، فى كل بطارية أربعة مدافع بأطقمها . وإن كان هذا التشكيل قد طرأ عليه الكثير من التغييرات على مر العصور . وأضيف إليها فى العصر الحديث : إمام الآلاى ، ومفتى الآلاى ، وجاويش الآلاى . وكان لكل آلاى علَمه الخاص به يرفعه عند المرور فى الموكب أو العرض العسكرى .

كفاحه فى سبيل الله، وليطيل الله فى عمر سلطاننا ، وليعيش الجميع تحت ظل دولته وسطوته. وعقب انتهاء الدعاء يكون هناك فاصل من التصفيق، وبعد الإذن والسماح من سعادة رئيس المنجمين يسوقون سفينة الجياد، وعندما يصلون إلى مدفن السلطان طومان باى فى العادلية يقرأون الفاتحة الشريفة على روحه الطاهرة، وكذا يقرأ البعض بعض قصار السور، ويهبون ثوابها لروحه، وما إن يتجمع الموكب فى هذا المقام حتى تعزف المهترخانة عزفًا من تسعة فواصل، وتعقبها الطبول، فتهتز السماء والأرض من طبلها .

يبدأ الموكب والآلايات فى المسير، والجميع فى زينة وأبَّهة لا توصف، فالصولجانات لامعه، وقد ارتدى جاويشية الموكب والآلايات جميعًا مخافرهم الفضية، وعلى رءوس جيادهم الزينات الريشية المعهودة، يسيرون وهم يعزفون، ويطرقون طبولهم بشكل منتظم، ويسيرون على هذا المنوال حتى يصيروا وسط الجنود، ويسير الجنود أيضًا فى انتظام وهم يرددون: يمين ، يسار . وينطلق الجميع فى سيرهم فى ترتيب وانتظام، وسط فرحة عارمة، وبهجة وانضباط، وتكون المسيرة على الترتيب التالى: فى المقدمة الصوباشى وفى معيَّته سبعمائة بمعداتهم وسيوفهم، ويقومون بتطهير الطريق والطرق المغذية، ومن خلفهم تاتارية الپاشا وهم مدجَّجون بالسلاح، وهم مائتان من أشداء الجند، تسير أعلامهم فى مقدمتهم، ثم يتلوهم رئيس فتية الآلاى Alayl deli basl على رأس ثلاثمائة من الفدائيين الذين هم فى كامل زينتهم ، على ظهورهم جلود النمور، وعلى رءوسهم الطواقى التى تشبه أشرعة المراكب، وتيجان سمورية على رءوس خيولهم . وكل جواد من جيادهم يسير متبخترًا، وكأنه يحمل على ظهره الحسن أو الحسين، أو كأنه متجه إلى ممر الطونا، وهو حامل الغزاة المخضَّبة أكفهم بالحناء ، يسيرون وقد رفعوا بيارقهم المتعددة الألوان . ومن بعدهم يأتى موكب المتطوعين (= الجنولليان) وفى مقدمتهم أغاهم، وهم بدورهم مزدانون ومتدثرون فى ملابسهم الفخيمة كالدليان (= الفدائيين) ، يسيرون فى صفوف زوجية، وقد رفعوا بيارقهم وأعلامهم متعددة الألوان، ثم يتلوهم موكب الچاشنكيران (= متذوقى

الأطعمة)، ويمـرون وهـــم أيضًا يحملون أعلامـهم، ثم يتلوهـم موكب رئيس الكيلارجية (= المكلف بالمؤن الخارجية)، ويمرون هم أيضًا وقد رفعوا أعلامهم، ثم يتلوهـم موكب مهترانة الخيمة أى الفرقة الموسيقية المخصصة لخيمة القيادة ، وجميعهم يحملون أعلامًا بيضاء، وبملابسهم المخصوصة يمرون فى زهو وافتخـار. ثم يتـلوهـم موكب غلمان السرَّاجين الخواص، وهـم أيضًا يمرون على صهوات جيادهم، وهم وجيادهم فى كامل الأبهة والزينة، وقد رفعوا أعلامهم البيضاء . ثم يتلـوهـم موكب المتفـرقة كان، وهم أيضًا فوق ظهور خيولهم ويحملون أعلامهم الحمراء، ويمـرون بشكل ثـنائى، ومن بعدهــم يمـر أغوات موكب واجب الرعاية ، وهم جـمـيـعـا على ظهـور نوقـهم وجمـالهم المزدانـة، يمرون وقد حملوا أعلامهم الصفراء ، ولكن هؤلاء الأغوات خاصة مظهرهم تبدو عليه علامة الفخامة والأبهة . ثم يعقب هؤلاء موكب رؤساء حراس البوابات (= الحرس السلطانى)، وهؤلاء جميعًا يرتدون المعاطف السمورية، وتتدلى على ظهورهم لكل واحد منهم عشـرون أو ثلاثون شـرشابة مطرزة بخـيوط الذهب والفضة . وعلى الرغم من أن هؤلاء من أصحاب الامتيازات الخاصة فإنهم يكونون فى المقدمة ، ثم يتلون أغوات الباشا، وبهذا يكون الموكب قد اكتمل .

يبدأ موكب مصـر (= القاهـرة) فى المسير أولاً ، آلاى الجاويشـيـة ، بلباسـهم السمورى باهظ التكاليف، ويسيرون بشكل مزدوج، وفى مقدمة كل زوجين جاويش منفرد على صهوة جواده الأبلق، ولا تتدلى عن قفاهم وظهورهم دلايات مزخرفة ، وخدام هؤلاء هم الخدم أو الحُجَّاب الذين تمَّ إقرارهم بقانون سليم خان . ثم يتلوهم موكب السپاهيان (= الخيَّالة)، ويمرون وهم يرفعون أعلامهم الخضـراء ، ويرتدون شلوارات حمراء مزخـرفة ومكلَّفة ، وتتدلى على ظهورهم دلايات مطرزة بشتى أنواع الزخارف، ويسيرون جنبًا إلى جنب وفى أيدهم نبابيتهم، وقد التصقت رقاب خيـولهم بعضـها ببعض . ومن خلفهم ومن توابعهم مـائة چورباجى وليس لهم دلايات، وهؤلاء يسيرون بشكل ثنائى متتالٍ، وليس فى أياديهم نبابيتهم ، ولكن الحُجَّاب فقط هم الذين يسيرون فى الأمام ومعهم عصيهم (= نبابيتهم) ، وبها يعلنون عن أنفسهم . ويسيرون

وعصيهم منتصبة أمامهم إظهاراً لقوتهم وسطوتهم، ويسير من وراء كل واحد منهم عشرون أو ثلاثون من أصحاب الأسلحة "سلحدار" . وبعدهم تسير طائفة من الجاويشية الذين يتجاوز عددهم المائتين، يسيرون فى طوابير ثنائية وقد أمسكوا فى أياديهم دبابيسهم، ولا تتدلى من خلف رءوسهم دلاياتهم المزركشة، لأنهم جاويشية من طائفة السپاهية (= الخيالة) . ومن خلف هؤلاء يأتى اثنان من معتمدى السباهية وخدّامهم وهم مدججون بالسلاح وفى أياديهم عصيهم ، ومن خلفهم كتّابهم ويسيرون بشكل ثنائى . ومن خلف هؤلاء يأتى أغا السباهية، ومن أمامه اثنان من حَمَلة سيوفه، ويسير على جوانبه الأربعة ما بين أربعين وخمسين من الحُجّاب المشاة، وقد تدثروا بأفخر أنواع الألبسة المصنوعة من أجود أنواع الأقمشة، وفى أيديهم أعلامهم الخضراء وعصيهم الخطافية .

ومن بعد هؤلاء يأتى موكب التوفنكچيان (= حملة البنادق)، وقد سبقت الكتابة عنهم. وهم يسيرون بنفس الشكل والمنوال الذى يسير عليه السپاهية، فهم يسيرون ومن خلفهم كتابهم ومعتمدهم، وهم يعزفون على آلات معزوفاتهم ، والخلاف الوحيد أن هؤلاء أعلامهم صفراء . ومن بعدهم يأتى من موكب الخيّالة المتطوعين، وهم يسيرون مدججين بالسلاح وقد ارتدوا سراويلاتهم الحمراء المزركشة، ومن خلفهم كتابهم ومعتمدهم وأغواتهم، وهم يعزفون معازفهم المعهودة ، وجميعهم يحملون البيارق والأعلام الحمراء . ومن بعدهم موكب الچراكسة ، وهم أيضاً يسيرون وفقًا للقواعد السابق تحريرها، ويحملون بدورهم بيارقهم الحمراء . ثم يتلوهم موكب المتفرقة كان، وهؤلاء جند أعيان مصر وأغنيائها، ولذلك فهم فى ملابس فخيمة، وهندام مزخرف، فعلى ظهورهم جلابيبهم المصنوعة من القطيفة، ومن تحتها شلواراتهم الحمراء، ومن خلفهم الخدام الذين يحملون عصيهم الخطافية ، ويسيرون على نغمات معزوفاتهم رويداً رويداً . ومن بعدهم موكب أمراء وقادة الچراكسة، ويسيرون وهم على صهوة جيادهم المطهّمة، وهم أيضًا فى أفخر ملبوساتهم مسلحين، ألجمة خيولهم مقصّبة ومطرّزة بالجواهر، وتتدلى على ظهورهم القناطير المقنطرة من القطيفة الحمراء

المطرزة ، ومن خلفهم ما بين أربعين وخمسين من أتباعهم الظرفاء ، ولكن ليس لهؤلاء أعلام أو أطقم موسيقية، بل يسيرون فى هدوء، وبشكل بسيط . ومن بعدهم يأتى موكب أُمراء (= قواد) مصر ، وجميعهم متدثرون بالفراء السمُّورى، وعلى رءوسهم العمامات البريشانية ، ومن أمامهم تسير طوابير رباعية من الشطار الذى يرتدون الجبب والخلع الأطلسية النظيفة وفى أيديهم سيوفهم ، وبجوار كل أمير يسير من حوله ما بين أربعين وخمسين قواصًا . ومن خلفهم يأتى ما بين مائة ومائة وخمسين من الأغوات الذين يزدانون بشتى أنواع الزينات والزخارف ، وكل واحد منهم مدجج بالسلاح، وهم مَهَرة جدًا فى "النشان"، ومن خلفهم يسير توابعهم الظرفاء، وهم فوق صهوة جيادهم التى تسير متبخترة، ولكن ليس لهم أعلام أو بيارق أو فرق موسيقية. ثم يتلو ذلك موكب حرَّاس أصحاب المراتب العالية، وهم نصفهم من أصحاب المعاش الذين أُحيلوا إلى التقاعد وهم فى خدمة الپاشا، والنصف الآخر ممن ما زالوا فى الخدمة ، وهم من المقربين من الپاشا من الندماء والأصحاب الخواص، وقد تم منح كل منهم رتبة الأغوية بمشتملاتها، وهم قريبون من الپاشا متدثرون بالسمُّور الفاخر، وعلى رءوسهم العمامات البريشانية . ويسير أمام كل واحد منهم سائسان ممسكان بعنان الجواد، ولكن احتياطيِّيهم وأغوات الخدمات الداخلية وأغوات حرَّاسهم يسيرون أمامهم بشكل عادى بسيط ، وإن كانوا مدجَّجين بالسلاح.. ويمر معهم ما بين عشرة أو خمسة عشرة من ترزييهم وسرَّاجيهم ورئيس سُيَّاس كل منهم، عددهم سبعة وعشرون قائدًا من قواد حرس البوابات. ومن المناسب أن نذكر منهم ما يلى : يكون فى مقدمتهم سردار المسلَّمية، ووزير الميمنة المسئول عن نواحى وضواحى يمين المدينة، ويكون هو معتمد السردار، ووزير الميسرة ، وهو المسئول عن نواحى وضواحى يسار المدينة ، ثم أغا الرسالية وأمين المخازن، وأمين بيت المال، وأمين الأعلاف، وصرَّاف الدخل، وصرَّاف المنصرف، وأغا السويس، وأغا دمياط، وكاتب . وضواحيها ، وأغا رشيد، وأغا الإسكندرية، وأغا المنزلة، وأمير الإسطبل الأميرى، وأمين جمرك بولاق وأمين الضربخانة (= دار سك العملة)، وناظر الضربخانة، والمقابلة جى، والروزنامجى الصغير، وأمين الدفتر ، وجاويش السلام، ورئيس الحراس (= رئيس البوابين) وأغا

بنى سيف (= بنى سويف) وأغا المنيا ، وأغا منفلوط، وأغا جرجا، ورئيس بلوكات الحراسة ومعتمد البوابين (= الحرس). وجميع هؤلاء يرتدون على رءوسهم العمامات البريشانية، والخلع الفوقية من فراء السمُّور الفاخر، وهؤلاء يمرون بشكل ثنائى . ومن بعدهم ، وفى وسط حَمَلَة الأطواغ يسير حامل العلم ، وهؤلاء تسعة أمراء ، وكل واحد منهم وكأنه لؤلؤة حمراء فريدة أو هؤلاء لؤلؤة مرصعة أيضًا بالجواهر والزمرد والألماس، وقد تدثر الواحد منهم بالطنافس الحمراء ، وجميعهم على صهوات جيادهم الكحيلانية المطهمة، وقد تدلت على جنبيها العباءات المخيطة والمطرزة باللآلئ ، وألجمتها سلاسل ذهبية ، وسروجها مرصعة بالجواهر، وكل واحد منهم يساوى كل خراج الروم . ومن ورائهم احتياطيوهم (= نوابهم) ، وهم أيضًا على صهوة جيادهم التى تُعد هى الأخرى احتياطية لسفينة جياد كبرائهم، وهم أيضًا فى لباس فاخر، وعلى رءوسهم القلانس المزدانة، وتبدو سراويلاتهم حمراء، وفى أقدامهم الفلارى الچركسية، يعبرون وكأن الأرض تحت أقدامهم تردد: " فلتحفظ الأرض ما عليها ". ومن بعدهم يأتى أمير آخور (= أمير الإسطبل)، ومشاة بلوكباش الحرس .

ثم يتلوهم الإمام أفندى ، والأفندى المؤذن (= المؤذن أفندى)، وهم فى ملابسهم الطاهرة النظيفة ، وعلى رءوسهم عمامتهم البريشانية . ويسير خدامهم مشاة (= بيادة) ثم كتخدا الحراس، وأغا السلام، ويمر توابعهم على صهوة جيادهم الكحيلانية، وهؤلاء أيضًا يلبسون العمائم البريشانية. ومن بعد هؤلاء موكب عساكر العزب المصرية (= العزبان)، يسيرون بأعلامهم الحمراء. فى البداية كانوا فتية صغارًا، ثم اكتمل نموهم وتدريبهم فصاروا أبطالاً شجعانًا . ويسير من خلفهم خيلانهم (= أخوالهم) [لعله يقصد مدربيهم]، وجميعهم مدججون بالسلاح بمختلف أنواعه، وهم من الغزاة المتدثرون بفراء النمور والدروع الذهبية ، وعلى رءوسهم قلانس على هيئة رءوس النسور ، ومسلحون بالبنادق التى تُشبه المدافع ، وملابسهم العسكرية مزدانة بكل أنواع الزينة العسكرية، وعلى بعد مائة خطوة منهم يتقدمهم المنشدون الذين يصدح المكان بأهازيجهم الدينية، والتى تذكّر بالغزوات المحمدية

الشـهيرة، وبين فواصل هذا الدعاء والإنشـاد المحمدى يرددون: الله، الله. فتهتز سماوات مصر كلها بكلمة "الله، الله". ويمرون وهم على هذا المنوال، ولكن ليس لهم طبول عسكرية . ومن بعدهم يمر جاويشيتهم، وحملة بيارقهم. ويأتى بعدهم موكب الإنكشارية (= ينيجريان)، يمر هؤلاء أيضًا، والأرض تهتز تحت أقدامهم ، وتصدح السماء بأناشيدهم الخاصة بهم، ومن حولهم صبيانهم الذين يسيرون بيادة معهم وهم يمرحون ويلهون بألاعيبهم، يمر موكبهم وهو يشع البسمة على وجوه الجميع . ومن خلفهم يأتى مدربوهم ، وجميعهم أبطال شجعان وكأنهم بهلوانات ، وكل واحد منهم يحمل بندقيته التى تُقيَّم بسبعين أو ثمانين درهمًا ذهبيًا، وهى بنادق ثقيلة ، ويمرون بها وكأنها صولجانات يلهون بها ، وهم جميعًا يرتدون صدريات الحرب الجوخية الحمراء ، ويلفون رءوسهم بعمامات متنوعة الطرز والألوان . ويبدأ عبور داياتهم (= أخوالهم) الشجعان، وقد ارتدوا فراء الخرفان الفضية اللون، ثم يتلوهم مشايخهم الكبار، وقد تدثروا فى فراء النمور، وعلى رءوسهم عماماتهم ذات الشراشيب المتدلية . ومن بعدهم يمر قواد العنابر (= أودا باشى) " المتقاعدون " وهم مدججون بأسلحتهم ، وعلى أكتافهم وصدورهم الدروع ذات النجوم اللامعة، ويمرون حسب عاداتهم وأعرافهم وهم يحملون البنادق ذات الأربعين أو الخمسين درهمًا . ومن بعدهم عجائزهم وهم يسيرون بطيئًا بطيئًا، ولكن على النظام الإنكشارى المعهود .

وعلى هذا المنوال يسير الجنود جماعاتٍ جماعات، وأفواجًا عقب أفواجٍ، وموكبًا عقب موكبٍ ، وصفا خلف صفٍ ، ومن بينهم من حين إلى آخر يمر جاويشيتهم من ذوى الصدريات الحربية السوداء، كما يمر السقاءون والقبوجية (= حراس البوابات). وعلى مسافة مائة خطوة يكون هناك مجموعة المنشدين والدعاة الذين يصدحون بالفاصل النبوى، ثم يطلقون كلمات: الله، الله. وفى لحظة واحدة، وفى قلب رجل واحد، وبلسان واحد، يطلق كل الجنود: الله ، الله . فتهتز السماء والأرض من وطأة الصوت وصداه المتردد، فتسيطر الدهشة على الإنسان . فمرور هؤلاء الأبطال الشجعان على هذا المنوال وسط هذا الدعاء والإنشاد والتكبيرات يجعلهم كأنهم جنود الله متجهين إلى حيث الفتح المبين، يسيرون يتملكهم الزهو والخيلاء الطاوسى . وخلال

هذا المرور "المطنطن". و"المدبدب" تكون أفـواج الأهالى مطلة من الشـبـابيك والأسطح والشرفات، تتطلع وتشاهد هذا الموكب الفخيم . وتملأ الجميع النشوة بمرور جنود آل عثمان، هؤلاء الذين هم جنود المسلمين . ومما يزيد من هذه النشوة عبور شتى أنواع أسلحتهم معهم ، فمع هؤلاء الإنكشارية يمر المدفعجية، وماكينخانية، وضاربو الفشنك (= فيشنكچيان)، وعربجية المدافع، وموسيقى القلاع ، كل هؤلاء الأصناف من الجنود المختارة تمر مع موكب الإنكشارية، ويبلغ عدد هؤلاء الجند المختارين ٧٨٨٨ فردًا من خيرة جند الله، وجملتهم تبلغ عشرين ألفًا. وليس لهؤلاء طبل أو طاقم موسيقى، فجميعهم يمرون مشاة (= بيادة) وأعلامهم وبيارقهم كبيرة . وبمرور حملة الأعلام يكون موكبهم قد تم ، ولكن عندما يتجه قائد (= سردار) منهم ومعه مائتان أو ثلاثمائة بطل، هنا تُعزف لهم طبول الحرب . وحين يمر جنود البيادة الإنكشارية، هؤلاء، يمر أيضًا موكب أغا الإنكشارية ، وموكب أغا العزبان . فى المقدمة چورباجية العزبان، يمرون وهم متدثرون فى فرائهم السمورى، وعلى صهوة جيادهم الكحيلانية ، يسيرون وقد بدت سراويلاتهم الحمراء . وعلى يمين هؤلاء چورباجية الإنكشارية، وهم أيضًا على صهوة جيادهم الكحيلانية، وقد تدثروا فى الفراجات المصنوعة من الجوخ والسمور . ومن بعدهم قدماء الجاويشية، وقدماء القادة (= السرْدار)، والمعتمدون العجائز، يسيرون جميعًا وهم فى كامل أُبهتهم . وعلى الميسرة يسير سُيَّاس العزبان، وعلى الميمنة سُيَّاس الإنكشارية. ويمرون جميعًا، أما رؤساء الجاويشية فيقفون بالقرب من الباشا . ومن بعدهم أرباب بيت المال وهم منتظرون بالقرب من بابه، ولكن يسير كتخدا (= معتمد العزبان) وَسائسه معًا وأغا الإنكشارية مع أغا العزبان، ومن خلفهم غلمانهم وهم مدججون بالسلاح . ثم يتلوهم ملازمو الإنكشارية، بزيهم وأسلحتهم المعهودة، ومن بعدهم يأتى شطار الباشا، وهم مستغرقون فى الذهب، طبقة فوق طبقة ، وفى أيديهم سيوفهم القاطعة، وعلى رءوسهم خوذاتهم الذهبية، ويمر هؤلاء من يمين الباشا . وقد ارتدى رئيس الشطار قلنسوة بريشانية وقد وقف على يمين الباشا، وفى أحد جيوبه ذهبٌ وفى جيبة الآخر نقود معدنية لامعة، يبذل منها على الفقراء .

ويقف على يمينه أيضًا رئيس المطارجية (= حَمَلَة زمزميات المياة)، وقد حمل المَطَرَة المزدانة بكل أنوا ع الجواهر، وبالقرب من الپاشا يقف التفنكچية (= حَمَلة البنادق)، المكلفون بحمل أطراف ثوب الپاشا، وهم بدورهم فى أبهى زينة. وعن يمين الوالى أيضًا يقف ثمانية من الجلادين، وعن يساره الصوباشى البيادة، والمحتسب هو الآخر يمر وقد أبدى كل أمارات التعظيم للپاشا . وحين مرور المحتسب وسلامه على الپاشا يشير الپاشا بإيماءة معهودة، فيبذل العطاء للفقراء ، وهنا تنطلق الدعوات: حفظك الله يا سلطان مصر، يا متولى مصر، يا عزيز مصر ، يا والى مصر. يطلق هذه الدعوات كل الحضور من العجائز والفتيان . وخلف الپاشا يكون السلاحدار قد اتخذ موقعه وهو فى كامل أُبهته، مستغرقًا فى الذهب طبقة فوق طبقة، فى يده سيفه المرصَّع، وعلى رأسه عمامته الأسكوفية[٢٦] الإنكشارية المعهودة . وفى الصف الخلفى يقف معتمد (= كتخدا) الپاشا وأفندى الديوان، وقد تدثرا فى المعاطف المصنوعة من فراء السمور، وعلى رء وسهم العمامات البريشانية، وفى الصفوف التى تخلفهم وقف أصحاب مراتب الپاشا الاثنان والعشرون، وغيرهم من كبار رجالات الولاية ، وجميعهم فوق صهوات جيادهم الكحيلانية .

وبينما هؤلاء يمرون يكون جاويشية الداخل وأغوات الداخل قد اصطفوا حسب الترتيب، ويبدأون فى العبور، ومن بعدهم رئيس المهترخانة، وفى معيته أربعون نفرًا

---

(٢٦) **العمامة الأسكوفية : (أوسكوف üsküf)**: مصطلح قيافة كان يُطلق على واحدة من غطاءات الرأس . وتُقابل " الكوفية " المعروفة، وهى تشبه الأنبوب وطولها يقترب من المتر، وعند الارتداء يتدلى نحو نصفها على الظهر، وقسمها الأمامى مطرز أو مقصب . استخدامت منذ زمن مراد الأول ، واتخذها مَنْ جاءوا بعده تاجًا للسلطنة . ويصفها " هامر " على أنها شكل أسطواني، وأنها كانت مقصَّبة بالكامل فى أثناء فتوحات مراد الأول فى أوروبا (هامر المجلد ١ صـ ١٣٦) . وزادت زينتها وتطريزاتها بعد السلطان محمد الفاتح . ثم تم خُصصت لضُبَّاط حرس السراى " قاپو قولى ". وكان السلحدار يرتديها مع زيادات تُشبه الزلف. أما الأسكوفة üsküf فكانت تشبه الطربوش وترتديها النسوة . ثم انتقلت إلى أوروبا خلال القرن ١٦/١٧ مع زيادة شُغْلها بالقيطان الحريرى الأحمر وأصبحت هى الموضة لدى السيدات . وكانت تسمى أسكوفيون Eskofyon (انظر .: پاقالين).

بمعداتهم الموسيقية يعبرون من أمام الباشا، ومن بعدهم صاحب خزينة الباشا ورئيس مؤذنى الداخل ، ومعهم رئيس السُيَّاس، ومعهم حاملو البيارق والأعلام، والمهترخانة (= الآلات الموسيقية)، ويعبرون وهم يعزفون على معازفهم، ويطبلون على طبولهم : دوم ، دوم . ومن بعد هؤلاء يمر سرّاجو أغوات الداخل، ومن بعدهم السقَّاباشى (= رئيس السقَّائين) وفى معيته سبعون أو ثمانون نفرًا من السقَّائين، ويمر السقائون وهم فوق دوابهم ومعهم شتى أوانيهم المزخرفة، وقد زينوا دلاءهم بأنواع مختلفة من أوراق النباتات والخضراوات . ومن بعدهم يأتى العكَّام وحملة المشاعل وقد زخرفوا مشاعلهم بشتى أنواع الزخارف والزينات ذات الألوان الربيعية، ويمر هؤلاء وهم يرقصون ويتمايلون بمشاعلهم، وهم يرددون فى نَفَسٍ واحد دعاء : " الله ينصر السلطان " . ثم يرفعون أياديهم بالمشاعل . ويطلقون حناجرهم بموال غنائى وهم يمرون من أمام الباشا، وما إن يدخل الباشا بهذا المنوال إلى مصر (= القاهرة) حتى يُطلق جميع الخيَّالة وحَمَلَة البنادق طلقاتهم المدوية، ويكون الجونلويان (= المتطوعون)، والچراكسة، والمتفرقة، وسائر سُيَّاسهم، قد ساروا معًا نحو ميدان الروميلى، واصطفوا على اليمين وعلى اليسار وكأنهم طائر ذو جناح لكى يؤدوا التحية والسلام . وهم على انتظارهم هذا يصل الباشا ، وبعد السلام يمر الباشا ، وعقب ذلك يتجه سائر الفرسان كل إلى داره، وموقعه . ومن باب العزب ، وما إن يدخل الباشا مطلقًا « بسم الله » حتى يُذبح فى معسكر العزبان مائة خروف، فيتدفق الدم المسفوح نحو قدمى الباشا، ويتجه الجميع بخير الدعاء .

ولكن العزبان والإنكشارية يصاحبون الباشا مشاةً حتى يصل إلى السراى، وما إن يدخل الباشا بعد هذا الكر والفر والعظمة إلى داخل السراى حتى يذبح على الفور مائتان من الغنم ، ويلهج الدعاة بالدعاء ، ويتلو الباشا الفاتحة ، ويترجل عن صهوة جواده عند منصة الركوب بخفة ورشاقة، وهنا يصفق جملة الجاوشية. هذا المكان الذى نزل فيه الباشا هو المقام نفسه الذى أقام فيه سليم خان فاتح مصر، وقد نزل إليه الباشا تيمنًا وتبركًا، ونزل سهلاً . ومن حيث كان بدأ باسم الله صعود درجات

السلالم الحجرية التى تبلغ نحو خمس وعشرين درجة، وصعد نحو ديوان السلطان قايتباى، وعلى يمينه كان كتخدا الباشا، وعلى يسارة كتخدا الجاويشية، وقد تأبطاه حتى جلس على سجادة السلطان قايتباى . وما إن استقر فى مكانه حتى صفق جميع الجاويشية وهم يدعون للباشا مرددين « فليباركك الله ولتكن قدمك ثابتة، ومَقْدمك خيرًا، ولتَعِشْ عظمة دولتكم ». وعلى الفور يُشير باشجاويش الإنكشارية نحو مكرمة القلعة، فتنطلق على الفور من برج القلعة أربعون أو خمسون طلقة مدفعية تحية لمقدم الباشا، وفى ميدان السراى يكون هناك خلاصة الفرقة الموسيقية (= المختصر المفيد) " فيعزفون فاصلاً موسيقيا، ويكون هذا فاصل الختام، وعلى الفور يقول كتخدا الجاويشية إن أصحاب المصالح والشكاوى موجودون . وفورًا يتحرك أرباب الديوان الذين كانوا وقوفًا على اليمين وعلى اليسار وهم يتخذون أماكنهم فى خشوع وسكون، وفى الجهة المقابلة يقف ستة أشخاص من نواحى مكة والمدينة، فيتقدم واحد منهم، هو المصطلح على تسميته " مصلحة جزار " أى المفوض، ويخاطب الباشا قائلاً « يا وكيل السلطان خادم الحرمين الشريفين، أهلاً وسهلاً بكم وليكن مقدمكم خيرًا » ويقدم «عرضحالاً» نحو الباشا، لا بد أنه يحتوى على أمور متعلقة بأمور مكة والمدينة . فى البداية يتسلم الوالى هذا العرضحال، ويقول باسم الله متبركًا به مردفًا " قلت صح " ويعطى العرضحال، وهو يتمتم بصوت مسموع « إن وزير مصر، هو وزير ووكيل لسلطان آل عثمان، وإذا كان آل عثمان هم خدم الحرمين، والسلطان هو خادم الحرمين فأنا وكيل خادم الحرمين ، ولهذا السبب، فمنذ البداية وأول ما يُنْظَر فى ديوان مصر هو وضع أمور الحرمين الشريفين، وأن يُوضع القلم فى خدمة الحرمين المباركين". وعلى الفور، قام دعاة الديوان بإعداد دعاء عظيم ، وقرئت الفاتحة ، وهذا وفقًا للقانون والأعراف السائدة ، وفقًا لقانون مصر وأعرافها ، فبعد ذلك يفد أعيان مصر والأشراف والسادات وأصحاب المهن والحرف للسلام وتقبيل اليد وتجديد البيعة .

عندئذ تكون الفرقة الموسيقية الخاصة بالقلعة تعزف معزوفاتها المباركة فى فناء السراى، ثم يتلقون آلاف القطع من الهدايا وينصرفون. وجملة أرباب الديوان يظلون ساعة، ثم يُقبلون اليد، ويطالب شيخ الديوان بالدعاء وقراءة الفاتحة ، وعلى

الفور يقوم كتخدا الجاويشية، ورئيس المتفرقة بمساعدة الباشا على النهوض من مكان السلطان قايتباى. ويسلم الباشا على سائر أرباب الديوان وسط تصفيق جميع الجاويشية ، ويرفعون أياديهم بالسلام ، وبعدها يلج الباشا إلى الداخل ، وتتفرق بعد ذلك كل الجموع .

وخلال هذه الساعات كانت جماعة القارئين التى تتجاوز الأربعين قارئًا تتلو الأنعام الشريفة فى ديوان قنصوه الغورى ، وعلى حسب الأصول المعتادة فهم يقرأون الأنعام الشريفة فى كل صباح ، وما إن يصل الباشا إلى غرفة الكرسى (= الجلوس) للاستراحة وخلع ملابسه، وما إن ينتهى من هذا حتى يأتى ويقْدُم جاويشية الموكب من البلوكات السبع طالبين الهبة والبقشيش على الهدايا التى أحضروها. وقدْ أعطى جان بولاد زاده كيسين ذهبيًين لمعسكر الإنكشارية، والآن يقدم لكل بلوك من معسكرات مصر السبعة كيسًا، فيصير جملة المنح التى قدمها بولاد زاده تسعة أكياس . ووصف هذا الموكب الذى مررناه هنا هو وصف الموكب الخاص بجان بولاد زاده حسين باشا، لأننى كنت قريبًا منه ، ولأنه قدم إلى مصر بشكل سلطانى . وقد استراح الباشا فى تلك الليلة ، وفى الصباح فُرِد السماط الديوانى ، فمنذ قانون السلطان سليم خان يُقام السماط الديوانى مرتين فى الأسبوع، ويُقدم فى كل مرة ثلاثة آلاف صحن من الأطعمة . ولم يهمل الباشا فى إقامة هذه العادة فى هذا اليوم . وبعدها لم يُقمها لا من الخزينة ولا من حسابه الخاص، ولذلك عند عزله تمّت محاسبته، وطُلبت منه هذه المصروفات بواقع كيسين لكل سماط، وعلى مدار السنة يكون المجموع اثنين وتسعين كيسًا، وقد كانت مطالبة الباشا بها ... وفى ذلك اليوم تناولوا ثلاثة آلاف صحن من الأطعمة، وانعقد الديوان السلطانى. وبعد إحقاق الحق فى العديد من الشكاوى والدعاوى صرفت العلوفة والمهايا (= الشهريات) فى حضور الباشا لليتامى والمساكين والجوالى والمتفرقة . وكان كل شخص يقدِّم ما إذا كان يستحق من عدمه، وكان عليه أن يثبت ما ذهب إليه ، لأن ذلك كان معلومًا. ومقيداً فى الديوان . وبعدها يأتى أعيان مصر جماعات جماعات للتحية والتهنئة بسلامة الوصول ، ويستمر الوضع

على هذا الحال ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ، وجموع المهنئين كانت كأمواج البحر المتتالية ذهابًا وإيابًا، والله وحده هو الذى يعلم حساب وعدد الهدايا التى قُدِّمت طوال هذه الأيام والليالى . ولكن عدم قبول الهدايا حركة عاقلة ، فإذا أُخذت من أجل مصلحة فحسب كلام مصر " لا أبالى " ، ولكن إذا لم تتم المصلحة، وأُخذت الهدية فإنهم يطالبون بها حين العزل .

وخلاصة الكلام ، فقد تم تحرير موكب (= احتفال) مصر الخامس على هذا الشكل الذى جرى عليه ... تم، والسلام .

٤ - فاصل عن تنحية وزراء مصر فى فصل التشريفات

ورسالة تحذير من أجل وزراء مصر

بعد الموكب والاحتفال الذى حررناه سابقًا، فإن وزير مصر تحرك بحكمة وتعقُّل، وكانت الخلع التى ألبسها لأهل المناصب من طرف السلطان . ولو أَخْلَعَ ما هو أكثر، فيكون من قِبل الپاشا، فهى مصاريف باهظة ، خصوصًا عند العزل، فلدى الپاشا الكثير من الرهائن، ولا بد من الحذر والحيطة منها . فالكتخدا إبراهيم پاشا حين كان حاكمًا على مصر ربط هذه الخلع على ثلاثة مستويات: أعلى وأوسط وأدنى ، على حد قوله. وكان يُقدم الخلع على ثلاثة أنواع: الخلعة العالية بألفَىْ پارة، والوسطى بألف پارة، والدنيا بخمسمائة پارة، وكان يسجل ذلك، وجعل أحد اليهود الخلَعتْجِية رئيسًا على هذه المهمة. وكان يُقدم خلعة سنويًا فى البداية، وكما يفعل كل مَنْ جاء إلى مصر فقد جدد لِمَنْ فى المناصب والكشاف والأمراء، وبداية من الصالحية، فكان الموكب فى الطرق التى يمر بها، وفى العادلية، وفى السراى يقدم الخلع حتى بلغت جملتها خمسًا وأربعين خلعة، بعضها من خزينة السلطان وبعضها من إحسانات الپاشا ، وكان يجب تدوينها . وأُلبست خلع إلى هذا الحد، وجُددت مناصب عليا، واستمر حال الپاشا فى البذل والعطاء سبعة أيام وسبع ليالٍ، وهو على قدم وساق . وكان حاصل هذه الحرب

الأولى ألفًا ومائتى كيسة ، وهذا بقول إبراهيم باشا الكتخدا . ولكن الباشا العاقل بعد أن يبذل هذه المناصب كان يُقيم سماطًا محمديا، ويتناول طعامه جميع أعيان الدولة ويتشاورون، ويسأل إن كان هناك فى ذمة الوالى السابق شىء أم لا ، ويراجع الروزنامجى، ويكون على علم بذلك . وإذا ما كان فى بطن أو ذمَّة الباشا السابق شىء، كان على الفور يجمع الكتخدا، ومتعهد المدينة، وأفندى الديوان، وصاحب بيت المال، ووكيل الخرج ، والحاصل جميع أركان الدولة وجميع أفراد مصر القاهرة ، ويتشاورون فى الأمر، وكل ماهو مدوّن فى الروزنامة (= دفاتر اليومية)، فى ذمة الوالى المخلوع أو السابق ، سواء من المحلولات أو من أموال الخزينة، أو من الدشيشة، ولمدة كم سنة حكم مصر. فلا بد من رد كل هذه الأموال من كيسة إلى ألف كيسة، ومن ألف حتى مائة ألف، ما كان منها طائرًا فى الجو أو سابحًا فى البحر أو سائرًا فى البر، ولا بد أن يُسأل عنه ويؤخذ منه . ولكى لا يكون الباشا وحده مسئولاً، فقد كان يسأل المبصِّر (= المستشار) ومحصِّل الخرج وجميع عجائز الجاويشية عديمى الأدب، واختياريى وجاويشية كل البلوكات، ومعتمدى كل المعسكرات، وعلى العموم يُسأل عن كل شىء: عن أسباب الغلاء العام فى زمن الوالى المعزول، بل يسأل عن الوالى المعزول نفسه . ولا يمكن التجاوز عن الحقوق السابقة، وكل شىء . ويأتى الجميع فى حضور الباشا ، وإذا ما أُقرَّ أن تحت ذمته بقية، ولتكن مثلاً مائة كيسة من بقايا مال السلطان، تُدوَّن فوراً فى الروزنامة وتسلم فوراً أيضًا إلى يد الباشا، أو عندها يقول الباشا نفسه : «غدا سوف نتشرف بصديقنا الباشا ، وإذا كان لدينا دين فسنوافيه » إذا قال الوالى المعزول ذلك، تؤجل المعاملات، أما إذا ما ركبه العناد والخلاف، فإنه يُحبس فى قصر يوسف أو سراى طاشياطير (= طاش يطر) أسفل المدينة . ويُحاصر المكان من جوانبه الأربعة من قبل چوربجى من كل بلوك مع أفراد قوتة، ويُحيطونه حيث يكون، لأنه حدث ذات مرة أن قوجه مصطفى باشا قد انهدم قصره من أحد جوانبه ذات ليلة، ومرغ وجهه فى ركاب السلطان، فأُبقى فى مصر، وعاود الهجوم مرة أخرى، وظل داخل مصر لمدة أربعين يومًا، وقد قتل من المصرين ألفًا على حد سيفه، حتى سموه مهلك العبيد (= قول قِران)، ومنذ ذلك الزمان وحتى

الآن، وهم يحبسون الوالى، ويضعونه تحت الملاحظة. وإذا كان الوالى الجديد رحيمًا وإذا ما قال « إن هذا المال فى ذمتى، وأنا ملتزم به» على الفور يجتمع المولاً شيخ الإسلام وأصحاب المذاهب الأربعة، والأعيان وكبار رجالات الدولة والعلماء والصلحاء، ويقر الپاشا الجديد أمامهم بهذا، ويشهدون هم بذلك ويسجلونه فى السجل الشرعى المحمدى ، ويعمل الپاشا على تحصيل الباقى . وحين العزل يتغير الوضع، ويودون محاسبته . وإذا ما قال « إننى غير ملتزم ببواقى المال الذى على الوالى المعزول» يعنى إذا ما قال « إننى لا أقبل أن أتحمل الدين المتبقى» فإن أمر الوالى المعزول يُعرض على اعتاب وزير الأستانة، ومعروف أن الوالى السابق فلان بقى فى ذمته من أموال السلطان كذا كيسة، والأمر و"الفرمان" لولى النعم السلطان . ويرسل هذا المعروض، وفى ظرف أربعين أو خمسين يومًا، يفد واحد من رئيس القبوجية (= حراس البوابات) أو واحد من أصحاب السلاح، بأمر سلطانى، مخاطبًا الپاشا قائلاً : « أنت وزير مصر، وأنت ربيبى، وأنت المكلف بتحصيل الأموال السلطانية المتبقية فى ذمة ربيبى فلان المعزول » فإذا ما صدر الفرمان السلطانى بهذا المعنى، نعوذ بالله، فإن الپاشا المعزول وكل رجاله وأعوانه من الأغوات يُحْبسون جميعًا فى قلعة يوسف، وتُخرج جميع أملاكه وممتلكاته إلى السوق وتُباع، ويبقى الپاشا وكل أتباعه على الحصير لمدة ثمانية أو تسعة شهور، وربما لسنه كاملة، حتى يصيروا مفلسين تمامًا، ولا يبقى معهم « فلس أحمر » بل يصيرون محتاجين إلى هذا الفلس . وبعد أداء الديون، يطلق من الحبس وينتقل إلى سراى آخر، أو يبقى فى هذا السراى، ولكن يكون عليه حرس وديدابان ، ويُقيم عليه الدعاوى كل أصحاب الحاجات والأمانات التى كانت عليه، والتى أخذها بغير وجه شرعى برطلة (= رشوة) ، دون أن يقوم بتأدية المصلحة التى أخذ المال من أجلها. وإذا ما ساعد وزير مصر، وصانه قاضى العسكر، يعطى لكل شخص جزءًا من ماله، ويصلح بينهما . ولكن إذا لم يعاون أو يساعد الوالى وقاضى العسكر ومدعى البلوكات السبعة، فإن حال الپاشا المعزول هو وسائر أعوانه يكون خرابًا يبابًا، ويطرق أعوانه الأبواب، بابًا إثر باب .

وخلاصة الكلام : إذا كان الپاشا عاقلاً ومدبراً فإنه حين عزله، وقبل تمام العزل بخمسة أو ستة أشهر، فإنه يسوى حساباته مع المصريين، ويتخلص مما كان عليه من ديون أو مطالبات، وبمجرد أن يصفى هذا الوضع فإنه يراجع دار السعادة عارضًا الوضع وطالبًا صدور الأمر والفرمان، وإذا ما كانت الأمور على ما يرام، فإن الأمر السلطانى يصدر قائلاً: « أنت يا فلان وزير مصر من قبلى، وقد صدر أمرنا السلطانى مقرونا بحين وصوله، فليعد وزير مصر المعزول فلان إلى دار السعادة معززًا مكرمًا». فإذا ما صدر الفرمان السلطانى بهذا الشكل فإنهم فى مصر لا يرسلونه قبل شهر أو شهرين، وتتداول الأقاويل بين الناس على أنه قد يصير الوزير الأعظم، فعندئذ لا يبحث الوزير ولا قاضى العسكر ولا جميع الأهالى، عما يكون عليه أو فى ذمته، ولا يقدرون على" قول لِمَ ولماذا ولأى سبب "، ولا يستطيعون القول بأن هناك مثقال خردلة فى ذمة الپاشا . وخلال الشهر أو الشهرين لا يستطيع هو حصر ما يكون أمام أبواب قصره من الهدايا، وربما بلغت ما يزيد على حمولة مائتين أو ثلاثمائة من الجمال ، ويكون هذا العدد أو ما يجاوزه من البعير والجمال، وما يقارب الألف من الخيول، والطواشية، ويأتيه مال وفير . وبعضهم يأتيه حين عزله مال كما لو كان هو المتصرف الوحيد فى أموال مصر كلها . ويُقال إنه قد جاءت هدايا إلى إبراهيم پاشا بألف كيسة، وحين عودته معززًا مكرمًا إلى الأستانه . جاءته هذه الهدايا ، وجاء هو بنفسه إلى ولاية الشام الشريف.

وإذا كان الپاشا حين عزله خرج معززًا فإن موكب خروجه يكون كموكب دخوله.

٥ - فاصل عن الموكب أى الاحتفال السابع

وبعض الوزراء أيضًا يكونون محل سخرية [اللهم عافنا] ، فإذا غادروا مصر وعُزلوا منها منكوبين ، لم يكن لهم فى الآستانة من ظهير، فلا تعظيم ولا تكريم، بل

يخرج هو والكثير من توابعه إلى العدلية، ويُساق إلى الآستانة وسط العويل والأنين . ووزير مصر العاقل يأخذ عنهم ومنهم العبرة ، فحينما يكون متصرفًا على مصر، يتحرك عن بصيرة، ويكون تحت الحفظ والحراسة ، ويدرس أحوال الأمراء والملتزمين والمنكسرين من الكشاف الذين يرقدون تحت الحبس فى الأرق خانة (=بيت الأرق)، أى فى السجن منذ زمن سلفه، ويسعى لإطلاق سراح كل منهم وفق طريقة ما . أما هؤلاء الذين هم فى الحبس بسبب مديونياتهم المالية، والراقدون فى الديلم والسجون ومقرات الجاويشية، وكل المحبوسين فى معسكرات البلوكات السبعة، فيفتِّشون، وتُفحص أمورهم، ويُطلب منهم المال . هذا من ألزم الأمور فى بداية الأمر، وإذا كان قد سئل عند العزل وما زال فى السجن ، فإن الدَّين يؤخذ من عينيه، ومما ملك وهو فى الخدمة، ولا يستطيع أحد أن يمنع أو يمانع فى ذلك . ومن ألزم الأمور كذلك أنه إذا كانت هناك مديونية فى الغلال الأميرية . فيسأل عمَّن تكون فى ذمته ، ويحق الحق ، وينال المظلوم حقه من الظالم والمغتصب، وتعمل فى الظالمين والمغتصبين سيوف العدل، وتُباع أرواحهم نقدًا فى سوق الأرواح فى ميدان الروميلي، ويسطر قلم العفو فى دفاتر جرائم بعضهم ، ويرقم فى دفاترهم: "اللهُّم إنَّك عفوٌّ تحبُ العفو فاعفُ عنَّا". وانطلاقًا من فحوى هذا الدعاء، يُعفى عنهم، ويطلق سراحهم . وبهذا الشكل يُعفى عن الكثيرين، وينجِّى البعض بسيف البراءة، وهذا أيضًا من المعتاد والإلزام فى قانون مصر ... وهذا المنوال والحال هو الذى يحول دون أخذ الرشوة من أحد، لأنهم يستردونها حين العزل، ولا يعتمد مطلقًا على الكلام الهمَّاز أو الغمَّاز، أو أهل الفساد أو الفُسَّاق ، ويتصرف بعد ذلك كيفما يشاء ، ولا يجعل صولجان الحق والصلاح يسقط من يده ، وبهذا يستريح ، وفى كل شهر تتم المحاسبة مع الروزنامجى وجملة أهل الديوان، ويظلون مقيدين بالمطالبة بالبواقي المتبقية ، ولا تُسقَط أبدًا ... والسلام .

وما يلزم وزير مصر هو روزنامجىٌ من علية القوم، وأن يكون رجلاً متدينًا ومستقيمًا، ومن الذين يُعْتَمد عليهم ، لأنه حين العزل تكون كل الحيل الشيطانية فى يدى هذا الروزنامجى ... ولقد رأى الروزنامجى عبد الرحمن أفندى من إنعامات

وإحسانات إبراهيم باشا الكتخدا مائتي كيسة، وحين عزله أيضًا وجد أنه مقيد على إبراهيم باشا ستمائة كيسة، كانت في ذمته، وكانت هناك بقايا أخرى في ذممهم بلغت سبعمائة كيسة وبناءً على سجلات الروزنامجي وبتحريضه، طالبوا إبراهيم باشا بستمائة كيسة، ورفعوا عليه الدعاوى بذلك . وبعده . سمع جان پولادزاده أن في الأمر خيانة، فدعاه إلى وليمة صغيرة، وبعد الطعام انقض عليه فرد، وقتله فوراً . وقد حمد الله كل أعضاء الديوان، إذ تخلص جميع الرعايا من شرور لسانه ويده، ومن سوء أفعاله . وأمن الجميع مما كان من الممكن أن يطولهم من طول لسانه وشؤم أفعاله ، ولهذا من ألزم اللوازم أن يكون الروزنامجي خلوقًا ومتدينا .

٦ - وصيّة من العبد الفقير أوليا دون رِياء إلى وزراء مصر

اللهم احفظنا ، فإن وزراء مصر وباشواتها يُخدعون ويُفتنون من التعظيم والتبجيل والإكرام والمديح، وبعظمة المواكب والاحتفالات التي يُقابلون بها - كما سبقت الإشارة - فيتحركون بغرور وغطرسة، لأن من يشرب من النيل من الحكّام يكون حكمه جبارًا ومتكبرًا؛ فمصر والنيل مهد الفراعنة وعرشهم، ولكن أهل مصر يأتلفون بكل الناس، ويحسنون معاشرتهم بسرعة، ويتعاملون برفق ، ويسلمون زمام أمورهم ومصالحهم لأهل الشرع الشريف، كما يحولون أمرهم إلى كتخدا جاويشية الخزينة السلطانية ورئيس المتفرقة، وصاحب الدفتر (= الدفتردار)، وهؤلاء بدورهم لا يكلُّون أو يملُّون من المطالبة والتحصيل في كل ساعة ، ويُلحُّون في الطلب، ولا يتوانون عن ضبط وحفظ جميع المحلولات (= الهدايا) التي تصادفهم، ولا يبيعونها، لأن الأوامر الشريفة الصادرة عن الآستانة، وأغوات دار السعادة العُتقاء وغيرهم، يأتون بالأوامر السلطانية الواضحة التي تحضهم وتأمرهم بالترقي والتقدم . كما يلزم ترقي وزيادة الهدايا المتجهة إلى الحج وإلى خزينة إستانبول، والذاهبة إلى الذين يأتون بالأخبار والرسائل (= النجابة) من مكة والمدينة، والذاهبين للحرب وإلى (= مصاريف الجيب = مصاريف الطرق والانتقال)، والمعزين، وأمثال هؤلاء من الآلاف الذين يلزم ترقيتهم

ومنحهم ، ولذلك وجب حفظ المحلولات . وحسب قانون سليم خان فلا بد من تقديم ترقّ بسبعة آلاف أقچة سنويا، وجميعها مطلوبة من السلطان ، ولذلك فإن جميع وزراء مصر أو معظمهم، من هذه الناحية ومن ناحية مخازن يوسف وقلم الروزنامة، وكشاف مصر المفلسين والمنكسرين، هؤلاء جميعًا مذمومون ومتهمون بعدم العطاء لهذا الجانب . وحين العزل فإن مال السلطان والترقيات مطلوبة من الپاشا ، ووزراء مصر ممنوعون من وضع اليد على أوقاف الله الخيرية، أى غير مكلفين بجلب مال من الأوقاف الخيرية، ولكن لهم الحق فى الفحص والتفتيش حسب مقتضى الحال، وعليهم أن يأمروا بالترميم والإصلاح والصيانة ، وأن يجعلوها معمورة، بحيث تكون العاقبة خيراً . وعليه أن لا يعتمد على كلام المفسدين ويظلم أو يقتل نفسًا قبل أن يصل إلى أغوارها، فهم عبيد ذى الفقار والقاسم ، أن لا يعين أو يظاهر الأشقياء والخارجين على القانون، وأن يكون متفاهمًا مع الطائفة العسكرية ، وأن يرى الحسابات شهريا من الاثنى عشر قلمًا، وأن يضاهى ويقابل الحسابات . وحاصل الكلام أن السلطان لا يخرج دائمًا عن يد الصدر الأعظم، وهناك فى اللغة التركية ضرب مثل يتناسب مع هذا الحال: " أعط الحاشية ما كنت ستعطية للأكَرَة، وأعط الپاشا ما كنت تعطيه للبيه". وحسب فحوى هذا القول لا بد وأن تنضم إلى الأقوى، فلا تترك السلطان وتنحاز إلى طرف الوزير، ولا تأتى إلى مصر بجنود وعسكر كثير، فيكفى مصر ثلاثون أغا، وثلاثمائة من العبيد السود ، فإذا ما حدثتك نفسك بأنك يمكنك فتح مصر بقوة الساعد فلو جئت بعشرات الآلاف من الجند، فهم قطرة فى محيط ، وهم ذرة على وجه الشمس، لو أتيت بالآلاف، فإن المدينة لا تسعهم، فليس للولاية مقدرة على تحمُّل ذلك، لأن جملة قراها أموال أميرية، وجملة أهل مصر عبيدها وخدّامها وسكانها جميعًا من السهل قيادتهم ، وهم على اعتدال مع كل الناس ، وهم يعيشون وفق هذا الشعر العرفانى :

أيها القلب لا تكن قاسيًا

ولا تكن ليِّنًا بل كن معتدلاً لو كنت عارفًا

فالحاصل أن أهل مصر يتعايشون مع أى إنسان، وإن شاء الله فإن حصيلة مصر تزيد عن ألفى كيسة مصرية سنويا لو أديرت على وجه العدل، وإذا ما زادت هدايا القرى ومحلولاتها فإن هذه الحصيلة تزيد على ثلاثة آلاف كيسة . ومعنى هذا أن ألف كيسة تأتى بلا عناء أو مقابل . ولكن هناك شرطًا ، أن هذا الرجل القادم لولاية مصر لا بد وأن يكون من أصحاب المراتب والشأن العظيم، ومن أصحاب السيف والقلم، وأن يكون وقوراً صادق القول ، فإذا ما تمتع القادم بذلك فإن أهل مصر يحبونه ويعطونه أجزل العطاء ، وإلا فإن أهل مصر قد رأوا الكثير ، ولديهم خبرات السنين، وكل منهم قد عمل فى خدمة العديد من الوزراء والسلاطين ، ولهم فى دار السعادة العديد من الأغوات والبكوات، وكلهم على حسن عشرة وخير أُلفة مع كل هؤلاء، فلا بد من مجاراة الأمور " بيت بلا نظير " :

ليس العالم وفقًا لمرام كل شخص فى الواقع

وعلى العارف أن يتعايش ويجارى ما أمكن ذلك .

فأهل مصر على وفاق مع أهل المناصب ، ويتعايشون على أكمل وجه ، ولكن إذا ما انقلبوا تراهم على حقيقتهم حين العزل .

٧ - فاصل مفصَّل عن الموكب الثامن العظيم

وهو احتفال مهيب عند قدوم وزير مصر المقرر

كما ذكر مسبقًا، فما إن يصل وزير مصر الذى تقرر حضوره إلى مدينة بلبيس حتى يُرسل الخبر أولاً، وتستعد مجموعة من الآلايات . وفى اليوم المحدد يقوم كتخدا الپاشا بالتنبيه على جاوشيَّة الآلاى، فيحضر جميع الأغوات إلى الآلاى، ويُحضر وكيل الخرج جميع أفراد المطبخ العامر، وتُعد وليمة عظيمة. وفى هذا اليوم وهذه الليلة تكون البهجة فى كل أرجاء مصر، فجميع أهالى مصر يفدون من أجل الفرجة على

الموكب ، ويستأجرون الدكاكين حتى باب الناصر . وفى الصباح التالى يستأذن كتخدا الباشا فى أن تعزف " المهترخانة " فاصلاً احتفاليا، ويتجه الجميع نحو الموائد. أما فى عصر الكتخدا إبراهيم باشا فقد تم التنبيه بضرورة أن يكون الحضور فى كامل زينتهم وخلعهم السلطانية، وأن يتمنطق الجميع بالسيوف السلطانية، وأن يكون كل أفراد طاقم المهترخانة، وأغوات الخدمات الداخلية مدججين بسلاحهم، ومزدانين به . وعند الذهاب إلى موقع الموكب فلتعزف الموسيقات العادية، ولكن عند العودة لتكن العودة وسط دقات الطبول . فى المقدمة يكون موكب التاتارية، ويليهم موكب ولى ، ويليه مع الگونليان (= المتطوعين) ثم موكب الچاشنگير (= الذواقة)، ثم موكب الكيلارجية، وموكب الصَّراجان، وموكب المتفرقة گان ، ثم موكب واجب الرعاية ، وموكب رئيس القابوجية، ثم موكب الكتخدا . كل هذه الآلايات تعبر فى حشمة ووقار، ويكون الجميع فى أُبهة وزينة يعجز اللسان عن الإفصاح عنها ، ثم يقوم هؤلاء جميعًا وهم فى كامل زينتهم بالاستعراض فى كل ربوع مدينة مصر، ثم يخرجون من باب الناصر إلى الضواحى .

ولكن فى هذا الموكب لا يشارك أى نفر من عساكر مصر، بل الجميع يتفرجون على كل هذا من داخل دكاكينهم السلطانية فى السوق السلطانية "الرئيسية" ، ثم يصلون بعد ذلك إلى العادلية . وبعد أن يتجمع الجنود وهم فى كامل زينتهم يقومون حسب الترتيب بالمصافحة وهم وقوف بكامل أسلحتهم ، ثم ينسحب الجميع إلى السماط المحمدى المنصوب، ويتناول جملة الأغوات والأعيان الطعام. وبعد احتساء القهوة، ونثر البخور يركبون جميعًا خيولهم، ثم تُسَيَّر الآلايات والمواكب حسب المنوال السابق بيانه . ولكن الپاشا يعود كما أتى فى صحبة كتخداه (= وكيله ومعتمده) ورئيس السُّيَّاس والكتخدا الذى اصطحبه، ثم يقوم بخَلْع الخُلَع السلطانية على كل مَنْ حوله، فبداية يخلع على كتخداه، بالإضافة إلى سيف مرصَّع. ويكون الكتخدا حاملاً للفرمان والمكتوبات الواردة من السلطان، وبينما الكتخدا يعبر وهو حامل للخط الفرمانى تعزف الفرقة الموسيقية تسع نوبات من الموسيقى، وهم يدخلون من باب

النصر . ويكون هناك بلوكان من العساكر المصطفة فى صفين متقابلين ، وتمر من بينهما أمواج وأمواج، وأفواج وأفواج من الحرفيِّين وأصحاب المهن فى مجموعات متناغمة . وعلى هذا المنوال يدخل الوزير إلى داخل مصر ، بحيث يعلم كل أهالى مصر وعائلاتها بما أمر به سلطان آل عثمان . أما إذا كان أهالى مصر من المحظوظين، فإنهم ينالون الخير الكثير من الپاشا ، ويزداد الزحام فى الأسواق والخانات ، ويمر الوزير وسط هذا الحشد من الطبل والزمر والحضور، حتى يصعد إلى مقر ديوان السلطان الغورى الكائن فى سراى قلعة مصر . ويصل الباشا وهو على صهوة جواده إلى بداية السلالم ، فيترجل ويستقبلونه، حتى يقف بجوار كرسى عرش السلطان سليم خان . وعلى الفور يُخرِجون الخلع السلطانية من الصرر السلطانية ، ويمسكونها فوق أيديهم ، ثم يُخرِجون أيضًا لفافات الأوامر السلطانية، ويضعونها هى الأخرى بعضها بجوار بعض بعد أن يقبِّلوها، ويرفعوها إلى رءوسهم، ويسلمون الفرمان السلطانى إلى الپاشا، فيقوم الپاشا بدوره بتقبيله ووضعه فوق رأسه، ثم يسلمه إلى أفندى الديوان، فيقوم هو بدوره بتقبيله ووضعه فوق رأسه، ثم يقوم باسم الله بفض الختم المهور بالخاتم السلطانى بالطغراء العثمانية، وما إن يخرج الخط الهمايونى الشريف حتى يكون الديوان على قدم وساق من أرباب القلم والأعيان ، ويكون الجميع وقوفًا، وهم مصغون تمامًا . وبعدها يقوم أفندى الديوان بصوت عالٍ بتلاوة الخط الشريف، وسط الدعوات الخيِّرة من الجميع للسلطان . ويزداد الدعاء عندما يصل أفندى الديوان فى قراءته إلى الأموال التى كانت مقررة لمكة والمدينة فى السنة المنصرفة، وما هو مقرَّر فى السنة المقبلة ... وما إن ينتهى أفندى الديوان من قراءة الخط الهمايونى حتى يصفق كل الجاويشية المصطفِّين، ويكون جميع أرباب الديوان فى سعادة وابتهاج زائد .

وعلى الفور يقوم رئيس حرس السراى بإلباس الخلعة الفاخرة للباشا الوزير بيديه المباركتين ، وما يكون من الپاشا الوزير إلا تقبيل الخلعة الشاهانية. وما إن يتم إلباسها له حتى يكرر جميع الجاويشية عبارة التبريك والتهنئة قائلين " مبارك أولسون

(= ليكن مباركًا) ، وسط موجات التصفيق المتتالية، ثم يتلو ذلك الأغا، حيث يقوم هو الآخر بِمَنْطَقَة الوزير بالسيف السلطانى المرصَّع. بعدها يقوم الباشا بتأبط كل من الكتخدا والأغا، أى أنه يعتمد على ذراعَى الكتخدا والأغا، ويسير نحو سجادة السلطان الغورى، ويظل واقفًا فوقها وهو يصغى إلى قراءة الأوامر السلطانية وهى تُتلى بصوت عالٍ مرة أخرى .. وبعدها يقوم بتوزيع الأوامر على سائر الأغوات والجاوشية، وما إن ينفضُّ الديوان العامُّ لمصر حتى تنطلق آلاف المدافع بإطلاق طلقاتها المتتالية من القلعة الداخلية ... وخلال تلك الأثناء تكون الفرقة الموسيقية الخاصة بالقلعة تعزف معزوفاتها المفرحة، وسط توزيع آلاف القطع النقدية عليهم، فيتسلمونها وهم ينصرفون فرحين .

وفى الصباح التالى يُقام السماط فى الديوان، فيتجمع جميع أرباب الديوان وجملة أهل المناصب، حيث يبقون فى مواقعهم ومناصبهم، وتوزع عليهم جميعًا الخلع الفاخرة التى تُسعدهم جميعًا ... ثم يتوجه كل شخص بعد ذلك إلى منزله وسط عزف مبهج من رئيس الفرقة الموسيقية نفسه ، فيُحسَن إليه بألف پارة، وتوزع الهدايا والأقمشه على كل أفراد الجوقة الموسيقية .

وبعدهم يستقبل الپاشا مجموعات المهنئين من أصحاب المراتب الأربع والعشرين، وينالون أيضًا أنصبتهم من الإحسانات . وعلى الرغم من ذلك فهناك مَنْ تصيبهم بعض النكبات وتوجه مناصبهم إلى آخرين، ويقوم الوالى بتحصيل أموال الكشوفية من أصحاب المناصب كافة؛ فتؤخذ من كتخدا الجاويشية عشر كيسات ومن رئيس المتفرقة عشر كيسات أخرى، وخمس كيسات من رئيس المترجمين، وخمس كيسات من الروزنامجى، وست كيسات من أغا الإنكشارية، وخمس كيسات من أغا العزبان، وأربع كيسات من كل من رؤساء البلوكات ، كما يُحصَّل من كل من الصوباشى والأغا المحتسب خمس كيسات . والحاصل أن هذا المنوال هو الذى يتم إقراره، وتجدد كل المناصب بناءً على ذلك ، ويُحصَّل من جملة الذين ارتدوا الخلع الفاخرة، والتى تبلغ سبعمائة وسبعين خلعة، ثلاثمائة وستون كيسة . ويُحسَن منها بما

يتراوح بين عشرين وثلاثين كيسة على رؤساء سائر البوابين (= الحراس) وعلى أغا الوزير الأعظم ، كما يُحسَن بعشر كيسات على السُّيَّاس وسائر الطواشية، كما يقدم إليهم الهدايا المختلفة . وبعدها يُقيم كتخدا الپاشا وسائر أصحاب المناصب فى مصر الولائم والضيافات المناسبة، ويقدمون الهدايا الملائمة، وتُرسل هذه الهدايا إلى الآستانة . ونتيجة المرام، فإن الأغا الذى تقرر مجيئه إلى مصر ينال ما يربو على مائة كيسة، بعد أداء سائر المصاريف والهدايا الواجبة ، وهكذا يكون الموكب المقرر لدخول مصر قد تم على هذا المنوال .

٨ - فاصل فى بيان ووصف الموكب التاسع الذى يُحضِر الخزينة المقررة من مصر إلى دار السعادة الآستانة

كما سبق البيان، فكما هو الحال، فقد تم التجديد لأصحاب المناصب، ومع بداية كل سنة، فإن والى مصر يُلزَم بخزينة مصر، ويهتم بتحصيلها ، ويكون هذا الاهتمام من قبل الپاشا الدفتردار، وكتخدا الجاوشية، ورئيس المتفرقة، وكتخدا الپاشا الوالى، وكاتب الحوالات والمطلوبات من المدن والضواحى. وعلى كل رؤساء الإدارات الاهتمام بهذا الأمر، كما أن على الكشاف والملتزمين أن يتجسسوا على ما هو متبقٍ فى ذمة الوالى. كل هذه المطلوبات تُقسم إلى ثلاثة أثلاث، الثلث الأول، والثلث الثانى، والثلث الثالث . وهناك مطلوبات صيفية، ومطلوبات شتوية. وإذا ما تبقت أى متبقيات لدى الأمناء، يوقع عليهم عذاب أليم، وآلاف مؤلفة من أنواع العقاب، حتى تُحصَّل هذه البواقى وتوضع فى الخزينة . والبعض من هذه المتبقيات لا يمكن تحصيلها ، فيقبض على كُشَّافها ويُجلبون إلى ديوان الغورى ويُصلبون، وتتساقط الدماء من جلودهم، ويُحبسون فى غياهب السجن حتى يتم تحصيل أموال السلطان . ويُطلق على هذه الأموال " الخزينة الكبرى "، ويا للعجب ! فهى داهية كبرى. وهذه الخزينة تُحصَّل بالدهماء من الدماء ، وبيان تحصيلها كما يلى :

بيان بجملة قرى مصر، وجملة عدد خزائن مصر، وعدد دراهمها ودنقاتها وأوقياتها، ومكاييل قمحها وشعيرها وأوزانها :

إن ولاية مصر مقسمة إلى سبعمائة وستين مدينة، وثلاثة آلاف بُلَيدة، وستين قلعة، وكما سبقت الإشارة فإن إيالة مصر موزَّعة إلى أربعة وعشرين قضاء، وولاية الصعيد العالى مقسمة إلى ستة وثلاثين قضاء . وجملتها كشوفية وأوقاف وأمناء وملتزمون وأوقاف سلطانية تعود إلى السلاطين، وأوقاف على الحرمين الشريفين ، ويُحصَّل سنويا من الأعيان، وغير ذلك من البلدات أربع وعشرون خزينة مصرية، ويُقال إنها مسجلة كلها فى دفتر الغزالى، وإن شاء الله تعالى فسيتم التحرير والكتابة عن كل منها فى المكان المناسب .

أما ما سوف يتم بيانه هنا فهو الخزائن المصرية الاثنتا عشرة، والتى تتعلق بالأموال الشاهانية ، أما تلك الخزينة الكبرى فهى الأموال السلطانية المخصصة لديوان مصر ولأعتاب دار السعادة. وهناك خزينة يطلقون عليها خزينة الاستغاثة، وتوصيل هذه الخزينة قبل عيد رمضان من الأمور الواجبة بأى حال من الأحوال ، وهى عبارة عن ألف ومائتى كيسة مصرية سنويا، وكل كيسة عبارة عن ثمانمائة وستة وأربعين قرشًا، وكل قرش عبارة عن ثلاثين بارة، معنى ذلك أن كل كيسة عبارة عن ثمانية وعشرين ألف بارة، وكل بارة عبارة عن دانق واحد، وكل دانق عبارة عن عشر حبات فى وزنه، وثقل الدانق الواحد عبارة عن ربع درهم ، أى أن ثقل الدوانق الأربعة عبارة عن درهم واحد ، والدرهم الواحد وزنه عبارة عن أربعين حبَّة سمينة. وعلى هذا الأساس تُحوَّل خزينة مصر إلى أوقيات، وتُجهز ثلاثون حقيبة كبيرة فى ديوان مصر، ويقوم ثلاثمائة صراف بصرفها، ويقوم الوزَّانون بوزنها جميعها، ويعدُّونها ويحضرونها واحدةً واحدةً، ويختمونها بختم الديوان فى حضور دفتردار الباشا آصف مصر، ويسلمونها إلى محصِّلى الخراج الذين يقومون بدورهم بوضعها فى الصناديق الصنوبرية الموجودة فى مقرِّ ديوان الغورى ثلاثية الأكياس ، ويقومون بمسمرة كل الصناديق بالمسامير، ثم يغلفونها بجلود الماعز من الداخل والخارج ، ثم يغلفونها بالإضافة إلى ذلك بجلود الأبقار السميكة، ثم يلفونها بإحكام بحبال إفرنجية، ثم

يغطونها بأكلمة حمراء . وعلى هذا المنوال تُجهز الخزينة بعد تحصيلها، ثم يُستدعى واحد من القواد المعتاد تكليفهم بتسفير الخزينة السلطانية، وتُسلم إليه الحجة بعد التنبيه عليه بضرورة الاستعداد التامٍّ للقيام بهذه المهمة .

وفى الصف الخلفى يكون أحد أغوات الإنكشارية الذين تم استدعاؤهم من معسكر الإنكشارية، والمرشح لكى يُمنح رتبة الكتخدائية، ويرشح له من البلوكات الخمسة جاويش مسن من المتصفين بالأمانة إلى جانب جاويش آخر من كل بلوك، وكذلك يُختار من كل بلوك واحد من حَمَلة الأعلام . والحاصل أن يكون هؤلاء الموظفون المكلفون بهذه الخزينة عبارة عن اثنين وسبعين شخصًا ، ويكون تلطيف خاطرهم بالخلع السلطانية، ويؤمرون بالاستعداد للتحرك . وما إن تحين غرة شهر رجب المرجَّب حتى تُقام وليمة عظيمة فى الديوان، ويحضر هذه الوليمة سائر أرباب الديوان وجملة العلماء والمشايخ والصلحاء وقضاة العسكر والنواب وكل شهود الديوان وكتابه وكاتبو السجلات الديوانية ، ويحضر الجميع إلى ديوان المحبة ، ثم تُعد وتُحصر جميع الصناديق على مرأى ومشهد من جميع الحضور من العلماء والمشايخ والصلحاء ، وأمام قائد حامية الخزينة ، وتُسلم إلى القائد العامٍّ وقواد المعسكرات السبعة الذين سيكونون فى معيته وتحت إمرته . وعندئذ يقوم الباشا الوالى بمخاطبة القائد المعين قائلا : وهكذا تكون قد تسلمت منى الكيسات الألف والمائتين الخاصة بالسلطان بالتمام والكمال، ودون أى نقصان، أليس كذلك ؟ فما يكون منه هو الآخر إلا أن يرد عليه قائلاً : بلى، قبضتها وتسلمتها كاملة ، وهى الآن فى قبضة تصرفى ، وليكتب ذلك فى السجل الشرعى، وليشهد على ذلك حضرة الباشا الوالى، وليتضرع أصحاب الدعاء بالدعوات الصالحات، ولتُقرأ الفاتحة على ذلك . وبعد أن يتم ذلك يكون إنزال جميع الصناديق من مقر ديوان الغورى إلى ساحة السراى ، ثم تحمل الصناديق على البغال المُعَدَّة لهذا الغرض، والتى يصطف حولها أنفار من كل صنوف معسكرات الإنكشارية، بحيث يكون قد وضع صندوقان على كل بغل، ويكون كل بغل قد تم تحميله بست من الكيسات المصرية .

٩ - فى بيان خزينة مصر

تبدأ المواكب والآلايات فى المسير، فى البداية يكون الپاشا الوالى قد أعدَّ الأوضاع القانونية؛ حيث يكون قد اختار سبعمائة من جند المعسكرات (= البلوكات السبعة) الموجودين فى مصر، والذين تم اختيارهم وتكليفهم بمهمة إحضار الخزينة إلى دار السعادة الآستانة . وفى السراى تُستعرض الآلايات فى حضور الپاشا شخصيا، وخلال الاستعراض ينفخ كل رئيس مجموعة نفير مجموعته، وتشق هذه الأصوات عنان السماء ، ويكون قائد الحامية على رأس كل الجنود وقد تدثر بمعطف سمُّورى وتقلد بكل أسلحته، هو وكل رجال الحامية ، ثم تعزف الفرقة الموسيقية أربع نوبات من الموسيقى وست نوبات من نفير التحرك ، ثم يؤدون السلام والتحية للپاشا الوالى، ويقوم الپاشا بدوره بإصدار الأمر بالتحرك قائلاً : توكل على الله، وليسهل الله سيركم . ويبدأ الموكب فى المسير والنزول من القلعة ، وعندما ينزل من القلعة يكون فى انتظاره وفقًا للقانون المصرى ما يزيد عن ثمانية عشر ألفًا من أصحاب المهن والوظائف فى مصر، وقد اصطفوا على جانبى الطريق للمشاهدة والوداع، ويسير الموكب بتؤدة بين الحشود حتى يعبر مدينة مصر . وما إن ينطلق إلى الطريق العامِّ حتى تكون الحشود المكتظة قد تراصت على جانبى الطريق، وهم فى أبهى زينتهم، وتلهج الألسنة بأطيب الدعوات، وتنطلق الزغاريد من النسوة اللائى تجمَّعن للفرجة . وتكون هذه فرصة لتلاقى الأحبة والعشاق، ويتلاقى الجميع وسط هذه الزغاريد .. أما عساكر الإسلام فيسيرون مسيرة الطاوس ، ويكون السير وسط بهجة وفرحة عارمة، ويسير الموكب على هذا المنوال حتى يخرج من باب الناصر حتى يصل إلى مكان يُسمى العدلية، ويكون الجميع فى أُلفة وابتهاج . وهنالك فى هذا المكان يقيم قائد الحامية خيمته ، وعلى الفور تقام الخيام وتكون معسكرًا كالجبل ، وتُضرب السلاسل حول المعسكر ، ويقوم العدَّادون على الفور وهم فى صحبة كبار البلوكات السبعة بحصر وعدِّ الصناديق، ويضربون حول كل صندوق قفصًا من الحديد . وتُربط

كل هذه الأقفاص بحلقات حديدية متصلة بالجنازير المضروبة حول كل الصنـاديق، ثم يغرســون طرفَيْ هذه السلاسل الحديدية، ويثبتونها فى الأرض بعد أن يضربوا عليها الأقفال المتينة ، ثم يغطون كل الصناديق ، ثم يصطف حولها أنفار الحراسة اللازمة . ثم يتفرق كل الجنود على الجهات الأربع، ويكلفون بمهمة الحراسة ويظلون هكذا ، وتكون جميع الصناديق قد سُترت بالأكلمة الحمراء وغُطِّيت بها، ولكن يصبح القول السائر " ربنا يسترها " هو القول السائد بين الجميع ... وما زال هذا القول يجرى على لسان المصريين كـ " ضرب مثل " . ويظل هذا الموكب ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ فى العدلية هذه ، وهم فى خضم من السرور والسعادة الغامرة ولا تكف الفرقة الموسيقية عن عزف المقطوعات المبهجة طوال هذه المدة التى هم فيها فى انتظار الخزينة الشاهانية، وبينما الموكب فى هذا المكان تكون الفرمانات قد أُرسلت إلى بكوات سبيل علاَّم وكاشف قليوب ومديرى أمن المدن ، ويكون الجميع بجميع جنودهم فى انتظار موكب الخزينة فى صحراء العدلية، وهم ممسكون فى أياديهم آلاف المشاعل والقناديل، بحيث يضيئون الجوانب الأربعة للعساكر، ولما كانت القافلة ستنتظر فى العادلية فإن مدير أمن المدينة (= الصوباشى) يكون قد أعد للأمر عدته، وفى كل ليلة يكلِّف كتخدا الإنكشارية باصطحاب ما بين ألف وألفين من جنود الإنكشارية، وهم مدججون بالسلاح ، ويقومون بالحراسة حتى الصباح، وفى الوقت نفسه يتجولون وسط الطبل والعزف ومعالم الفرح والابتهاج التى تنطلق من كل حدب وصوب . فجنود معسكر الغاورية هم عماد جنود حراسة مصر ، وكانت تُمنح علوفة شهر مقدمًا لكل الأفراد المكلفين بحراسة الخزينة ، وفى اليوم الذى سيتحدد فيه تحرك قائد الحامية المكلفة بحراسة الخزينة يصل الفرمان إلى كاشف قليوب، يأمره بمرافقة الخزينة السلطانية بعساكره حتى يُسلمها إلى كاشف الشرقية . وفى هذا اليوم أيضًا يكون هناك احتفال عظيم، فكل أغوات جميع المعسكرات يخرجون من معسكراتهم فى صحبة القادة المكلفين بالتوجه إلى العدلية .

١٠ - فاصل فى بيان الموكب العاشر من مواكب الخزينة

موكب الأوجاق، أى موكب المعسكر الإنكشارى

فى اليـوم الثالث يكون الموكـب مقصوراً على القـواد، ولا ينضـم إليـه مَنْ هـم غير عسكر، فتقريباً جميع كبار المعسكر وعجائزه هـم عماد هذا اليوم ، وغالباً مـا يكون هذا الموكـب فى غـاية العـظمـة والزيـنة . فـالمكلفـون بالسـفر يكونون جـمـيـعًا مـدججين بالسـلاح ، ولكن الآخـرين لا يـحـملون سـوى سـيـوفـهـم فـقـط ، يمرون وهـم يطلقـون صيحـاتهم المدوية المعهودة، ويصـلون إلـى العادلية وهـم يعـزفون معازفهم الخـاصة بهم . ثم يُودع المكلفـون بالسـفر ويبقى الآخـرون، ثم يعودون أدراجهم بعـد أن يدعو كل منهم للآخر ، وعلى الفـور ينطلـق نفيـر قـائد الحـامية، وفى النوبة الثـالثة تُعزف نوبة الرحيل . وعند مـنزل الخـانكة ومنها عند بلـبيس يقـوم كاشف العـدلية بتسليم موكب الخزينة سـالمًا إلى كـاشف القليـوبية، ويتـسلم الحـجـة الشـرعـيـة. ثم يعـود إلى الپاشا ، ثم يقوم كاشف الشـرقـية أيضًا بتسلم الحـجة الشـرعية التى تُثبت أنه سلَّم الموكب إلى باشـا غزة . ثم يعود إلى الپاشـا الوالى ، ويقوم الپـاشـا نفسـه بحمـد الله والشكر له على سلامة قافلة الخزينة . ومـا إن يتسلم مـا يفيد عبور القافلة إلى حدود الشام حتى يحمد الله حمداً كثيراً ، وعندئذ يرتاح الپاشا، ويتصرف فى الأمـور المهمة لكى يُصرِّفها.

ولكن ليكن معلوماً ما هو تالٍ :

أنَّ هـذه الخزينـة السلطـانية التى تبلغ مائتى كيسة مصرية، والتى سبق ذكرها، لا تقف عند هذا الحد . فـهـذه المبـالغ تكون خـالصـة للسلطان، ولا يُمَسُّ منهـا قـرش واحد، بل إن المصاريف الأخرى اللازمة لمأكولات ومشروبات المكلفين بحراسـة القافلة، ومـصـاريف الخلـع والهـدايا والإحـسـانات والمنح والعطـايا، وأُجـرة البـغـال ومصـروفـاتهـا، وثمن الأكلمـة التى توضـع فـوق البـغال، والخـيام اللازمـة للعسـاكر،

ومصاريف الصناديق . لما كانت كل هذه الخدمات تؤدى داخل مصر فإنّ جميع مصروفاتها ترجع إلى واليها . هذا بالإضافة إلى كل المصاريف، وإنعامات أغوات البلوكات السبعة، ورؤساء معسكراتها وجاويشيتها، وحملة الأعلام وحملة البُلط. والحاصل مصاريف ما يقرب من ثمانمائة رجل ومكافآتهم التى تبلغ لكل واحد منهم تقريباً ألف أقچة يوميا، بالإضافة إلى حصتهم إذا ما عادوا سالمين ، وإذا ما حُسِب كل ذلك فيمكن القول إنّ هذه الخزينة تكلف خزينة مصر سنويا ألفى كيسة مصرية ... لأن كل هذه الترقيات والإكراميات ترجع إلى عوائد الپاشا شخصيا ، وكل هذه المصاريف مرهونة بحسن تصرف الپاشا . وقد يؤدى عدم الوفاء بها إلى عصيان أوجاقات (= معسكرات) الإنكشارية ، وتقوم القيامة عندئذ وتنقلب الدنيا على رأس الپاشا الوالى نفسه، وقد يُكلفه أمر الصلح معهم خمسة وعشرين قرشاً عن كل أقچة ، ولا بد أن يأخذوا أقچاتهم . ويقومون فجأة بالتفتيش والتحرى لنَيْل مستحقاتهم ، ومهما يكن الأمر فإن هذا هو قانون سليم خان .

١١ - فاصل فى بيان الموكب الحادى عشر، وهو موكب مصاريف الجيب التى تُرسل إلى صاحب السطوة (السلطان) من المال الخاص لسعادة الوالى

ما إن يصل موكب الخزينة إلى والى الشام الشريف، ويكون النُجَّاب قد أحضروا خطابات البشرى من أمير القافلة وأغوات البلوكات، حتى تعم الفرحة والسرور ، ويبدأ الارتباط منذ غرة شهر شعبان بخزينة مصاريف الجيب . ولا يُكلف بها أمراء مصر، ولكنها تُجمع من أغوات الپاشا وأصحاب الوقار والثراء، ويكلَّف بها واحد من أصحاب الكر والفر، ويكون تحت إمرته مجموعة من التاتار (= حملة الرسائل)، ومتطوعو المتفرقة، وبعض من الخيَّالة الشجعان المعتمد عليهم والمدججين بالسلاح، ومن خارج معسكرات الإنكشارية، هؤلاء يكونون فى صحبة ثلاثمائة رجل من رجال الپاشا وأصحاب الرتب، وثلاثمائة آخرين من الأوجاقات السبعة المصرية بكامل

أسلحتهم، ويسجلون بعلاوة أقچة لكل منهم، لأن هؤلاء يقومون بغارات، ويسبقون الخزينة الكبيرة، ويجب أن يصلوا قبل ١٥ أو ٢٠ يومًا لإيصال خزينة مصروف جيب السلطان قبل حلول العيد المبارك . ويضرب لهذا الغرض درهم مخصوص فى دار سكٍّ العملة ، ويكون في وسطه حلقة، وهو يُضرب من الفضة الخالصة . ولا يُحسب هذا على الخزينة، بل هو من الكيسة الخاصة بالوالى، وتفوق فى قيمتها ثلاثمائة كيسة مصرية، هذا خلاف ما يوازى ثلاثمائة كيسة أخرى من مختلف المنتجات والمتفرقات الواردة من الهند والسند وبلاد العجم واليمن والحبش، وكذا مائة وسبعون صرةً (= بغچة) من الأقمشة الفاخرة ذات القيمة العالية، وتربط هذه سنويا، وتوزع على النحو التالى : عشر صرر للوالدة (= والدة سلطان)[٢٧]، وخمس صرر لكل زوجة من زوجات السلطان (= خاصكى سلطان)، وخمس صرر لأولياء العهد من الأمراء، وخمس صرر لكل من أمهات السلاطين الآخرين ، وثلاث صرر لكتخدا الوالدة سلطان، وخمس صرر لأغا الفتيات (= قيزلر أغاسى) [٢٨] وصرتان لكل من رؤساء حرس

(٢٧) **والدة سلطان :** لقب كان يُطلق على والدة السلطان المتربع على العرش ، وكانت لها مخصصاتها ونفوذها الكبير الذى تكتسبه من نفوذ وقوة ابنها السلطان . وكان منهن صاحبات فضل وخير عميم ، كُنَّ يقمن الجوامع ، ودور الأيتام ، والمطاعم التى تُقدم الطعام للمساكين ، والحمامات والأسبلة ، ويقدمن الهدايا القيمة للمقيمين والمجاورين فى الحرمين الشريفين . وقد عرفت الحضارة الإسلامية منهن ذوات فضل كبير طوال عصور الحضارة الإسلامية . وكان لوالدة السلطان سليمان القانونى ومحمد الرابع شهرة كبيرة فى مضمار الخير وتسهيل سبل أداء فريضة الحج .

(٢٨) **قيزلر أغاسى :** لقب لواحد من كبار موظفى القصر، وكان يسمى أغا دار السعادة ، وكان يوجد أغوات سود فى القصور فى روما وفى الشرق فى العصور القديمة، وفى قصور العباسيين والمماليك فى العصور الوسطى أيضًا. وكان قيزلر أغاسى واحدًا من هؤلاء الخدم السود، وكان هذا القسم بعد أكبر أقسام الأندرون فى القصر العثمانى، وكانت درجة هذا المنصب تأتى بعد الصدر الأعظم وشيخ الإسلام ، وكانت وظيفته حماية وحراسة قسم الحريم السلطانى الخاص بالنساء فى القصر العثمانى، وكان تحت إمرته أغوات خدم سود فى خدمة الحريم السلطانى. (انظر : پاقالين جـ٢ صـ ٢٧٩).

بوابات السراى، وصرتان للخزينة دار (= الخزندار ، أو الخازندار)، وصرتان لرئيس خدم الغرفة الرئيسية (= غرفة نوم السلطان)، وصرتان لكل من السلحدار والچوخة دار (= رئيس خزينة ملابس السلطان)، وصاحب الركاب، وأغا السراى القديم، ومعتمد (= كتخدا) حملة البلط، وصرتان لرئيس مقدمى قهوة السلطان . وهؤلاء جميعًا من متعلقات السراى السلطانى، وعدا هؤلاء فيقدم عشر صرر للوزير الأعظم (= الصدر الأعظم)، وعشرة آلاف دينارٍ ذهبىٍّ، وخمس صرر لكتخدا الصدر الأعظم ، وثلاثة آلاف دينار ذهبٍ، وخمس صرر لرئيس الكتَّاب وألف دينار ذهبيٍّ، وصرة لكل واحد من كتَّاب التذكرة مع ثلاثمائة دينارٍ ذهبىٍّ، وإلى الأفندى كاتب الرسائل، وإلى الروزنامجى، صرة لكل منهم وثلاثمائة دينارٍ ذهبىٍّ، وإلى معتمد (= كتخدا) حراس قصر الوزير الأعظم، وإلى صاحب خزينته، وإلى رؤساء بلوكات الحرس، وإلى رؤساء الجاويشية، فيقدم لكل من هؤلاء صرة . كما تقدم صرة إلى كل من الباشا الدافتردار، وشيخ الإسلام، وقاضى العسكر، ومولاً إسلامبول . ولكن علاوة على ذلك يُقدم إلى شيخ الإسلام والدفتردار خمس صرر أخرى مع ألف دينار ذهبى لكل منهما، كما يُحسن على وزراء القبة السبعة بصرة لكل منهم .

وخلاصة القول فإن المائة والسبعين صرة المشار إليها سابقًا تُوزع، وإذا لم تكفِ هذه فإنه تُرسل مائة صرة أخرى إلى كتخدا الباب (= قائد الحرس) . وتُرْسل صورة من الدفتر (= إيصال) باستلامه لها ، وكذلك تُرسَل مع هذه الصرر اثنا عشر ألف دينارٍ ذهبىٍّ عيدية للوزير الأعظم ، كما تُرسل مع هذه الخزينة عشرة آلاف دينار عيدية للآخرين ، وهذه كلها تمثل مشكلات وصعابًا جمة لولاة مصر .

وبعد خزينة مصروف الجيب هذه، فإن إبراهيم باشا قد كلَّف رئيس مكلَّفية أن يبعث بعشرين غلامًا أشداء، مع كل منهم خمسة رءوس من الخيول الكحيلانية إلى سعادة السلطان، ومائة كحيلان من خيول الهوَّاره، كما أرسل الوالى إبراهيم باشا هدايا إلى كل أعيان الدولة . ولكن الغريب فى الأمر أن أعيان إسلامبول الذين لم يصبهم ولو نذر يسير مما سبق تحريره آنفًا من صرر العيدية، فهناك طرف يُقدِّم له كتخدا إبراهيم باشا ومعتمده فى إسلامبول قدرًا عظيمًا من الأطعمة والأشربة، فمثلاً يقدِّم إلى رئيس حراس سراى السلطان ثمانين ألف كيلة من الأرز الإسلامبولى ومائة ألف كيلة من العدس ومائة ألف كيلة من الحمُّص والفول، وستمائة غرارة من البن، وألف قنطار من السكر، وألف برطمان من الأشربة العنبرية المختلفة، وخمسمائة زوج من البوقلمون الحريرى المطرز (= المزركش)، ومائة وخمسين رأسًا من أغوات الطواشية اللطاف، والكثير والعديد من التحف والقطع التذكارية القيِّمة، كما يقدم إلى أعيان الدولة مائة رأس من الكباش وذوى الدماء (= الذبائح)، وتسعة ثيران برية، ومائة قفص من طيور البَبْغَاء، والنعام ؛ وكل هذه الأشياء توضع فى السفن المناسبة من الإسكندرية ورشيد.

وقد أرسلت كل هذه الهدايا إلى رجالات الدولة، كل هذا المتاع والهدايا تُسلم إلى أغا الخزينة حسب الموعد المحدد، وكما هو المنوال السابق شرحه ووفقًا لقانون سليم خان تُرسل إلى العادلية فى موكب محتشم، وتحت حراسة آلاى (= كتيبة) من أصحاب الرتب . وهناك يمكث فى العادلية هذا الركب العظيم بقواده، مع رئيس السياس وأغا الخزينة، كتخدا الباشا الوالى . وهنالك يُقدم كتخدا الباشا أربع كيسات مصرية لمصاريف الطريق، كما يقدم لكل قائد معه أربعة آلاف بارة . وهناك تحاط الخزينة من جوانبها الأربعة بالقوات المصرية وفرسان الباشوات، بعد أن تحط رحالها وسط فرح

وابتهاج . وكما هو المعتاد يقوم قائد (= أمير) سبيل علاّم وكاشف قليوب بالإحاطة بالخزينة لمدة ثلاث ليالٍ بنوبتين من الفرسان ، ويتولون حراستها والمحافظة عليها ، وهناك يُودِّع كتخدا الباشا أغا الخزينة ، ويدخل الكتخدا إلى مصر ، ومن هناك تتحرك الخزينة إلى الخانكة، ومنها تصل إلى بلبيس، وتُسلم إلى كاشف الشرقية . ويقوم هو بدوره خلال عشرة أيام بتسليمها إلى والى غزة، الذى يقوم بدوره بتسليمها إلى والى الشام ، ومن الشام إلى حماة، ومن هنالك يتوالى قَطْع المنازل وطَىُّ المراحل، حتى تصل هذه الخزينة وتُسلم إلى الباشا الدفتردار قبل العيد المبارك . ويقوم هو بدوره بالعرض على السلطان، وتسلم إلى الخزينة الشاهانية، ثم تُقدم وتسلم هذه الهدايا والعيدية والإحسانات حسب الأصول المرعيَّة إلى أصحابها وفقًا لما هو مقيَّد ومسجَّل فى دفتر الكتخدا . وعقب ذلك، وتقريبًا فى منتصف رمضان، تصل البشائر والمبشرون من قبل والى مصر، فيتم الإنعام عليهم بالخلع الفاخرة والإنعامات الجزيلة والرتب العالية . وفى الخامس والعشرين من رمضان يقوم أمير مصر بتسليم الخزينة وسط احتفال عظيم ، فينعم على كل القواد بخلع السلطان الفاخرة، ويمكثون فى قصر أحد الوزراء ، وتُعد وتحصى هذه الخزينة، وإذا ما وجد أن هناك ما بين خمس أو عشر كيسات ناقصة، فإنهم يقومون بتعويضها من كتخدا الحراس . وعلى الفور يتم تفتيش كل الجنود القادمين فى صحبة أمير قافلة مصر، ويأخذون كل ما يجدون مع هؤلاء الرجال لكى يكملوا نواقص هذه الخزينة، ويقوم بهذا العمل مجموعة من الرجال الأكْفاء ، وعندئذ فقط يستحقون الترقى ، وما عدا هؤلاء فلا ينال الآخرون أى علاوات أو ترقيات .

ثم يأتى الفرمان إلى والى مصر يُفيد بوصول خزينة مصر، وخزينة مصروف الجيب ، ويكون مع الفرمان خفطان (= درع وسيف) يقدمهما رئيس الحراس إلى الباشا الوالى، وهو على كرسى عرشه، إيذانًا بدوام سلطانه ... ويكون على الباشا الوالى أن يقدم إلى هذا " القابوجى باشا (= رئيس الحراس، أو السلاحخور)، ما بين عشر كيسات وخمس عشرة كيسة مصرية .

١٢ - فاصل فى بيان الموكب الثانى عشر

وهو مجىء موكب السيف والدّرع

هذا أيضًا موكب يماثل ذلك الموكب السابق تسطيره، وليس هناك فرق فى الأصل والأساس، ولا يخرج المصريون لهذا الموكب، بل عساكر الپاشا الوالى وحدهم، ويتوجهون إلى العادلية قبل الوصول بيوم واحد، ويقيمون المطبخ هنالك، ويتناولون مختلف أنواع النعم، ويكون كتخدا الپاشا مع الأغا القادم وفى صحبته، ويدخل الموكب من باب الناصر وسط جمع غفير من المحتشدين للفرجة من أهالى مصر، ويصلون إلى السراى الموجود فى القلعة، حيث يُتلى فى الديوان السلطانى الأوامر وما يفيد وصول خزينة السلطان بالكمال والتمام ، ويخاطب السلطان الوالى قائلاً : إن خزينتى قد وصلت بالتمام ، ولهذا السبب فمرسل إليك خلعتى الفاخرة، ومعها مرسل سيف ، وليكن ذلك مُبلغًا لجميع الرعايا والبرايا، وبالاحترام الزائد لمكة والمدينة . فيرتدى الوالى الخلعة الفاخرة، ويتقلد السيف اللامع وسط الحضور، ويكون الپاشا محل تقدير واحترام عظيمين ، وهكذا يكون ختام موكب الاحتفال بخزينة مصروف الجيب، وموكب الخلعة السلطانية، والسيف الشاهانى المرسل إلى الوالى، وكلاهما يكونان فى غاية الأبَّهة، والزينة والطنطنة .

١٣ - فاصل فى بيان الموكب الثالث عشر

موكب الصُّرّة المحمدية المرسلة من مصر إلى الشام الشريف

لم تكن هذه الخزينة موجودة خلال فترة قانون السلطان سليم خان ، بل صدر بها الفرمان السلطانى من قبل السلطان سنة ١٠٨٢ بناءً على تدبير ورأى الكتخدا إبراهيم پاشا . وقد صدرت الأوامر بإرسال أمين

صرة[٢٩] من الآستانة إلى المدينة . والمسافة بين مصر والشام عشرون منزلاً "مرحلة"، وهذه الصرة بعد وصولها إلى الشام تُسلم إلى أمين الصرة . والرجل المكلَّف بتسليم هذه الصرة لا بد وأن يكون والى الشام، ولا بد وأن يستحسن الشكل والوجه اللذين سوف يذهب بهما أمين الصرة الآستانى. وفى الخامس عشر من رمضان المبارك يتم تعيين الأغا المُدَبَّر من قبل والى الشام لكى يكون سرداراً [٣٠]. ويخلع عليه

(٢٩) **أمين الصرة (= صرة أمينى)**: اصطلاح إدارى يُطلق على الموظف الذى تسند إليه عهدة ومهمة توصيل الصرة الهمايونية إلى الحرمين الشريفين كل سنة ، وكان يُعين لهذه المهمة أحد الشخصيات العلمية أو المدنية أو العسكرية التى تتصف بالتدين والاستقامة . وكان يبدأ رحلته وسط احتفالات آلاى الصرة، وبعد أن يقوم بتوزيع الصرة على أربابها وأداء فريضة الحج كان يعود إلى إستانبول . ومع أن هذه المهمة تعتبر مهمة شرفية فإن أمين الصرة كان مضطراً فى كثير من الأحيان إلى الصرف من ممتلكاته الخاصة مبالغ كبيرة وذلك لقلة المخصصات ، ومن هنا كانت تسند هذه المهمة إلى بعض الأغنياء فى كثير من الأحيان ، وكان كثير من العثمانيين فى عصور الازدهار لا يتوانون أو يتهيبون من صرف المبالغ الضخمة فى هذا الصدد . ولكن فى أواخر القرن الثانى عشر (= الثامن عشر الميلادى) ، وبسبب الأوضاع المالية المتردية للدولة العثمانية ، بدأ الكثيرون يرفضون القيام بهذه المهمة، متعللين بكثير من الأسباب الواهية لإعفائهم منها . وفى عهد السلطان سليم الثالث، وبخاصة فى سنة ١٢٠٧ هـ = ١٧٩٢ - ١٧٩٣ خُصصت علاوة مبلغ ١٥٠ ألف قرش ذهبى زيادة على مخصصات هذه الوظيفة، مما أعاد إليها رونقها وأصبحت مطلبًا لكثير من رجالات الدولة .

كانت الصرة التى يرسلها بايزيد الثانى كل سنة لتوزع على أهالى الحرمين الشريفين قد نالت استحسان شاعر البطحاء العربى الشيخ شهاب الدين بن أحمد بن على (المتوفى ٩٢٢ هـ = ١٥١٦م) فقرض قصيدة فى مدح السلطان أسماها (الدر المنظوم فى مناقب السلطان بايزيد ملك الروم) وقدمها إلى السلطان عندما قدم الشاعر إلى إستانبول ، فاستحسنها السلطان ، وأنعم على الشاعر بألف دينار ، وكان يرسل إليه سنويا مائة دينار . (انظر : مرأت مكة ، المجلد ٢ ص ٦٧٠ - ٦٧١ . و " معجم المصطلحات التاريخية جـ٢ ص ٢٨٣) .

(٣٠) **سردار (= سرعسكر)** : مصطلح عسكرى يعنى رئيس الجيش أو قائد الجيش ، وكان يُطلق على قائد الجيش العثمانى بعد تخلى السلطان عن قيادته . وتلقب قائد الجيش بهذا اللقب بعد إلغاء الإنكشارية ، وإذا ما عينه الصدر الأعظم كان يُسمى " سردار أكرم " ، وكثيراً ما كان الصدر الأعظم يجمع بين اللقبين إذا ما قاد الجيش بنفسه ، وكان يُطلق عليه آنذاك " وزيرى أعظم أكرم " . (انظر : محمد ذكى پاقالين ، عثمانلى تاريخ ديملرى وتريملرى ، سوزلكى إستانبول ، ١٩٧١ م).

بالخلعة الفاخرة ، ثم يُختار ثلاثمائة من جملة الأبطال المشهود لهم من أغوات الباشا، ويقسَّمون إلى عشرة مجموعات ، لكل مجموعة علَمُهَا ، ويُحسن إلى كل منهم بألف بارة، ويكون هناك مائة من أبطال المصريين المدججين بالسلاح، ويُمنح كل منهم أيضًا ألف بارة ، ولكن ليس لهم علاوات ميرية ، فهذه سُخْرة لهم من الأوجاقات. كما يُحسن إلى أغا الباشا بكيسة مصرية مصاريف طريق ، ويقوم الباشا شخصيا فى الديوان وفى حضور جميع العلماء والصلحاء والأعيان بتسليم مبلغ قدره اثنان وستون ألفًا من السِّكَّة الذهبية الحسنة بيديه شخصيا . ولا بد أن تكون هذه السكَّة من الذهب العنبرى المَمَسَّك أى المسكى ، ولا بد أن يكون مسكًا زعفرانيًا ، وجميعها حمراء خالصة ، وكل دينار منها لا بد وأن يكون وزنه مثقالاً بندقيا كاملاً، وكل مثقال وزنه مائة حنطة، والمائة ذهبيةٌ كاملة العيار ، بحيث تجىء مائة وعشرة دراهم بالكمال، ولا بد وأن تكون قد ضُربت وهى تامَّة الميزان . ولو جاءت قطعة واحدة منها ناقصة حنطة واحدة فإن شريف مكة وشيخ الحرم المدنى لو قدما معروضًا يعرضان فية أن السكة ناقصة الميزان هذا العام لكان حال ووضع وزير مصر فى هذه الحالة مشوشًا، لهذا السبب لا بد أن يكون الذهب الذى تُضرب منه هذه السكة ذهبًا نقيا وذهبًا خالصًا لا تشوبه شائبة . وحملة هذا الذهب يحملونه على ظهور القافلة المزينة فى ميدان سراى مصر، ثم تمر الواحدة تلو الأخرى فى حضور الباشا ، ليس لهم فرقة موسيقية . ولكن قوَّاد الخازندار وأغا الباشا لهم طبولهم التى يقرعونها داخل مصر، ووسط الحشود التى تجمعت يتم عبورهم ، ثم يمكثون للراحة فى العادلية، ومن هناك أيضًا مباشرة إلى حاكم قليوب وكاشف الشرقية، وهو بدوره يوصلها إلى غزة، ويقوم والى غزة بتوصيلها إلى باشا الشام ، وهناك تُسلَّم إلى أمين الصرة، وفى ظرف خمسين يومًا لا بد وأن تكون قد عادت إلى مصر مرة أخرى ... وهذا أيضًا موكب خزينة ، والسلام .

١٤ - فاصل فى بيان الموكب الرابع عشر من مواكب الخزينة

وهو موكب الكسوة السوداء للكعبة الشريفة

سبق أن أثبتنا أوصاف الكسوة الشريفة عدة مرات سابقًا، ولكن هذه أيضًا خزينة سلطانية ، وليست من خيرات آل عثمان ، بل هى من أوقاف سيدة تُسمى شجر الدُّر من سلاطين الأكراد، ولم ينل كل السلاطين هذا النصيب ، بل أصبح من نصيب هذه السيدة ، وما زال إلى الآن بالقرب من مدينة مصر عشر قرى عامرة ومعمورة، وقفًا لهذا الغرض ، ويتحصل سنويا من هذه القرى مائة وستون كيسة مصرية . ويقوم ناظر الكسوة بشراء سبعين قنطاراً من الحرير، وثلاثة قناطير من الفضة الخالصة ، ويشرع الأُسطوات المهرة فى الشهر الموعود ، وفى شهر رجب يقدمون إلى ناظر الكسوة عدة وصلات نموذجًا ، فيحضرها الناظر بدوره إلى مقام الپاشا . فإذا كانت نظيفة تمامًا، يقع الإحسان وتقديم الخلع إلى ناظر الكسوة وأسطواتها المهرة، ولكن إذا كانت غير متقنة الصنّعة يعاقَب الناظر بالعتاب والتوبيخ . وفى غرة شهر شعبان تصل البشرى إلى الوالى باكتمال الكسوة الشريفة ، فيُنبه على الموكب ويُعد الاحتفال والآلاى، ولكن يكون عدد الجند فى هذا الموكب محدوداً. وعدا كتخدا الجاوشية ورئيس المتفرقة والأغا الترجمان وناظر الكسوة الشريفة وأمين الكسوة، فجملة الآلاى (= القافلة) مائة وسبعون من دراويش الطُّرق . وقبل الاحتفال بيوم واحد يُحْضِرون إلى مقام الپاشا الكسوة الشريفة والباب الشريف وغطاء مقام سيدنا إبراهيم ، ويزنونها، ويُثمِّن الحرير والخيوط الذهبية، ويُحاسب ناظر الكسوة، فإن جاءت الحسابات مقبولة يُخلَعُ على ناظر الكسوة ، ولكن إذا كان هناك أى نُقصان فى أوزانها، يأخذون بضع كيسات من الناظر ، وفى صباح اليوم التالى يُخرِجون الكسوة الشريفة والباب الشريف، وجميع المتعلقات من قصر يوسف، لأنها قد صنعت هناك، يخرجونها من هناك إلى الضواحى مروراً من باب الوزير . إن ستارة باب الكعبة المكرمة الشريفة تُبْسَط على إطار من الخشب يماثل إطار الباب الشريف. ويقيمون هذه الأخشاب على خوازيق كبيرة ، ويقوم الأهالى المغاربة بشدها . فغالبًا ما تكون ستارة

الباب الشريف هذه مرتفعة وعظيمة، ولما كان باب القلعة لا يسعها فإنهم يخلعون باب القلعة من الخارج . وإن ستارة الكعبة من الحرير الأسود الخالص وأطرافها من الحرير الأبيض الناصع، وتُربط الكسوة الشريفة بالكعبة بالحبال المجدولة ، أطوالها عشرون ذراعًا، ولها ثمانية أحزمة، بحيث يمكن اعتبار أن كسوة الكعبة الشريفة بها ثمانية أحزمة دائرية ، كما أن لمقام سيدنا إبراهيم ستارة تُشد فى البداية على إطار خشبى رباعى الزوايا . تُدوَّن جملة هذه الستائر والأغطية، ويُعلَن ويُعلَم بها كل المشايخ، ويُخبَرون بساعة التحرك . يتحرك من باب الوزير حتى باب المشهد الحسينى، فى المقدمة يسير حَمَلَة حبال الكسوة الشريفة، ثم يتبعهم الكساء الأسود للبيت الشريف فوجًا فوجًا ، وكثير من الناس الحاضرين يقدمون الإحسانات والعطايا للمغاربة الذين يحملونها تبركًا بهذه الهدايا ومحبة للبيت العتيق، وغالبًا ما يحمل المغاربة كلٌّ منهم "طبلية" على رأسه، وقد عُرضت عليها بعض من هذه القطع المعدَّة من الستارة . وما زالت هذه المحبة كامنة فى قلوب المغاربة حتى يومنا الحاضر، حيث اعتادوا هم منذ أمد بعيد حمل هذه الهدايا المتجهة إلى الأماكن المقدَّسة . وكانوا يرددون : " لا إله إلا اللّٰه محمد رسول اللّٰه " وهم سائرون ، ولقد طُرِّزت كسوة البيت الشريف السوداء، وتزينت بـ " لا إله إلا الله " . ولما كانت كلها من الحرير الأسود فهى كسوة سوداء ، ويطلق البعض مصطلح " بيت الله ذو الكسوة السوداء " على الكعبة المشرفة. وبعد الستارة يَرى الناظر إليها الأحزمة التى تلفها دائرًا ما دار، وكأنها أقفاص طولية، أطوالها تزيد عن عشرين ذراعًا – كما سبقت الإشارة – وتتوالى عليها الأشرطة الحزامية المزدانة والمشغولة بتطريز ذهبىٍّ بديع الصنع، بحيث ما إن تلصق بها عين الناظر إليها حتى تتملكه البهجة وينشرح صدره بما رآه ... وقد نُقشت على هذه الأحزمة الزخرفية آية ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾(النور٣٦/٢٤)، وجملة الأرضية التى طرزت عليها من خيوط الذهب الخالص ، وليس بها نقوش بألوان غير هذه . وعرض كل شريط أو حزام ذراعان، وطول كل منها عشرون ذراعًا . والمغاربة هم الذين يحملون هذه الأحزمة

أى الأشــرطة الثمانـية ، يسير بجوارهم طوائف الجند، حتى لا يصاب أى منهم بأى ضرر .

على هـذا المـنوال والترتيب يتم إحـضارها إلى مـقام الپاشـا فى " قراميدان "، وما إن يراها الپـاشا حتى يمـرغ وجـهه بها، هو وكل من حوله، يقومون بالدعاء والثناء، ثم يستـمرون فى مسيرتهم بعد أن يتبرك بها الپـاشا . ويكون فى مَعِيَّة مسيرة الكسوة مشـايخ الطرق الصـوفية المائة والسبـعون كافة وخلفهم مـا بين أربعين وخمسين ألفًا من الدراويش والأتبـاع ، يسيرون وهـم يسبِّحون ويهللون، ويوحدون الله الخـالق . ومع هذه الهـمـهمـات الإلهيـة تنطلق آلاف الدفوف والأجـراس، والصـاجات والنايات، ومع الموسيقات والترانيم الدينية يتمايل العشاق والمجذوبون، والذين ألمَّ بهم الوجد الإلهى، ويَعْبـر الجميع عبـر هذا الطريـق العامِّ وهم يطلقـون كلمـة التـوحـيـد، وينشـدون أبلغ التــرانيم، ولا تعـدم أن تســمـع وسط هذا الإنشــاد والإطراب بعــضًـا من المواويل والغزليات. ويمر هؤلاء المشايخ وقد رفعوا الآلاف من أعلامهم ورايـاتهم التى تدل على مختلف طرقهم، ويستمر عبور هؤلاء أربع ساعات كاملة . ثم يتلوهـم حَمَلة كسوة مقام حضرة سيدنا إبراهيم، وهى أيضًا من "الإبريشم" المذهَّب والمطرز بمختلف النقوش . إنها غطاء، أو لنقُلْ "مفرش" صندوق رباعى الزوايا، ومن بعدهم يمر الأسطوات المَهَرة الأربعون الذين قاموا بخياطة هذه الكسوة الشريفة من أمام الپـاشا، وهم فى أوج تأنقهم، وفى أبهى صورة يمكن أن تكون عليها ملابسهم الأطلسية والمخملية.

ولكن من شدة الزحـام فى هذا الموكب فإن العديد من الناس يُجْرَحون، لأن على جانبى الطريق أمواجًا وأمواجًا من البشر، وكأنها أمواج البحر المتلاطم، الكل يود أن يمـلأ العـين برؤيـة كسـوة الكعبـة الشـريفة، وغطاء مـقام حضـرة سيدنا إبراهيم . بل كـان منهم من يود أن يمـرغ وجـهـه فيـهـا فى أثناء العـبور ، ولولا أن طوائف العـسكر كـانوا يحـولون بينهم وبين السـتـارة لما بقى منهـا شىء للمـقـام العـتـيق . وبعـد هؤلاء الأسطوات، تبـدأ عسـاكـر أمير الحج فـى العبـور ، وهـم أيضًا يمرون فى ركـاب مزيَّن ومزركش ومسلح، ويسيرون فى ثنائىٍ متراصٍ ، ومن خلفهم يأتى غطاء بـاب الكعبـة

المشرفة، وقد شده المغاربة فوق مزارق منقوشة عليها كلمة التوحيد، وهو في ارتفاع عشرة أذرع من الحرير المطرز، وهو عبارة عن غطاء أو لنقُلْ ستارة معتبرة للباب الشريف، وقد كُتب عليه أيضًا بخطوط مذهَّبة "لا إله إلاَّ الله محمد رسول الله" ، وما إن يعبر هذا حتى يأتي من خلفه المحمل الشريف و،قد حُمِّل فوق جَمَل لطيف مُحَنًّى بالحنَّاء . وعندما كان جان پولاد زاده حسين باشا عزيزًا على مصر قام بتجديد كسوة المحمل الشريف، وجعلها من الحرير المطرز طبقة، فوق طبقة ، حتى أضحى وكأنه نور إلهي .

وخلاصة الكلام أن اللسان قاصر عن وصف ذلك، ففي هذه السنة قد مر المحمل الشريف في هذا الموكب على هذا المنوال ، وفي غير هذا الزمان كان الموكب يمر وعلى رأسه أمير الحج . وعند باب خروج المحمل كان يصطف الآلاف من حَمَلَة المشاعل والدفوف الذين يدقون عليها وهم يصيحون مرددين: " الله ينصر السلطان ، وإن شاء الله بالسلامة " ... ومن بعد هؤلاء يمر رؤساء المهن، ومن بعدهم ناظر الكسوة وكتخدا أمير الحج ، وأمين الكسوة ، ويتوجهون إلى قراميدان وقد ارتدوا خلعهم، وفي معيتهم سائسو خيولهم وأغواتهم وقد تزينوا وتمنطقوا بكل أسلحتهم ، ومن خلفهم أيضًا الفرقة الموسيقية للباشا أمير الحج. ويمرون وقد ارتدوا زيهم وتدلت طررهم خلف رءوسهم . وقد جاءت الجموع الغفيرة إلى مصر للفرجة مما خلق ازدحامًا عظيمًا، وتصل الكسوة إلى مقام الإمام الحسين، وتُنْزَل هنا المهمات الأخرى كافة. وتظل هنا سبع ليالٍ يجتمع فيها العلماء كافة لإحياء هذه الذكرى ، وهنا يتم خياطة جميع أصدار وأذرع الكسوة الشريفة، لأن حجم المشهد الحسيني مقارب تمامًا لحجم الكعبة المشرفة، وهي من الخيرات العظيمة . وكانوا يلفُّون الكسوة الشريفة حول أعمدة الجامع ويخيطونها، ثم تُرسل على هذا المنوال إلى الكعبة المشرفة، وتأتي متوائمة معها. وخيرات هذه الكسوة من الخيرات الجليلة، وقد كان في الأزمنة القديمة يقوم تُبَّع اليمن بفرش الكعبة كل سنة بالحصير اليمني المنقوش المزركش، ويُطلق على شاهات اليمن وملوكها " التتابعة "، ثم جاء بعدهم هارون الرشيد من آل العباس فكساها

بالديباج، ومن بعده غطاها الخليفة المأمون بالديباج الأحمر، ورابع هؤلاء كان آل الترك، عندما ملكوا ديار مكة قامت الملكة التركية شجر الدُّر والسلطان أيبك التركمانى بكسوة الكعبة بكسوة من الحرير الأسود، ووقفًا عليها أوقافًا عظيمة كما سبق البيان، حتى إنهما أعفيا الكثير من القرى من الالتزام، وجعلا على من يكون ناظر الكسوة التزامًا قدره مائتا كيسة مصرية ، وجعلا فى التزامه عددًا كبيرًا من القرى العامرة المعمورة . وأما السلطان سليم فعندما ضم مصر وفتحها جعل لها أوقافًا كثيرة ، وكان ذلك القوشاق (= الحزام) الذهبى من خيراته . أما كسوة وغطاء الباب الشريف فكانا من خيرات السلطان سليمان، والمزراب الذهبى من خيرات السلطان أحمد، أما تجديد مقام إبراهيم كل سنة فكان من خيرات السلطان إبراهيم. وكان السلاطين الذين كانت الأموال تزيد فى خزائنهم يبذلون العطاء ويلحقون الكثير من أموال الخزينة بها [رحمة الله عليهم أجمعين] ، بحيث كانت كلها خيرات تليق ببيت الله من السلاطين . وكان هذا الموكب ، موكب كل المواكب، وكان كل سلطان يسعى لأن يكون هذا الموكب يليق بالمشاهدة، فاللهم يسِّر لنا مرتين .

١٥ - الفاصل الخامس عشر عن مَوْكب أمير الحج ومَصَارِف خزينة مكة والمدينة والحُجَّاج من ذوى الاحتياج

إن موكب أمير الحج هو عيد أيضًا من أعياد المصريين ، ويبدأ موكب أمير الحج فى الثالث والعشرين من شهر شوال، بحيث كان جميع أهالى مصر يقومون باستئجار الدكاكين قبل الموعد بخمسة أو عشرة أيام، ويُدفع فى الدكان ما بين خمسة وعشرة قروش، ويأتون بعيالهم ومأكولاتهم ومشروباتهم ويقطنون تلك الدكاكين الواقعة على الطريق العامِّ ، لأن هذا الموكب وموكب المحمل الشريف الذى يتحرك منذ الصباح يمر هنا بالكاد بعد العصر، ولأجل هذا فإن الجمع الغفير يسكن الدكاكين ومعهم طعامهم

وشرابهم . وهذه عادة قديمة منذ زمن السلطان الظاهر بيبرس (رحمة الله عليه) ، فهو الذى أظهر هذا الموكب العجيب .

فى البداية ، فى ليلة الموكب بعد العصر ، يتجمع جميع المشايخ العظام والعلماء الكرام وكتخدا أمير الحج وعساكر وجنود أمير الحج ، ويتجه الجمع الغفير ليأتى الموكب العظيم من المحل الشريف قراميدان.

يقوم جميع الجند وجملة الدراويش الذين يُعَدُّون بالآلاف بضرب الدفوف، ويكون المكان الشريف قد ازدان بمختلف الزينات ، وأضحى فى أجمل زينة . ويتقدم موكب أمير الحج وسائر الضيوف، وآلاف قوافل البغال المحمَّلة بالماء الطاهر، والكثير والكثير من الجمال التى ستتوجه إلى الكعبة الشريفة، والتى يُطلق عليها المصريون [جمال الصحابة] أى جمال السبيل، وتكون هذه أيضًا محملة بالكثير والكثير من القِرَب المملوءة بالماء الطاهر . ويتقدم الموكب رويدًا رويدًا بين عزف وطبل جنود ومشاة كتخدا أمير الحج، وآلاف من المشايخ الدراويش ذوى الشأن العظيم ، ويأتون جميعًا بالموكب والمحمل الشريف إلى قراميدان ... وينزلون المحمل الشريف عن جَمَله فى ساحة سبيل خانة السلطان الظاهر بيبرس، ويُقيم كتخدا أمير الحج بجواره مظلة، ويمكث بجواره .

ويقيم جميع عساكر أمير الحج وسائر المشايخ وجملة المصريين خيامهم ومظلاتهم ومَبَارِك جمالهم وبغالهم ويمكثون هنالك ، وتكون قوافل الجمال متراصةً فى قراميدان صفوفًا صفوفًا ، ويرسلون من يخبر الپاشا بأن الموكب قد حط رحاله فى قراميدان، وأن المحمل الشريف هنالك . وعلى الفور يقوم ساسة الپاشا وأمراء إسطبله بإقامة الصُّوفة ، وتكون هذه الليلة تحت سيطرة وحكم كتخدا أمير الحج وناظر الكسوة، وهم أصحاب السطوة والكلمة على قراميدان . ويتردد أذان المغرب من فوق المآذن، وبعد أداء الصلاة، تتم إنارة قراميدان بآلاف القناديل والمشاعل والمصابيح، ويتلألأ الميدان بالضوء الأبيض . ويفد من الأهالى والدراويش والمشايخ الآلاف، ويحيطون بالمكان الشريف من جوانبه الأربعة، ويحيون الليلة حتى الصباح بالتوحيد والذكر والإنشاد فى كل النواحى . ثم يأتى لكل هؤلاء المشايخ والذاكرين

والمنشدين الطعام من قِبَل الپاشا، ويُمد السماط المحمدى، فالوالى هو صاحب الوليمة، وهو الذى يقدم الطعام، لأنهم ضيوف الپاشا الوالى، ورجال الوالى يرعونهم، ويرسل الپاشا مع رئيس المهتر الداخلى (أى رئيس الفرقة الموسيقية الداخلية) نصف أوقية من العود، وينطلق البخور من المباخر المتقدة، ويعبق المكان بأدخنة المباخر، وينثر على كل المشايخ والدراويش ماء الورد وماء القاضى . ويظل الجمع فى تلاوة المولد النبوى حتى الصباح، وتكون تلاوة الختم الشريف، وتتردد الأذكار والتوحيد من العديد من الأماكن .

وعند الصباح تُدق الطبول وتعزف نوبات كتخدا أمير الحج وناظر الكسوة، وعلى الفور تُحَل أربطة الخيام والمظلات وتجمع القناديل والمصابيح والمشاعل، ويحمِّلون أحمالهم على ظهور الجمال . ويقفون على أهبة الاستعداد، وقد كان جميع أرباب الديوان والأمراء الچراكسة والقادة وجميع الأمراء قد وصلوا قبل السَّحَر، واصطفُّوا فى خيمة الوالى المزدانة وهم على أهبة الاستعداد، كما أن جميع الچورباجية والسردارية والجاويشية وحَمَلَة الرايات والأعلام وحَمَلَة التبر وحَمَلَة السيوف والأعيان والأشراف وأصحاب المقامات الرفيعة ورؤساء البوابين قد اصطفُّوا جميعًا ، وهم فى أبهى زينة وتمام أسلحتهم وخوذاتهم التى هى فوق رءوسهم وكأنها أعراف الطاوس المتبختر، كما اكتظ الميدان بهجَّانة الحجاز والجمع الغفير من البشر والدوابِّ . وبدأوا يطوفون بالجمال المزدانة رءوسها، وعلى كل جمل من الجمال ما بين خمسين وستين راية من الخردة المزركشة، ومختلف الأعلام والبيارق المزخرفة، إلى جانب المحفات والصناديق المنقوشة، وكان الجمَّالة يدورون بجمال المحمل وسط مختلف الطبل والنقر والزمر. وتحوَّل قراميدان إلى محفل من السعادة والحبور والبهجة ، وبعد ذلك يفد حضرة قاضى العسكر ونوَّابه الأربعة والعشرون وجملة طائفته، وكل منهم قد ازدان رأسه بعرف إضافى، ويستقرون فى صدر خيمة الپاشا الملمَّعة ، وهم جميعًا فى انتظار مقدم أمير الحج وفى معيَّته الپاشا.

بعد ذلك يفد رأس السادات الذى يمثل آلافًا من سادات سدنة علم حضرة صاحب الرسالة، ومقيم علم الشريعة بموكبه المهيب ، ثم يتعاقب فى المجىء حضرة قاضى العسكر والمشايخ والأئمة والخطباء والمشايخ البكرية ومواكب السادات، يفدون فوجًا إثر فوج، وينزلون فى خيمة ومظلة الپاشا، ويقفون فى صف ومحاذاة قاضى العسكر . وبعد ذلك يهتز قراميدان بمقدم عساكر البلوكات السبعة، وهم يضربون الأرض بأقدامهم الموحَّدة الخُطَى ويقفون وقفة استعداد ، ومن بعدهم موكب وكتيبة الپاشا أمير الحج. فى الواقع كان من أمراء مصر وقادتها ، ولكنه من الأمراء القادة حَمَلة الطوغين .. كان أعراب الصحراء يطلقون على أمير الحج هذا سلطان البر، ولما كانت مصاريفه من قبل السلطان، فقد كان يتم الإحسان عليه بست وثلاثين كيسة، وكان لأمراء الحج قرى خاصة معمورة، وكان الأمير يتحصل على أربعين كيسة من قراه . وكانت سليانته السنوية من ديوان مصر اثنتَىْ عشرة كيسة علوفة. وفى حقيقة الوضع، فإن أمير الحج المصرى كان يمتلك واردات كثيرة، حتى إن كتخداه كان يعيش كسلطان مصر، وكان يُعلق على خيمة قيادته طرة مزدانة بالجواهر لأنه وكيل السلطان، وكان يُقدَّم إليه مائتا جملٍ من الميرى ، وكان يصطحب ألف جمل من أمواله الخاصة . ولم يكن هذا ليكفى، فيمده الأصدقاء بأعداد أخرى . ويحصل أيضًا على خمسمائة جملٍ ، فيصبح جملة ما يملكه ألفَىْ جمل، لأن جملة حجاج مصر محتاجون إليه، وكانت البلوكات السبعة تمده ببلوكات يتكون كل منها من خمسمائة جداوى من الجند، يتجه نصفهم بالسفن من السويس إلى جدة والنصف الآخر يذهب فى صحبة أمير الحج، ويتم الحفاظ عليهم وتدريبهم من قبل قادتهم لمدة سنة . ويبقون فى مكة، ويعبِّرون عن هذا الجمع المكوَّن من خمسمائة جندى "بالسبعينى" ، وهم يذهبون ويعودون مع أمير الحج .

وما إن يظهر موكب أمير الحج على هذا المنوال وسط عزف فرقه الموسيقية حتى يتحول قراميدان كالبحر المتلاطم، وينقسم العسكر إلى شقين، شق مكون من العزبان والإنكشارية يصطفُّون للسلام، والشق الآخر المكون من سباهية (= فرسان) البلوك السابع، وهم مزدانون بملابسهم المزدانة بشتى الرتب، ومدججون بالأسلحة فوق

خيولهم المتبخترة، وألجمة الخيل فى أيديهم، وهم منتظرون لتحية أمير الحج والسلام عليه . ويقدم أمير الحج ماراً من بين هؤلاء بموكبه الخاص به ، فيؤدى الجند من الجانبين التحية وسط عزف الفرقة الموسيقية (المهترن)، وينزل الپاشا فى سرادقه الذى يتصدره سائر الأمراء، وبعد أن يستقر يأتون بمدافع الآلاى إلى ميدان المحبة هذا، ثم يرون الجمل المحمَّل بعلم رسول المحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويكون المحمل الشريف أيضًا فوق جمله، يدورون معًا فى هذا الميدان، ويكون أمير الحج قد جاء إلى الپاشا وفى انتظار إشارة البداية هو وجميع جنود الموكب .

وعندما يمتطى الپاشا أيضًا صهوة جواده المزيَّن يكون جميع الأغوات حسب القواعد المرعيَّة كلٌ على جواده . وكذا رؤساء مشاة القابوجية كل على جواده وأمامه خادم أو خادمان، كما يكون من أمير ملابس الپاشا، وجاويش السلام وكتخدا القابوجيلر (= حرس الديوان)، ورئيس الترجمانية ورئيس المتفرقة وكتخدا الجاوشية، كلٌ على جواده المزدان ، وبعد ذلك يبدو الپاشا بخلعة السمور، وبسليميته أى بعمامته السليمية، وعلى كتفيه نحاسياته فى تمام لمعانها وشلواراته، وأغوات الداخل وأصحاب الرتب الأربع والعشرين كلٌ على جواده مدججًا بسلاحه، وقد وصلوا إلى السرادق المزدان والمقام فى قراميدان ووسط تصفيق الجاوشية كافة، وما إن يستقر الپاشا فى موقعه حتى يقدم أمير الحاج ويقبِّل يده فى البداية، ويستقر فى مكانه . وعلى التوالى يتم دعوة أعيان مصر كافة إلى حضرته، ثم يتلوهم حَمَلَة المصروفات كافة، وحملة صرر المشايخ المكلفون بمهامٍّ على الطرق، ثم الصرة الشريفة المخصصة لمصاريف الأشراف، وصرر سائر المصروفات وجملة المهامِّ.

وعندئذ يُبادر الپاشا بتوجيه السؤال إلى أمير الحج أمام سائر الشهود "هل قبلت وأخذت منى؟ " فيرد أمير الحج قائلاً : "قبلت وتسلمت". وما إن يقول لم نبق جبة أو حبَّة حتى يوجِّه الپاشا حديثة إلى فضيلة المونلا أمرًا قائلاً: اكتب . فيقومون بذلك وتسجيله فى السجلات، وبعدها يوجه الپاشا كلامه أيضًا إلى سائر المكلفين وإلى المأمورين بأمور الحج من القادة والقواد والجاويشية، وإلى سائر المكلفين بأمور

الطعام والشراب والوظائف والمهامّ، وأصحاب أعلاف الجمال والبغال، يوجه الپاشا سؤاله إلى هؤلاء جميعًا: هل تسلمتم مرتباتكم وعلوفاتكم ومصاريفكم لمدة سنة مقدمًا ؟ ويكرر سؤاله هذا ثلاث مرات . وعقب أن يردوا جميعًا: أخذنا وقبضنا. يخاطب الپاشا الجمع قائلاً : اشهدوا . ويتم تسجيل وقيد ذلك فى السجلات والدفاتر، بعدها تُقدَّم خلعة مقصَّبة بالذهب ، ويُلبَّس فراء سمُّور، ومن بعده تُقدم الخلع أيضًا إلى الكتخدا والدويدار وإلى قاضى المحمل وإمامه ومؤذنيه، وتقدم كذلك الخلع إلى أغا بيت مال الپاشا وكاتبه، والحاصل أنه تُقدم الخلع التى بلغت مائتين وعشر خِلَع فاخرة إلى أرباب هذا الموكب .

بعد ذلك ينهض الپاشا الوالى من مكانه قائلاً : "بسم الله الرحمن الرحيم "، ويسير مترجلاً نحو الجمل المُحمَّل (= جمل المحمل) حتى يصله ويمتع نظره، ويمرغ وجهه بالمحمل الشريف قائلاً : " بسم الله ". ويأخذ سلسلة مخطم الجمل الفضية، ثم يدور بجمل المحمل هذا عدة مرات فى قراميدان هذا، ويكون بهذا "جَمَّال رسول الله صلى الله عليه وسلم وخادم محمله" ويقوم القادة والبكوات كافة وهم حفاة الأقدام بالدوران مع الپاشا الوالى، فيطلق الجنود والوجود صيحات طلب الشفاعة مرددين : " الشفاعة يا رسول الله"، فتجلجل هذه التضرعات فى عنان السماء .

ولم تستطع أى عين تشاهد هذا المشهد أن تمتع نفسها من البكاء مع التضرع.

الاحتفال بالپاشا أمير الحج

الپاشا من قواد مصر و رتبته ميرميران (= أمير الأمراء) من ذوى الطوغين، ويُطلق عليه بدو الصحراء و أعرابها سلطان البر . يمنحه السلطان ستا وثلاثين كيسة سنويا للإنفاق منها على أموره وحاجاته ، وتوجد قرى عامرة تخص أمراء الحج دخلها أربعون كيسة، ولأمير الحج مخصصات من ديوان مصر تقدر باثنتى عشرة كيسة فى كل عام حقا لأمير الحج المصرى، ثروة طائلة ويتمتع بأبهة وطنطنة

حتى إن وكيله = كتخداه) يُزين مُجوزّته = قُلُنْسُوته) بطرّة كطرّة سلطان مصر، لأنه وكيل السلطان .

يقدم أمير الحج مائتى جمل من مصر ، ويشترى هو ألف جمل بأمواله الخاصة ، ومع ذلك لا تكفى هذه الجمال حاجته فيحصل على خمسمائة جمل أخرى من أصدقائه المصريين، فيبلغ مجموع جماله ألفىْ رأس، ذلك لأن جميع الحجاج المصريين هم من مسئوليته ، كما يعطى خمسمائة جندى من البلوكات السبعة، نصفهم يحمى المؤن المتجهة إلى جدة عن طريق البحر ، ونصفهم يرافقون أمير الحج إلى مكة، ويظلون بها سنة مع قائدهم محافظين، وهناك خمسمائة رجل يُطلق عليهم ذوو السبعين أقچة، يسافرون فى معيته ويعودون معه . يبدأ أمير الحج بهذا الموكب العظيم، وعندما يضرب طبوله يفترق الجيش المستعد بقراميدان كالبحر الزاخر إلى شقين، فى شق يصطف العزبان والإنكشارية وفى الشق الآخر فرسان البلوكات السبعة، فى انتظار تحية أمير الحج الذى يتقدم فيمر بين الصفين من الجنود محيِّيًا يمينًا ويسارًا ، ضاربًا طبوله، فيحلُّ على سرادق الپاشا الوزير ويتخذ مكانه فى صدر جميع الأمراء . وعندئذ تتحرك مدافع الآلاى ويُحمل المحمل على جمل، كما يُحمل لواء رسول الله صلى الله عليه وسلم على جمل آخر، ويطوف بهما بالميدان . وفى تلك الأثناء يرسل النبأ إلى الپاشا الوزير بقدوم أمير الحج وانتظار الجيش تشريفه .

يتحرك موكب الپاشا و على رأسه أغوات " واجب الرعاية " مترجلين ، ثم يسير رؤساء الحُجَّاب بعمائمهم المزركشة راكبين، وفى معية كل منهم واحد أو اثنان من الخدم، ثم چاويش السلام وكتخذا الحُجَّاب، ورئيس المتفرقة وكتخدا الچاويشية ، يسيرون كلهم راكبين . ويسير بعدهم الپاشا فى خلعته السمُّورية وعمامته السليمية يتعقبه سلحداره (أى المكلف بأسلحته) وچوخداره (أى المكلَّف بملابسه)، ويرتدى كل منهما أسكفة وسراويلَ، ويعدهما أغواته الأربعة و العشرون أولو الرتب يتبعونه راكبين حاملين سيوفهم ، وينزل الپاشا على سرادقه المزين فى عاصفة من الهتاف والتصفيق ويأخذ مكانه، فيتقدم أولاً أمير الحج ويلثم يده ويجلس مكانه، ثم يدعوه

الباشا للمثول أمامه فى جمع من أعيان القاهرة ، يقول له: "وهل قبلت منى جميع مصروفاتك وصرر المشايخ المعتمد عليهم فى الطريق وصرر مكة والمدينة والشرفاء وسائر المصروفات واللوازم وتسلمتها ؟ " فيجيب أمير الحج : "ونعم قَبلتها وقبضتها دون أن تنقص جُبَّة ولا حَبَّة". فيأمر الباشا القاضى بتسجيل هذا الجواب فيقيد فى السجل ، ثم يسأل القادة والچاويشية المأمورين بالسفر إلى الحج ثلاث مرات: "هل تسلمتم ذخائركم ولوازم طعامكم وشرابكم وجمالكم وبغالكم ، وقبضتم مخصصاتكم لمدة سنة مقدمًا ؟"، فيردون هم عليه قائلين : "نعم أخذناها وقبضناها" . فيخاطب الباشا الحاضرين: " اشهدوا ". ثم يقيد ذلك فى السجل الرسمى، ويخلع الباشا على أمير الحج خلعة مُقَصَّبة، وإذا كان الأمير من أصحاب الحظوة عنده خلع عليه سَمُّورية . ويخلع كذلك خلعة فاخرة على وكيل أمير الحج ودويداره ورؤساء البلوكات السبعة، وعلى حامل العلم وچاويش المحمل وقاضيه وإمامه ومؤذنه، وعلى كل من أغا بيت المال وكاتبه من أغوات الباشا . وخلاصة القول أنه يخلع على مائتين وعشرة من الرجال من مرافقى المحمل .

وبعد أن تتم هذه الإجراءات يبسمل الباشا ويقوم من مكانه ويشمر ذيله، ويذهب إلى جمل المحمل ماشيًا بخفة فيمرغ عينه ووجهه بالمحمل الشريف، ثم يمسك بالسلسلة الفضية التى يقاد بها الجمل مبسملاً حامدًا ، ويدور به عدة دورات فى قراميدان جاعلاً نفسه جَمَّال رسول الله، ويسير معه البكوات جميعًا حفاة الأقدام، ويصدر من الجيش هتاف وصياح إلى السماء بالنداء : " الشفاعة يا رسول الله " . فهل يستطيع امرؤ أن يرى الباشا هكذا فى صورة جَمَّال ولا يبكى ؟ ثم يخاطب الوزير بعد ذلك أمير الحج قائلاً: "إن سلطان آل عثمان هو ملك مكة والمدينة، وهو خادم الحرمين المكرمين المشرفين ، وأنا وكيله اليوم وعبده المملوك، وحسب وكالتى سلمت إليك المحمل الشريف، وفى سبيل الدين شمرت ذيلى مركِّزًا بكل ما بى من قوة فى ذراعى واستودعت بعد الله الحجاج المسلمين سالمين غانمين وسلمتهم إليك ، فهل تسلمت المحمل الشريف ؟ " ، فيجيب أمير الحج :" نعم تسلمته وقبضته" . ثم يمسك

بيده مقود الجمل الفضى، ويستشهد الپاشا على التسليم ويقيِّد ذلك فى السجل ، ويمكث الپاشا بعد ذلك فى مظلته حتى يمشى أمير الحج بالمحمل و يشرع الموكب فى السير . تُقيَّد أسماء جميع الحاضرين فى سجل شهود الحال، ثم تُتْلى الدعوات وترتفع أصوات التكبير ، فيشرع الناس فى الانصراف . ويسلم أمير الحج على الباشا الوزير فيمتطى صهوة جواده ويمسك بمقود جمل المحمل ويرحل إلى الحجاز ، فتمر أولاً أثقال الحجاج ثم يمر أمير الحج .

تمر أولاً بضعة آلاف من الجمال المزينة الطاوسية المحبوبة وجمَّالوها يحملون المشاعل ، ثم يمر ثلاثمائة جندى من المدرَّعين والمدفعيين ومعهم ستة مدافع من مدافع القلعة، يسيرون باذلين المياه من جِمال الصحابة (حاملة الماء) المرادية والمحمدية، وتتبعهم أثقال أمير الحج وخيامه وأخبيته، وتتبعهم جمال الدراويش حاملة إياهم وأعلام مشايخهم ، وتتبعها سبعون أو ثمانون جملاً من جمال المحفات التى يركبها الفقراء الذين يمرضون فى أثناء الطريق، ويسير بعد ذلك موكب القاهرة .

يقوم على رأس الموكب الچاويشية ويتبعهم المتطوعون ثم حَملَة البنادق ثم الفرسان ثم فرقة المتفرقة ، ويتبعهم أغوات البلوكات السبعة بكوات الچراكسة وبكوات القاهرة و يمر بعدهم أمير الحج ، ويسيرون جميعًا جنبًا إلى جنب فى صفوف وهم مدججون بالسلاح ، وقد زين الموكب زينة يعجز اللسان عن التعبير عنها .

ثم يمر بعد ذلك فى جلالٍ ووقارٍ العلماءُ والصلحاءُ وأئمةُالمساجد وخطباؤها وقد لبسوا على رءوسهم العمائم، ويتبعهم آلاف من الحَسَنيِّين و الحُسَيْنيِّين من السادات الكرام بعمائمهم الخضر على جياد أصيلة مزينة، ويسير بعدهم نقيب الأشراف تحت لواء رسول الله صلى الله عليه وسلم يتقدمه چاويشيته، والناس يستقبلونهم بالصلاة على النبى ، ويأتى بعدهم أمير الحج وقد وضع على رأسه مجوزة ويسير معه جنبًا إلى جنب سائس أمير الحج، ويتبعهم خواصُ أغوات كتخدا الباشا ثم موسيقى الباشا ثم أتباع الكتخدا ومعتمده و أهل القاهرة ينتظرون قدوم المحمل الشريف .

الاحتفال بموكب المحمل الشريف

سبق القول إن الباشا الوزير سلم المحمل إلى أمير الحج على ملأ من الناس، ولكن لا يكاد المحمل يخرج من قراميدان حتى يحيط بأمير الحج الشيخ مصطفى مرزوق الكفافى وشيوخ الطرق البدوية والرفاعية والبرهانية فينتزعوا منه المحمل، فيقود الجملَ الشيخ مصطفى الرومى كبير الشيوخ جميعًا ، فلذا يسلم إليه الأمير المحمل ويسير فى الموكب .

ذكر سبب الاحتفال بالمحمل ، وأسماء مشايخ الطرق

قد يتبادر هنا سؤال عن أصل قيادة المشايخ لجمل المحمل الشريف ، فالجواب أنه حينما أصدر الملك الظاهر بيبرس الچركسى قانون إيصال المحمل إلى العادلية فى احتفال عظيم كان الشيخ مرزوق الكفافى على قيد الحياة، وكان أكبر المشايخ فى ذلك العهد سنا، فأخذ مقود المحمل من يد الظاهر بيبرس وقام بوظيفة الجَمَّال ، وقاد المحمل راجلاً حتى الكعبة وهو ينادى : " أنا لويش وكبيس "، ثم زار الروضة المطهرة بالمدينة المنورة ونفذ داخل مقصورة رسول الله ، ولما خرج منها شوهد وعلى رأسه قلنسوة جمال مرصَّعة مزيَّنة . وقاد الجمل بعد ذلك إلى القاهرة راجلاً أيضًا ، وهكذا ظل يقود المحمل من مصر إلى مكة ومنها إلى مصر فى كل عام إلى أن توفى . منذ ذلك الوقت لا يزال العرض جاريًا بأن يتسلمه الشيخ مصطفى الرومى (التركى) شيخ الطريقة الكفافية ، وأن يوصله إلى العادلية وقت الغروب . هذا قانون قديم ، ولا اعتراض على أن تسليم المحمل الشريف لدراويش المشايخ اليوم لذلك السبب ، ولا يشاركهم فيه فرد من أفراد الطوائف العسكرية، وإن وجد فهو قد أخذ البيعة على إحدى الطرق فيسير فى ذيل فقرائها ، فقد ورد فى الحديث : " الفقر فخرى "وفى القاهرة فقراء، أى دراويش، ألف وسبع عشرة طريقة حسب مضمون البيت التركى

تالله إننا نفاخر " الفقر فخرى " فنسير فى صورة الفقراء " و لهم مائة و أربعون شيخًا كبيرًا، كتبنا عنهم حينما كتبنا عن عدد التكايا و الخانقاوات والدراويش، فليس هذا الموضوع فى حاجة إلى تكملة .

وأما دراويش الثلاثمائة والستين تكية التابعة لمائة وأربعين شيخًا فمنهم أتباع السيد أحمد البدوى الذين لا عد لهم ولا حساب، فقد حلَّت بركة السيد البدوى بأرض مصر كما حل بها و ببلاد الأكراد مذهب الإمام الشافعى . وأما سائر المشايخ فقد حلت بركاتهم بجميع البلاد الإسلامية، فاشتهر الشيخ عبد القادر الجيلانى فى بغداد والهند والطريقة المولوية والبكتاشية والخلوتية فى بلاد الروم ، والواحدية والحيدرية والشمسية واللويسية فى أرض فارس .

ويكثر فى مصر دراويش الطريقة الأحْمَدية البدوية، فدراويش الطريقة البرهانية عددهم الحالى لا يعلمه إلا الله، والفقراء يفهم بعضهم طرق بعض حين يتقابلون . وعلى رأس المحتفلين بالمحمل الشريف بوَلّه العاشقين المشتاقين دراويش الطريقة المطاوعية ، فهم نحو ألفى فقير ولِهين حيارى ، قد حملوا الحراب والرماح والسيوف والتروس ، ويسيرون على أنغام الدف والقدوم والطبل والنقارة والصنجات (الصاجات) والمزمار ذاكرين موحدين، وقائمين بحركات هجومية ودفاعية كأنهم يتقاتلون ، قد انتشرت شعورهم فى ضفائر وفتائل وخصل، ويمرون موحدين توحيد "الأرة " المتوالى فى ظلال خمسمائة أو ستمائة علم من أعلامهم البلق . ويمر بعدهم أتباع الطريقة الواحدية والحمزوية والبيرامية والصمودية والعُشَّاقيَّة والشمسية والعلوية والويسية والساداتية والبكرية والأدهمية والعباسية واليسوية والبرهانية والدسوقية ، فهم بضعة آلاف درويش ينيرون تحت أعلام طرقهم فوجًا فوجًا، ومع كل طائفة شيخها ممتطيًا جوادًا محاطًا من كل جهاته بالأعلام ، ذاكرين أنواع التوحيد السلطانى والأوراد على أصوات الدف والقدوم، فتمتلئ القاهرة بأصوات " هُو ، " وليس فى هذا الطريق أكثر من دراويش الدسوقية والبرهانية الذين يسيرون رافعين لواءهم الأبيض والنفطى وسائر أعلامهم السقائية.

ويأتى بعدهم دراويش طرق حسن الراعى وأحمد الرفاعى والسعدى وأحمد البدوى، وعددهم يتجاوز عشرين ألفًا، والأحمديون يرفعون لواءً أحمر اللون . يسير هؤلاء الألوف من الفقراء العشاق ملتفين حول مشايخهم مستغرقين فى لفظ " هو" على أصوات الدفوف و الطبول و القدوم والصنجات والنقارات . و يمر بعدهم عدد كبير من العُشَّاق المجاذيب أتباع الشيخ عبد القادر الجيلانى حفاة الأقدام حاسرى الرءوس موحدين . ثم يمر أتباع الطريقة الكفافية والكناسية والإنبابية والشناوية والكميلية والنقشبندية والروشنية والگلشنية والخاموشية والسنانية والنعمة الإلاهية والنوربخشية والسعودية والليثية والفارضية والزينبية والغنائية واليمينة والجندية والإدريسية والعبائية والشاهينية والجيوشية والجهنية . إن هؤلاء جميعًا يمرون على حسب طقوسهم القديمة موحِّدين ذاكرين على أصوات الطبل والنقارة والقدوم والمزمار والدف والصنج ولهين مجذوبين . وبعد ذلك يمر دراويش الطريقة اليمينية، وهم أكثر جذبة من جميع الأتباع، يسيرون ممتشقى الحسام وحاملين ضروبًا من الطبر والدبابيس والدرق والسيوف الخشبية ، ولهم أعلام مختلفة، ولكنى لم أسمع توحيدهم .

يمر بعدهم فقراء الطريقة الغنائية الذين يمشى أكثرهم حفاة الأقدام عراة الصدور حاسرى الرءوس، وقد ارتدى بعضهم خرقة صوفية غليظة تزن خمسين أقة ولها ضروب من الجيوب ، والطعام والشراب والقهوة والإبريق والدخان ولوازمها كلها فى الخرقة، فإنها حجرة سيارة . وأتباع هذه الطريقة ينتقلون كثيراً وينامون حيث يريدون ولا يحفظون فلوسًا، لأن خرقهم تساوى آلاف الآلاف من البارات . وبعضهم يحملون عصيا وطبرًا ورمحًا وحرابًا ونبابيت. ويسيرون منتظمين بعمائمهم الغنائية التى تتدلى منها أزرار من صوف الجمل، وقد نقشت سورة الإخلاص سبع مرات فى كل خرزة من خرز شيلانها، وقد رصعت أحزمتهم التى يشدُّونها على تنوراتهم المزركشة بضروب من الأحجار كاليشب واليرقانى والبلغمى والفيروزى ، وإنى كنت معجبًا بنافخى النفير العجم ، بيد أنى رأيت النافخين من يمنى القاهرة هؤلاء كأنهم فيلة حين ينفخون من وقت إلى آخر ! مرحى مرحى لأنفاسهم . يمر بعدهم أتباع الطرق الفارضية والشاهانية والجيوشية والجهنية

واليسوية، وهم يتلون أشعاراً عربية وغير عربية . والطرق المذكورة خاصة بمصر ولم تشتهر في سائر البلاد .

بعد ذلك يمر أتباع الطريقة الخلوتية بأدب ووقار موحِّدين ناشرين شققهم أي إجازاتهم ، ويتبعهم الجلوتيون موحِّدين توحيداً عالياً بخشوع وخضوع . ويسير بعدهم أتباع الطريقة النقشبندية، وهي طريقة منتهية إلى أبي بكر الصديق، وأكثر أتباعها من قبيلة الأزبك، يتقدمون تحت أعلامهم ذاكرين خاشعين، وليست لهم أدوات كالدف والقدوم والطبل والنقارة والنقير والمزمار ، وإنما يزمر كل منهم بطراز خاص بأدب ووقار، ومن شاهدهم بُهت وحار وانقطع نفسه .

إن شوارع القاهرة وأسواقها تشع نوراً وضياء في هذا اليوم كأن أم الدنيا وُلدت نوراً ، ويسير بعد ذلك أتباع طريقة السيد عمر الروشني وطريقة إبراهيم الگلشني، وهم كذلك لا يحملون الدف والقدوم ، وهم خمسمائة درويش ذوو خرق عسلية مزركشة ومخيطة خياطة غليظة وشيلان لاهورية وكشميرية وبهارية، يمشون ذاكرين موحِّدين بلا صخب ولا جلبة رافعين أعلامهم، ويسير شيخهم چلبي أفندي راكباً جواداً .

ويأتي بعدهم أتباع الطريقة البكداشية قريبين من المحمل الشريف رعاية للإنكشارية التي هم منها ، وهم مائتا رجل حفاة الأقدام حاسرو الرءوس ، وإن كان مريدو هذه الطريقة يلبسون عمائم ذات اثنَيْ عشر ضلعاً رمزاً للأئمة الاثنى عشر ، أو أربعة أضلاع رمزاً للخلفاء الأربعة علي الحيدر وعمر الولي وعثمان الجلي وأبي بكر العتيق البلي ، وفي أذرعهم وصدورهم جروح حزناً على شهيد كربلاء . فهم فريق من العشاق الصادقين ، عيونهم الذابلة كحيلة وأجسامهم كاملة وأيديهم وأذرعهم بالدماء ملطخة ، ألسنتهم تلهج بالقرآن وقلوبهم تحترق ، وصدورهم السليمة عن الحقد عريانة ، و ذكرهم اسم الجلالة ، وبينما يمر بعض صبيانهم بالشوارع والأسواق حاملين العصي وبأوساطهم مجموعة الأشعار ينشدون الأبيات والمثنويات والمثلثات والمربعات والمخمسات والمسدسات والمعشرات والمدائح النبوية و ينشدون النظائر البليغة، كقولهم:

شـــد قلبـــه أرباب صـــفـــا روى مـــحـــمـــد

جـعـل أرباب الصـفـا قـبلتـهم وجـه مـحـمـد

مـــحـــراب هـمـــه آه دل ابـروى مـــحـــمـــد

ومـحـراب أهل القلب كلهم حـاجب مـحـمـد

درگــــــــرون من خـلـؤ تـرنمـيــــــز جـنـون كـش

سـوداى سـرى كـاكل حـوش بوى مـحـمـد

وأمثاله، ويتلون نعت الرسول الهاشمي

١٦- الفاصل السادس عشر، موكب المشعلية والعكّامين

الذين يخرجون من القاهرة و يعودون إليها بعد ثماني ساعات ، ثم يقيمون الدعوى ضد العلماء بأن المحمل لهم و لهم إيصاله إلى مكة .

وما إن ينتهي مرور تلك المواكب حتى تسمع جلبة جنود لا عدد لهم ، من سمعها ارتعدت ركبتاه و حار فامتلأ قلبه دمًا، وأضحى دمع عينيه كنهر جيحون وسال دمع سيحون من العين المغرورقة بالدموع كمياه اليمِّ ، وبلغت أصوات الدفوف و القدوم والربكة والطبل والنقارة والصنج أوج السماء . يسير أصحاب تلك الأصوات رويدًا رويدًا فيتضح أنهم عكامو سبعين ألف حاج من المسلمين وخدمهم ومشعليتهم . وهم نحو عشرة آلاف من الدهماء، يسيرون صائحين داعين من صميم قلوبهم : "والله ينصر السلطان " و "إن شاء الله بالسلامة" و " الله العظيم " . إن الإنسان ليدهش من أصواتهم الحزينة ويكاد قلبه يتوقف عن الخفقان ، وهم يمشون حاملين مشاعلهم المزينة بالورود على أكتافهم . وفيهم رؤساء حملة مشاعل البلوكات السبعة وأمير الحج والدويدار والسقاباشي ، وعددهم اثنا عشر رجلاً وهم حكام مصر في أمر الإضاءة والإنارة، يتزعمون أولئك الألوف من المشعلية ويضبطونهم، ويقال إن سلسلة نسبهم تنتهي إلى عمر رضي الله عنه .

ولهؤلاء المشعلية قصة عجيبة ، فقد اشتهر رؤساؤهم الاثنا عشر بسرعة العدو ، يخرج الواحد منهم من باب النصر بالقاهرة فى وقت الفجر فيذهب إلى بلبيس وهى على مسيرة أربع وعشرين ساعة من القاهرة ويمر بمحكمتها طالبًا الحجة الشرعية ، ثم يسير إلى ما بعد بلبيس مقدار ألف خطوة . وحينما يعود إليها يجد الحجة الشرعية قد أعدت ، فيستلمها ويعود إلى القاهرة ومعه خمسة أو عشرة من الفرسان المسرعين يحملون بأيديهم عصيًا طويلة على رءوسها الإسفنج المبلول الذى يبللون به فم العدَّاء حتى يبلغ القاهرة، وقد يَنْفُقُ بعض الخيل من سرعة العدو فيترك الفارس فى الطريق . ويعدو المشعلى موقدًا من الاثنتى عشرة أقة من السيرج الذى يحمله على ظهره حتى يدخل القاهرة وقت العصر ، والعظمة لله ! إن هذا الامر أيضًا مما تجب مشاهدته .

إن أولئك المشعلية يدخلون من باب النصر ضاربين الدفوف والقدوم صائحين: " الحمد لله على السلامة " فيذهبون إلى كبيرهم رئيس الشطار (= شاطر باشى) بقصر الپاشا الوزير، والذى يخلع عليه الپاشا خلعة فاخرة ويعطيه الأمر الشريف المخول له رياسة المشعلية للمحمل ، فيصير ساعى رسول الله صلى الله عليه وسلم ورئيس المشعلية العام و ضابطهم، فمن احتاج إلى مشعلى ذهب إليه ووجد مطلوبه مقابل قرش يدفعه ضمانًا. وقد حدث أن مات بعض المشعلية وهم يعدون فى الطريق ولم يعودوا إلى القاهرة .

وإن المشعلى يتمرن أولا شهرًا كاملاً ثم يشرع فى العدو ويخلع عليه الپاشا ، وبعد ذلك ينزل إلى المدينة فيتجول فيها عدوًا بلا انقطاع حتى الغروب، وعندئذ يعود إلى منزله فيلبس ثيابه المزينة بزيت الزيتون ويدلكه بعض خدمه بالزيت فيستريح قليلاً، ثم يقوم ثانية فيركض حتى لا ينقصم ظهره ! حقا إنها بطولة أن يتحرك أحدهم هذه الحركة، فيستحق رياسة المشعلية، ويرتدى الخلعة من الپاشا فى يوم الاحتفال أيضًا، ويسير معه أغواته والمشايخ أمام المحمل الشريف .

حدث مرة فى عهد إبراهيم باشا نزاع بين المشايخ والمشعلية ، قال المشايخ : إن إحضار المحمل لنا منذ عهد الظاهر بيبرس الذى سن تلك السنة . وقال المشعلية : إن

رافقتم المحمل حتى الكعبة الشريفة على نظامكم هذا فالمحمل لكم حقا فبارك الله لكم فيه ، وأما إذا سرتم معه إلى خارج باب النصر ثم سلمتموه لنا وقفلتم راجعين إلى القاهرة للتمتع بالرفاق والأصحاب فليس لكم فيه حق، فإننا نحن الذين نذهب به إلى مكة والمدينة ونعود به إلى القاهرة ثانية، وقد سلم سلطان مصر المحمل الشريف إلى الباشا أمير الحج وخلع علينا وكيل الملك خلعًا فاخرة فنحن الذين نسير أمام المحمل فى هذا الموكب . فأصدر الرجال النزهاء قرارًا حاسمًا بأن يبقى المشايخ والدراويش فى القاهرة، وسُجِّل ذلك فى السجل وأعطى المشعلية سند " الحبل المتين " بذلك، فلذا يمرون داعين بنداءات" الله ينصر السلطان " بأصوات مؤثرة تكاد تنفطر منها القلوب، وارتفع بعدهم صوت رهيب كأنه ربانى ... ظهر (دراويش) ، مائة وأربعون شيخًا من مشايخ الطرق ، ترفرف عليهم آلاف الرايات والأعلام، ويسير إلى جانب المشايخ من أهل الحال والسلوك خلفاؤهم ونقباؤهم وچاويشيتهم، ومرُّوا موحدين توحيداً سلطانيا وقد جعلوا المحمل محاطًا بآلاف الأعلام . إنه لصخب وجلبة وضجيج ، وأما الجمل الذى يحمل المحمل فقد زين بالمقصبات، ويمشى الهوينى يتمايل يمينًا ويسارًا كأنه طاوس روضة من رياض الجنة، والمتفرجون يمسحون وجوههم بالمحمل الشريف ، والذين لا يبلغونه يمدون إليه شيلان عمائمهم فيلمسونه بأطرافها، ليتبركوا بلثمها ومسح وجوههم بها .

١٧ - المحمل الشريف

المحمل هو هودج رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وحريمه، والذى كان يحتوى على خرقته الشريفة، وسـواكه ونعليه وإبريق الوضوء المصنوع من الحصير المطلى داخله بالقار، على كلام رب العزة و كلام جهاز الفقر ، وكانت عائشة الصديقة تركبه ولا يزال على ذلك الرسم . ولكن جعل له ملوك السلف تبركًا ، وآل عثمان محبة، وهو قبة مربعة مدببة ذات طرف من الحرير الأسود المفتول على ذروتها المنتهية فى شكل قارورة كرة ذهبية يعلوها علم (شعار) من الذهب، كما أن فوق كل ركن من أركانه

الأربعة كرة ذهبية . وقد كُسِيَ بحرير أسود مزركش، كتبت عليه بالذهب كلمة "لا إله إلا الله ، محمد رسول الله " ، وتسير خلف المحمل فرقة الموسيقى العربية المؤلفة من الطبل والنفير والصنجات عازفة ضاربة . وإن شوهد بعض الأعيان بين المشاهدين فى الحوانيت أبطأ المشايخ من سير المحمل وأدنوه منه، بل أوقفوه وقفة يسيرة رعاية واحتراماً ومرُّوا أمامه تالين الآية الكريمة ﴿ إنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ (الأحزاب٣٣/ ٥٧)، هكذا يكررون تلاوة هذه الآية كلما مرُّوا بحانوت به عين من الأعيان . ولهذا السبب يبلغ المحمل باب النصر وقت العصر مع أنه غادر قراميدان صباح ذلك اليوم ، ويسلم إلى أمير الحج بالعادلية وقت الغروب ، وقد فاض داخل القاهرة وخارجها بنور التوحيد . وبعد ذلك يودع المشايخ أمير الحج فينصرفون، ويعود كلٌّ إلى منزله ، ويأمر أمير الحج المنادين بالنداء وهو يمكث بالعادلية ثلاثة أيام ولياليها لتكملة إعداد معدات السفر و لوازمه .

١٨ - فى بيان القبائل التى يمر بها المحمل حتى مكة والمدينة

إن صرر مشايخ قبائل العربان المنتشرة على الطريق المستقيم من القاهرة إلى مكة وعطاياهم وكساهم وسائر نفقاتهم تعد خزينة فريدة منذ صدور قانون السلطان سليم بذلك ، فهذه القبائل من القاهرة إلى السويس : آل بنى صفر ، وآل بنى عابد ، ثم آل بنى صالح بجوار العقبة ، ثم من سيدنا شعيب حتى مدين آل بنى شاهين . ثم إذا وصلت حتى ينبع البر فهناك آل بنى زيد وقبائل أخرى . فمشايخ تلك القبائل يأخذون مخصَّصاتهم من أمير الحج فى كل عام، ويشترط عليهم فى مقابل ذلك إحضار الطعام والشراب والجمال القوية فى كل منزل لحجاج المسلمين، ومساعدة جيش الحجاج ، وإرشادهم إلى الطريق من منزل إلى منزل، وتقديم كل ما يحتاجون إليه من عون، ولا تسلم إليهم صررهم إلاَّ على هذا الشرط . بيد أنهم لا ينالون الآن عطاياهم كاملة دون أن يقدموا للحجاج خدمة، وإن نقصت من مخصصاتهم " نقرة "

قطعوا المياه عن الحجاج وألقوا الجيف فى آبار مياه الشرب ، وملأوا بعضها بالحجارة، وهاجموهم قاطعين الطريق من كل الأرجاء، وكمنوا لهم مع اللصوص فيكرُّون عليهم و ينهبونهم . فلذلك تُعد صررهم وعطاياهم وكساهم بدقة وعناية فى ديوان القاهرة، ثم يسلمها مدير مكتب الپاشا إلى أمير الحج بالعادلية فى احتفال عظيم، ويأخذ حجة بذلك .

١٩ - خزينة صرة مكة المكرمة

ونفقات تعمير مكة والمدينة وترميمها

هذا قانون العباسيين وقانون السلطان قايتباى، ولما فتح السلطان سليم مصر زاد فى كتاب عهده العناية بشرفاء مكة، فجعل نفقات تعمير مكة والمدينة والصرر والعطايا والكسا على خزينة مصر . وهذا هو الواقع، ففى كل عام تقسم على الشرفاء بيد أمير الحج، وإن نقصت قطعة ذهبية " اللهم عافنا " فإن الشرفاء يقومون قومة واحدة، فيرفعون الأمر إلى السلطان بأن صرة جدِّه العظيم السلطان سليم خان وصلت ناقصة فى هذا العام، فتقوم القيامة على رأس وزير مصر . ويعبِّر بعض الشرفاء عن هذه الخزينة بأنها خراج الترك (الروم) حق شرعى لهم على آل عثمان، ولا يسمُّونها صدقة ملكية، إن فيهم كثيرًا من أسفه السفهاء .

وموجَز القول أن صررهم و عطاياهم تحضر فى ديوان القاهرة، ثم يذهب بها مدير مكتب الپاشا بموكب عظيم إلى العادلية ليُسلمها إلى أمير الحج، فيأخذ عليه إيصالاً بذلك و يسجل فى سجل الرسول .

٢٠ - خزينة النفقات اليومية للجنود المرافقين

لأمير الحج فى مائة وعشرة أيام ذهابًا وإيابًا

إن المسافة القانونية بين القاهرة ومكة المكرمة مسيرة ستة وثلاثين يومًا . ويقضون عشرين يومًا بمكة ويقطعون المسافة بين مكة والمدينة فى عشرة أيام ويمكثون فيها يومين ثم يدخلون القاهرة بعد مسير ستة وثلاثين يومًا ، فيكون المجموع مائة وأربعة أيام، ولكنها تبلغ مائة وعشرة أيام مع أيام القعود ، وإن أرادوا أمكنهم الوصول من السويس إلى القاهرة فى يومين ، فيكونون قد قطعوا مسافة الحج ذهابًا وإيابًا فى مائة يوم .

وخلاصة القول أنه يربط فى ديوان القاهرة مائة وعشرون ألف دينار ذهبىٍّ، على أن ينفق ألف دينار ذهب يوميا فى تلك المراحل حتى لا يسبب أمير الحج عسرة على الحجاج، وهذه الخزينة أيضًا من الخزائن الكبيرة . ولكن نُقص منها فى عهد إبراهيم باشا عشرة آلاف دينار ذهب كانت تنفق فى أمور غير معقولة مخالفة لقانون السلطان سليم خان، وبسبب هذا النقص لم يقدر الحجاج المصريون أن يقيموا بالمدينة اثنى عشر يومًا كالحجاج الشوام ، بل مكثوا يومين زاروا فيهما الرسول على عجل وعادوا .

وثمة خزينة أخرى تُسَلَّم لأمير الحج للإنفاق على كراء ألف جمل لحمل الجنود وطعامهم و شرابهم، وإن اتخذ ألفًا وخمسمائة جمل ففيه راحة للحجاج ذوى الاحتياج أيضًا ، لأنك إن قلت طريق الكعبة فكأنك تقول طريق هلاك الجمال . فمن كان ذا بصيرة عزم الذهاب إلى مكة راكبًا جملاً ، وإن كانت له قدرة مالية سافر على حصانه، وإلا فلا مندوحة عن أن يسير راجلاً .

وخلاصة القول أن مدير مكتب الپاشا الوالى يسلم إلى أمير الحج ألف دينارٍ ذهبىٍّ لينفق منها على أولئك الحجاج ويأخذ منه سندًا بذلك لإبرازه وقت الحاجة .

٢١ - فى بيان ما يسلم لأمير الحج من أموال وقف الله

إن هناك بعض مئات الآلاف من الدنانير الذهبية والفضية تُحَصَّل من أوقاف السلاطين والوزراء والوكلاء وكبار الأعيان، ومن أصحاب الخيرات والحسنات الذين لا يزالون متمتعين بالحياة، وآلاف الأثواب والسراويلات والقمصان التى لا يعلم عددها إلا الله ، ترسل كلها إلى مكة سنويا ، ويقال إنها تكون خزينتين . ولكنها لا ترسل بالاحتفال وإنما يسلمها نظار الأوقاف إلى أمير الحج ، ويأخذون منه سنداً لإبرازه وقت اللزوم، فلو كتبنا عن الأموال المسلمة لأمير الحج كما نعلمها لشكَّل هذا مجلداً ضخماً .

٢٢ - فى بيان موكب الفرق العسكُريَّة المعينة لسفر الحج

ليس فى هذا الموكب لا جنود الخزينة ولا جنود الپاشا ، وإنما هم جنود من البلوكات السبعة قد اختيروا لمرافقة أمير الحج إلى الحجاز ، و يمرون أمام الپاشا فى صورة عرض لإثبات وجودهم ، ولأن عددهم سبعون رجلاً من المعسكرات السبعة على أن يكون عشرة رجال من كل معسكر كما وصفناهم فى صباح اليوم الثالث من الاحتفال بالخزينة ، فهم يسمَّون " ذوى السبعين "، ولكن سفر الحج سفر مبارك ، لذا يكتب فيه مائتا رجل من كل معسكر . كما أن عدد خدمهم يزيد بهذه النسبة ، فيبلغ عددهم جميعًا ألف رجل، مسلحين مزينين مكلفين منظمين. وهذا الجيش معيَّن لأخذ الحجاج إلى مكة والعودة معهم .

يُختار من هذه الفرق سبعة سردارات وسبعة كتخدوات وسبعة چاوشية وسبعون من حاملى الأعلام وسبعة من حَمَلَة البُلط وسبعة أوداباشية وسبعة ضباط من رتبة اليوزباشية (چورباجى) ، وهؤلاء يديرون ذلك الجيش المؤلف من ألف جندى، وعدد مساوٍ لهم من الجنود النظيفين الطاهرين يبقون سنة بمكة محافظين عليها. فهؤلاء الألفان من الجنود المختارين يدخلون من باب السراى بلوكًا بلوكًا مع أغواتهم

وضباطهم مدجَّجين بالسلاح و مستغرقين فى آلات القتال، فيمرون أمام الپاشا الوزير أفواجًا أفواجًا ويخرجون من باب آخر وكل أغا يضرب كوسة، وليست معهم فرقهم الموسيقية . وأما الرؤساء والضباط والكتخدوات والچاوشية فيتشرفون بارتداء الخلع الملكية فى ديوان الغورى، والتى يبلغ عددها سبعين خلعة ، ثم يزودهم الپاشا بالتنبيهات والدعوات الصالحة مودعًا إياهم، فينصرفون ويلتحقون بفرقهم فى باب الوزير الذى يقوم منه موكب عظيم مؤلف من آلاف الجنود الذين حضروا لتوديع رفاقهم المسافرين إلى الحجاز، و إنى أعجز عن وصفه. ولا يشترك فى هذا الموكب من جنود الپاشا سوى اثنى عشر چاويشًا من چاويشية الآلاى، حاملين صولجانات فضية لتنظيم الموكب، وأما ماعداهم جميعًا فجنود مختارون. وليس من عادة أعيان القاهرة الأثرياء المشاركة فى سائر المواكب ، وأما هذا الموكب فيشترك فيه الأغنياء والفقراء راكبين تكريمًا للحجاج .

يسير الجنود فرقًا فرقًا على جياد أصيلة ، وجمال ونوق وهُجُن مزينة بالخرز تمشى مشى الطاوس ، و من هذا يُعْرف أنهم جنود الحج . وإذ قد ذهبت ستة مدافع مع أمير الحج فليس فى هذا الموكب مدفع، وإنما يسير الجنود مطلقين بنادقهم ومكبرين ، وقد ازدحمت شوارع القاهرة إلى حد أنك لا تستطيع الحراك من مكانك . ويتقدم الجيش على هذا النظام عارضًا ضروبًا من الفنون حتى يبلغ العادلية فيخيم بها ، ثم يودع الباقون منهم بالقاهرة المسافرين إلى الحجاز ويتفرقون. فعندئذ يرسل أمير الحج طوغه (علمه المصنوع من الشعر) إلى البركة، وأما هو فيرتحل صباح اليوم التالى ويبلغها مع الحجاج بعد مسيرة أربع ساعات فيقيم بها .

٢٣ - بيان بموكب جنود أزلم و نفقات خزينتهم

عندما يتجه الحجاج إلى مكة يُعين جنود من البلوكات السبعة فيرسلون إلى حصن " أزلم"[٢٩] وهو نصف الطريق بين مكة والقاهرة على مسيرة ثمانية عشر منزلاً، وهو من خيرات السلطان الظاهر بيبرس رحمة الله تعالى عليه - خيرات عظيمة عجيبة أعجز عن وصفها .

يخلع الباشا على أحد أمراء الجراكسة خلعة ويعينه للسفر إلى " أزلم"، ثم يختار ثلاثمائة جندى من كل بلوك من البلوكات السبعة المصرية على أن يسافروا سخرة دون أن تترتب على ذلك ترقيتهم ، و إنما يُعطَون أربعين كيسًا مصريا للإنفاق منها على طعامهم وشرابهم وخيامهم وسائر حاجاتهم ، يُعطَى هؤلاء الألفان من الجنود ألف جمل لحملهم هم وأثقالهم . ويجهز الأغا المحتسب الجمال بالذخائر والمؤن الضرورية للسفر ، وتكون مصروفاتها محسوبة على محاسبته . وأما مؤنهم فالبقسماط والجبن الحلوم والعسل والسمن والبن والأرز والفول والشعير وغيرها ، وترسل معهم ستة مدافع شاهية وأورطة من المدفعيين و كتيبة من المدرعين وكتيبة من سائقى عربات المدافع، فيبلغ مجموع المسافرين مع المكلَّفين بخدمتهم خمسة آلاف نفر مسلحين وخمسة آلاف آخرين من التجار، وهم كذلك يسافرون مدججين بالسلاح، وذلك لأن فى الطريق موضعًا ضيقًا خطرًا يدعى " العقبة "، حاصر فيه العربان مرة جيش " أزلم " وقضوا على حياة مئات منهم بسنان الرماح . لذا يسافر هذا الجيش مسلحًا تسليحًا جيدًا ، ويحمل معه أموالاً طائلة . وإن لم يرسل هذا الجيش لاستقبال الحجاج فمن المؤكد أنهم لا يصلون إلى القاهرة سالمين، لأن التجار الذاهبين لاستقبالهم يحملون معهم ألفين أو ثلاثة آلاف بعير من الفول والشعير و الأرز والدقيق و العسل والسمن

---

(٢٩) **أزلم** : موقع يقع على طريق الحج بعد إسطبل عنتر ، وكان بها فى زمن أولياچلبى قلعة ، لم يذكر شيئًا عمَّن بناها ، ولكنه يصفها ويصف قواتها.

والبقسماط وكل ما يمكن حمله حتى البيض، وحمل مئات الجمال هدايا من ماء النيل وآلاف العلب من سكر النبات والحلويات واللبن الرائب . فعندما يبلغ الحجاج حصن " أزلم " منهكى القوى ضعافًا عاجزين ، وقد ضعفت جمالهم وعجزت عن الحمل والسير، ونال الإعياء من خدمهم حتى برموا بهم ومنهم ، فإنهم يجدون فيه ما ينعشهم ويجدد نشاطهم، ولذلك فإن المخلصين يحدثون الباشا دائمًا عن نفع هذا الجيش للحجاج ؛ فيحرص الباشا على زيادة عدده، ويُصدِر الأمر للتجار والجمالين للعمل على تحقيق ذلك .

حتى إذا صدر الأمر بعرض الجنود المعينين للسفر صعد خمسة آلاف جندى إلى القصر بموكبهم العظيم فى الخامس والعشرين من ذى الحجة، ويمرون أمام الوزير ضاربين كوساتهم و مكبِّرين . و يخلع الباشا على سبعين رجلاً من رؤسائهم وكتخدواتهم خلعًا ملكية فاخرة، ويوصيهم بالعناية بالحجاج ، ثم ينزلون جميعًا من القلعة ضاربين كوساتهم . ويجتمع جنود كل فرقة وحدهم فيكونون بذلك موكبًا عظيمًا ، ويجتازون القاهرة وسط دعوات مئات الألوف من المشاهدين وهتافاتهم ونداءاتهم : " الله ينصركم يا عساكر الفرح ". يسمى هذا الموكب بموكب الفرح لأنهم حينما يبلغون الحجاج يُحدِثون فيهم الفرح و السرور و البهجة .

ومع ذلك الموكب يخرج بضعة آلاف من التجار من باب النصر قارعين الطبول ومطلقين البنادق ومكبِّرين وحاملين من السلع والأمتعة ما لا يعد ولا يحصى ، ويقيمون بالعادلية ثلاثة أيام . حتى إذا كان " وقت الشافعى " من اليوم الثالث أطلقت المدافع ونفخ فى النفير وضربت كوس الرحلة، فقام الركب وبلغوا منزل البركة بعد أربع ساعات، وأقاموا بها أيضًا ثلاثة أيام، يصل فى خلالها حمل سبعة آلاف أو ثمانية آلاف بعير من الطعام والشراب من الشرقية والقليوبية والبحيرة ورشيد ودمياط . فعندئذ يضرب أمير " أزلم " مدافعه، وينفخ فى نفير طى المراحل، ويسلك سبيل أزلم و يبلغ العقبة مسيرة عشرة أيام ، يمكث فيها يومًا للتزود بالماء. وإذا زود كل جماله بالماء سار ثمانية أيام أخرى حتى يدخل صحراء " أزلم "، فعندئذ يطلق النار دفعة واحدة من مدافعه وبنادقه فترد عليه القلعة بمثلها، فينصب الجنود والتجار خيامهم

تحت القلعة حتى مسيرة ساعة من جانبى طريق الحجاج ويقيمون السوق ، فيعرض فيها كل تاجر ما حمل من السلع القليلة والكثيرة . وفى صباح اليوم التالى يخرج أمير " أزلم " مع ثلاثة آلاف جندى وأغا " أزلم " بثلاثمائة من جنوده لاستقبال الحجاج الذين يصلون وقت الضحى فى جمع غفير، فيحيون ثم يسعون جميعًا إلى قلعة " أزلم " التى تستقبلهم بإطلاق مدافعها دفعة واحدة ، إظهارًا للفرح والسرور . يقيم الحجاج بفضاء " أزلم " ثلاثة أيام للراحة والاستجمام ، ثم يتركون جمالهم المتعبة متخذين جمالاً أخرى وقد باع كل منهم ما حمله من السلع والأمتعة .

إن جيش " أزلم " هذا مكتظ بآلاف اللصوص النشالين و قطاع الطرق الأقوياء المهَرَة والمحتالين، و قد اندسُّوا بين الحجاج السذج و الجنود الذين وصلوا متعبين منهكى القوى عاجزين ، فيهجمون عليهم كما يهجم الذئب الجائع على غنم ، باحثين عن الصيد ليلاً ونهارًا، فينهبون الحجاج نهبًا يذكِّر بما فعل " قرا يازجى " وابن جانبلاط من ضرب الحجاج، وينسى نهب ابن رشيد الحجاج فى طريق الشام أيام (قرا على باشا)، فالحاج القافل ضمن القافلة يصبح فى حاجة إلى فرس واحدة فى هذه القلعة ، كما أن الحاج العاقل المتبصر ينقلب محتاجًا إلى المال . وفى ليلة تسمع بين الحجاج مطاردة اللصوص ، ومع ذلك تُشَقُّ الغرائر والأجولة وتُسْرَق وتُقطع الهيمانات، " أى الأحزمة العريضة التى يضع فيها الحاج أموالاً " ، فلذا يجب على المرء أن يكون فى قلعة " أزلم " على حذر شديد ، فقد حدث فى زماننا أن سُرِق ركاب أمير الحج وهو يقوم بإجراء الأمور المتعلقة بمنصبه على جواده، ولما بلغ منزلاً يدعى النواتير وجد خدمه ركابًا شبيهًا بالركاب المسروق فعلقوه بدلاً منه وستروا الأمر . ويكثر اللصوص إلى هذا الحد ، فلذا لا بد من الحذر الشديد .

ومن هذا الموضع يسافر رجال البلوكات السبعة على هُجُن سريعة إلى القاهرة للتبشير بوصول الحجاج الأصحاء بالسلامة، وإبلاغ خبر المتوفَّين إلى أهليهم، وبعد استراحة ثلاثة أيام فى " أزلم " يقوم الحجاج بالعودة إلى القاهرة قاطعين مراحل عدة ...

٢٤ - فى بيان جيش العقبة و خزينة نفقاته

يعيِّن هنا أيضًا ألف رجل من الفرق السبع، ويعين أحد الكشاف المعزولين أو أحد رجال المتفرقة مع ثلاثمائة من جنوده سرداراً للعقبة . فيبلغ عدد هذا الجيش ألفىْ جندى و لكن دون أن تكون لهم ترقيات . إن عاد سردارهم سالمًا بعد القيام بالخدمة المطلوبة منه مُنح مقابلها " كاشفية " أو " أغوية "، وأما الجنود فيعطون حمل ألف بعير مؤنًا وطعامًا وشرابًا وألف جمل نجدة للحجاج . وتكون معهم ستة مدافع وأورطة من المُدفَعيِّين والمدرعين وأورطة قواد عربات المدافع والذخائر ولوازم الحرب وعشرة قناطير بارود أسود، ويصرف لهم أيضًا أربعون كيسًا مصريا مع جميع نفقاتهم .

ويغادر جيش العقبة القاهرة بحساب دقيق، بحيث يكون الحجاج قد بلغوا قلعة " أزلم " ؛ فهم يبلغون العقبة فى الوقت الذى يبلغها فيه الحجاج قادمين من " أزلم " فيتقابلون فيها . وفى العشرين من شهر محرم الحرام يدخل ألفا جندى مدججين بالسلاح من أحد أبواب قصر الباشا بالقلعة، فيمرون أمامه فى موكب عظيم ويخرجون من بابه الآخر . ويخلع الباشا على سبعين رجلاً من الرؤساء والأغوات والكتخدوات والچاويشية خلعًا فاخرة داعيًا لهم بالتوفيق ، فينزلون من القلعة ويلتحقون بموكبهم الكبير ويجتازون القاهرة بين صفوف المشاهدين ذاهبين إلى العادلية عن طريق باب النصر ويمكثون بالعادلية ثلاثة أيام يتجمع خلالها ستة أو سبعة آلاف تاجر مسلحين يحملون بضائعهم على آلاف الجمال والبغال والحمير ، ويحضرون ما لا يُعَدُّ ولا يحصى من الطعام والشراب، كما يرسل أعيان القاهرة خدمهم بأحمال ثلاثة آلاف جمل من ماء النيل هدية لأصدقائهم الحجاج ، إذ لا يوجد الماء منذ العقبة فى صحراء التيه ومنازل " مثانى العجروت " ، وأما سلع التجار فالشعير والفول والسكر والعسل والسمن ثم الجمال الخالية . ويأمر الباشا الوزير فى هذا الوقت بإرسال جميع الجمال المستخدمة بالقاهرة لحمل الأثقال والحجارة إلى العقبة .

ومن العجب أنه فى عام ١٠٨٩ هـ (= ١٦٧٨ م) حين كان محمد عبد الرحمن باشا متوليًا على مصر ، سافر أمير العقبة من العدلية ضاربًا طبوله ومطلقًا مدافعه وبنادقه ، وهو يحمل قدْراً هائلاً من الأموال، حتى إذا بلغ مضيق العقبة وجدها محتلة بعشرات من بنى زهد Zuhd وبنى رشيد وآل عمر من قبائل عربان الشام الذين شرعوا فى القتال مع جيش العقبة ، فأطلق الجيش عليهم النار من المدافع دفعة واحدة أهلكت نحو مائة منهم ، بيد أن العربان ظلوا بها ولم يتركوها ، فلم يجد أمير العقبة مندوحة عن القيام بأمر معقول هو التقهقر إلى وادٍ ذى ماء ونبات ، فعاد إليه ورابط به وبث حوله جنوداً للمحافظة، ثم أرسل نجابًا إلى الپاشا الوزير يطلعه على ما أصابهم من العقبات الأليمة فى " العقبة ".

وصل النجاب إلى عبد الرحمن پاشا فى ثلاثة أيام، ومن العجب أنه وصل والديوان السلطانى منعقد ، فذهل أرباب الديوان وتحاوروا فى الأمر . ولكن سرعان ما أدرك دولة الوزير ما يتعرض له الحجاج من سوء الحال إن لم تصلهم النجدة من أمير العقبة ، فطلب مدير الخزينة وأمره بتخصيص أربعين كيسًا مصريا. ثم أرسل إلى چاويشية الآلاى للتبليغ إلى البلوكات السبعة وغيرهم من رجال المعسكرات بأن من كان مستعداً للسفر بحصانه و ثيابه و يريد الحصول على المال فليحضر . ورفع لواءً أبيض أمام السراى وطلب فى لمح البصر أحد أمراء الحج المعزولين فأمره قائلاً : " إن كنت فى حاجة إلى رأسك فعجل بالخروج مع خمسمائة من رجالك وألف رجل من مالى ومال المحافظة وإلا فسأقطع رأسك فى سبيل رأس السلطان " . ثم خلع عليه خلعة فاخرة ، وكم كانت دهشة أهل الديوان الذين شاهدوا محاولته الخروج من شُبَّاك الديوان الحديدى دون انتظار . ولما كان اليوم التالى قال : " الأمر أمركم "، فخرج من قصر الپاشا وقت العصر مع خمسمائة جندى مختارين مدججين بالسلاح ضاربًا الطبول ورافعًا الأعلام فى عرض عظيم حاز رضا الپاشا الذى خلع عليه خلعة مزركشة فاخرة وحلّى عمامته بطرة سلطانية ، فاجتاز القاهرة بموكبه وأقام بالعادلية . وقد مضت تلك الليلة فى القاهرة بقيد أسماء الأبطال الشجعان المتفاخرين بفروسيتهم والذين بلغ عددهم زهاء مائتين، والتحقوا بالأمير بالعادلية . وأعقبتهم ثلاثة مدافع

سلطانيـة أطلقت فور وصولها إليـها ، ثم قـام ألف رجل يحثون السير فبلغوا جيش العقبـة فى أربعة أيام ولياليـها و انضـموا إليه، ثم أرسلوا جنودًا مشـاة على أطراف العقبـة وصـخـورها وشـعـابها لاقتناص العربان الذين ظنوا أن جيشًا عرمرمًا قد وصل فاعتصموا بالفرار، واجتاز الجيش مضيق العقبة بسلام ووجدوا الحجاج مقيمين بالجهة الأخرى فى حـالة جد سيـئة . ولكنهم حينما رأوا جيش الإنقاذ هذا رُدَّتْ إليـهم أرواحـهم وتحـسنت حـالتـهم المعـنوية، وأرسـل نبـأ سـلامـتـهم إلى الوزير بوسـاطـة " مبشرى الجبل "(٣٠) الذين أوصلوه إليه فى اليوم الرابع، فسُرُّوا وابتـهجوا ومنح كل مبشر خمسة فلسات " ترقية " وصرراً وخلع عليهم خلعًا .

وفى العقبة يبدل الحجاج جمالهم بالجمال التى تركوها، ويكون الحجاج فى رخاء إلى حد أن أكلة " بريم " تباع ببارة مصرية . ويتحرك الحجاج من العقبة عائدين إلى القـاهـرة رويدًا رويدًا، ويطلب رجـال الديوان من البـاشـا إجـازة قـانونيـة للتـغـيب عن دواوينهم للخروج لاستقبال الحجاج ، فيتوفر للباشا ستة أكياس مصرية نفقات ستة أسمطة ديوانية خاصة بتلك الأيام .

٢٥ - مواكب واحتفالات مختلفة

هؤلاء أغوات البلوكات السبعة يجتازون باب النصر بخيامهم وأخبيتهم ضـاربين كاساتهم، فيملأون الأودية والساحـات الممتدة من باب النصر إلى البركة بخيام وأخبية وسرادقات يقيمون بها منتظرين قدوم الحجاج . فأول الأغوات الذين يخرجون من جهة

(٣٠) المبشرون (= مزده جيلر Müjdeciler): مصطلح إدارى كان يُطلق على مَنْ يقوم بتبليغ السلطان خبر وصول قافلة الحج وخبر عودتها ، كان يقوم بها بعض ممن يعملون فى خدمة أولياء العهد ، وكانوا يرافقون القوافل فى الذهاب والعودة ويبشرون بسلامة الوصول. واستمرت هذه الأصول حتى انفصال الحجاز عن الدولة العثمانية ، وكان المبشر يتلقى الإحسانات والعطايا من السلاطين والولاة ، وكان رئيسهم يسمى مزده جى باشى أى رئيس المبشرين ، وكان منهم مبشر أول ومبشر ثانٍ ، ولهم مخصصاتهم ضمن مصاريف قافلة الحجيج .

باب النصر المحافظ يقيم بكشك شاد بك لتحصيل الرسوم الجمركية، ثم كتخدا العزب يقيم بالطوبخانة، ويقيم أغا حملة البنادق بسبيل علام ، وأغا المتطوعين بمصطبة أبى جاموس ، وأغا صناع البنادق بسبيل محمد أغا، وفى مصطبة (...) يقيم أغا الچراكسة ، ويقيم بالبركة أغا المتفرقة وكتخدا الچاويشية ومدير مكتب الپاشا وأفندى الديوان ، وأما أغا فرقة الإنكشارية فيقيم من خمسمائة إلى ستمائة خيمة على مسافة بعيدة من البركة .

٢٦ - فى بيان وصول وعودة موكب أمير الحج إلى البركة وإقامة الأمير بها وحفل تلك الليلة

تبدأ مقدمة الحجاج فى السير فى أيام الخامس والسادس والسابع من صفر ، ويصل النبأ إلى مدير مكتب الپاشا بالبركة بأن أمير الحج مقيم ومعه المحمل فى موضع يدعى " الدار الحمراء " .

٢٧ - فى وصف الخيرات العظيمة المسماة بالأزيار

يخرج الأغا المكلّف بالخرج أى الصرف التابع للپاشا مع الجنود الأدلاّء والمتطوعين قبل ثلاثة أيام، فيقيم فى سبعين أو ثمانين خيمة مزينة بموضع يدعى الأزيار . وقد أخذ آلافًا من الجمال والحمير المستخدمة لسقى أهل القاهرة والمحملة بالماء، فيملأ الأزيار والأحواض التى أنشأها الوزراء والأعيان من أصحاب الخيرات السابقين ، ثم يحملها من البركة ضعاف الحجاج العاجزون عن السير، ويقف جنود التاتار التابعون للپاشا ومتطوعو الأداء والمتفرقة على طريق الحجاج، ويمدون العطشانين منهم بماء النيل . ثم إنهم يذهبون إلى ذلك الموضع بحمل مائة بعير خبزًا وألف سراويل وألف قميص ومائة رأس غنم فيقيمون ولائم عظيمة ، ويطعمون الجياع

ويكسـون الفقراء من الحـجـاج الذين عـادوا منهكين مـتـعبين جائعين عطشـانين . ومن حكمة الله العجيبة أن أعيان القاهرة إذا رفضوا إرسال الجمال والخيول والحمير المستخدمة لسقيهم بالقاهرة مع معتمد الخرج هذا لملء تلك الأزيار بالماء ، أصيبت كلها بالجرب ، فحُرم أصحابها الانتفاع بها .

وتكون هذه الأيام فى حماية كاشف قليوب ، فـهو يقـوم بحفظ و حراسـة طريق الحـجـاج حتى الدار الحمراء مـدة ثلاثة أيـام ولياليها بمـائتين من فرسـان العرب كى لا يهـاجـم البـدو الحـجـاج من جـهـاتـهم الأربع وينهـبـوهـم . وإن ضـاع شىء من أحـد الحجـاج فى هذه المنطقـة يتحـمل كاشف قلـيـوب مـسئوليته لوقـوع هذه المنطقـة فى حـدوده، والكاشـف نفسـه يظل كل ليلة فى نوبتـه قـائمًـا على الخـرج هكذا ثلاثة أيام، ويوزع فيـها الطـعام والأثواب والسـراويلات والقمـصـان على حـساب الپاشـا، كما أن ضبـاط العسـس وأغوات المعسكرات يقـومـون بحراسـة الأمـاكن التـابعة لهم كى يمر الحـجـاج فى راحـة وأمن واطمـئنان، وينزلـون ويسـتـقـبلـون بـعـضـهـم على خـيـامـهم ضـيوفًا . وقد وضع أمام خـيمة كل أغا سـبعون أو ثمانون زيرًا من أزيار الماء وزينت الخيام بعدد لا يحـصى من المصـابيح والـقنـاديل التى تتـلألأ ليلاً كالنجوم ، بينما تدوى فى صحراء علام المدافع والبنادق . كما أن العسس بسبيل علام يبذل نعمًا كثيرًا مختلفة للرائحـين والغـادين ، ويقـوم بحراسـة الحـجاج ثلاثة أيام راكبًا على جواده . إن المـسافة التى تفصل بين الطوبخانة والبركة مسيرة أربع ساعات ، يكتظ الطريق فى تلك المسافة بضروب من السـرادقات و الأخبـيـة والناموسيات والشوادر، فكأن صـحراء العـادلية تحـولت إلى " حديقـة من شـقـائق النعـمـان "، من تلك الخـيـام المختلفة الألوان .

ينعم المصريون ثلاثة أيام بضروب المتع و اللذة و النعيم بغية نيل الثواب، بانتظار عودة الحجـاج واستقبالهم ، ليس فى بلد من بلاد العـالم مثلـها، وقد طبقت شـهرتها الآفـاق، وهذا أيضًـا عـالم آخر . ويسـمـى أولاد العـرب من المصـريين هذا الاحـتـفـال وجيشه بـ " جيش بحبح الحجاج " أى جيش بهجة الحجاج والبذل لهم .

وعندما يدنو موعد بلوغ أمير الحج البركة يستأذن مدير مكتب الباشا وأفندى الديوان من الباشا فيذهبان إلى سرادقيهما فى البركة، ويمران أولا بكتخدا العزب بالطوبخانة فيتناولان الطعام عنده ، وينال كل منهما فرسًا " حالبة " . ثم يمران بأغا السپاهية وأغا المتطوعين وأغا حملة البنادق فيتناولان الطعام عند كل منهم من أسمطته المحمدية، ويفوزان بجيادهم الأصيلة ، حتى يبلغا سرداقيهما بالبركة. حتى إذا كان منتصف الليل من ذلك اليوم ركب الجميع من السراة والأعيان المصريين ومدير مكتب الباشا وأفندى الديوان ورئيس المتفرقة وكتخدا الچاويشية وسائر الأغوات جيادهم الأصيلة ، وقد قلبوا الليل البهيم نهاراً نيِّرًا بما أشعلوا من آلاف القناديل والمشاعل . ويسير الركب على هذا النظام حتى يستقبلوا أمير الحج عند الفجر قادمًا من " مصطبة الأغا " ضاربًا كوسه وطبوله ، فيجتمع مع الأشراف والأعيان الذين يتصافحون ويتبادلون القبلات والبكاء، ثم يُقيمون صلاة الفجر ويتناولون طعام الفطور . ثم يركب الجميع إلى البركة التى يتناولون فيها الطعام فى مأدبة عظيمة لمدير مكتب الباشا (الكتخدا) الذى يقدم لأمير الحج جواداً أصيلاً مزينًا، يركبه بعد الانتهاء من الطعام و يذهب إلى سرادقه . أما علِى أغا الذى كان مدير مكتب عبد الرحمن باشا فقدم الجواد المزين فى " مصطبة الأغا "، فجاء الأمير إلى البركة راكبًا صهوة ذلك الجواد ونزل على سرادقه رأسًا ولم يُقِمْ له مدير مكتب الباشا مأدبة، وأما الكتخدا على النيشلى فيقيم مأدبة عظيمة ثم يعود إلى القاهرة فى ركب رجال الباشا.

يُمْضِى الباشا أمير الحج تلك الليلة فى البركة فى بهجة وأفراح بإطلاق المدافع والبنادق مع حجاج الأقاليم ، وعلى كل حال فإن حجاج القاهرة و الأقاليم يدخلون القاهرة فى الخامس والسادس والسابع من شهر صفر المظفر ، بعد أن قضوا مائة وعشرة أيام فى سفر الحج ذهابًا و إيابًا . ولكن حدث ذات مرة أن أرسل إبراهيم باشا أحد أغواته إلى مكة " بالنجابة " لقضاء أمر مستعجل فبلغها فى أربعة عشر يومًا ، ووجد الشريف فى وقفة عرفات ، فحج مع الحجاج و تلقى الرسائل من شريف مكة وأقام يومًا بمكة ساعيًا ومطوفًا ثم سافر عائدًا فدخل القاهرة فى اليوم الخامس

عشر من سفره . فهو سافر إلى مكة وحج وعاد منها ، وكل ذلك فى ثلاثين يومًا ، ومعنى ذلك أن طريق الحج من مصر قصير وآمن .

ويُقيم أمير الحج فى البركة فى تلك الليلة سماط مأدبة عظيمة لأعيان القاهرة القادمين لاستقبال، الحجاج وأغوات الفرق العسكرية والچاويشية ، فيها المدافع والبنادق والألعاب، مارًا بخيام الجيش المنصوبة على جانبى الطريق محيِّيًا إياهم . وعندما دنا من باب النصر ظهر موكب عبد الرحمن پاشا " يسر الله له ما شاء " فترك الموكب مسرعًا بجواده ، حتى إذا لم يبق بينه وبين المحمل سوى أربعين أو خمسين خطوة ترجَّل عن جواده فأسرع عَدْوًا إلى المحمل فلثم حافة كسوته ومسح بها وجهه مستشفعًا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبينما هو كذلك يقيم أمير الحج خيمته على وجه السرعة ، ثم يسعى راجلاً إلى الوزير فيمرغ وجهه تحت قدميه ويصافحه ويخلع منه خلعة سمُّورية ويقبل الأرض . ويمكث الپاشا الوزير بالعادلية ، وينزل أمير الحج على جامع الجانبلاطية بالقرب من باب النصر، فيقضى فيه الليلة مع المشايخ والعلماء الذين يحيونه بتلاوة قصة المولد النبوى الشريف، وهو أول مولد بالقاهرة . وتقام بعد ذلك فى مركز الشيخ البكرى والتكية الگلشنية والسادات التى سوف نكتب عنها فى أماكنها، ويتصدق أمير الحج على العلماء بألف قرش نظير تلاوتهم لقصة المولد . وفى صباح اليوم التالى ، وهو السابع من صفر ، تكتظ شوارع القاهرة بالمنتظرين قدوم أمير الحج .

٢٨ – عودة أمير الحج

ويُعَدُّ هذا الاحتفال أحد الأعياد العظيمة التى تقام فيها الاحتفالات بالقاهرة، ويُذكر شرط الخروج لمشاهدته فى عقود زواج النساء . وتُستأجر الحوانيت التى يمر المحمل أمامها قبل ذلك بشهر، ولما كان الخروج بمثابة فرض على جميع أصحاب الوظائف والمخصَّصات الصغيرة والكبيرة، من واحد إلى ألف ومن ألف إلى مائة ألف فى الأقلام السبعين المصرية من أئمة المساجد وخطبائها والعلماء والصلحاء

والمشايخ ، فإن الأعيان والسُّرَاة والأشراف والخصيان وأتباع الطرق الصوفية المائة والأربعين وغيرهم ينتظرون جميعًا فى الحوانيت التى استأجروها والشوارع والطرقات، والمحمل لا يحضر فى هذه المرة محاطًا بمشايخ الطرق الصوفية وأتباعهم وتحت أعلامهم كما يحدث حين السفر إلى الحجاز ، ولا يشترك فيه جنود العزب ولا الإنكشارية أيضًا، فإن ذلك ليس بقانون .

ويتألف هذا الموكب من رجال البلوكات الخمسة و رجال أمير الحج و المتطوعين والچراكسة و الچاوشية ثم رجال المتفرقة ، ويمر أغوات البلوكات الخمسة ضاربين كوسهم ، ومن خلفهم موكب أمير الحج ، وهم جنود منظمون قد احترقت وجوههم وعيونهم من الحرارة . ويمر بعدهم مائتا جندى من ملازمى الإنكشارية المسلحين بالسيوف، وقد لبسوا على رءوسهم أسكفات مزركشة مزينة بالطرز . ويسير بعدهم بكوات القاهرة عمومًا وبكوات الچراكسة وليس معهم كوس، ويمر بعد ذلك أغوات الخاصة مسلحين مزينين يتبعهم قُوَّاد أمير الحج وشطاره، ويسير المحمل أمام الحج الذى يدخل من باب النصر على نغمات الموسيقى وضرب الكوس، فيمر أمام أهل القاهرة المحتشدين لمشاهدته، فيستقر فى سرادق الپاشا الوزير فى قراميدان. وقد حضر إلى السرادق الجميل القاضى والأمراء وأعيان الديوان، وعندئذ ينزل الپاشا الوزير مع جنوده من القلعة إلى سرادقه، فيقبِّل أمير الحج الأرض ويسلِّم مقود المحمل إلى الپاشا الذى يدور به الميدان ثلاث مرات باعتباره جمَّال رسول الله ووكيل ظل الله ، ثم يسلِّمه إلى مدير مكتبه ، فيقدم ذلك فى السجل الذى سلم المحمل بموجبه إلى أمير الحج حين السفر إلى الحجاز ، وتدور بعض محادثات فى السرادق .

ويتسلم مدير مكتب الپاشا المحمل ، فيسعى به ومعه جنود الپاشا إلى باب الوزير مارًا بباب العزب . ولما كان باب الوزير لا يسع المحمل وهو على جمله يبرك الجمل ويُنزَل ما عليه من الأبسطة ويسلَّم إلى ناظر الكسوة الذى يحفظها فى قصر يوسف حتى العام القادم . و أما الجمل فيسلمه أمير الحج إسطبله الذى ينقله إلى الريف ليُحْفَظ فيه مع الجمال الميرية حتى العام القادم، ثم يعود مدير مكتب الوزير إلى السرادق بقراميدان . وعندئذ يدعو الوزير لأمير الحج : "مد الله فى حياتك وأحل لك

نعم الملك" ثم يخلع عليه خلعتين مزركشتين فاخرتين يُقبِّل الأمير جيبيهما وهو يلبسهما ثم يقبِّل الأرض ويجلس مكانه . ثم يخلع الپاشا على رؤساء البلوكات والچاويشية والأغوات الذين عُيِّنوا لسفر الحجاز وعددهم سبعون رجلاً، فيذهبون جميعًا إلى بيوتهم عدا أمير الحج ، فإن الپاشا يتحدث معه فى شئون مكة والمدينة وأحوال إمام اليمين والأشراف الخونة الذين يمعنون فى الإضرار، ويسلم الأمير إلى الپاشا رسائل وطلبات شيخ حرم المدينة وشرفاء مكة وأشرافها ومعروضات الشريف وغيرها التى تقرأ فى ديوان السرادق بقراميدان . يبلغ الوزير محتويات تلك العرائض إلى الدفتردار والروزنامجى، فيطالبهما بمحاسبة أمير الحج على وجه السرعة و العدالة، لأن فى ذلك مصلحة، فسرعان ما يشرع أرباب الديوان فى محاسبته ، حتى إذا ظهر شىء عليه استردوه منه، وإذا ظهر شىء له أعطوه إياه . فعندئذ يلثم أمير الحج يد الپاشا الذى يأذن له بالانصراف ، فيرأس كتخدا الحجاج أغوات الوزير وملازمى الإنكشارية الذين يأخذون الأمير إلى داره بموكب عظيم . وإذ ذاك يستريح الأمير ويطمئن ، ويمنح كتخدا الحجاج كيسًا لتوزيعها على أغوات الپاشا الذين أحضروه إلى داره فى موكب ، ومائة قرش لملازمى الإنكشارية ، فيطمئن قلبه و ينشرح صدره .

وفى صبيحة اليوم التالى يحمل أمير الحج حسب قانون التشريفات المصرى هدايا هندية ثمينة تقدر قيمتها بعشرة أكياس وعشرين قنينة عنبر وخمسين صُرَّة مسكية وعشرين أقة من العود الطوتى " والمينا " والأسرة و أنواع الپنزهير، وعشرة قرون من الزبادى الحلبى، وعشرة من الطواشية الأحباش حَسَنِى الخِلْقة ، وعشرة هُجُن طاوسية ، وعشرة أحصنة حجازية .

ويحمل ما قيمته كيس مصرى لمدير مكتبه ، وبعض هدايا لاثنى عشر أغا من أغوات الپاشا حاملى الرتب، وسيأتى ذكرها فى فصل التشريفات إن شاء الله . وكذلك تأتى للپاشا الوزير هدايا من رؤساء البلوكات السبعة .

وموجز القول أنه كان الپاشا الوزير كوكبًا مضيئًا صاحب عز ووقار وصيت ، يتلقى ما قيمته عشرون ألف قرش من هدايا الحجاج ، وما قيمته عشرة آلاف قرش من

أعيان وأشراف مكة والمدينة ، وما قيمته عشرة أكياس من أمير جدة ، وذلك لأنهم جميعًا فى حاجة إلى وزير مصر الذى تصل إليهم صررهم وجراياتهم من يده . وأما إذا كان الوزير شخصًا صغير النفس فإنهم يهادونه ببعض توافه الأشياء كفناجين وكاسات وسرو الهند وعصى الرماح وبضعة أثواب شاش العمائم ، وكحل الكعبة وغيرها من التوافه، فلذا لا مندوحة لوزير مصر عن السمعة والأبهة . والسلام .

وبهذا النظام يتم الاحتفال بدخول أمير حج مصر القاهرة .

٢٩- وصف موكب خزينة الصقر

من القانون السليمى أن يُخْلَع على أحد كاشفى القاهرة أو أحد بكوات الچراكسة خلعة فاخرة فيعين رئيسًا لخزينة الصقر، وأن يوضع تحت تصرفه سبعمائة من معلمى الصقور (طوغانجى) تابعين لخزينة الصقر الداخلة مصر . وهؤلاء الرجال معافَوْن جميعًا ومسلحون ، أما عملهم فهو البحث عن الطيور الجارحة كالباز والباشق واليؤيؤ (زاغنوس) والشاهين وغيرها فوق قمم الجبال الشاهقة الوعرة والمواضع الخطرة وصيدها ثم تعليمها . وليس فى بلد مثل ما فى مصر من الصقر واليؤيؤ (زاغنوس) لما بها من الجبال الشاهقة الوعرة ، ولكن لا يعيش فيها صقر الأشجار لعدم وجود الغابات والأحراش ، وهو لا يعيش فيها، ولو جيء به من سائر البلاد لكونه طائرًا ينشأ ويعيش فى الأدغال . والحقُّ أنه ليس بكثير فى سائر البلاد أيضًا ولكن بما أن مصر بلد ساحلى فهو لا يعيش فيها أبدًا .

وإذا كان الربيع فى مصر، اجتمع فى موضع يُعلَّم فيه سبعمائة طائر من الطيور الجارحة بالقرب من قناطر الغورى ، سبعمائة رجل من شجعان البلوكات السبعة، تُقَيَّد أسماؤهم مع الترقية ، للعمل فى فرقة صيد الطيور . وهناك مائة رجل من أتباع

رئيس صيادى الصقور، وسبعمائة من (صقَّارِى) العرب البدو ، فيبلغ المجموع ألفى رجل يمرون أمام الپاشا مدججين بالسلاح . وأما الصقَّارون العرب فيمرون راكبين الحمير، يحمل كل واحد صقراً فوق رأسه وصقراً على ذراعه وصقراً على يده . ثم يَمْثُل سبعة عشر رجلاً منهم مع رئيس الصقَّارين ومدير مكتبه أمام الپاشا، فيخلع عليهم الخلع، وينصرفون مع الموكب، ولما كان رئيس صيَّادى الصقور ليس رتبة بك فليست له فرقة موسيقى وإنما له أربع كوسات . ويمر هذا الموكب المزين بالصقور بشوارع القاهرة حتى يصل إلى العادلية فيقف فيها ، ولا يشاركهم فى احتفالهم هذا سائر الجيوش، لأنه احتفال ليس بذى خطر ولكن نفقاتهم تُعرض على أنها تبلغ خزينةً، فطعام ألفَىْ نفر وشرابهم وإيجار كاتبهم خزينة.

يسافر هذا الموكب من العادلية إلى عاصمة الدولة (= دار السعادة) فإذا بلغوها عُرضوا على الصدر الأعظم و السلطان ، ويمرون أمامه ، ثم يسلمون ما معهم من الصقور إلى رئيس الصقَّارين الذى ينعم عليه السلطان بخلعة فاخرة . ولما كانت هذه الخزينة مقبولة ومستحسَنة لدى السلطان فإنه يأمر أحد رؤساء حُجَّابه أو أحد ندمائه المسنِّين بإحصاء القادمين معها والعناية بهم، ويصدر أمره بالإنعام على الموجودين منهم ، وهى الترقيات التى ينالونها حين عودتهم إلى القاهرة .

٣٠ – قدوم سراويل الصقر و السيف و القفطان إلى وزير مصر

إذا أمر السلطان بتفتيش الجنود الذين رافقوا خزينة الصقر إلى إستانبول فتبين عدد الموجودين منهم ، أرسل السلطان خمسة عشر رجلاً إلى مصر حاملين سراويل الصقر والسيف و القفطان لوزير مصر . يأتى أولئك الرجال حتى مدينة بلبيس فيرسلون أحدهم إلى مدير مكتب الپاشا الذى لا يكاد يتلقى النبأ حتى يرسل المطبخ إلى العادلية ، ثم يخرج إليها صباح اليوم التالى مع رجال الپاشا الذين يسيرون على نغمات المزامير وهى الآلة الموسيقية الوحيدة التى يأخذونها معهم، وليس فى هذا

الموكب من الجيش المصرى سوى چاويشية الديوان وكتخداهم ، ورئيس المتفرقة والأغا الترجمان، فجميع المشتركين فيه من رجال الپاشا ولكنه موكب مُكَلِّف . يخرجون أولاً إلى العادلية ، فيتناولون الطعام ، ثم يركبون خيولهم للعودة ، فيدخلون من باب النصر ومعهم الأغا مترجلاً ومدير مكتب الوزير راكبًا ، يجتازون القاهرة ضاربين طبولهم وسط طوفان من دعوات المتفرجين الذين يهتفون: " الله ينصر السلطان ". يسير الجنود بأدب ووقار إلى القلعة فينزلون على ديوان الغورى الذى يستقبل فيه الپاشا الأغا القادم، ويجلس معه جنبًا إلى جنب، ويتسلم منه الأمر الملكى والخط الشريف فيلثمه ويضعه فوق رأسه، ثم يتلوه أفندى الديوان ويفهم ما فيه، ثم يقوم الأغا القادم فيخلع على الپاشا الخلعة الشريفة، ويلبسه السراويل الخاص بالصقّارين المصنوع من المخْمَل الأحمر، ويعلق السيف بوسطه . و يخلع الپاشا حسب القانون المصرى سبعين خلعة فاخرة على أغوات البلوكات السبعة وأرباب المناصب من رجال الديوان الذين يدعون للباشا بأمثال: " أطال الله عمرك" ، وبارك الله فى خلعتك" . و" لتعش طويلاً بالدولة والسعادة". وفى الوقت نفسه تدوى كهزيم الرعد أصوات سبعين أو ثمانين طلقة من مدافع القلعة . وما إن يتم ذلك حتى يحضر حراس القلعة، ثم يأتى خدم الپاشا فيحضروا لابسى الخلع الفاخرة ويُحَصِّلوا منهم الأموال التى يُعطى منها عشرة أكياس للأغا القادم من إستانبول قبل أن يودِّعوه عائدًا إليها .

٣١ – دخول قاضى مصر القاهرة فى موكب مع العلماء

حينما يعزل قاضى مصر الجديد الخانكة القريبة من القاهرة يرسل مدير القصر المطبخ إلى العادلية، حتى إذا كان اليوم التالى خرج مدير مكتب الپاشا وكتخدا الچاويشية ورئيس المتفرقة وترجمان باشى (= رئيس التراجمة) وجميع عساكر الپاشا ووكيل قلعة مصر وسط جماعة من العلماء والصلحاء وأشراف القاهرة وأئمة مساجدها وخطبائها للاستقبال . وليس فى هذا الاحتفال من الطوائف العسكرية مائتان من ملازمى الإنكشارية ومائتا إنكشارى ممتازين من حراس المحاكم ، وإنما جميع الحاضرين من العلماء .

يقيم مدير مكتب الباشا مأدبة للقاضى، ثم يركب الجميع صهوات خيولهم فيسير أولاً موكب رجال الباشا أفواجًا أفواجًا ، ويتبعهم مدير مكتب الباشا وكتخذا الجاويشية، ويسير بعدهم العلماء جماعات جماعات وقد جلس بعضهم على صهوة جواده منحنيًا إلى جنب، وبعضهم مكبا كأنه لاصق بقربوس السرج وقابضًا بيده على عمامته ، كما أن بعضهم يترك الزمام على قربوس السرج لأن عينيه الجاحظتين لا تجيدان الرؤية، فيسحبه خادمه هو وحصانه مناديًا :" يمينك ، شمالك ! " إنه لمشهد عظيم! أكثر هؤلاء العلماء من غير لباس رسمى، ولكن لا مندوحة من أن يكون القاوق على رءوسهم . إنهم – وإن كانوا غير مَهَرة فى ركوب الخيل – فوارس ميدان الفصاحة والبلاغة ، فإذا شرع أحدهم فى تقرير العلم فهو فصيح اللسان بديع البيان ، حافظ للقرآن وحلال لمشكلات الأديان ، صاحب للفضيلة والرحمة ، فقد ورد فيهم قوله عليه الصلاة والسلام : "علماء أمتى كأنبياء بنى إسرائيل" .

يسير بعدهم أئمة المساجد والخطباء ومشايخ الكراسى، ثم البكريون ذوو رتب " خمسمائة بارة " فى عبايات ذات شُرابات ، والسادات ثم المفتون من المذاهب الأربعة، يتبعهم ملازمو الإنكشارية المشاة المزينة رءوسهم بالطوغ، ثم إنكشاريو باب قاضى العسكر المتازون . ويسير بعدهم المدرسون والمحدِّثون ونواب أربع وعشرين محكمة ثم طائفة القضاة الحاضرين والقسَّام العسكرى ونائب الديوان ونقيب الأشراف مع نقيب السادات الكرام، ومحضرو المحاكم من علماء جامع الأزهر، ورئيس المحضرين ذو اللبادة وكتخذا القاضى الذى يعقبه القاضى نفسه ثم مصطفى أفندى البولوى شيخ الإسلام فى مذهب الإمام أبى حنيفة جنبًا إلى جنب راكبين . يسير الموكب دون أن تسمع فيه أصوات الطبل السلطانى والكوس والصفير حتى يبلغ قصر مدير مكتب الوزير الذى ينزل عليه القاضى، ويذهب صاحب الدار إلى قصر الباشا الوزير فيبلغه تحية القاضى، ويمثل القاضى أمام الباشا الوزير فى اليوم نفسه .

٣٢ - موكب قاضى مصر

إذا قدم القاضى إلى قصره و اتجه فى يوم قدومه أو فى اليوم التالى إلى ديوان الباشا الوزير فى رفقة طائفته الخاصة مر أولاً محضرو أربع و عشرين محكمة مَثْنَى، متكئين على عصيِّهم راجلين، ويسير خلفهم الچاويشية الخاصة بديوان القاضى لابسى المجوزات على خمسين جواداً أصيلاً مزينًا، ويتبعهم أربعة وعشرون نائبًا من نواب المحاكم راكبين جياداً أصيلة ومعهم خدمهم مشاة، ويمر بعدهم المُحْضِرون المحلِّيُّون مشاة ، ثم يسير مائة من ملازمى الإنكشارية ذوى الثوب الأسود والأسكفة المحلاة بريش الطيور وخلفهم ضابط إنكشارى برتبة اليوزباشى مع أتباعه . ثم يمر كتخدا القاضى مرتدياً عمامة مسترسلة وبجانبه الحاجب ذو الأسكفة المزركشة وهو من حجاب الآستانة ، ومن خلفه " نائب الباب " و" نائب الديوان " يمران جنبًا إلى جنب راكبين ، ويتبعهم قضاة المذاهب الأربعة والأفندى القسام الذى يعقبه ملازمو الإنكشارية من لابسى اللباد .

يمر بعد ذلك قاضى العسكر على جواده الأصيل ، وقد وضع على رأسه القاوق وبجانبه چوخه داره (ساعيه) ذو الثوب "المَنويشى"، أى اللامع ، والأسكفة المقصبة ، وثلاثة من خدمة الذين يقضون حاجة السوق (بازاره گيدن) وعشرة من خدمه المشاة، وخلفه عشرون غلامًا من غلمانه المحبوبين على جياد مطهمة ملبسة . وعندما يبلغ القاضى القصر يستقبله الباشا عند الديوان، فيتصافحان ويحضران وليمة عظيمة يتحدثان بعدها بعض الوقت فى مختلف الشئون. حتى إذا دنا موعد انصراف القاضى يخلع الباشا عليه فروة سمورية، كما يخلع خلعة فاخرة على كتخداه ورئيس المحضرين، وخلعة على " نائب الباب " بعد أن أكرمهم بتقديم القهوة والبخور، وبعد انتهاء هذه المراسم يعود القاضى إلى قصره مع أتباعه .

هذا هو الاحتفال بقدوم قاضى العسكر و لا يحتفل به حين عزله .

٣٣ - موكب بك جرجا

إذا قُطعت وفُتحت جسور النيل و حضر جميع كشافى مصر وأمرائها و بكواتها إلى ديوان القاهرة لتقديم الحساب ، قَدِم " بك جرجا " بموكب مهيب أعجزُ عن وصفه ، وهو الذى يسميه العزبان " سلطان الصعيد العالى و حاكم البر الوالى " لأنه يحكم إقليمًا مكونًا من ستة وعشرين مركزًا ، وسكان مصر جميعًا فى حاجة إليه لأن موارد مصر إنما تأتى من الصعيد . ينزل الپاشا الوزير إلى قراميدان فى ذلك اليوم، فيشاهد من قصر ذلك الميدان حضور " بك جرجا " إلى مقر منصبه وانصرافه منه، ولما كان القاهريون يشاركون موكبه محبة له فإن الموكب يزداد أبهة و جلالاً ، حتى يصير كالمواكب التى وصفناها فى ما سبق . بيد أن هذا الموكب يمتاز بثلاثة آلاف جندى مشاة من حملة البنادق من الزنوج الحبشيين ، كأن كل جندى منهم ثعبان أسود، وبألفى فارس من العربان المشهورين على خيول (خوَّارة) مسلحين برماح ثقيلة ، وبألفى صبى من صبيان الواحات ، وهؤلاء يحاربون فى بلاد الزنج والفنج، فيحملون منها المال والغلمان والجوارى السود، و يمر بعد ذلك جنود البك المحافظون ثم حرسه الخاص أفواجًا أفواجًا ضاربين الطبول والقدوم و" المقارق " الحبشية ونافخين فى النفير، يسير مشاتهم خفافًا كالظباء . وليس فى الإمكان ضبط إقليم جرجا و ربطه دون أن يكون هناك ألف رجل من بواسل الترك وعشرة آلاف جندى، ذلك لأن " بك جرجا " يملك مملكة كبيرة تقع فى إقليمين وينفذ فيهما حكمه، وولاية جرجا عرض مصر وشرفها .

ويمر بعد ذلك البك نفسه على نغمات فرقته الموسيقية مع مائتين من غلمانه الخواص المدججين بالسلاح ، يسير هكذا حتى يصل إلى حضرة الپاشا ، فتقف الموسيقى عن العزف فينزل البك عن جواده و يمسح وجهه بقدم الپاشا و يقف . وعندئذ يخاطبه الپاشا ببعض كلمات ممزوجة بالطعن، ثم يخلع عليه خلعة ملكية مقصبة، كما يخلع على سبعة و سبعين رجلاً من أتباعه، هم كاشفوه الأربعة والعشرون ومديرو أمواله وكتخدواته، ثم يأمر الپاشا الروزنامجى بمحاسبة البك

حساباً طيباً ويعين لتحصيل المال، وبعدما يتم ذلك يخرج البك من عند الپاشا فينصرف إلى قصره ومعه أغا الپاشا راكبين جنباً إلى جنب .

وفى اليوم التالى تسير خيول الوزير وهى أربعون حصاناً من الخيول الخوارة الأصيلة وعشر أفراس ، وعشرة طواشية وعشرة أكياس نقداً وخمسة آلاف أردب شعير وثلاثة آلاف أردب حنطة، وكثير من الهدايا والتحف الثمينة القيمة المماثلة لما ذكر .

كما أنه يقدِّم ثلاثة أكياس وثلاثة طواشى وخمسة جياد أصيلة إلى مدير مكتب الپاشا وهدايا أخرى لاثنى عشر أغا من أغوات الپاشا أصحاب الرتب ، كل بحسب رتبته ، وهذه الهدايا هى " حالية الحالية " لا تقبل النقص أو الزيادة .

وبعد هذه الهدايا يحاسب البك حساباً دقيقاً لا هوادة فيه ، فيحصل ما بذمته من المال السلطانى بلا نقص ، وتصرف منه رواتب الجند .

٣٤ - وصف زينة الاحتفال بالأفراح السلطانية

يُقام هذا الاحتفال لمناسبات خاصة بالسلطان، كفتح السلطان بنفسه قلعة فى إحدى الولايات، أو ولادة أمير سلطانى، أو حفل ختان أو زفاف، أو جلوس سلطان أو عافانا الله، إذا حدث ظرف من الظروف المبينة، حضر من الآستانة حاجب من حجَّاب السلطان أو أغا من الخواص أو أحد مصاحبى السلطان أو الأغا أمير آخور (= الإسطبل) أو أحد الأغوات حاملى السلاح ، فأرسل من بلبيس نبأ إلى مدير مكتب الپاشا بأنه قادم من إستانبول بمأمورية كذا . وما إن يتلقى مدير مكتب الپاشا النبأ حتى يرسل المطبخ إلى العادلية كالمعتاد، ويبلغ النبأ إلى الأوجاقات (= المعسكرات) السبعة لجنود مصر . حتى إذا كان صباح اليوم التالى خرج مدير مكتب (كتخدا) الپاشا على اعتياده القديم مع جنود الپاشا المدججين بالسلاح ،

ومعهم فرقة الموسيقى، ولكنها تسير بلا عزف فى أثناء الذهاب. يسير هذا الموكب مارًا بالقاهرة وباب النصر حتى يبلغ العادلية ويتناول فيها الطعام ، ثم يعود مدير مكتب الباشا مع الأمير آخور القادم من إستانبول راكبين جنبًا إلى جنب ، فى موكب يسير على أنغام الموسيقى مجتازًا القاهرة حتى يبلغ ديوان الغورى، حيث يستقبله الباشا وتقرأ فيه سورة الفتح فى ديوان القاهرة ، ثم يخلع الخلع المبينة فى الخط الشريف فى هتافات چاويشية الديوان ودعواتهم .

وبعد انتهاء هذه المراسم يأمر الباشا رئيس الشرطة بأن يخرج المنادون ينادون فى الناس بأنه قد تقرر أن تقام أربعون يومًا ولياليها احتفالاً سلطانيًا وأفراحًا، حسب ما ورد فى الخط السلطانى الشريف . وحينئذ تخلع على الأشراف كسا التشريفة وتطلق المدافع من القلعة وتخصص أماكن للفرق لعزف الفواصل، ثم تزين القاهرة مدة أربعين يومًا ولياليها – أو عشرين يومًا ولياليها حسب ما ورد فى " الخط الشريف"[٣١] – زينات لا يعبِّر عنها باللسان ولا توصف بالقلم ، فقد قيل: " متى كان السماع كالعيان؟ " ! ، فى هذه الأيام يظهر بمصر كم من الأثرياء والمعممين وأصحاب الدولة ، فإن كلاً منهم يظهر ما بيده من الذهب القليل والكثير والمُرصعات العجيبة فى أسواق الحسن والجمال، ويزين حانوته عارضًا ما بيده من السلع ، حتى تنقلب مصر أم الدنيا العجوز إلى عروس فتية . فقد كنت أنا الفقير فى مصر فى سنة ١٠٨٤ هـ (= ١٦٧٣ م) فى عهد إبراهيم باشا الكتخدا، فشاهدت الأفراح التى أقيمت

(٣١) الخط الشريف : مصطلح إدارى كان يُطلق على الأمر الصادر من طرف السلطان بصدد أمر معين، أو بشأن تعيين شخص فى وظيفة معينة ، فلم تكن هناك ضرورة أن تخرج جميع الأوامر بخط يد السلطان، بل كان الكتبة أو الكُتاب هم الذين يخطون الأوامر، ثم يوقع فقط من قبل السلطان ، وكانت الأوامر تُكتب على ورق خاص بالسراى ، وتكون عليها طغراء السلطان. وهناك بعض المعاهدات أو الأوامر التى كان السلطان يخط بيده ملخصها ، ثم يقوم الكُتَّاب بكتابتها ، ويوقعها السلطان . وكان من المعتاد إرسال خط شريف إلى شريف مكة سنويا ، أو تولية غيره .

بمناسبة فتح السلطان محمد خان الرابع[٣٢] لقلعة " قمانيچة " فبهت " والعظمة لله " ، فقد كانت الليالى كلها كليلة القدر، والأيام كأيام عيد الفطر والعيد الأكبر ، فالطوائف العسكرية التى تتذمر دائمًا والتى يتعسر ضبطها وربطها أولاً وآخرًا لم تكد تتلقى " الدستور السلطانى " حتى شرعت قائلة :" ما أبالى " فى ارتكاب فضائح لا توجد تحت القبة الزرقاء فى غير القاهرة ". فالضجة المصرية والأبهة المصرية وسمعتها وطنطنتها وجعجعتها ، هى مصر أم الدنيا . إنه وإن كانت إستانبول أيضًا مدينة عظيمة فإن أهلها يعيشون على الضبط و النظام . والطوائف العسكرية المصرية فى شكاية دائمة، فجميع الشبان والشيوخ والفقراء والأغنياء لا يكاد يُرفع عنهم القيد حتى يشرعوا فى المشاجرة كأنهم خيول شرسة رفع عنها قيدها . إنه لشجار " هدر " لا يمكن معه لأحد التحكم فى أولاده وأهله أو خدمه ومماليكه فى هذه الأيام، فكل يمضى وقته فى الطرب واللذة فى الجهة التى يريدها والاجتماعات الخاصة ، ولا تحدث فى القاهرة زينات وأفراح دون أن تكون مترافقة مع أمثال هذه الأمور من الطرب واللذة و البهجة و السرور .

هذا إذا كان الفاتح هو السلطان، وأما إذا كان الوزير الأعظم فتقام الأفراح اثنتى عشرة ليلة ،" ومن كان الختم بيده فهو سليمان ! "، وإن كان الفاتح هو القائد الأعظم فتقام الأفراح مدة عشرة أيام أو سبعة أيام ولياليها .

---

(٣٢) **السلطان محمد خان الرابع :** هو السلطان الغازى محمد خان بن إبراهيم خان بن أحمد خان الثالث، وهو السلطان التاسع عشر بين السلاطين العثمانيين العظام. اشتهر بلقب (أوجى)، أى القناص. ولد عام ١٠٥١ هـ = ١٦٤١ م وجلس على عرش السلطنة عقب مقتل والده وما زال فى السابعة من عمره، مما أتاح الفرصة لأرباب الفساد أن يلعبوا بالدولة العثمانية اقتصاديا وعسكريا وسياسيا، وكانت الفرصة مواتية للأعداء ، ولكن بمناسبة عيد جلوسه الثامن عيَّن كوبريلى محمد باشا على مقام الصدارة فأعاد إلى الدولة هيبتها ونظامها، واسترد العديد من القلاع والبلاد التى فقدتها . كان ولعًا بالصيد والقنص، تم عزله سنة ١٠٩٩ هـ = ١٦٨٧ م وتوفى سنة ١١٠٤هـ = ١٦٩٢م، فتولى بعده ابنه مصطفى خان الثانى . (انظر : ش . سامى . قاموس الأعلام جـ٦ . صـ ٤٢١١) .

وأما أصل كثرة السرور والأفراح بمصر فناشئ عن كونها إقليمًا آخر ، فهى ولاية جزيرة القاهرة ، أهلها يشرعون فى الشجار لأتفه الأسباب ، وذلك لأن طبع مصر " زهرى " ، فلذا يميل شعبها إلى الموسيقى والغناء واللهو واللعب . ثم إن شعبها الكبير العدد كثير المال الذى يساعده على الإنفاق فى الطرب والذوق والصفا ، وكما أن عزيز مصر كان مغلوبًا لامرأته زليخا فإن المصريين لا يزالون مغلوبين لنسائهم وخدمهم ، ميالين إلى الطرب واللذة والصفاء و الشقاء رغم أنوفهم، فكلما تمكنوا من فرصة أقاموا أفراحًا عظيمة . إن الأفراح التى أقامها إبراهيم باشا بقراميدان بمناسبة فتح " قمانيچة " لم يُقم مثلها منذ عهد آدم ولن يقوم، فقد أنفق عشرين كيسةً مصريةً على اللاعبين بالطيور والألعاب النارية وغيرهم من أهل المعرفة والفن ، وزين القراميدان بمائة ألف قنديل، حتى صار ميدان النور، " حفظك الله " .

٣٥ - فى بيان نفقات شمع العسل والبخور

والعود والعنبر الخاص بمكة والمدينة

يأتى مكان هذا الموكب بعد موكب الخزينة التى وصفناها سابقًا، وليس فى هذا الموكب جنود. وكل ما يحدث أن رئيس المسكجية ومعتمد الخرج الپاشا يجمعان كل ما يوجد من الشمع الكافورى والشمع الملم ثم يطلبان عتَّالى بولاق فيحملونها من مصنع الشمع ، شموعًا كافورية بيضاء يضعونها على ألواح (طبلة) يحملونها فوق رءوسهم . وفى هذا القدر من الألواح والأقفاص ضروب البخور المُمسَّكة المُعَبَّرة ، وخمسون قدرة من ماء الورد وخمسون قنينة " شمامة " عنبر، واثنا عشر ألف قنديل، وكلها خاصة بالقاهرة، وعلى قبة القناديل قنديل زيت مُشعل. وفى كل عام يأتى من " سوس " ببلاد المغرب زيت الزيتون النقى الشبيه بماء الحياة، يحمله العتَّالون فى جرار إلى الديوان . يحمل الحمالون خمسمائة صندوق من القناديل على لوحات (طبلات) فوق رءوسهم ويسيرون منادين : " الله ينصر السلطان " حتى يبلغوا حضرة

الباشا بديوان الغورى ، فيأخذ بعض الشموع المصنوعة من شمع العسل ويكسرها ليختبر مقدار نقائها وخلوها من الغش، إن وَجَدَها مسكية كافورية وخالية من الغش ألبس رئيس المسكجية ومعتمد الخرج ورئيس الشماعين خلعًا ، ثم يحضر الوزانون فيزنونها جميعًا ويقيدونها فى دفاتر الروزنامجى، ثم يرشد الباشا الدفتردار رئيس المسكجية إلى موضع سليم وصادق (= صاغ سليم) مائة مائة ، حتى إذا تمت هذه الإجراءات وضعت الشموع فى صناديق مسكية مبطَّنة باللباد وسلمت إلى رؤساء السويس ، ودفعت أجور حملها من الميرى، وهى أيضًا خزينة ، بيد أنها نفقة مُوَسخة قليلاً .

٣٦ - خزينة المأكولات والمشروبات

وهى الخزينة الثانية والعشرون التى ترسل إلى المطبخ السلطانى والكيلار الخاص. لا يُصاحب تحصيل هذه الخزينة السلطانية " آلاى " من آلايات الجنود المصرية . وكل ما يحدث أن الباشا يخلع على كبير من أمراء مصر خلعة فاخرة ويعينه أميرًا " بِكًا " (= قائدًا) لتحصيل الكيلار السلطانى . وهو بعد ذلك لا يُكلف بأسفار أخرى ولا بالرياسة على جنود الغير وعبيدهم (= غير قوللر) . يخرج هذا البك مع خمسمائة من رجاله فيجمع من فارسكور (فى المتن Mernkeir) ومدينة المنزلة Menzel وبندر دمياط ومركز (= قضاء) بئر مشعل وبندر رشيد، وغيرها من البلاد المنتجة للأرز، خمسمائة ألف أردب من الأرز، وألفى قفص سكر ، وثلاثمائة غرارة بُنٌ، ومائتى ألف أردب من العدس ، ومائتى ألف أردب من الحمص، ومائة قطمة Kitma حناء، ومائة رسيد [Resid] قفة من التمر، وغيرها من الطعام، ويخزنها فى مخزن كبير خاص لذلك فى مدينة رشيد . ويحضر من إستانبول " خليفة " (أى قالفة) من مَصنع الحلوى الخاص إلى ديوان الغورى، فيبرز أمام الباشا ما يحمله من الأمر السلطانى، فيحصر جميع ما بحدائق القاهرة والفيوم من أشجار " خيار شنبر " وليمون وحمص، ويقبضها على حساب الميرى، وإذا حل موسم تلك الأشجار أمر

رئيس الحلوجية بمعرفة أمين خيار شنبر ، أمر الدفتردار بجمع أثمان ماء الورد وماء القاضى ومئات الأنواع من العطريات والدهنيات للخزينة السلطانية . ويجمع مائة قنطار من الورد المسك والليمون والبنفسج "والحمص" والتمر الهندى والنيلوفر . ففى مصر تكثر هذه الأنواع من المشروبات وأما " البياض " وعنبر باريس فلا وجود لهما .

وأما المعاجين ففيها سبعون نوعًا من المعاجين المقوية المفرحة المنعشة النافعة ، ومنها " الترياق الفاروقى" والفاروق الأربع " ومعجون العقرب و" معجون السقنقور البرى " و" معجون السقنقور المائى " و" معجون عين التمساح " و" قلب التمساح " و" سن التمساح " ، إذا كحلت بها العين التى عليها السحاب بمرور الوقت راقت بأمر الله وزادت قوة البصر ، إلى حد أن صاحبها يستطيع رؤية الكواكب السيارة السبع فى منتصف النهار . ويرسل رئيس الحلوجية من هذه المعاجين والمربيات والمشروبات عشر غرار إلى الباشا الوزير ، وثلاث غرار إلى الكتخدا ، ويسلم الباقى لكيلار الخاصة ويأخذ بذلك حجة شرعية . ثم يجهز بك الكيلار خمسين سفينة لنقل هذا القدر من الأرز والسكر وغيرها فى موسمها المناسب من بندر الإسكندرية ويحدث أحيانًا أن تقدم اثنتا عشرة سفينة حربية (قادغه) إلى الإسكندرية على حسب القانون، فيشحنها " بك الكيلار " بما فى عهدته من الأشياء، ويأخذ حجة بذلك من أمراء (قباطنة) السفن وتتم مأموريته بذلك . وهذه أيضًا خزينة مصرية حسب القانون السليمى .

٣٧- فى بيان خزينة سبعة آلاف قنطار بارود أسود

وهى الخزينة الثالثة والعشرون من الخزائن المصرية على حسب القانون السلطانى، لا يصاحب هذا الاحتفال من الآلايات العسكرية سوى المدرَّعين والبارودجية وصانعى الأسهم النارية (نشنكجيان) . ففى ركن من ساحة قصر الباشا مصنعان ذوا قبتين مسدستين عاليتين لصناعة البارود ، فى كل منهما أربعون شابًا (جوان) يديرون دواليبهما بالخيول ليلاً ونهارًا لضرب البارود ، فهو مشهد عجيب . بيد أن مشاهدته ملعونة كالبارود ، تتم فيهما صناعة البارود ثم

تعرض منها عينات (چاشنى) للپاشا . والحق أن البارود المصرى أعلى من البارود البغدادى ، لأن ملح البارود المصرى يُكوَّن من قطع بيضاء لطيفة، كل قطعة فى حجم الرحى . وله سبعون قرية ميرية يكلف ملتزموها بالقيام بذلك العمل، ففى كل أسبوع تأتى قافلتا جمال محملة بملح البارود الذى يسلمه الملتزمون إلى رئيس المدرعين وضباط البلوك وكتخداهم بخلع ثم يوضع ثلاثة آلاف قنطار منه فى غرائر كتانية خاصة بذلك وتودع الغرائر فى مصنع البارود بالقلعة الداخلية، وتُلف الغرائر بعد ذلك، بجلود الجمال ، ثم تحمل على ثلاثة آلاف من الخيل والجمال مما يستخدم فى حمل الأثقال بالقاهرة .

وبعدما تتم هذه الإجراءات يُسَيَّر مَوْكب صناع القذائف النارية مع ضباطهم راكبين ، حاملين بأيديهم العصى وهم ينادون : " أيها الإخوان المدخنون ، ويا أسطوات الحدادين والنحاسين، لا تشعلوا النار " ؛ فلا يدخن أحد فى تلك الشوارع فى ذلك اليوم ولا يمكن لأحد من الحدادين والنحاسين والقفالين أن يشعل النار أو يقوم بعمل ، كما أن أصحاب البيوت المطلة على تلك الشوارع العامة لا يستطيعون البقاء فى بيوتهم بلا إشعال النار . إن حمل بضعة آلاف حصان من نار الغضب لوجع رأس عظيم !

تبدأ الأحمال بعد ذلك فى السير فى قافلة، وبجانب كل دابة رجل يضرب الناس بعصاه ويكسر ما بأيديهم من الچوبوق أى الأسياخ، وتمر القافلة على هذا النظام ، وتمر بعد ذلك ستة آلاف قنطار من فتيل الكتان ، وهو أيضًا مربوط محكمٌ فى فردات يمنية ، ومحملة على خيول وبغال بجانبها ثلاثة آلاف بربرى من الذين يبرمون الفتائل ، يسيرون حافين ضاربين الفلاحين بالعصى ، حتى إن بعض المفلسين من أغوات الپاشا يتفكه مقسمًا بأنه خرج من القاهرة بثلاثة أقواد أو خمسة أقواد . ومن يسمعه يحسبه قد خرج منها بجياد أصيلة فى حين أن ذلك المفلس قد خرج منها بقود الفتيل .

يمر بعد ذلك ضباطهم على جيادهم جماعات جماعات ، فيقلبون البارود الأسود بتنبيهاتهم الشديدة بلاء أسود . وبعد الجميع يسير رئيس المدرعين مرتدياً خلعة فاخرة على ثيابه السمورية ويتبعه أربعون أو خمسون غلامًا من غلمانه الخواص، ضاربين كوساتهم عابرين مع موكب النار . وتشحن به السفن الراسية ببولاق ، فترسل إلى رشيد التى ينقل فيها إلى " جريمات " تنقله إلى الإسكندرية، وفيها تشحن به السفن الحربية التى يعطى ربابينها رئيس المدرعين حجة شرعية بذلك وهى أيضًا خزينة مصرية.

٣٨ – إيراد قاضى مصر القاهرة وأقسامها العَسْكَرية وستة وأربعون قاضياً بالأقاليم المصرية

وهذه الخزينة هى الرابعة والعشرون من الخزائن المصرية. إن هذا زائد فى زماننا أيضًا، لأنهم صاروا يحصلون المال ساطة الشرع، وأما قاضى مصر فيحصل ثلاثمائة كيس على وجه العدل . وقضاء مصر " مولوية " جد لطيفة . وما زال قانون السلطان محمد خان الرابع جارياً بأن يُرقى القاضى إلى " مولوية " مكة التى يُرقى منها إلى " مولوية " إستانبول .

٣٩ – أوقاف سلاطين مصر الماضين والوزراء والأعيان والأشراف

[وهذه] الخزينة الخامسة والعشرون. عندما ضم السلطان سليم مصر وصار خاير باى وزيرًا لها وأحمد بن كمال باشا قاضى العسكر بها أجرى قيدًا للأملاك بقلم الغزالى، فوجد بالقاهرة نفسها سبعة و سبعين ألف وقف من الأوقاف الخيرية، ولا يزال اثنا عشر ألفًا منها باقية عامرة . وكل من يعين قاضيًا لمصر مُكلف بأمر سلطانى بتفتيش تلك الأوقاف وفحصها، وهو يُفتشها مرة فى السنة فيحصل جنيهًا (ذهبيا)

عن أدنى وقف . وهناك أوقاف يتناول عنها القاضى أربعين وخمسين ومائة ومائتين وخمسمائة وألف جنيه فى العام ، ولتلك الأوقاف قرى عظيمة عامرة و" رزقات " وفدادين ورواتب وأموال من الميرى، وقد ورد فى الدفترخانة المصرية بأن ثلاث خزائن مصرية تُحَصَّل من قرى الأوقاف حسب إحصاء الغزالى .

٤٠ - فى بيان الخزينة التاسعة والعشرين التى يُحَصلها الميرى من مصر لنفسه

حدد القانون السليمى أربعمائة وسبعين كيسًا مصريا " كشوفية " لولاة مصر مقابل الخاصة السلطانية ، ولهم ألف " پارة " يوميا من قبل السلطان أيضًا للإنفاق على الفقراء صدقة ، وهذا أيضًا يكون مبلغًا قدره تسعون كيسًا مصريًا فى العام . وزيادة على ذلك ترد إليهم مجوهرات قيمة وتحف صغيرة ثمينة عن طريق الهدايا تبلغ قيمتها " خزينة " مصرية فى العام ، ومع ذلك فمن المحتم تحصيل خزينتين أخريين فى كل عام . فقد حدث حين كان الفقير بمصر أن حصَّل إبراهيم باشا الكتخدا وهو والى مصر ثلاث خزائن مصرية لأنه كان فى حماية فاضل أحمد باشا الكوپريلى الوزير الأعظم بالآستانة . ومن حكمة الله أنه حدث فى أثناء ولايته طاعون رهيب بمصر حتى صارت قرية " محلولة " تسع مرات فى ثلاثة أشهر وبيعت بديوان القاهرة . هذا حظ معجل، وقد قال بعضهم إنه استدرج ولم يطل عمره، ولكن كان رحمه الله وزيرًا عظيمًا مجيدًا منبع الكرم كحاتم الطائى وجعفر البرمكى، كان ينفق خزينة من الخزائن الثلاث فى المأكولات ويدخر خزينتين .

٤١ - فى بيان الخزائن التى يُحصلها ثلاث وعشرون أغا اصحاب الرتب من أغوات الپاشا لأنفسهم ، وتعتبر الخزينة الثالثة والثلاثين

إن كان مدير مكتب الپاشا رجلاً بصيرًا بالأمور ومدبرًا حصَّل ألف كيس من المال، وإن كان غير كفء ظل فاتحًا فمه نحو السماء ، ويربح المحافظ خمسمائة كيس .

فقد قال الوزير الأعظم الدرويش محمد باشا للفقير " إنى كنت محافظ القاهرة حين كان محمد باشا طابانى ياصى وزيرها فربحت خمسمائة كيس مصرى" وقال هذا للفقير وهو وزير أعظم .

ثم إن أفندى الديوان والمراجع و كتخدا الحجاب والخازندار وحامل الأختام وكاتب المحلولات والأمير أخور ومدير بيت المال ومعتمد الخرج (وكيل الخرج) وكتخدا وكيل الخرج ، وأمين الأنبار وأغا الرسالة وأغوات دمياط والسويس ورشيد والإسكندرية وبنى سويف والمنيا ومنفلوط وجرجا ، فهؤلاء الخمسة والعشرون أغا يحصلون لأنفسهم كيسين مصريين من المال ، ويحصل سائر الأغوات خزينة أخرى ، وثمة خمسة من أغوات الخفر يحصلون لأنفسهم خزينتين مصريتين .

٤٢ - الخزائن التى يحصلها خمس وعشرون أميرًا من أمراء مصر وأربعون من بكوات الچراكسة وسائر الأعيان والتى تُعتبر الخزينة التاسعة والثلاثين

مُقيَّد فى سجل الروزنامجة أنه بعد تحصيل ما على جميع قرى القطر المصرى (وعددها ألف قرية) من الأموال " وغلق حسابها "، تُحَصَّل خمس خزائن مصرية من المال لأعيان مصر . والحق أن ما يُحصل من المال أكثر من ذلك، فقد حدث أن عرض عبد الرحمن أفندى " الروزنامجى " على إبراهيم باشا الكتخدا حين كان عزيز مصر أن ثلاث خزائن مصرية لمقربى السلطان وسائر الأعيان والأشراف المقيمين بإستانبول قد حُصِّلت من القرى التى يملكونها بمصر . ولمَّا عرض الپاشا ملخص هذا الأمر على العاصمة وأحضر عبد الرحمن أفندى الروزنامجى إلى إستانبول ومثل أمام السلطان وسأله قائلاً : " أيبقى من المال ربًا زائدًا فأجاب الروزنامجى : " أقسم يا مولاى بأن خَمْسَ خزائن من المال تبقى لعبيدكم الأمراء والأعيان والأشراف ". وحظى بعطف سلطانى وأعيد إلى القاهرة معززًا مكرمًا، وقد تعادل

إيراد مصر ومصروفها فى زمانه وزال التداخل . وبعد ذلك جند إبراهيم باشا ثلاثة آلاف جندى لمكة ، فعزل الشريف سعد فى حج سنة ١٠٨٢ هـ (=١٦٧١م) وعيَّن الشريف بركات مكانه ، ولما كان عبد الرحمن أفندى الروزنامجى هو الذى كشف السر فى حضرة السلطان فقد أمر ابن جانبلاط بقتله . هكذا تحصل ثمانى خزائن مصرية من المال .

٤٣ - فى بيان ثلاث خزائن يحصلها الأصناف الآتية لأنفسهم وتعتبر الخزينة الرابعة والأربعين

جملة ما بإيالتَىْ مصر والصعيد من القرى ألف قرية مقسمة أربعة أقسام : فالقسم الأول بلاد ميرية تدفع المال السلطانى، والقسم الثانى قرى " الكشوفية " الجيدة، والقسم الثالث قرى الأوقاف الخيرية ، والقسم الرابع قرى الكشافين والأمراء والملتزمين، وقد سبق أن كتبنا عن الخزائن الباقية (الفائضة) لأصحاب هذه القرى، بيد أن لهذه مشايخ البلد وأصحاب الدرك والشهود والمرشدين والكتاب الأقباط، فهم أيضًا يحصلون خزينة مصرية من المال ليستروا أنفسهم .

٤٤ - الخزينة المصرية الثامنة و الأربعون

إن ما بقرى الإيالتين المذكورتين من الرعايا و البرايا لا يعدُّهم عدٌّ ولا يحصرهم حدٌّ ، يزرعون الأرض المصرية سبع مرات فى العام، فيحصِّلون سبعين نوعًا من المحصول . ليس فى الكرة الأرضية تراب خصب كهذا، ولا رعايا مجتهدون من العرب كاجتهاد " فرهاد " ولا فلاحون " دهاقنة " ، ولا قوم جبارون غير مصلحين ! فالطائرون فى السماء والساعون فى الأرض والعائمون فى المياه يحصلون المال

لأنفسهم فيقدمون أعشارهم إلى أغواتهم ونظارهم وملتزميهم وكاشفيهم أموالاً ميرية ويسدون ديونهم ، ثم يبقى لهم بعد ذلك خمس خزائن مصرية من المال، هكذا قُيِّد فى السجل . وبهذه الخزائن التى يحصلها الأهالى يبلغ عدد الخزائن ثلاثًا وخمسين خزينة من الخزائن الخاصة بمصر .

٤٥ - الخزينة الخامسة والخمسون وهى الخزينة التى يحصلها تجار بنادر مصر السبعة

أعطى الكتخدا إبراهيم باشا الإسكندرية ورشيد الالتزام فى مقابل كيس عن كل منهما يوميا، وبندر دمياط مقابل مائة وأربعين كيسًا من الطعام . وأعطى بولاق وباب النصر ومصر القديمة والمعادى التى قبالة البساتين لأمين الإحصاء مقابل مائة وخمسين كيسًا فى السنة . وأعطى تنيس التى تسمى " أمانة البهار " مقابل ثلاثمائة كيسٍ ، ويحصل منها فى بعض السنين خمسمائة كيسٍ . وعلى هذا الحساب تحصل خزينتان مصريتان من تلك البنادر السبعة فيكون المجموع سبعًا وخمسين خزينة مصرية .

٤٦ - الخزينة الستون والخزينة التى يكونها التجار القادمون إلى تلك البنادر السبعة المصرية

يرد التجار من بلاد العرب والعجم والهند واليمن ، أو بالاختصار من الأقاليم السبعة، حاملين أمتعة وسلعًا فيبيعونها ويحصلون منها ثلاث خزائن مصرية من المال .

يربح مَنْ بالقاهرة من أهل المائة والسبعين حرفة خزينتين مصريتين، وتمثلان الخزينة الخامسة والستين .

كتب العارفون والواقفون على الأمور أن الحجاج المسلمين القادمين إلى مصر من مختلف بلاد الإسلام من الأقاليم السبعة ينفقون فيها ثلاث خزائن مصرية.

٤٧ - بيان الخزينة الثالثة والسبعين وهى خزينة الحبوب الواردة إلى عنابر يوسف بالقاهرة

وردت فى أوصاف مصر القديمة أن هذه العنابر بناها يوسف عليه السلام، وسبب بنائه لها مصرح به فى الآية الكريمة فى سورة يوسف حيث وردت فيها ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (يوسف١٢/٣٦). كما وردت رؤيا الملك وهى: ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴾ (يوسف١٢/ ٤٣) . تلك الآيات الكريمة فى يوسف عليه السلام، ونزلت على حبيب الله عن طريق القصص ، وقد صُرِّح بذلك فى جميع التفاسير، ونحن نكتب هذا الأمر هنا باختصار تامٍّ .

فسَّر يوسف رؤيا الملك بأنه سيحدث مدة سبع سنوات جدب وغلاء، ومات الملك الريّان وهو مهتم بإقامة هذه العنابر، ثم حلت بيوسف عليه السلام الخلافة والنبوة مع مرور الأيام ، فأتم بناء تلك العنابر . ولا تزال العادة جارية حتى اليوم حين تملأ تلك العنابر الأربعة بالحبوب فى كل عام ، بأن يجتمع أهالى الولاية وشيوخ المعسكرات وأغوات البلوكات السبعة والباشا الوزير والقاضى ، وأن يفتحوا أبوابها ويرفعوا أربعة أعلام بالدعاء والثناء ، وأن يقيم أمين العنابر مأدبة عظيمة للباشا يُقدم إليه فيها هدايا مؤلفة من جواد مَسرَّج بسرج فضى وغدارة مرصعة ودبوس ، وجواد آخر ذى سرج

عـادى، وثـلاثة أكيـاس مـصـرية من المال ، وثلاثة طواشـيـة، وألف أردب من الـغـلال ، ويخلع عليه الپاشـا الوزير خلعة فـاخرة ثم يأمره بأن يكون مستقيمًا . وأما مأدبة بعد الظهر فيقيمها ناظر العنابر وهو أحد أغوات الپاشا الوزير، حتى إذا فرغوا من الطعام قدم الأغا هذا إلى الپاشا هدايا وهى جواد أصيل محلى وطواشى واحد . ويحظى من الپاشا بخلعة فاخرة ، كما ينصرف ضابط العنابر وكاتبه والكيال، وهم جميعًا ثلاثة وعشرون نفرًا ، إلى بيوتهم فرحين مسرورين بخلعة عزيزة من عزيز مصر . وإذ تمتلئ المخـازن بالغـلال وترفع الأعـلام إيذانا بذلك يشرع أهل القاهرة فى إقامـة الحـفـلات، بينمـا المحتكـرون والمسببـون يبكـون ويتأوهون لاضطرارهم إلى إخراج ما بأيديهم من الغلال وبيعها بثمن بخس محرقين أكبادهم، إذ لا يحدث الرخص والرخاء فى أم الدنيا إلا بعد امتلاء تلك المخازن . وذلك لأن جميـع الطوائـف العسكـرية المصـرية و" الكشيدة " والأيتام والمتقاعدين و" الجوالين " والطواشية والنساء وغيرهم من حاملى البراءة الذين يبلغ عددهم سبعة وأربعين ألفًا وسبعمائة نفس من بنى آدم ، ومليونًا وستمـائة ألف نسمة من السكان على حسب إحصـاء بيرام باشا ، يحتاجون جميعًا إلى عنابر يوسف هذه . وللعسكريين رواتب شـهرية وجرايات ، وإن تأخرت نفقـاتهم شهرين جعلوا " أم الدنيا " ضيقة على الپاشا بالصراخ والضجيج ، وأنبتوا جراياتهم من الصخور .

تُمَوَّن عنابر يوسف عليه السلام بمحصول ولايتَىْ جرجا و الصعيد العالى ، ولها كـتـبـة وأقـلام ودوائر خاصـة ، وهى بأيـدى سبعين أستـاذًا (خـلـيـفـة - قـالفـة) وسبـعين " طرازيًا أى "وزانًا" ، وسبـعين " كحَّالاً " وسبـعين " مـغـربلا"، وهـم الذين يغربلون غلال الطوائف العسكرية ويسلمونها إليهم نظيفة ، والمار ذكرهم جميعًا خدم العنابر . وأما كتاب المخازن فقد حسبوا ما يدخله من الغلال قيراطًا قيراطًا ، فمجموع ما يدخل هذه المخازن من غلال القمح (حنطة) ثلاثمائة ألف أردب ، وغلال الشعير (...) أردب وغلال الفول (...) أردب . وقد كُتب بأن هذه الغلال إذا اقتضى الأمر بيعها فى السوق السلطانية أى السوق الرئيسية بالمزاد العلنى ، فيحصل مبلغ

من المال قدره ثماني خزائن مصرية " اللهم عافنا " ، إذ إنه إذا امتنع النيل عن الفيضان ولم يحدث الرخص والرخاء فإن الناس كافة يطالبون الباشا بتلك الخزائن الثماني . ووجود ثمان خزائن من الغلال ثابت محقق ومشهور في الدنيا، وليس هذا فحسب فإن مخازن يوسف لا تشتمل على أرزاق بنى آدم وحدهم ، بل هناك أسراب من الحمام الطائر فى الجو أرزاقها من هذه العنابر؛ وإذ إنها غير مسقوفة فإن هذه الطيور الطيبة تحط عليها أسرابًا أسرابًا وتتناول طعامها.

إن إيرادات هذه المخازن ومصاريفها ليعجز عن إدراكها كل الوزراء وكل ذى عقل أرسطاطاليس من أرباب القلم ، فهى الآن مصنع الفلك تدور مع دوام الدهر، فتمتلئ وتفرغ ويتكفف منها جميع مخلوقات مصر "زادها الله تعالى". وكان لهذا الفقير أيضًا نصيب فيها مدة ثمانية أعوام.

وأما الآلام والشدائد التى يقاسيها ولاة مصر حينما يُعزلون من مناصبهم فناشئة - على حسب إدراك هذا الفقير بعقله القاصر - عن الهدايا التى يتناولونها من الناس دون قضاء حاجاتهم وحل مشكلاتهم، وإعطاء الكاشفيات لرجال مَدينين مفلسين ، وإعطاء نظارة عنابر يوسف لغير الأكْفاء، وعدم محاسبتهم شهراً بشهر، ولهذا ينكسرون فيحبسون . ومن تجنب من الوزراء تلك الأمور الثلاثة غادر من مصر سالمًا إن شاء الله ، لأن مكر مصر لمكر عظيم ، حتى إن إبراهيم باشا الكتخدا، وهو الوزير البصير المدبر الذى لم يأتِ إلى مصر وزير مثله فى العهد القريب، والذى كان وحيد عصره فى الكتابة وعلم المحاسبة، وظن أنه وازن الإيرادات والصرف كذا ألف " أقچة " يوميا من المحلولات ، ووضع الدفاتر فى صندوق ذى قفص فضى وربط خزينة مصر على شهر توت، فزعم أنه جعل مصر بذلك " بكرا " ، ثم عُزِل من منصبه واستقر فى العادلية بسلام . ولكن لما دخل بعد ذلك بشهرين حسين باشا بن جانبلاط ودعا إبراهيم باشا للمحاسبة اتضح أنه قد بقى فى ذمته مائتان وسبعون كيسًا من العنابر، فطالبه الوزير الجديد بذلك المبلغ الذى دفعه فى لمح البصر ، لأنه كان ثريا، وكان لإبراهيم باشا ثلاثمائة كيسٍ من بقايا المال على الكشافين والأمناء والملتزمين .

ولكن حسين باشا لم يقبل الجلوس على تلك الديون وقال : " إنى أنا أقدر على تحصيل أموالى فعيِّن رجلاً بدلاً منى لتحصيلها " فترك إبراهيم باشا كتخدا حُجابه بمصر لتحصيل تلك البقايا ثم غادر مصر متصرفا على بلاد الشام . ومعنى ذلك أن مخازن يوسف موضعٌ خطر إلى هذا الحد ، لأن لصوصه كثيرون وليس به مستقيم ، إنما الذى يملأ تلك المخازن هو الله دائمًا وهو يسترها .

وموجز القول أن مصر هى أم الدنيا كما هو المشهور ، وهى التى تطعم الدنيا كلها كأنها أمها ، فقد قيل إذا خربت الدنيا أصلحتها مصر . تعجز القلوب عن الوقوف على أحوالها، كما أن أطوارها وعاداتها وقوانينها بعيدة عن التعبير باللسان و التحرير بالقلم ، وأما أنا الفقير كثير التقصير قليل البضاعة كثير السياحة فقد حركت قلمى العاجز على قدر الطاقة فوصفتها بلا حياء وصفًا كأنه قطرة فى بحر أو ذرة فى الشمس .

فليكن معلومًا للإخوان الظرفاء أن الخزائن المصرية التى وصفناها سواء كانت ذات الاحتفالات أو غير ذات الاحتفالات ، يبلغ عددها واحدة وسبعين خزينة، وكل خزينة ألف ومائتا كيس مصرى . ففى أى بلاد يحصل مثل هذا المبلغ من المال ؟ وإنما نشأت شهرة مصر بأم الدنيا من هذه النقطة . أىُّ مَلك على ظهر الكرة الأرضية يملك هذا القدر من المال ؟ " أيد الله الخلافة إلى انقراض الزمان لذرية آل عثمان " .

هنا انتهى وصف دخول وزير مصر القاهرة بموكب عظيم وخروجه منها ، ووصف الاحتفال بقطع جسور النيل والخزائن، ومجموعها ست وثلاثون احتفالاً عظيمًا . أما مواكب الباشا حين ذهابه بضعة أيام فى السنة إلى مخازن يوسف وإلى مسجد عمرو بن العاص بمصر القديمة لصلاة الجمعة الأخيرة من رمضان كل عام، وذهابه مرتين فى الأسبوع إلى قدم النبى والبساتين والمقياس (أم القياس) وقصر العينى وقصر السبتية وقايتباى والشيخ الجيوشى ، وقصر الغورى وقصر العادلية وقصر الطوبخانة وغيرها من المتنزَّهات ضاربًا طبوله ، فكلها خارجة عن الحساب .

وقد أدخلنا فى خلال الكلام عن تلك الاحتفالات العظيمة من وقت إلى آخر، والمناسبات موافقة ، بعض بيانات مقتضبة عن قوانين وأعراف التشريفات التى وضعها السلطان سليم خان، وسنكتب عنها فى موضع آخر بتفصيلاتها .

٤٨ - قانون التشريفات لوزراء مصر فى الأعياد

أولاً خاصة الباشا الهمايونية والتى تسمى " الكشوفية " وقدرها أربعمائة وثمانون كيسًا مصريا . ثم ثلاثة آلاف پارة يوميا تصدقًا من السلطان يُعطى الباشا إياها للتوزيع على الفقراء لجلب الحب، ويبلغ مجموعه مبلغًا قدره تسعون كيسًا مصريًا فى العام . ويقوم أمين بيت المال التابع للباشا بضبط جميع دخول بيت المال ما عدا بيت مال الإنكشارية . ويقدم أغا الإنكشارية المصرية إلى الباشا " كشوفية " قدرها ستة أكياس، ويأخذ لنفسه عشرة أكياس من بيت مال الإنكشارية، وتحت يد أغا الإنكشارية سبع نظارات، منها نظارة السليمانية والدشيشة الكبرى . وعن يده يصل إلى مكة والمدينة [اثنان وأربعون ألف] أردب من الغلال فى كل عام، ثم إن أغا الإنكشارية يأخذ اثنين وعشرين كيسًا من الباشا كى يحمل عربان الدشيشة الكبرى على حملها ونقلها .

فيضغط عليهم ويعطى هذه الكيسات لشيخ العرب . هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن شيخ العربان المكلَّفين بحمل الدشيشة يدفع للباشا ثلاثة أكياس وثلاثة أفراس أصيلة وخمسين جملاً فى نظير تعيينه شيخًا ، ولما كان تابعًا لأغا الإنكشارية فعليه أن يدفع أيضًا كيسًا من المال وكيسًا لمدير مكتب الباشا، وتلك المبالغ " حالية " أى هدية، وعند ذلك تشرع آلاف الجمال فى نقل ما بعنابر بولاق من الغلال إلى السويس التى ينقل منها إلى مكة والمدينة محمولة على سفن .

وحينما يبلغ الباشا الوزير الوالى الصالحية قادمًا من إستانبول لأول مرة يُقدم إليه كتخدا الچاويشية بعض الهدايا عبارة عن جواد أصيل ذى سرج فضى وزمام

ذهبى، وعدة مرصَّعة، ودبوس وغدَّارة مرصَّعَين وعشرة أكياس ، وهدايا من الجواهر الثمينة . كما يعطى رئيس فرقة المتفرقة كشوفية قدرها ثمانية أكياس فى العام للباشا الوزير، وكيسان لمدير مكتبه، وعشرون ألف " پارة " لأفندى الديوان . ولما كان جميع محافظى القلاع بالقطر المصرى يُعينون من فرقة المتفرقة حسب قانون السلطان سليم خان فإن رئيس المتفرقة يتقاضى منهم سبعين ألف " پارة " حين يعزل أحدهم أو يبقيه فى منصبه . ولرئيس المتفرقة نظارة " خان الپاشا " الذى برشيد، ترد منه ثلاثة أكياس، وعلى رئيس المسكجية " حالية " أى هدية يدفعها عند قدوم الپاشا إلى القاهرة، وهى جواد مطهم ، ولكن إبراهيم باشا الكتخدا لم يأخذ الجواد، فتحول إلى " حالية " تقدم إلى قاضى العسكر حين حضوره إلى القاهرة، وتخصم من كشوفية رئيس المسكجية، ويلزم رئيس المسكجية بأداء ثمانية آلاف " پارة " ، وهى خدمة ذراع القياس المصرى . ثم إنه يدفع عشرة آلاف پارة لخازندار الپاشا ، و أربعة آلاف " پارة" للخازندار مدير مكتب الپاشا، وكيساً لمدير مكتب الپاشا . وهو يعطى هذه المبالغ لتعويض أمواله من مصر حين الضرورة، لأنه هو الذى يورد كل ما يحتاج إليه الپاشا ومدير مكتبه والمحافظ من شمع العسل، وكذلك يورد كل ما يرسل إلى مكة والمدينة من قناطير شمع العسل، والبخور والعنبر، كما يورد البخور والمسك والعنبر ، التى تُستهلك فى العادلية فى ثلاث أيام ولياليها حين قدوم الپاشا إليها وزيراً، يسلمها إلى " بك السماط " ، ويصرف ثمنها من الميرى أى الحكومى . وكلما أقره الپاشا فى عمله تقاضى منه " كشوفية " قدرها كيس من المال ، وإذا تصادف قدوم قاضى مصر فى ذلك الوقت حسبت على الجواد الذى سيقدمه إليه . وعندما يبلغ الپاشا القاهرة يُقدم إليه أمين العنابر سبعة أكياس وسبعة طواشية وثلاثة جياد أصيلة عريانة، وهى هدايا " حالية "، وكذلك يدفع كيسين وجواداً وطواشياً لمدير مكتبه ، فيكون مجموع ما يدفعه من الكشوفية تسعة عشر كيساً .

أما أمين المخازن نفسه فيتقاضى خمس پارات عن كل أردب من ثلاثمائة ألف أردب من الغلال ، ولما كان الرؤساء يخلطون الغلال بالتراب والغبار فإنه يتقاضى من كل رئيس من عشرة قروش إلى خمسين قرشاً حق السكوت . وأما عند القدوم للمرة

الثانية التي تسمى " كرتين " فيتقاضى من كل رئيس من خمسة إلى عشرة قروش عجن السكر ، ثم إنه يبيع رياسة " الطراسين " أى الطرازين ورياسة الكيالين ووظيفة الكتابة الخاصة بالأقباط ، كل وظيفة منها بكيس مصرى ، ويحصل هدايا " طيارة شيطانية " يبلغ مجموعها خمسين كيساً ، وله " شيطنة " أخرى تسمى " بلطمة " لو حصل المال فيها أيضًا لبلغ مجموعه مائة كيس ! إلا أن الجنود لا يقبلون ذلك ويتشاجرون معه، لأنه مال يحصَّل من غلالهم ، فلذا لا يقرونه على ذلك .

يعين أحد أغوات الباشا ناظراً للعنابر فيعطى الباشا كشوفية قدرها ثلاثة أكياس وطواشى واحد، وأما الأغا الناظر فيتقاضى من أمين المخازن مخصصات (علوفة) سنوية قدرها كيسان، فيقبضها شهريا أو عيديا حسبما يريد . بيد أن ناظر العنابر يجب أن يكون رجلاً ذا عقل أرسطاطاليسى فى علم الكتابة ، لأنه هو المسئول عن جميع حسابات الغلال حين عزْل الوزير ، وهو يتقاضى أيضًا من قرش إلى قرشين من كل رجل " رسم الختم "، كما تُحْمَل إليه هدايا كثيرة .

ويعطى " أغا الرسالة " الباشا الوزير " كشوفية " قدرها خمسة وعشرون كيساً، ويحصل لنفسه أربعين أو خمسين كيسًا . وهو يعطى أيضًا أكياسًا لمدير مكتب الباشا، وعشرة آلاف بارة لأفندى الديوان، وعشرة آلاف بارة للخازندار . ويَرِدُ إلى مكتب الباشا كيس من العوائد من كل أغوات دمياط ورشيد والإسكندرية والمنيا وجرجا . وقد سبق أن كتبنا عن هدايا الكشوفية التى ترد إلى الباشا الوزير من " بك جرجا " فى أثناء وصف الاحتفال بقدوم ذلك البك . ولأفندى الديوان عوائد " حالية الحالية " يبلغ مجموعها خمسة عشر كيسًا ، يتقاضاها من الكشافين والأمناء والملتزمين ، ويتقاضى عن كل راتب أربعين بارة، ويرد إليه أربعون حصانًا هداية فى كل عام ، وعشرون عدَّةَ حصانٍ .

ويبلغ مجموع ما يحصِّل مدير مكتب الباشا " هدايا " من أمين الخردة والأمانات السبع (لعلها أمانات البنادر السبعة) والكاشفين والملتزمين والبكوات والقرى المبيعة أربعمائة كيس فى العام ، وله " حالية " قدرها أربعون عدة حصان وخمسون حصانًا

يتقاضاها فى أثناء قطع أى فتح جسر النيل . وللمحافظ أيضًا " حالية " قدرها مائتا كيس يحصلها من البنادر السبعة وجميع الأمانات وأمين الخردة ، والضربخانة وجمرك " البهارات " من أقلامه، وخبزه ولحمه من التعيينات ، حتى إن خيوله المرسلة إلى الراعى يقوم أمين الخردة بإحضار كل ما يلزم لها من اللوازم كالقيد والشُكَال (كوستك) وغيرهما . ويحصل أغوات المحافظ الخواص " حالية " من أمين الضربخانة قدرها ثمانية عشر ألف بارة، كما أن لصرافى المحافظ " حالية " قدرها عشرون قرشًا لكل صراف فى كل ثلاثة أشهر، يصرفها له رئيس الصرّافين فى أثناء صرف الرواتب، وللمحافظ وخازندارية وسراجية " حاليات " على وزانى " جمرك البهار " وكتابه وسماسرته اليهود وصرافيه . وقد كُتب عن كثير من حالياتهم فيما سبق ، وكان لحافظ أوراق أفندى الديوان وحافظ أوراق أفندية خدم الديوان راتب قدره قطعتان من الفضة يوميا وألغاها إبراهيم باشا .

ولمدير مكتب الباشا والمحافظ ولأربعين أغا من أغوات الباشا أصحاب الرتب على حسب القانون " حاليات مراعى البرسيم " على حدود الكشافين والأمناء والملتزمين، فمن أراد منهم الانتفاع بها أرسل إليها خيوله، ومن أراد الحصول منها على المال أخذ حق المرعى، ولخازندار الباشا " حالية " على الكشافين والأمناء والملتزمين قدرها أربعون كيسًا . ولأمير أخور (= إسطبل) الباشا " حالية " سنوية قدرها أربعمائة كيس ، وهو يقدم إلى الباشا فى " مأدبة المراعى " هدايا مؤلفة من ثلاثة أكياس وثلاثة طواشية ، وجواد مطهم وجوادين من " صافيات الجياد " أى من أعرقها نَسَبًا(*) . وجميع ما يلزم للخيول والجمال من قيد وشِكَال وجلود مخلاة وتبن يتحملها الأمير آخور. يرد للباشا مائتا حصان فى العام وعلى كل حصان " حالية " مؤلفة من قطعة " جوخ " وقطعة قماش و عمامة .

(*) الصافنات الجياد فى القرآن اصطفت على ثلاث أرجل وحافر الرابعة.

تم هنا وصف الاحتفالات عموماً واحتفالات الخزينة، واحتفالات عوائد التشريفات القانونية عندما يحل شهر توت القبطى فى تموز (يوليو) وتنتهى السنة . ولم يبق من الاحتفالات والخزائن سوى الاحتفال بمولد السيد أحمد البدوى ، ولوازم المأكولات والمشروبات وغيرها التى تُدفع على طريقة الصدقات من قبل الباشا الوزير وقاضى العسكر و" الميرى " حسب قانون التشريفات، وسوف نبين ذلك .

الفصل الثالث والخمسون

مواكب الموالد

أولا: بيان منبع الأسرار ومرجع الأبرار القطب العلوى
حضرة السيد أحمد البدوى ومشايخه ومواكبه

ما إن تبدأ السنة القبطية، وبينما يتهيأ الجميع لفيضان النيل الذى يبقى عنه ستون يومًا، إلى اليوم الذى تسقط فيه النقطة، يعنى فى اليوم الذى يفيض فيه النيل حتى يتجمع جمع غفير من الأهالى وفى أيديهم الدفوف والطبول والمعازف، ويطوفون بالأسواق والأحياء وهم ينشدون التواشيح والقصائد والمواويل، ويطلقون التكبيرات والتوحيد والتهليل، معلنين للناس مولد السيد البدوى الذى يسمُّونه سلطان الفقراء والحفاة والعرايا . وبعد أن يكون هناك خمسة وخمسون يومًا عن فيضان النيل، يكون جميع المشايخ والدراويش والأتباع قد علموا بموعد مولد مشهور الآفاق، والقطب على الإطلاق ، حضرة السيد أحمد البدوى أبو اليتامى، وذلك عن طريق جاويشية الفقراء الذين يجوبون الآفاق لمدة ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ ليخبروا جميع المشايخ والدراويش . وفى اليوم الأول من الشهر المذكور يتجمع نحو خمسة عشر ألفًا أو عشرين ألفًا من الدراويش والفقراء ، وفى أيديهم الرايات والبيارق والأعلام الحمراء التى تتجاوز الآلاف، ويجوبون الأسواق الرئيسية التى تتحول إلى بستان زهر وورود، ويرفعون الأعلام الذهبية على رءوسهم، ويسيرون وهم يدقون الدفوف ويطبلون ويزمرون،

ويذكرون ويوحِّدون، ويطلقون صيحاتهم ونفيرهم من حين إلى آخر ... ويتقدم هذه الجموع الغفيرة نحو سبعمائة من الشيوخ وخلفهم جموع العرايا والحفايا (= الحفاة) ولكنهم نظاف طاهرون، ومشغولون بالوصول إلى الله سبحانه وتعالى ، وكانوا يرددون وهم سائرون : يا رزاق ، يا رزاق . وتستمر هذه الجموع الغفيرة إلى أن يصلوا إلى ميدان سراى الباشا، وهنالك يطلقون توحيداً إلهيا ، مما يسقط المنكرين وغير الموحدين فى عالم الدهشة والحيرة ، وبعد ذلك يتوجه جميع المشايخ إلى مقام الديوان العالى لحضرة جانبولاد زاده حسين باشا، ويمثلون بين يديه. وبعد الدعاء والثناء، يرجون صدور أمره قائلين : إننا نرجو صدور فرمانكم الشريف من أجل المولد الخاص بسلطاننا السيد أحمد البدوى وفقًا لقانون السلطان قايتباى، والمتعلق بالمولد النبوى الشريف والمشايخ الكرام . فيقبل الرجاء، ويُخاطب أفندى الديوان ، ويحرر الأمر الشريف الذى يكون فحواه : أنتم المشايخ خلفاء البدوى، ومشايخ السلطان الغورى ، ولكم أن تعوموا بموكب سفنكم، ومعكم كل دراويشكم من بولاق فى بداية شهر جمادى الأولى وتحتفلون خلال الشهر المذكور ، وأنتم مكلفون بحراسة الدراويش الذين تحت رعايتكم، وكذا زوّاركم . ويخاطب الكشاف قائلاً : إن حاكم الغربية حسن بيك ، وكذا حاكم المنوفية ميرزا كاشف، تحت سيطرتكم، وفى جواركم .

ومنذ بداية مولد السيد أحمد البدوى وحتى يوم انفضاضه لكم أن تأتوا بجملة عساكركم إلى ميدان بولاق، وتقيموا خيامكم ومقركم، وتمكثوا هنالك، وليكن التجار والزوّار على بصيرة بذلك، وتحت مراقبتكم وإشرافكم ، ولا يكن هناك من يمسكون فى أيديهم بالمزارق سوى طائفة الجند، وإذا ما وجد شقى من أشقياء البدو وفى يده نبوت أو فى خصره مدية فليُقْتل فوراً ، ويحرر الأمر الشريف بذلك ، ويسلم إلى المشايخ . وما يكون من جملة المشايخ إلا الدعاء للباشا بالخير ، وبعد الدعاء يطلب كبار المشايخ من الباشا الهدايا ، فيطلبون أولا ملء خمسين سفينة للفقراء من الرسالة، فيأمر الباشا بخمسين قنطاراً من البقسماط والبصل والجبن الحالوم من المحتسب ، فيطلبون كذلك الحالية (= الهدايا) من الوزراء والأمراء السابقين الذين يكونون قد وفدوا إلى الديوان، فيكون هناك عمامة خضراء للقبر الشريف لحضرة السيد البدوى، ورطلان من

العود، وسجَّادة من الحرير، واثنان من شمع العسل زنة كل منهما خمسون أوقية، وتكون هديةَ الهدايا، خمسون ديناراً ذهبيا من الباشا من أجل خمسين ختمًا شريفًا، يأخذونها وفقًا لقانون التشريفات . وبعد الثناء والدعاء، يودع المشايخ الباشا، وينزلون إلى ميدان السراى الأسفل ، ويصمت الدراويش عن الذكر والتوحيد، ويقوم شيخ الجلادين بتلاوة الأمر الشريف فى ساحة السراى، أمام أهل الديوان ، وبعد ذلك يعود العشاق والعارفون إلى ذكرهم... وتوحيدهم، وهم متجهون إلى داخل المدينة مطلقين صيحاتهم : حى ، هو، هو، حى ... ويتبعهم جملة الدراويش . ويكون حضرة الخليفة فوق صهوة جواده ، يسير وهو يُلقى السلام إلى اليمين وإلى الشمال، ويكون خليفة حضرة الشيخ مرزوق الكفافى، وهو شيخ الشيوخ الشيخ مصطفى الرومى، هو سردار (= قومندان) كل المشايخ . ويسير أمامه المنادون والدلالون، وهم يصيحون وينادون بأن مولد السيد البدوى فى اليوم ... ويمرون بهذا الموكب الذى يترأسه الشيخ الخليفة إلى أن يصل الموكب إلى عتبة حضرة الشيخ مرزوق الكفافى، فينزلون الخليفة ، ثم يتجه جملة المشايخ والدراويش العشَّاق كلٌّ إلى موطنه ...

وهكذا يكون هذا الفرمان الوزيرى الشريف هو بداية وأول المولد الأحمدى البدوى الشريف. وبعد ذلك بعشرين يوماً...

ثانيًا : أوصاف موكب حضرة إبراهيم الدسوقى

هو أيضًا موكب عظيم، يقام بواسطة آلاف الدراويش والمشايخ ، يمرون وهم يضربون الدفوف ويعزفون على المعازف، رافعين أعلامهم ، يسيرون وهم حفاة عراة ... حليقو الرءوس تمامًا ... يطلقون صيحاتهم بأسماء الله الحسنى: يا رزاق، يا رزاق، موحدين، مكبرين ، مهللين ، ويسيرون وهم فى كامل الخشوع والخضوع للآداب الإسلامية والسنن المحمدية . ليس بين هؤلاء ملاميون ولا مجاذيب، لأن هذه الطريقة هى الطريقة البرهانية السلطانية . ووفقًا للأسلوب السابق يصعدون

إلى ديوان قايتباى، وينالون إذن وفرمان الباشا، ويمرون وهم مشغولون بالوصول إلى الله . وليس لهؤلاء - وفقًا للتشريفات - هدايا أو حلايا .. ولكن وزير مصر - فى نوع من الرحمة - يُقدم عمامة خضراء وأُوقية من العود، ويرجو الدعاء الخير من حضرة الشيخ شرف الدين . وهم بدورهم وبمواكبهم العظيمة يُحضرون مشايخهم إلى دورهم، ويتجه الجميع بعد ذلك كلٌّ إلى موطنه ومحل إقامته.

وبعد موكب المولد هذا ... ففى داخل مصر كل ليلة مولد من الموالد النبوية، بحيث يبلغ مجموعها ثلاثمائة وستون مولدًا من الموالد النبوية ، وتكون لياليها كليلة الإسراء وليلة القدر، ونهارها كنهار العيد الأكبر . ومنها اثنا عشر مولدًا يصدر لها فرمان من الوزير ، ويُنادى عنها المنادون والدلالون . أحدها هو مولد السيد أحمد البدوى الذى تحدثنا عنه سابقًا، وثانيها هو مولد إبراهيم الدسوقى .

ثالثًا : مجىء أمير الحج بالحجاج إلى مصر

وذلك فى الليلة السابعة من شهر صفر، حيث يصل إلى باب النصر، وقد عرفناه سابقًا بمولد الجانيولادية ، وموكب الحج، وهذا أيضًا يصدر بشأنه فرمان وزيرى .

رابعًا : أوصاف مولد حضرة الشيخ بكرى زاده

فى ليلة الاثنين، ليلة الثانى عشر من ربيع الأول، تُعلق مئات الآلاف من القناديل فوق المآذن الثلاثية الطوابق والتى تتراوح، بل تزيد عن ثلاثة آلاف وستين طبقة ، وتُزين كل منارات ومآذن مصر ، وتكون مدينة مصر منوَّرة بالنور والضياء . فى هذه الليلة تزدان بركْة الأوزبكية، ولا تزدان فى أى مولد آخر غير المولد النبوى . فمولد حضرة الشيخ البكرى يكون مولدًا مطنطنًا ومزدانًا ، لا يفوقه فى هذا سوى المولد النبوى الشريف . ويقوم جملة أعيان حرفية مدينة مصر بإقامة الولائم المتعددة، والمختلفة منذ اثنى عشر يومًا واثنتى عشرة ليلة سابقة . يوم للأئمة والخطباء ويوم للعلماء

والصلحاء، ويوم للمشايخ والشرفاء ، ويوم لأعيان الأشراف، ويوم لنقيب الأشراف، ويوم لمشايخ الإسلام للمذاهب الأربعة، ويوم للمدرسين، ويوم للملالى، ويوم لمولاً مصر، ويوم لوزير مصر، فإن كان من المعتقدين يحضر الوليمة محبة . وأغلبهم كانوا قد حضروا لأنها أعتاب عظيمة ، ويوم للأمراء كافَّةً ، حيث تُبْسَط الأسمطة المحمدية، وتقدم ولائم الطعام، وبحيث لم يكن ليقدر كيقاوس[٣٣] نفسه على البذل والسخاء بهذا القدر. لقد كانت موائد الطعام تُمد ليلاً ونهاراً فى مائة مكان، ترى الموائد الأبابكرية ممدودة، والخيرات كافة عليها مبذولة ، وكانت تُبذل الأنعام لكل من الخاص والعام .

وخلال هذه الفترة لا تكون هناك مياه فى بركة الأزبكية هذه، بل كانت جافة وتبلغ ألف فدان من الصحراء الواسعة، وأُقيمت فيها آلاف الأوطاقات (= السرادقات = الخيام) والمظلات، حيث يمكث ويسكن فيها المشايخ والأعيان كافة . ويتجمع فقراء (= دراويش) مائة وأربعين طريقة، وتُقام محافل الذكر والتوحيد ، وفى طرف منها يقيم الجيش سوقًا، وتُباع فيها الأطعمة، والأشربة، وتنتشر المتاجر المختلفة كافة، وتُضاء الدور والمساكن والمنازل المقامة حول البركة من جوانبها الأربعة بمئات الآلاف من القناديل والفوانيس والمشاعل، بحيث لا يخلو منها باب أو نافذة أو مدخل أو جدار، وتصبح كلها وكأنها مجمع النجوم المضيئة . وتطلق آلاف الطلقات الفشنك من المدافع والبنادق، وتعم السعادة والحبور ، كما أن معسكرات الألوية المنتشرة فى أنحاء البركة

---

(٣٣) كيقاوس : (= قابوس = كيكاوس) : الأول قابوس شمس المعالى ١٠١٢ ابن وشمكير ، رابع أمراء بنى زياد ، خلف أخاه باهيستون فى حكم جرجان وطبرستان سنة ٩٧٦، ثار عليه الجيش وعزله ، واغتيل. كان فلكيا وشاعراً وخطاطًا ، له قصائد بالعربية و الفارسية .

الثانى قابوس (عنصر المعالى كيكاوس) ابن إسكندر بن قابوس ، ملك جرجان وطبرستان ١٠٤٩ - ١٠٦٩م ، تنازل عن العرش . له (قابوس نامه) أو (مرآة الملوك) .

وهناك اثنان من سلاطين السلاجقة يحملان نفس الاسم ، حكما أسيا الصغرى . الأول كيقاوس الغالب عز الدين (١٢١٠ - ١٢١٩ م)، أرغم الأرمن على دفع الجزية . الثانى كيقاوس عز الدنيا والدين ، نازع أخاه ركن الدين فى السلطة، حكَم غرب قيزيل أرماق، وتوفى عام ١٢٧٩ م فى القرم .

كانت تُطلق موسيقاها السلطانية التى تصل نغماتها إلى عنان السماء . وكان قصر حضرة الشيخ مكونًا من مقصورات عديدة ، الدور فوق الدور ، وكذلك من مجالس شاهانية ، فلقد كانت فعلاً دارًا مزخرفة ومزينة ، بحيث يعجز، وقد عجز، كل المصريين عن توصيفها، أو التعبير عنها . وكم كانت هذه العتبات والمزارات المباركة منتشرة فى ربوع وأحياء مصر! وجميعها كانت مزدانة ومزخرفة بشتى أنواع القناديل والفوانيس والمشاعل ، وكانت هذه الأعتاب مكتظة بالخلق الذين يعيشون حياة كلها ذوق وصفاء ، وكان حضرة الشيخ والقاضى العظيم وجميع المشايخ والعلماء والصلحاء حاضرين قراءة المولد النبوى الشريف الذى كان يُقام على شواطئ الحوض وحوله ، كما كانت تُقدم الموشحات والتراتيل بصوت شجىٍّ حزين .. ويترنمون جميعا بالمدائح النبوية الشجيَّة .

وخلال ذلك يَقْدُم سبعون أو ثمانون من الخدم ذوى الشلوارات الحمراء والروائح الطيبة، التى تفوح من المجامر المرصعة والمباخر ، والتى يدورون بها وهم يشعلون العود العنبرى الخام والمسك العنبرى والسنبل الخطائى . وكانت هذه الروائح الذكية تُعطر أدمغة العشاق ، وخلال تلك الأثناء يُبذل السكر النباتى الحموى والحلويات، وتقدم على الصِّحاف والأطباق، طبلة فى إثر طبلة ، وبعدها تقدم كاسات الأشربة العنبرية والمشروبات المختلفة والمتنوعة فى الكاسات الفاغفورية المرصعة بالجواهر . وكانت تُحيا هذه الليالى على هذا النحو حتى الصباح، ويُقرأ المولد الشريف ثلاث مرات ، وعلى الصباح تنشد الموشحات، ويتم الإنعام والإحسان على الموشِّحين والمنشدين ثم بعد ذلك يتوجه كل شخص نحو الناحية التي يهواها .

والحاصل: حقا يقصر اللسان عن مدح كل ذلك ...

خامساً : مولد أستانة الشيخ إبراهيم الكلشنى قُدس سره

وهذا المولد أيضًا يكون فى ليلة الاثنين، الموافق الثانى عشر من شهر ربيع الأول ، وبعض العشَّاق يذهبون إلى مولد الشيخ البكرى، وبعض المحبين يأتون إلى مولد إبراهيم الكلشنى ، وحتى بعض من محبى الشيخ البكرى يتوجهون إلى إبراهيم

الكلشنى . ولكن مولد الكلشنى هذا ليس مولد محافل الفلاحين وعوامٍ الناس ، إنه مُقام لخاصة الخواص، مجمع الأروام وطائفة العسكريين، وأرباب المعرفة والطرق والشعراء والظرفاء، والذوات من أرباب التصانيف هم الروّاد الأساسيون . لا يذهب إليه البلّه ولا الأعاجم ولا الأجانب ولا الجهلة عامة المهملين. بعد العشاء يأمر حضرة العزيز بفرش السجاد الحريرى ذى القيمة العالية فى الحرم المجلى والمصقول ، الواقع أمام القبة الواقعة فى مقدمة المرقد العنبرى الطاهر، ويفد جملة العشّاق فوجًا فوجًا . وبعد أن تُؤدّى صلاة العشاء فى جماعة غفيرة تُقيم جموع الدراويش المراسم المعتادة للشيخ الجليل، وتُتلى سورة " الملك " وبعدها تُتلى الأذكار، ويترنم جميع الدراويش بالأوراد والأذكار ، وتكون جماعة مكونة من عشرين ذاكرًا فى جهة، وتُماثلها جماعة أخرى فى الجهة الأخرى. وبينما الجماعتان مشغولتان بالذكر الإلهى . يستغرق بعض العشّاق فى الوجد، فينهض واقفًا ويبدأ فى السماع (٣٤) ، فتبدأ أرواح المحبين فى

(٣٤) السّماع : مصطلح صوفى يُطلق على ذكر المتنسبين إلى الطريقة وهم وقوف فى حالة جذبة صوفية، ويُطلق عليه أيضا المقابلة. وفى الفترة الأخيرة ما إن تُطلق كلمة " السّماع " حتى يتبادر إلى الذهن الذكر المولوى والمراسم المولوية . وفى الطرق الصوفية الأخرى إذا ما كان الذكر والدراويش وقوفًا فيطلق عليه أيضًا السّماع. والسّماع على ذلك يعنى الذكر أو المقابلة أو الدوران.

والسّماع فى اللغة العربية هو الاستماع إلى ألحان وأنغام لَطيفة ، كما يعنى الاستماع إلى الشعر المنغم . ثم أصبح السّماع سمة على الذكر الصوفى الذى يتم والمؤدون وقوفًا وفق نظام معيَّن .

وفقًا للمفهوم الصوفى فالسّماع له فوائد جمّة ، أهمها قاطبة ترقيق القلب. وقد اختلفت الآراء حول السّماع، فالأولياء والعشاق يرونه حلالاً مُباحًا بينما هو حرام عند غير الصوفية . وفى آثار مولانا جلال الدين الرومى وشمس التبريزى يُعتبر السّماع واجبًا ولازمًا على الواصلين، ومندوبًا ومستحبًا لدى المتوسطين، وحرامًا على الناقصين . وسلطان ولد بن مولانا جلال الدين الرومى يعتقد بهذا الفكر . لم تكن هناك أيام محددة للسّماع فى بادئ الأمر، ثم أصبحت له أيّامه وساعاته المحددة. والسّماع يُقدم فى السماعخانة أى فى قاعة السّماع ، والقاعة تكون على شكل دائرى ومحاطة بالقضبان ، أرضيتها مستوية ونظيفة وطاهرة ولامعة جدا . يجلس شيخ الطريقة فى القطب المتجه نحو القبلة ، وعلى يساره يجلس الدراويش بملابسهم المعهودة وهم على هيئة الركوع، ويُطلق على المكان المواجه للشيخ وما بعده " دائرة المطربين " ، ويجلس على الأرض عازفو الناى والمنشدون والقارئون، فيجلسون أمامهم فى وضع ركوع ، وعند العزف يقف عازفو الناى حولهم وهم على هيئة قوس . =

الدوران، ويتوالى الذاكرون والشاكرون من الطرفين بالغناء والإنشاد المختلف، وإيراد شتى أنواع الإنشاد الدينى من الرمل والمناجاة والتوحيد والأزجال والأشعار الدينية، ويتناوبون أحيانًا على "اليك كاه، والدو كاه، والثه كاه، والجاركاه، والبنج كاه، والشيش"(*) . وذلك على نغمة أو نغمتين داودية مؤثرة . وأحيانًا يترنم العاشق بنوى المحبوب، وأحيانًا بإرسال القبل للمعشوق، وأحيانًا يتحرك فى مقام العشّاق ممشوقًا،

= يتقدم واحد من المنشدين نحو المكان المفتوح من القضبان وينحنى فى اتجاه الشيخ ، وبعد أن يقدِّم السلام يعتدل ، بعدها يبدأ الجميع فى إنشاد النعت الشريف على مقام الرست " لعطرى ". بعد النعت يُقدم عازف الناى الرئيسى فاصلاً على الناى ، ثم يُقدِّم عازفو الناى جميعًا مقطوعة . خلال تلك الأثناء ينحنى وكل الدراويش نحو الأرض ، وبعد أن يضربوا بالأرض ينهضون واقفين، ويبدأ الشيخ ومن خلفه الدراويش فى الدوران بالقاعة ثلاث مرات وهم مصغون إلى العزف ، وعندما يصلون إلى سجادة الشيخ ينحنى المتواجهون احترامًا للمقام، ويسلم بعضهم على بعض وهم مستمرون فى الدوران ، وعند انتهاء العزف يبدأ المطربون فى الإنشاد بمصاحبة الناى أيضًا.

وبعد أن ينتهى السلام الأول من مراسم السلام الأربعة يقفون وينحنون محيين الشيخ وبعضهم بعضًا، ثم ينتشرون نحو محيط الدائرة . ويقفون وهم واضعون أيديهم متقاطعة نحو أكتافهم، وفى نفس الوقت يكون السلام الثانى متواترًا ، وعلى نفس المنوال يتم الدوران والانحناء أمام الشيخ حتى استكمال السلامات الأربعة . وبعدها يطلب الشيخ قراءة الفاتحة ، وبعدها يجلس عازفو السماع فيبدأ المطربون فى التغنى بالعشر الشريف ، ويقرأ رئيسهم الدعاء فيتبعه الشيخ تاليًا: ﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (يونس ١٠/٦٢) فينطق، الجميع بصوت مرتفع لفظة " هووو " بعد أن يقولها الشيخ.

وبعد قراءة النعت يبدأ العزف على الناى والقدوم، ثم يتلو ذلك تلاوة الآية الكريمة : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ ﴾. (الرحمن ٥٥/١٣-١٥) وتحت تأثير لوجد يخبطون الأرض بأياديهم وينهضون مرة أخرى واقفين وكأنهم يمثلون بوقفتهم تلك مآل الآية الكريمة ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣) وَحُمِلَتِ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً (١٤) فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴾ (الحاقة (٦٩/١٣-٢٧).

وهناك بعض المصطلحات المرتبطة بالسَّماع مثل " الدخول فى السماع " بمعنى المشاركة فيه، والسماعخانة أى قاعة السماع ، و" سماع ده ده سى " المسئول عن تعليم الدوران فى السماع . (انظر : محمد ذكى پاقالين ، جـ ٢ صـ ١٦٢-١٧١).

ثم تتجمع نخبة من الذاكرين الراقصين، ويبدأون فى الذكر والتمايل على النغمات والمقامات الموسيقية المختلفة، وينتقلون من مقام إلى مقام، وهم يطوفون بينها فى أذكارهم، ولا يملون الانتقال بين المقامات الاثنى عشر، ويعرجون إلى البروج الاثنى عشر التى يرمزون إليها باثنتى عشرة حلقة يكونونها فيما بينها، ويتداخلون ويتجمعون ويبتعدون ويلتقون بعضهم حول بعض، فى حب ووجد، ويحتضنون بعضهم فى عناق المحبة، ثم يمسك بعض العشاق بخصر بعض، ويصنعون حلقة فى روضة الكلشنى وهم مشغولون بالذكر والتوحيد . ويصبح الكل ثملاً من شراب العشق والجوى، والكل ولهان من جراء الهوى، ويستغرق كل الذاكرين والشاكرين فى الوجد، ويتبارون فيما بينهم فى التغنى بالإنشاد الدينى والإلهيات التى أبدعها خيالى[٣٥] وجمالى[٣٦] وحالتى[٣٧]

(٣٥) **خيالى :** من شعراء الديوان فى الأدب العثمانى خلال القرن السادس عشر الميلادى العاشر الهجرى توفى فى أدرنة (١٥٥٧ م) . اسمه الأصلى محمد ، وتخلص بخيالى. لم يتلقَّ تعليمًا مدرسيا منتظمًا . وفد إلى استانبول ، وشمله الصدر الأعظم إبراهيم باشا بالرعاية، وترك السراى عقب إعدام هذا الصدر الأعظم عام (١٥٣٦م) . اشتهر بشعره الغنائى الصوفى ، له غزليات صوفية جميلة . تولى طبع ديوانه الأستاذ الدكتور نهاد طارلان عام ١٩٤٥م . (انظر : بهجت بخاتى غيل ، ادبياتمزده ، صـ ١٥٥) .

(٣٦) **جمالى :** من شعراء الهند المشهورين ، دهليلى . التقى بمولانا عبد الرحمن الجامى عند عودته من الحج فى عصر حسين بايقرا، وظل بجواره زمنًا طويلاً . توفى عند عودته إلى دهلى سنة ٩٤٢هـ = ١٥٣٥ م. له ديوان يُسمى " سير العارفين "

(٣٧) **حالتى :** مخلص لثلاثة شعراء ظهروا فى القرن الحادى عشر الهجرى، الأول هو عزمى زاده مصطفى أفندى، وهو ابن واحد من أجلِّ الصدور العظام الشيخ محمد عزمى أفندى . ولد فى درسعادت عام ٩٧٧هـ . بعد أن تلقى علوم عصره نال عطف السلطان سليم خان ، وتولى منصب القضاء فى مصر والشام وبروسة وإستانبول ، وصار قاضيًا لعسكر الروم عام ١٠٤٠هـ = ١٦٣٠م . توفاه الله وهو فى هذا المنصب ، وله العديد من الكتب الفقهية .

الثانى هو عبد الله بن صنوبر القاضى، من قصبة كوستندل من بلاد الروميلى ، وتولى القضاء فى هذا الإقليم .

الثالث هو محمد التيرى، بعد أن طاف بالعديد من البلاد من أجل تحصيل العلوم استقر به المقام فى قونية ، وانتسب إلى المولوية ، ووقف على أسرار مثنوى مولانا جلال الدين الرومى ، وترجم مناقب مولانا شعرًا . كتب نظيره لمنظومة يحيى المسماة " أصول " وسمى منظومته " أصول الأصول" والمقصود هنا هو حالتى Hâletî . وهناك شاعران إيرانيان يحملان نفس الاسم . (انظر : ش سامى. قاموس الأعلام . جـ ٣ . صـ ١٩١٦).
=

وجنائى[٣٨] وصفوتى[٣٩] وأشرفى [٤٠] وافتادى [٤١] وهدايى[٤٢] وعبد الأحد[٤٣] وغفورى[٤٤] ، ويُقدم كل منهم أروع ما لديه من تأثير وشجن ، ويؤدون إنشادهم بأصوات رخيمة . ويتجمع جميع العشّاق مرة أخرى على المد والجزر فى لفظ التوحيد

= **حالتى** Hâletî : من شعراء الأدب العثمانى الديوانى ، ظهر فى القرن ١٧م = ١١ هـ - كان ميلاده ١٥٧٠ ووفاته ١٦٣١ فى مدينة إستانبول . بعد أن تخرج فى المدرسة تولى القضاء فى كل من الشام والقاهرة وبورصة وأدرنة وإستانبول حتى عام ١٦١٤م . ثم صار قاضى عسكر الأناضول عام ١٦٢٣م والروميلى عام ١٦٢٧م . له ديوان وساقى نامه ، واشتهر برباعياته .(انظر : بهجت بخاتى غيل ، ادبياتمزده .... صـ ١٥١).

(٣٨) **جنائى** : هو " أمير أبو محمد مصطفى بن الأمير حسن الكافى " من مشاهير المؤرخين والعلماء العثمانيين، ونشأ فى عصر السلطان مراد خان الثالث . بعد أن أتم تعليمه فى " درسعادت " استمر على متابعة حلقات الدرس التى كان يُقيمها العلاَّمة أبو السعود أفندى ، ثم قام بالتدريس فى السليمانية وصار من أشهر مدرسيها . نال عطف السلطان ورجالات الدولة لما كان يتمتع به من حسن الخلق والتبحر فى علوم العربية والآداب. له أشعار كثيرة بالعربية والفارسية والتركية فى التصوف ، وترددت أشعاره فى المحافل الأدبية والصوفية . (انظر . ش . سامى ، قاموس الأعلام جـ٣ صـ١٨٣٨م) .

(٣٩) **صفوتى** : من شعراء الأدب الديوانى ، وبين شعراء التصوف الذين يترنم العشاق بأشعارهم.

(٤٠) **أشرفى** : هو سيد حسن سمرقندى ، من شعراء سمرقند المتأخرين. له منظومات مشهورة وبخاصة فى مجال الترنم الصوفى .

(٤١) **افتادى (= افتاده أفندى)** : هو الشيخ محمد أفتاده ، من أشهر مشايخ الطريقة الخلوتية ، بروسى الأصل ، من مريدى الشيخ حاجى بيرام ، وهو مرشد الشيخ هدايى . وتوفى فى بروستية سنة ٩٧٩هـ = ١٥٧١م وتربته مزار فى المدينة المذكورة .

(٤٢) **هُدايى (= خُدايى)** : من الشعراء العثمانيين الذين ظهروا فى القرن العاشر الهجرى = السابع عشر الميلادى . ترعرع فى إستانبول . صار رئيسًا (= قائدًا) للمشاة، ثم أصبح كاتبًا للإنكشارية فى بودين . له " تحفة شاهدى " و" كلشن توحيد " .

(٤٣) **عبد الأحد** : من شعراء الأدب الديوانى ، وله أشعار صوفية .

(٤٤) **غفورى** : ربما يكون "غفارى" (قاضى محمد غفارى)، وهو من شعراء إيران المشهورين، له مهارة واضحة فى عالم النظم والنثر واللطائف . صار قاضيا على الرى لمدة. توفى سنة ٩٣٢ هـ = ١٥٢٥ م. له أشعار جميلة.

وترديد لفظ الجلالة: الله ، الله . وكلما داوموا على ذلك تطابقت وتعانقت كل المعانى ، وارتبط القلب فى ترديده بما تسمعه الآذان ، وأضحى الجميع فى المكان بلا مكان ، وتلاقت الأرواح فى عالم الأرواح والوجد...

وخلاصة الكلام : يقدِّمون بهذا المنوال اثنى عشر فاصلاً من التوحيد على الاثنى عشر مقامًا ، وهذا لا يوجد ولا يتوفر لأى واحد من مشايخ المائة والأربعين طريقة ، ولربما كان موجوداً فى الطريقة المطاوعيَّة والطريقة البرهانية . وبعد هذه الفواصل يخرج چلبى أفندى من الخلوة، ويعظم ويحيِّى كُل المشتاقين والمحبِّين، ويصل إلى مجلسه، ولا يسمح لأحد بتقبيل يديه ، بل يتلقى البعض منه البيعة، ويكون هذا قد قبل عالم الفقر (= الزهد) ، ويكون قد وصل إلى عالم الأسرار المحرَّمة فى الطريقة ، وعلى مَنْ أخذ البيعة أن يُقبِّل كف يده اليمنى .

ولا يخرج چلبى أفندى هذا من خلوته أو داره قط، ولا يختلط قط بأحد من العوام على الإطلاق، إلا مَنْ هو صاحب داء، ولكنه يخرج من خلوته مرة واحدة خلال ليلة المولد النبوى. هو دائمًا صائم، بعيد عن القيل والقال، وقائم الليل صائم النهار، ودائم على الطاعة والعبادة، ومقيد بقراءة القرآن الكريم. يتعيش من حسن خطه، فهو يكتب بعض الرسائل، ويرسل إليه بعض المحبين هدايا تبركًا، وسبب خروجه من خلوته فى ليلة المولد أن يعطى البيعة لبعض الدراويش الذين يدخلون الطريقة . والبعض يقضى أربعين أو خمسين سنة من عمره فى الأعتاب الكلشنية، والبعض يكون قد وصل بذكائه واستعداده لأن يكون صاحب بوست نيشين (٤٥) فيقوم چلبى أفندى بوعظه، ويجعله صاحب سجادة .

وبعض المحبين والأصدقاء يلتقون به مرة واحدة سنويا ، وينالون منه خير الدعاء، ويكون على يمين المحراب أصحاب السجادة (= سجادة نشين)، يقفون فى سكون

---

(٤٥) بوست نيشين : من يجلس على سجادة الطريقة، ويكون هو الشيخ الرئيس فى مجلس السَّماع فى الدوران الصوفى فى الطريقة المولوية.

وخشوع، وبعدها يفرغون من الذكر والتوحيد، وما إن يصعد أستاذ كامل إلى كرسى الدرس والوعظ حتى يقوم الموحدون والذاكرون بالتلاوة فى صوت واحد وهم جالسون أسفل ، فيقوم القارئ الذى يجلس على الكرسى بإنشاد أوائل الأبيات من القصيدة المطولة التى ألَّفها " سليمان أفندى البورصه لى الصارمصاقجى " والتى مطلعها :

" الله ادين ذكر ايده لم اولا. " لنذكر اسم الله أولا . ويُتلى المولد على نفس اللحن الذى ألَّفه صاحب المولد، فينشد على المقامات الاثنى عشر، والأربع والعشرين شعبة، والثمانى والأربعين تركيبة. ويتبارى الذاكرون والموشِّحون فيما بينهم فى تلاواتهم وترنيماتهم، ويستمر هذا المنوال حتى الصباح، وهم فى صحبة خاصة ...

وما إن تحين اللحظة التى يصلون فيها إلى ترديد الأبيات التى تصف مولد المصطفى من رحم أُمِّه حتى يرددوا بشكل جماعى :

دوغدى أول فخر الأنام

" ولد فخر الأنام ذلك "

وينهض جميع الحضور شبابًا وكبارًا وقوفًا، ويعظمون ذكرى المصطفى ، ويكررون وهم وقوف :

يا رسول الله جمالك كشف الدجى دَكلمى ؟

يا رسول الله جمالك كشف الدجى ، أليس كذلك ؟

يا حبيبا سنك كلامك بلغ العلى دَكلمى ؟

يا حبيبا إن كلامك قد بلغ العلا ، أليس كذلك ؟

ويقرأون هذه الأبيات بصوت رخيم فى مقام بنجكَاه.

وخلال هذه الصحبة يقوم جملة الخدَّام من الدراويش الكلشنية بتوزيع الحلويات والسكر نبات والزلابيات والسكَّر الحموى المتنوع، على الأعيان والأشراف والشرفاء .

وبعض الدراويش الآخرين يقومون بوضع الملبس والجوز واللوز واللب وفسدق الشام والفستق المقشر والبندق الرومى وأنواع مختلفة من النُّقل ، فى فوط وتوزيعها على الحضور ، وتوزيع المشروبات والأشربة العنبرية والمسكية، فى كاسات وأكواب وكئوس فغفورية رائعة الألوان ... وفى أعقاب ذلك تقوم مجموعة أخرى من الدراويش بتوزيع الشاى والقهوة والسحلب والمهلبية والبالوظة والحليب واللبن الحامض والأشربة البهارية، كل فى كئوس مزدانة بالجواهر المطنطنة ، ويوزعونها على كل الدراويش الكلشنية .

ليس هذا فحسب، بل يقومون بتوزيع ونثر ماء الورد والماء الهندى (= الكارى) والعطر السلطانى وماء البخور، بحيث تتعطر أدمغة كل الحاضرين؛ مما يشع فى المكان من الريح الطيبة التى ينثرها دراويش الكلشنية. كما تقوم مجموعة أخرى بحرق البخور والعود والعنبر ، بحيث يصبح المكان كله معبقًا بالروائح الفواحة الطيبة . وما إن تُصبح أدمغه كل العشّاق معطرة وقلوب الحضور عامرة ... حتى يكون المولد النبوى الشريف قد وصل إلى ختام الكلام، ومنْ يُرد الانصراف ينصرف ومنْ يُرد البقاء يبقَ . وبعد ترويح الأرواح . يبدأ الدراويش من جديد فى الذكر والتوحيد، وبعد هذا التوحيد يقرأ العشاق وقراء الأعشار آية : ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا ﴾ (الزمر ٣٩/٧٣) . ويتلون العُشْر الشريف الذى يحتوى هذه الآية الكريمة. وبعد الدعاء يقوم بعض العشاق بزيارة الولى الصالح ، ثم يتجهون إلى دورهم ومنازلهم، وبعض المحبين يقومون بواجب الضيافة للأحبة الدراويش فى حجيراتهم المتواضعة.

وحاصل الكلام: إنها طريقة طاهرة مطهرة، وأعتاب يقصر اللسان عن مدحها. والسلام.

وفى ليالى المولد هذه، ولكى يُنشد المولد الشريف، يقوم أصحاب الخيرات منذ النهار بإقامة المكرمة والعمامات، وفرد الأقمشة المزخرفة على المآذن ، حتى يُعلم من

ذلك أن هذه الليلة هى ليلة المولد، وأنها تُقام فى هذا الجامع . فيجتمع جميع الأهالى فى هذا الجامع ، وفى هذه الليلة تزدان كل المتاجر والأسواق والمنازل فى شوارع وأزقة هذا الحى ، وتُشد الحبال من المنازل بعضها إلى البعض، وتعلق فيها القناديل والفوانيس والمشاعل، وتزدان المقاهى والقاعات ، وتصير فى أوج أُبهتها، ولا يخص هذا الاهتمام بلداً أو بلدة دون سواها . حقًا ، إن مصر نادرة الدنيا فى هذا الصدد، وهى أيضًا وحيدة عصرها بهذا الخصوص . ويُقرأ بعض من المولد الشريف ويُنشد من المنارات والمآذن ، ويُشار إلى هذه المنارات والمآذن بفرد الأقمشة الحريرية عليها إلى جانب المكرميات، ويكون فى بعض المنارات أكثر من منشد، فقد يكون فى بعضها ما بين أربعين وستين إنسانًا، وهى تتسع لهم جميعًا ، لأن كل منارة مقامة وكأنها برج منيف، وقد أُقيمت طابقًا فوق طابق ، وكل طابق يتسع لخمسين رجلاً . ويظلون حتى الصباح، وفى كل مكرمة يوجد ما بين أربعين وخمسين من العرب، ينشدون ويصدحون بإنشادهم، ويصل صدى أصواتهم إلى أوج السماء حتى يحصل كل منهم على مئزر.

الفصل الرابع والخمسون

بيان المتنزَّهات المُخَصَّصة للعامة والخاصة والتى يمرح ويلهو بها أهالى مصر بعد هذه الموالد

١- بلدة متنزه البساتين

فى الجانب الجنوبى لمصر، وعلى بعد ساعتين ، وهى قرية مَعْمُورة، تحت سيطرة وحكم نقيب الأشراف، وداخل هذه البلدة وبالقرب من النيل بستان وارف وكأنه با غ إرم ، وفى وسطه قصر منيف، وفى وسط القصر حوض لطيف . البستان مزخرف ومنمق بالمسيرات والاستراحات، كما أن به العديد من الحجرات، وبه مطبخ، وسواقٍ . حقًا إنه مكان بديع ومعمور .

٢- متنزه قدم النبى

هو من خيرات وحسنات الدفتردار إبراهيم پاشا، وهو من المآثر والآثار اللطيفة. به قصور مختلفة، وقاعة وجامع ومطبخ كيكاوسى ، وتكية منمقة وزاوية وسواقٍ وفسقيات وحجرات ، وجميعها من مآثر وخيرات إبراهيم پاشا، وقد تم تحرير أوصافه وتاريخه سابقًا .

- متنزة عنبر النبى يوسف :

وهو متنزه عجيب، وغريب .

- استراحة أُم القياس :

وقد تم وصفها وتوصيفها مفصلاً.

وبعده، وفى هذه الجزيرة أيضًا :

٣- استراحة حديقة الروضة

مأوى قد دخل فى حوزة الكثير من الملوك، عن تركه أصحابه، وقد انتقل من يد إلى أخرى. وشوارعها منسقة بالأشجار، وممراتها تفوح منها روائح الزهور والورود. فى وسطها حوض عظيم عشرة فى عشرة، وقصر عالٍ، وكأنه قد بُنى داخل الحوض، يُعبر إليه بجسر لطيف . متنزه، وسط المياه قصر لطيف، ذو أدوار متعددة مزينة بالحجرات ، ومكان يستحب فيه التنزه، والسير والفرجة .

وبعده :

٤- متنزه ومكان الصيد فى جبلى الهَرمين

يطلق عليه فى أفواه الناس جبل الأهرام، وبين العوام جبال فرعون، ولكن فى اللسان القبطى يسمونه " بَرابِى" . وحسب قول تاريخ ابن جلال : فى البداية، الذى بنى جبال الأهرام هذه هو بـراب بن دَرْمَشِيل بن مخويل بن خنوخ بن قاين، ولذلك يسمونها جبال أهرام بَرَابى ، وهى واقعة على الجانب الغربى للنيل . اثنان كبيران، والثالث صغير. جوانبها الأربعة يمرح فيها البقر البرى والذئاب والأرانب البرية، وحيوانات الصيد المختلفة ، ولهذا السبب تقع فيها رحلات الصيد، وإن شاء الله فى الأماكن التالية سنتحدث عن بانيها، ولماذا بناها ، وسنبيِّن طلسماتها . والسلام .

٥- متنزه ومرعى أمير آخور

هو وادٍ ممتد من الجيزة حتى إين بابا (= إمبابة)، مفعم بالمراعى والأعشاب الرعوية الصافية ، ترعى فيه كل خيول أهالى مدينة مصر، ووزير مصر . امتداد أخضر يَسُر الناظرين ، ويكثر فيه نبات ليس بريا بل يُزرَع، يسمونه برسيم، وبمشيئة الله إذا ما ألقيت بذوره فى الصباح فما إن يحين المساء حتى يكون فى ارتفاع إصبعين، وإذا ما ألقيت فى المساء فما إن يحين الصباح حتى يصل إلى نفس الارتفاع بأمر الله . يمكن أن ترعاه الحيوانات اعتباراً من اليوم الثالث، وكل خيول مصر ترعاه ، ويماثله نبات فى بلاد الروم يُسمى يونجه yonca ، وجميع طوائف الجند تقيم فيه خيامها ومعسكراتها، وأوطاقاتها لمدة ثلاثة شهور كاملة لترعى فيه خيولها . ويعيشون فيه فى ذوق وصفاء، وعِشْرَة وأُلفة . إنها صحراء ممتدة من الزهور والمراعى الرعوية المستزرعة . وفيه الإسطبل الأميرى الخاص بالپاشا، وهو صاحبه المطلق والحاكم المسيطر عليه بالأوامر والفرمانات ، ولا مكان فيه للأشقياء أو اللصوص أو الحرامية، فلا أمان لهم قط، بل يُقتلون على الفور . ولما كان هذا الوادى على حدود ابن خبير، فإنه مكلَّف بأن يأتى ليلاً بألف من فرسَان البدو بخيولهم الكحيلانية، ويقوم بحراسة خيول الپاشا، وخيول طوائف الجند، وغيرهم ، وهو مأمور بذلك . ويُقيم أمير الاسطبل وليمة عظيمة للپاشا، ويقدم للباشا ثلاثة طواشية، وثلاثة جياد كحيلانية، أحدها ذو بساط مكلَّف ولجام مجوهر . ويقوم الپاشا بدوره بالإنعام عليه بخلعة سمُّورية ، كما يُقدم إلى كتخدا الپاشا والدفتردار فرساً مطهما لكل منهما ، ويمنح الهدايا لسائر الأغوات، وذلك لأن لإمارة الاسطبل والكتخدا فوائد ومنافع مشتركة . ومن القانون المعمول به أن ينقل المسئول من إمارة إسطبل مصر إلى أمير أمراء الشام، ويبيع سنويا بمائتى كيسة مراعى ويحصل على مائتى كيسة من حاصلات بيع سائر الطيور ، ويحصل الپاشا سنويا على ألفى جواد هدايا ، وعلى الأقل يكون مع كل جواد چوخة وقطعة قماش. من المقرر أن تُقدم هذه الهدايا إلى أمير الإسطبل، ويمكن القياس على هذا ، وكم تكون حاصلات أمير آخور مصر، وعلى أى مستوى

تكون ثروته ، وإذا ما كانت هناك زيادة فى كسب ومكسب سيده، فإنه يتقاسم هذا المكسب مع الكتخدا .

٦- مكان فُرْجَةَ قصر بو العين ظاهر بيبرس

هى عتبة البكداشية على ساحل النيل ، لطيفة الماء والهواء، مكان فسحة وتفرج لطيف . وقد سبق تسطيره عند الحديث عن التكايا ، ولكن الكتخدا إبراهيم پاشا قد أقام قصراً عاليًا فى إحدى زواياه باغ إرم ، وقد قال فيه الفقير هذا البيت تأريخًا له :

دُعا ايدوپ ديدم اى أوليا بوقصره تاريخن

قلت ادعُ يا أوليا تُأريخًا لهذا القصر

زمين دورد وقچه دورسون بو مكان آسمان آسا سنة ١٠٨٣

فهذا المكان هو سماء الدوران حتى لو توقف دورا

وقد أضاف إليه عبد الرحمن پاشا قصراً محبوبًا، وجعله متصلاً بهذا القصر، وقد ذكر زكى خليل أفندى هذا التأريخ :

زكى ذاعى ديدى انك تاريخن

لقد قال تاريخه الداعى زكى

بوكه قصر جنّت دَنِلْمَك سزا سنة ١٠٨٨

فيستحق الاستحمام فى هذا القصر(٦٣٢) .

وهناك تأريخ آخر :

دُورْجى سير ايتدى بوقصر عالى تاريخن

تفرًج دورجى على هذا القصر العالى وقال تاريخه :

بى بدل رعنا زهى جاى مفرّح دلكشا (٦٣٣) .. سنة ١٠٨٨

جيل بلا دل ... مكان مفرح ، يشرح القلب . سنة (٦٣٣) .

وعلى ساحل النيل، فى أربعين مكانًا أو خمسين ، توجد أشجار الجميز الضخمة، وتحت ظلال شجر الجميز مصاطب ، يعنى صفًات، بحيث كل واحدة منها تمنح الروح الظلال والسكينة .

متنزه حديقة الفرنجة، وحديقة العجم، وحديقة طوپ آتان (= مُطلِق المدفع).

وعلى طريق بولاق :

٧- حديقة رمضان بك

٨- حديقةصاحب العيار محمد چلبى

٩- حديقة حسن بك

كانت هذه الحدائق، وأمثالها مائة وسبعون حديقة أُخرى، مفتوحة أبوابها أمام الخاصة والعامة ، وكل واحدة منها مثل باغ ﴿ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝ ﴾ (الفجر٦/٧). وأمثالها الغيطان والمسيرات اللطيفة .

١٠ - مكان تفرج جميز العبدْ

هو مكانُ فسْحَة وتنزه جميل، عبارة عن أشجار جميز عظيمة، على جانبى الخليج الذى يجرى من داخل المدينة إلى الضواحى، وبحيث يمكن أن يستظل تحت ظل الشجرة منها ألف رأس من الغنم. مكان يشرح الصدر ، ويُرَوِّح عن النفس. وكل

شجرة تتدلى منها فروعها على النيل، فتصنع واديًا من الظلال بحيث لا يتأثر، بل لا يرى الإنسان منها الشمس . وتحت دائرة كل شجرة يعقد إخوان الصفا والأحبة فى مجالسهم التى يعم فيها الغناء والمرح والعزف والجوى ، وينافسون حسين بايقرا فى مجالسه .

١١- متنزه قصر السبتية

يقع على ساحل نهر النيل ، وفيه استراحة ومنتجع خاص ببعض الأعيان والپاشوات، ومزدان بالحجرات المتعددة، والقاعات الشاهانية المتعددة الطوابق . وإذا ما جاء الپاشوات من الآستانة إلى مصر عن طريق البحر، وإذا ما تم الاحتفال بفيضان النيل فى أم القياس، فإن موكبهم واحتفالهم يجرى من قصر السبتية هذا .

وعلى أطراف السقف الرئيسى يوجد هذا التأريخ الذى يؤرخ لبانيه وسنة البناء، وهو من خيرات : [المعزّ الكريم العالى السيد محمد البدرى بن أبى البقا ولد المعز المرحوم سيد يحيى الجيعانى] . سنة ٦٨٧ .

وبعده : ،

١٢- مكان تفرج حديقة رضوان بك

يطلقون عليه الرِّضْوَانية. هو جنة الجنان، وروضة الرضوان، ليس فى مصر شبيه لها .

وبعده ، وخارج قنطرة الميناء، وعلى حافة خليج الشيخ البكرى هناك :

- مكان مسيرة الطورونجية .

وبعده :

١٣ - متنزه الطوبخانة

وقد بناه وزير السلطان قايتباى عندما كان يذهب ويعود من الحج. لا نظير له فى مصر أوفى المدن الأخرى، ذو قبة تطاول السماء، بديعة الزخارف والنقوش البوقلمونية. وزاوية قلمية ، تعلو عن الأرض بدرجة حجريتين، والجدران التى فى داخل هذه القبة هى من صنع الخالق ، ومزخرفة بشتى أنواع الرخام الملوّن من الصُّوماقيِ واليَشيم والخارقانى والبُرْقانى والآراقانى، وكذلك بحجارة القرح البلغمى والأبرى أى السماوى . ومثله ذلك الذى يوجد فى صخرة الله فى القدس الشريف . ولكن الخط الموجود، وهو الخط الكوفى المصنَّع، تُحفة منمقة .

إنها استراحة يتباهى بها العالم، مزدانة ومنقوشة بالعقود المصرية والزخارف النباتية التى فوق الرخام المختلف والمشابه للأويمة الفاخرية (= أى الحفر الفاخرى). وذات قبة عالية، لا يخلو مكان فيها من الزخارف، وهى نقوش إعجاز السحر نفسه، يعجز عن إخراجها أصحاب الأقلام من أمثال مانى Mani وحسًّان Hassan وبهزاد Behzadi وأرزك Erjenk وفرنجى Frengi[٤٦]... حقا كان هناك فى العصور الأولى أساتذة مهرة، قد أبدعوا أعمالاً مبهرة.

كان لها أساتذة أجلاَّء، وفى الجانب الأيسر لهذه القبة العالية حديقة غنَّاء، على مسافة مرمى السهم ، كما أن جانبها الأيمن ملىء بالقاعات والمضايف المعدة للغادين والرائحين . وخلاصة القول أنها متنزة بديع وجميل.

(٤٦) مانى، وحسان، وبهزاد ، وأرزك ، وفرجى : هؤلاء جميعًا من الرسامين والنقَّاشين الذين ظهروا فى إيران وأواسط أسيا، ولهم الجانب الأعلى فى عالم النقش والزخرفة .

١٤ - متنزه بَشْبَكِيَّة

وهو ميدان فسيح لجميع الجنود والعساكر والخيَّالة ، لإتمام السباق ورمى السهام والتسابق فى ما بينهم . وبه قاعات متعددة، ومطابخ كثيرة، وأحواض مختلفة، يرتادها خلق كثير.

ثم يأتى فى الجانب الجنوبى، وعلى مسافة ساعة منه، داخل الجبال :

١٥- ساحة الصيد والمطاردة فى عين موسى

وعين موسى عين واقعة فى صخور جبل البجم، وكانت محط أنظار سيدنا موسى، ومطمح أنصاره، إلا أن ماءها مالح وليس بعذب كماء النيل، وهى موطن ومسكن للبدو والعربان، ولهذا يذهب إليها بعض من الجنود الذين يعتمدون على خيولهم وأسلحتهم، ويعتزون بها كل الاعتزاز، ويصيدون بها الغزلان ويطاردونها، ويبطشون بالعرب العاربة، ولهذا كان مكانًا صعب المراس مليئًا بالأخطار والمصاعب.

١٦- متنزه عين شمس

قد سبق ذكره، ولكن مدينه فرنا Ferna المتصلة بمدينة عين شمس هذه، والتى لا تزال قلعتها المبنية باللبن على طوابق موجودة حتى الآن، كانت تصل فى امتدادها حتى بئر المطرية التى حفرها سيدنا عيسى ، ففيها عمود مربع الشكل، عليه نقوش بديعة . وهذا هو كل ما فيها من آثار العمران، إذ يُخيم عليها الخراب والدمار منذ الأزمنة الغابرة، ويذكر المؤرخون العرب سبب خرابها ، حيث يقولون إنه حينما قدم سيدنا يعقوب لزيارة ابنه يوسف نزل هو وأولاده وأحفاده البالغ عددهم سبعين شخصًا فى مدينتى عين شمس والفرنا، إلا أن هاتين المدينتين لم تقم أى منهما بما يجب عليها نحوه من كرم أو حفاوة، فدعا عليهما النبى يعقوب، فآل أمرهما إلى الخراب والدمار .

ثم اجتمع يعقوب أخيراً بابنه يوسف في الفيوم، وعاش معه مبصراً مدة ستة عشر عاماً، حيث منَّ الله تعالى عليه وأعاد له نور بصره ، ولما توفي إلى رحمة الله قام ابنه سيدنا يوسف حسب وصيته بنقل جثمانه الشريف إلى خليل الرحمن، ودفنه في جبل جبرون [حبرون] .

١٧- مشهد مقر فرجة قصر الغورية

وهو من بناء السلطان الغورى، بعيد عن النيل، ولكن يحيط به النيل حين يفيض ويطغى على الأطراف. وهو قصر عال على طراز قديم، يناطح السحاب، ويكاد يصل الأوج، وتحته قاعة عظيمة، لها عدة غرف وحجرات، وليس له آثار أخرى باقية على الدهر. ولكن هناك على مقربة من القصر حدائق غنَّاء، وقبة بديعة مزينة بالنقوش، وهى عالية سامقة تشبه قبة الطوبخانة.

١٨- متنزه ومزار بئر المطرية

هذا المتنزة الذى يقع على مسيرة ساعتين فى شمال مصر مليء بالحدائق والبساتين، وكان محطَّ أنظار سيدنا عيسى عليه السلام، وموضع عنايته . ولما كانت مصر فى أيدى اليونانيين، كان بهذه المنطقة أبنية عظيمة وعمارات شاهقة، ولأنه لا يوجد بها سوى قاعة وزاوية ، وبه حوض يرتاده المرضى ويدخلونه للاستشفاء فينالون ما يبغون . وتذكر كل التواريخ، ولا سيما كتب تاريخ اليونان، أن سيدنا عيسى هاجر مع أُمه مريم من مدينة نابلس إلى هذه البقعة، وسكن بها . وتزعم النصارى أن بئر المطرية هذه قد حفرها سيدنا عيسى هو ووالدته، وأنهما اغتسلا بمائها، كما أن الحوض الكائن هو من آثارهما . وهذا صحيح، لأن الآبار بمصر كلها مياهها ملح أجاج، سوى هذه البئر فإن ماءها عذب سائغ للشاربين، وتروى به جميع الحدائق والبساتين الموجودة حولها، وتروى بواسطة دواليب (= سواقى) تُديرها الأبقار . ويكثر فى هذه الحدائق والبساتين أشجار البلسم والبلسان التى غرسها سيدنا عيسى بيده الشريفة، ولم يكن يوجد من هذه الأشجار شيء فى أى بلد آخر غير مصر، حيث كانوا

يستخرجون منه دهنًا نادرًا، يتبركون به ويحفظونه فى خزائن الملوك، وخاصيته هى أن المرء إذا تجرَّع السم ثم تناول منه قيراطًا واحدًا فإنه ينجو من مفعول هذا السم الزعاف وتزول آثاره، وإذا ما لدغ العقرب أو الحيَّة أو ما شابه ذلك إنسانًا، فيضعون السم فتزول الأوجاع إذا دُهنَ به المكان الموجوع على الفور .

كما أن خواص النبت معتبرة ومشهود بها، ومشهودة بين الناس، ولاسيما بين قُرى النصارى ؛ إذ يعتقد النصرانى أنه إذا لم يأكل البِلْسان ولم يدهن به، ولو لمرة واحدة فى العمر، فلا يُعتبر نصرانيا حقا . ولذلك نرى أن الناس من شتى البقاع، ومن أركان الدنيا كافة يؤمون بئر المطرية، ويزورونها ويغتسلون فى حوضها، ثم يعمدون إلى اقتطاف أوراق الشجر البلسم والبلسان الذى يكثر وينبت فى حدائق هذه البلدة، ويجعلونها باقات يتهادون بها بين البلاد والولايات، ويحفظون هذه الأوراق بين صفحات الكتب والرسائل .

بيد أن الضعيف، كاتب هذه السطور، لم ير هنالك أثرًا لشجر البلسان والبلسم، ولما سألت عنه خدمى وأتباعى قالوا : إنه منذ أن دخلت مصر تحت حكم العثمانيين، قد جف هذا الشجر، ولم يبق له أثر . ولكنى رأيت كثيرًا من أشجار البلسان فى طريق الحج، حيث يجمع أهالى الولاية كميات كبيرة منه، فيجعلونها فى جرار، ويبيعونها للحجاج .

١٩- منافع ماء بئر المطرية

غير خافٍ أن أصحاب الأمزجة من باشوات مصر، حينما يفيض النيل وتجرى مياهه خضراء أولاً ثم حمراء لا يشربون منها ، والسبب فى ذلك أن الترع والخلجان فى مصر يتخلف فيها الماء آسنًا أخضر من السنة الماضية كأنه السم الزعاف . فلما يأتى النيل بالماء الجديد إثر الفيضان المعتاد، يجرف هذا الماء الجديد ما أمامه من

تلك المياه الآسنة فى الترع والخلجان التى تأتى مصر، فمن يشرب منها لا بد أن يصيبه مرض ما . ولذلك يكف الباشوات وغيرهم من أصحاب الأمزجة والمترفين من الأعيان عن شرب ماء النيل ويقبلون على الاستسقاء من عين المطرية هذه، إذ ماؤها عذب سهل يتدفق فى مكان بهيج بديع جدا .

٢٠- متنزه بئر المعظّمة

يقال إنها من آثار سيدنا موسى ، وقال بعض الحكماء إن ماءها ألذ من ماء بئر المطرية وأنفع ، ولكن الضعيف لم يشرب منه .

٢١- مشهد وقلعة بركة الحاج

يقصده الحجاج من مصر، ويقيمون به ثلاثة أيام بلياليها، فيملؤون مئات الآلاف من قربهم بماء النيل ويسافرون بها . وقصة هذا المتنزه عجيبة، إذ أنشأوا به بركة وكأنها بحيرة عظيمة تستقى ماءها من النيل، وهى على أربع ساعات من مصر، يؤمها بعض وزراء مصر وأعيانها فى حلهم وترحالهم .

٢٢- متنزه قلعة سبيل علاّم

هذا المتنزه يؤمّه كل شهر أمير من أمراء مصر مع خمسمائة من جنوده، وهو مكان يشبة مكان السباق والصيد، غير أن به أشقياء يسطون على الناس أحياناً فيصطادونهم ويجردونهم من ثيابهم ويجعلونهم مثل صبيان الولى پيريار محمود، أعنى أن العربان يعدون الإنسان ويجعلونه كمصارعى تكية البهلوانات . ولكن المحل واقع فى صحراء عظيمة جوها بديع وماؤها لذيذ ، وشهرة سبيل علام هذه فى بلاد مصر

غير خافية على أحد، حيث وقع بها الصدام السادس بين السلطان سليم حين غَزْوِه لمصر وبين السلطان طومانباى، فاستشهد فى هذا الصدام الوزير الأعظم الطواشى سنان باشا وقُتل معه سبعة آلاف من غزاة المسلمين من العثمانيين، كما قتل ثلاثة وعشرون ألفًا من المصريين، وجنودهم لا يزالون يرقدون جميعًا فى مقابر الشهداء بوادى سبيل علام، والتى يزورها الخاصة والعامة . وفى قلعة سبيل علام هذه قاعات مخصصة لسكنى قائد الحامية العسكرية وحجرات متعددة، كما أن بها سواقى للمياه . وفى جانبها الشمالى حدائق غنَّاء يرتادها الناس، وهناك أيضًا قبة ضخمة مزخرفة لها مئذنة على الطراز الرومى، وكذا سبيل ومصاطب، وقد نقش على محراب الجامع الذى كله بالحجر والجير والذى يُصعد إليه بسلالم ست .

٢٣- متنزه العدلية

ويطلق عليه هذا الاسم لسببين : الأول أنه سكنته قبائل العادلى من قديم الزمان، أما الثانى فهو لبناء السلطان طومانباى قصرَ العدالة به للنظر فى قضايا الناس. والمكان فسيح الأرجاء، بديع الجو، عليل النسيم، يجد فيه المرضى الراحة التامة والشفاء العاجل. هذا ولقد سبق أن ذكرنا عدة مرات أنباء الصدام والقتل بين السلطان سليم وطومانباى وانتصار سليم خان فى النهاية على خصمه طومانباى بعد قتال مرير، وشنقه فى باب زويلة، وتبع ذلك إنزال جثته المعلقة وصلاته عليها بنفسه مع الجماعة ودفنها فى مرقدها بالعادلية . وقد كان طومانباى سلطانًا صالحًا من صلحاء الأمه حافظًا لكلام الله، فلذا لم يصادر سليم خان أوقافه، وقد اعتنى بضريحه النورانى مزيَّنًا ومُحَلًّى تحلية أنيقة، وأخذ يتردد عليه ويزوره دائمًا. والضريح لا يزال قائمًا، وهو تركيبة رخامية فى وسط قبه ذات تسعة عقود تعلو مرتفعة فى السماء، وقد نقشت آية الكرسى بالخط الجلى على رخام التركيبة بجوانبها الأربعة، وبعد هذا التاريخ (سنة ستة وتسعمائة) وبوفاة هذا السلطان انقرضت دولة الچراكسة . ويقال

إنه كان صاحب الخيرات الكثيرة والمبرات العميمة، فكل التكايا والخانات والعمارات والسبل والسواقى والمطابخ والزوايا والحجرات والقاعات العامة والغرف الخاصة بالباشوات، والقصور والأحواش والقلاع والمصايف المنتشرة فى أطراف هذا المكان البهيج الواسع، من آثار السلطان طومانباى (رحمة الله عليه) .

وهذه المشاهد والمتنزهات التى ذكرناها ليست معلومة لنا علم اليقين فحسب، بل إننا قد شاهدناها وأقمنا بها وتمتعنا بنعيمها وجمال جوها ومباهجها، ولذا تجاسرنا على وصفها وصفًا صحيحًا واضحًا - نستعين بالله المعين - لذلك نقرر أن أحسن تلك المشاهد والمتنزهات وألطفها جميعًا هو متنزه ومزار القدم النبوى (أثر النبى) .

الفصل الخامس والخمسون

بيان أغرب الغرائب وطلسماتها وسائر عجائبها وبيان أعمال أهلها ومهنهم

لنشرع فى بيان أحوال مصر أم الدنيا، حسب إدراك عقلنا القاصر لها ومدى اطّلاعنا على ألوان وجوه أهلها وأنواع الأعمال والمكاسب والمهن التى يزاولونها، فنقول :

إن مصر التى وصفناها، والتى كانت عامرة فى الزمن القديم، هى مدينة الفسطاط أى مصر القديمة التى لا تبلغ مصر الجديدة اليوم ما بلغه حى من أحيائها، لأن مؤرخى العالم وعلماءه فيما يذكرون عن مصر يقولون إن حدها يبدأ من رشيد ودمياط والإسكندرية حتى ينتهى إلى إبريم وحدود قلعة " صاى "، حيث كانت البلاد الواقعة على شاطئ النيل على مسافة ثلاثة أشهر عامرة زاهره، بحيث إذا أرسلت رسالة من رشيد تصل إلى الصعيد العالى والمنيا وإسنا وأسوان متنقلة من يد بستانى إلى يد بستانى . ومصر العتيقة كانت على جانب عظيم من السعة والعمران المتواصل المتلاحق، حتى لو أن ديكًا قد طار من سطح أحد القصور ببولاق لأمكنه الوصول إلى بلدة " مقدونيا " وهى المحل المعروف الآن بأثر النبى بمصر القديمة، طائرًا من سطح قصر إلى سطح قصر من القصور المطلة على النيل .

وكان العمران متصلاً فى مدينة مصر إلى الناحية الشمالية على مسافة ست ساعات حتى عين شمس، فكان جانبا النيل مزدهرَين غاية الازدهار، حتى يقال إن مسافة يومين من النيل إلى الفيوم كانت مكسوة بالحدائق وحدائق الورد والكروم،

بحيث لم يكن هناك ذراع واحد من الأرض خاليًا ومعطلاً، ولا تزال جهة الفيوم من أحسن الأقاليم بمصر من حيث حسن المنظر ووفرة الخير وكثرة القرى وسعة البلاد . فهى كنز عظيم فى بلاد مصر، إذ بها دفائن وخبايا كثيرة وخيرات مرغوبة.

وعلى قول المؤرخ العالمى الشيخ المقريزى فإن أرض مصر لا يوجد بها ذراع واحد إلا وبه كنز من الكنوز القديمة، ويظهر فيه كل سنة حتى الآن عدة دفائن وكنوز دفينة، لأن شواطئ النيل عمومًا كانت عامرة بالقرى المزدهرة وآثار العمران وأسباب الثراء، حتى إن الله سبحانه وتعالى قد أشار إلى ذلك فى كلامه المجيد إلى حبيبه الكريم على سبيل الحكاية والقصة، حيث أنزل عليه هذه الآية الكريمة فى حق الفرعون: ﴿ كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾ (الدخان٤٤/ ٢٥ - ٢٦).

ولقد قال المفسرون إن الغرض والمقصود من الآية أرض مصر التى لما طغى بها فرعون وجنوده واقترفوا أعمالاً شائنة وأفعالاً جائرة، دعا عليهم سيدنا موسى عليه السلام بنزول الخراب والدمار بهم، فتبدلت تلك العمارة وتلك الحدائق الفيحاء إلى أطلال بالية ورمال مكدسة، حسب قوله تعالى فى آية ﴿ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴾ (الأعراف٧/١٣٧).

هذا وبعد خراب مصر بعد فرعون قال الحكماء إن مصر ستدمَّر من بعد ذلك سبع مرات أخرى وتعمَّر سبع مرات، كما أن محيى الدين بن عربى قال فى كتابه (الفتوحات المكية) إن مصر بعد سنة ١١٠٠ ستعمر عمرانًا لدرجة أن ذراعًا من الأرض فى المزابل والأراضى الرملية سيباع بألف دينار ذهب، ليتسنى لابن كعب من سلاطين آل عثمان المجيء إلى مصر ويتخذها عاصمة له ويتمتع بها فيكون لذلك التملك والسيطرة أثر فى تقلب الأحوال وتغير الظروف فى صالح مصر وعمرانها، فتتحول سهولها وصحاريها حتى مكة والمدينة إلى قرى عامرة مأهولة بالسكان مليئة بالحدائق والبساتين ، ويظهر فيها أنهار وجداول مياهها صافية كأنها ماء الحياة تجرى فى الأرض حتى تصب فى البحر الأبيض، وتفتح طريقًا عاما من غزة إلى جزيرة قبرص

ترتادها قوافل البغال والحمير والجمال . وبفضل همَّة هذا السلطان العالى الشأن وعهده السعيد ووصفه المحكم يجرى النيل فوق جبل الجيوشى بمصر ، وستظهر بمصر ثلاث عيون ذات مياه حارة من تحت الأرض بقدرة الله الفاعل القادر. هذا ما أشار إليه الشيخ محيى الدين بالرموز إلى هذه الكنوز والمخبوءات (اللهم يسِّر يا ميسِّر) .

عجيبة

حقًا إن العجائز والمسنِّين فى مصر ليحكون قائلين : إننا قبل سبعين أو ثمانين سنة لم نكن نعرف شيئًا من الحدائق وبساتين الكروم فى البلاد، سوى حديقة قايتباى التى فى قراميدان وشىء من أشجار الجميز والنبق مبعثر هنا وهناك فى خارج البلد، فى حين إننا الآن نعرف فى مصر من الفواكه أكثر من عشرين صنفًا. ثم إن الأمطار لم تكن تهطل إلا مرة أو مرتين فى السنة بصورة خفيفة جدا، ولم نكن نعرف أحدًا يلبس الثياب الثقيلة مثل الفراء والكورك سوى البكوات، إذ كان من العيب أن يلبسها غيرهم، حيث لم يكن هناك ما يسمى شتاءً بالمعنى الصحيح، بيد أن الحالة تغيرت الآن فاشتد الشتاء وكثرت الأمطار، حتى إن الناس أخذوا يلبسون الثياب الثقيلة والفرو الغليظ، والحق أنه قد نزل الثلج ذات يوم من السماء فى عهد الوالى إبراهيم باشا فكسا الأرض كلها بياضًا ناصعًا، كما أن السماء أنزلت يومًا آخر بَرَدًا فى عشرة محلات من البلاد بشكل غزير حيث إن حبَّة من الحبات تزن ما يتراوح بين الثلاثين والأربعين درهمًا، الأمر الذى أثار دهشة أولاد العرب، فأخذوا يتساءلون بقولهم : ما هذا ؟ فقد كانوا يرون الثلج لأول مرة فى حياتهم، وقد يقول بعضهم: ها قد نزل من السماء القطن! وأما الأتراك فقد حمدوا الله على ذلك وابتهجوا برؤية الثلج وأخذوا يتخاطفونه، ويأكلونه بلهفة، فى حين أن أولاد العرب كانوا ينزعجون حينما يقبضون على الثلج فكأنهم يقبضون على النار التى تحرقهم فيصيحون قائلين : " إن هذا مثل القطن ولكنه مثل النار، قوى!" وقد قالوا حينما شاهدوا بَرَدًا ينزل من السماء: " ها هى السماء أنزلت بيض الدجاج! "، هذا والحمد لله أن جو مصر قد تحسن يومًا بعد يوم وولت

أيام الشتاء الشديدة تلك، ولم يعد الثلج ينزل، وخفت وطأته، وزادت خيرات الأرض وخصبها، وأصبحت مصر أمُّ الدنيا عروسَ الأرض كلها، وأخذ هواة الصيد يرتادون الوديان والسهول لأجل ذلك . والسبب فى تسمية مصر بأم الدنيا أنها تحتوى على جميع أجناس الخلق وأنواع الأمم التى يبلغ عددها اثنتين وسبعين أمة، تتكلم بمائة وأربعين لغة، كما تشتمل على أقوام من التابعين للمذاهب الأربعة، وبفضل مصر هذه يعيش كل هؤلاء الخلائق فضلاً من الله ومنة، فإذا ذهبت إلى أية مدينة من المدن تجدها مليئة بالناس يمشون فى الطريق العامِّ كتفًا بكتف من شدة الزحام، ولا تكاد تسير إلى مقصدك وتصل إلاَّ بكل صعوبة وعناء ، ولكثرة مرور الخيل والبغال والحمير، وضجيج المارة وازدحامهم فى الأسواق والميادين والشوارع ، وما ذلك إلا لأن كثرة أهالى مصر وسكانها من الفلاحين، أعنى أنهم من أهل الكد والعمل الشاق مثلهم كمثل " فرهاد " فى تحمل المشاق ومعاناة الأهوال فى سبيل إسعاد الغير، إذ إن هؤلاء المساكين بعملهم الدائم هذا يجعلون مصر فى سعةٍ من الخيرات، وعلى جانب عظيم من النعم ورغد العيش الذى يتمتع به الإنسان والحيوان، فلأجل هذا سميت مصر بحق أم الدنيا، لأنها كالأم الرءوم تُعْنَى بجميع أركان الدنيا .

ونعوذ بالله إذا حصل القحط والبلاء بها لا سمح الله، فإن الدنيا كلها لا تستطيع أن تموِّن مصر، لأن ما فى الدنيا من الكائنات من الحيوان والإنسان أقل بكثير من الخلائق فى مصر، والتى لا تعد ولا تحصى . بيد أن وجود طوائف الجند بها وتسلطها على البلاد والعباد وظلمهم الفاضح قد جعل أهلها من الرعايا المساكين المنحدرين من قوم فرعون مظهراً لاسم الله (القهار) ؛ حيث ضُربت عليهم الذلة والمسكنة، وأحاط بهم الفقر والعوز من كل الجوانب، ومن جميع الوجوه . فكل حاصلاتهم وفتوحاتهم يأخذها الجنود طوائف العسكر السلطانى، ويُترك الفلاح المكدود فقيراً ذليلاً . ولقد عبَّر سيدنا كعب الأحبار عن هذه الحقيقة بقوله : " خلق الله الغَناء فى مصر فقال الذل: أنا معك "، وكأنه قال هذا القول البليغ، حقا إن مغزى هذا الوصف البديع لا يزال سائداً فى أهل مصر، فأكثرهم أذلاء فقراء جهلاء ليس لهم حيلة فى دفع الضرر عن

أنفسهم، مثال ذلك أنه فى سنة ١٠٦٠هـ حينما كان عبد الرحمن باشا متوليًا أمور مصر، وقد كانت الغلال والحبوب وافرة ومبروكة، أقدم المتسببون على احتكار الغلال وحبسها عن الناس من جراء سوء الإدارة، والتراخى فى ضبط شئون الحكومة، مما أفضى إلى ظهور قحط شديد، وغلاء فاحش فى أرجاء البلاد، حتى إن الفقراء قد اضطرُّوا إلى أكل الميتة والجيف، كما أن بعض الأغنياء قد عضهم ناب الجوع والفقر حتى صار الواحد منهم يكتفى بالضرورة بقميص واحد له ولزوجته يلبسه هو بالنهار، وتلبسه زوجته بالليل، ويتكففون بعشرين حبة من الفول ، إلى غير ذلك من الأحوال والأمور التى أفضت إلى إفلاس الناس وافتقارهم الشديد إلى الضروريات من أسباب الحياة .

هذا ويجىء المال الذى تمتلئ به الخزائن التى سبق ذكرها من سبعين صنف من المحصولات ... والخلاصة أنهم لا يعفون شيئًا من الرسوم الجمركية والضرائب الأميرية إلا الماعز والإوز والحطب، أما ما عدا ذلك مما يطير فى السماء، أو يسبح فى البحر، أو يدب فى الأرض، فتجىء عليه الأحوال التى تمتلئ بها هذه الخزائن، ولا يُعفى أحد من الضرائب حتى الفقراء المعدمين .

من الغرائب

ومن الغرائب أن بعض الفلاحين يجولون فى القاهرة، فى تلك الأسواق المزدحمة والبحر المتلاطم من بنى الإنسان ... بأسراب وجماعات من الإوز السمين صائحين على إوزهم الذى يسير جماعات، فيبيعونها بكل صعوبة ومساومة طويلة، إذ هذا هو الشىء الوحيد الذى لا يجىء منه العُشْر، والرسوم الأميرية .

ومن العجائب

ومن العجائب، أنه إذا أراد شخص أن يحصل على إوزة أو بطة فإنه يذهب إلى ابن العرب الذى فى أحد تلك الأكواخ ويقول له: يا حاجى أعطنى إوزًا أو بطًا.

فلا يكاد العربى يسمع هذا حتى يعمد إلى القَرْعَة القديمة التى بجانبه ويضعها على رأسه، وفى يده حبل يبلغ طوله خمسين أو أربعين ذراعًا ، ثم يخوض فى البحر سابحًا وراء البط، ويبقى طالب البط فى الشاطئ وقد اندفع ابن العرب إلى جماعات الإوز والبط، حتى يبلغها فيربط رجل كل بطة أو إوزة تقع فى يده بذلك الحبل، لأن الظاهر الذى يطوف على وجه البحر ما هو إلا قطعة من القرع لا تبين ما وراءها من مكر الإنسان الذى اختبأ وراء القرعة ينظر من ثقوبها ويشاهد حركات الطيور، وهكذا يتمكن من قيد رجليها بكل سهولة ثم يعود إلى الشاطئ حيث يقف طالب البط بانتظاره، فيعطيه طرف الحبل الذى قيد به البط فيمسك هذا طرفه، ويختار الطالب بعضها مما يريد ، ويدفع ثمنه وهو " پارة " واحدة لكل بطة سمينة، ويطلق سراح الهزيل .

وتلك الطيور ملتزمة من قبل ذلك العربى ، فهو يدفع عنها للسلطان، وليس لأحد حق فى صيدها سواه . وإذا أقدم أحد على ذلك عوقب، كما أن الطيور المعتقة لنحافتها تعود إليه ثانية كأنها مسحورة، وهذا من العجائب فى مصر، وجباية الضرائب على الطيور بهذه الطريقة من أعجب العجب ! إن فلاحى مصر من أولاد العرب فى غاية المكر والدهاء .

من العجائب الغريبة

لهم أمور غريبة وأحوال عجيبة فى هذا الباب ، ومن غرائب حيل أولاد العرب المصريين أنهم يضعون إحدى عشرة بيضة فى روث الخيول (السبلة) ويمضى على ذلك عشرون يومًا وإذا أحد عشر كتكوتًا يخرج منها ويجرى على الأرض . وهذا ولا شك شىء عجيب يحير العقول وجدير بالتأمل والاعتبار، غير أن هذا العمل لا يستطيعه سوى أهالى قرية "برما" الواقعه فى فضاء " أبيار " من بلاد السردار سليمان من أمراء مصر، بحيث إذا أراد أحد أن يخرج الكتاكيت بوضع البيض فى السبلة، فما عليه إلا أن يأخذ واحدًا من أهالى تلك القرية ويصحبه إلى الجهة التى يريدها ويبادر إلى العمل، فأول شىء يعمله هو إنشاء فرن خاص وكأنه فرن للخبيز

بسطحه قبة ، تحتها قاعة خالية مقسمة بالقرميد إلى أقسام مفروشة بالسبلة الناعمة كالقطن، بحيث يوضع فى كل قسم من تلك الأقسام خمسون بيضة بعد فحصها بالنظر إليها فى الشمس، فإن كانت طازجة وسليمة يضعها به، وإلا فلا ، وذلك لأن حرارة السبلة تؤثر فى غير الطازجة فتفسدها وتجعلها تفسد غيرها من البيضات السليمة . ويقال إنهم يعرفون من أية بيضة تخرج الديكة ومن أيها إناث الدجاج . وبعد رص البيض على هذا المنوال يبسطون عليها طبقة من السبلة أيضًا بقدر إصبعين داخل الفرن، وهم لا يستعملون الحطب والفحم أبدًا، وبعد ثلاثة أيام أو أربعة يدخل (الفرارجى) الفرن ويكاكى مثل الدجاج، ويأخذ فى تقليب البيضات رأسًا على عقب، على أن يكون مرتديًا قفازًا من ريش الدجاج يقلب به البيضات الخمسين الموضوعة فى كل قسم واحدةً فواحدةً، ويضع بين كل واحدة وأخرى كمية من ريش الدجاج، ثم يحرق نوعًا من البخور ويدخن الفرن كله ويعود إلى الخارج كما دخل .

هذا الرجل لا يُطلع أحدًا على سر هذا العمل أبدًا ، ولكن الضعيف كاتب هذه السطور قد ذهب إلى البلدة المذكورة ولبث بها اثنين وعشرين يومًا حتى رأى العمل بعينى رأسه، فرأى أن الفرارجى الذى يعدونه أم الكتاكيت يدخل الفرن ثلاث مرات يوميًا ليقلب البيض، وقبل أن تنقضى مدة العشرين يومًا بقليل تخرج الكتاكيت وتتدفق كأنها جيش من جيوش الجان والعفاريت، وعند ذلك يبادرون إلى إخراجها من الفرن لئلا تضر بالبيض الذى لم يفقس بعد، فيخلطون هذه الكتاكيت بالكتاكيت التى أخرجها بعض الدجاج الراقد على البيضات بالطريقة العادية، فتمشى هذه مع تلك جماعات جماعات . هذا وليست لذة هذه الفراريج التى تنشأ من حرارة السبلة مثل لذة الفراريج الأخرى التى تنتج من رقدة الدجاج الطبيعية .

كما أن الطائر المسمى صقر الفرعون وهو الحدأة خصم لدود لهذه الفراريج التى يحرسها الغلمان والأطفال، حيث إن أسراب الطائر المذكور تقضى عليها فى ظرف يوم واحد، وليس فى مصر ما هو أكثر ضررًا وأكبر أذى من هذه الطيور الجارحة . وبعد انقضاء عشرة أيام على هذه الفراريج يأخذون فى توزيعها على

الناس بالكيلة، كل يشترى منها نحو خمس كيلات حسب حاجته إليها. والحمد لله قد شاهدنا بيع الدجاج وشراءه بالمكيال فى مصر . وثمة أغا من أغوات الباشا مكلف بشراء وتربية الكتاكيت اللازمة للمطبخ الذى يذبح فيه خمسمائة دجاجة كل يوم، وتوزع على الأتباع والخدم . وأقول إن الذى لم يرَ كيفية صناعة هذه الفراريج بمصر لا يمكنه أن يتصور مدى مهارة الفلاح المصرى وذكائه، والواقع أن العقل لا يتصور هذا السر العجيب .

صنع الله الجدير بالاعتبار

فى " سبيل علام " الذى سبق ذكره، نوع من الأحجار الصغار الملونة، اشتهر بمصر باسم سحر سبيل علام، إذ فى هذا السهل الفسيح يوجد حصى عتيق وأحجار ملونة بألوان مختلفة كاللعل، والياقوت، والألماس، وتقدر قيمة كل واحدة منها من مائة إلى خمسمائة قرش، كما أن هناك كثيراً من الأحجار المسماة عين الهر وعين السمك وأمثالها، حيث يبلغ ثمن القطعة منها من خمسة قروش إلى عشرة قروش . وقد تهبُّ رياح هوجاء تثير الرمال وتنقلها إلى مكان آخر فتكشف عن أحجار قيمة لا تُعد ولا تحصى، وهى فى الظاهر إن كانت ليست لها قيمة وهى خام غير مصقول فإنها بعد الجلاء والصقل والحفر بأيدى الحفَّارين المهرة والنحاتين الفنانين، تصير ذات قيمة كبيرة جدا ، حيث توجد بينها أحجار كريمة أكثر رونقًا ولمعانًا وصفاءً من الألماس . إن مؤرخى مصر وعلماءها يجمعون على أن شداد بن عاد قد بنى إرم ذات العماد فى "سبيل علام " هذا . ولا تزال تظهر حتى الآن آثار أبنية عظيمة هنا وهناك قريبًا من سبيل علام . ولقد لبث إبراهيم باشا الكتخدا حين عزْله من الباشوية فى سهل سبيل علام هذا سبعة وسبعين يومًا، فكان أتباعه وخدمه يمضون أوقاتهم فى جمع كميات من حصى وأحجار هذه الصحراء ويلعبون بها " المنقلة "، الأمر الذى استرعى انتباههم إلى هذه الأحجار وقيمتها الحقيقية، فأعطوها إلى النحَّاتين والحفَّارين لصقلها وجلائها ليتخذوها فصوصًا . وهكذا صار جميع هؤلاء الخدم والأتباع من أصحاب الخواتم ، وهذا شىء عجيب جدا .

تأثير الأحجار العجيبة

وتوجد فى صحراء سبيل علام هذه حجارة ذات لون أصفر لامع لمعانًا شديدًا يطلبها دائمًا حكماء الإفرنج، فينقبون عنها فى أيام القيظ فى تلك الصحراء الرملية الساخنة . ولهذه الأحجار خاصية عجيبة، حيث إنه إذا قبض عليها أى شخص بكلتا يديه فإن نفسه تغثى وتقلب معدته، ويأخذ فى القىء واستفراغ ما فى جوفه حتى يترك الحجارة وإلا يستمر الغثيان والقىء ، وتتخلص معدته من تلك الأدران والأثقال .

ومن خواص الأحجار

توجد حصوات مثل الخرز الأبلق فى صحراء سبيل علام الفسيحة الأرجاء هذه إذا حملت امرأة الواحدة منها لا تحبل أبدًا، ولذا تحملها بالكثرة العاهرات المصريات اللائى يسكنَّ حىَّ باب اللوق . ولقد كانت والدتى أيضًا تحمل حجرًا من أحجار سبيل علام كى لا تحبل مرة أخرى .

عبر أرض مصر وغرائبها

من الشائع أن العرب فى أرض مصر تأكل الفئران ، وهذا صحيح وحقيقة لا شك فيها، ولكن ما نوع هذه الفئران ؟ لتبيين هذا نقول إن فى مصر نوعًا من الفئران يقال لها " فأر الغيط "، وهو مخلوق عجيب مضحك، يظهر فى وجه الأرض فى أثناء فيضان النيل وإغراقه الأرض كلها ، حيث يحتشد الصبيان والنساء ويذهبون إلى خارج البلد جائلين فى أطراف الأرض التى أغرقتها المياه باحثين عن تلك الفئران الهاربة ، فيصطادونها بكل سهولة بفضل طغيان المياه، ويعودون إلى بيوتهم حاملين أكياسًا مليئة بها فيذبحونها ويأكلونها هنيئًا، ثم يعمدون إلى جلودها فيبيعونها، فهو حيوان سمين للغاية، ذو ذنب قصير وأنف طويل وشَفَته العليا كَشَفَة الأرنب مشقوقة. وفى الجملة هو فأر أغبر يضرب إلى السواد ، ويزن كل واحد منها عادة

مائة درهم أو رطلاً، فهذه الحيوانات تنشأ من الأرض بأمر الله وحكمته، حيث يتكوم التراب على وجه الأرض، فيستدل به الصيادون على وجودها، ويعمدون إلى حفر تلك الأكوام ونبشها ويُخْرِجون منها الفئران المذكورة، وقد ترى بعضها تامَّ الخلقة كاملاً والبعض الآخر ناقصًا، أعنى أن الواحد منها نصفه فأر حتى وسطه ونصفه الثانى لا يزال ترابًا ، وهذه حكمة بالغة من حكم الله القدير، فترى الدم لا يزال ممزوجًا بالتراب الذى تشكل بهيئة الفأر ولم يتحول بعد إلى اللحم حتى ينضج فيه الروح. ومثل هذه الفئران الناقصة التكوين والخلقة إذا أخرجت من الأرض تموت حالاً من أثر الهواء والجو لعدم اكتمال خلقها، وقد سألت أولاد العرب إذا كانت هذه الفئران تتلاقح أم لا فأجابوا بقولهم إنها تتلاقح ولكنها لا تلد أبدًا بإذن الله الفاعل المختار . ثم سألتهم عن نفعها فقالوا إنها سهلة الهضم، وإنها مسمِّنة جدا ومقوية . وهذا أيضًا من عجائب خلق الله وحكمته البالغة ، ولكن الذى يقصر عقله عن إدراك صنع الله البديع ينكر هذا الذى ذكرناه ويستبعد وقوعه . بيد أن كاتب هذه السطور قد شاهد هذا بعينه إذ أعطى العربان الذين أخرجوها بضع بارات ليحضروا له منها ما يشاهدها بنفسه عن قرب فكانت الواحدة منها نصفها ذو روح ودم ونصفها الآخر لا يزال طينًا وترابًا ليس به روح ولا دم، إلا أن الدليل الكافى والبرهان الظاهر على هذه العجينة، خلق بنى آدم من الطين والعدم، كما فى الآية الكريمة ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ (المؤمنون١٤/٢٣).

والذى لا ينظر إلى عقيدة المعتزلة ويتمسك بعقيدة أهل الشرع فقط يردد قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (فاطر٣٥/١) فيسكن ويستريح . !!

فى بيان قرابة النخل وجوز الهند لبنى آدم بحكمة الله وقدرته العظيمة

بموجب عادة شائعة فى مصر يقوم المصريون كل سنة بتزويج النخل الأنثى بالذكر منه ، أعنى أنهم حين يأخذون فرعًا من النخل الذكر ويدخلونه فى قلب الأنثى فإن النخل يثمر. هذا، وللنخل حالات تشبة حالات الإنسان فى نموه وتلاقحه، وبأعلى النخلة جزء يسمى " الجُمَّار " (بضم الجيم وتشديد الميم) يقطعونه ويأكلونه، وهو أبيض لذيذ الطعم مقوٍّ جدا . ولشدة تشابه النخل فى أحواله التناسلية بالإنسان ظنوا أن بينهما قرابة، وأن الله سبحانه وتعالى قد خلقه مما يقرب من قبضة التراب التى خلق منها الإنسان، كما خلق منها أيضًا جوز الهند ونباتًا يسميه العامة عبد السلام لكثرة شعره وافتراشة الأرض .

من العجائب

ومن العجائب أن هناك قومًا فى مصر يأكلون الحيات والثعابين، حيث يذهب الواحد منهم إلى البيوت والمنازل التى بها الحيات والثعابين ويأخذ فى التصفير لها بصفير خاص فتبرز له وتحتشد حوله متحفزه للقتال، وينشب القتال بين الطرفين ويحتدم حتى يتغلب هو عليها واحدة فأخرى فيضعها فى كيسه، وهكذا ينقذ أهل البيت المذكور من شر الأفاعى والحيات . وقد يأتى واحد من هؤلاء القوم ويقف إلى جانب أحد من الناس وعلى غير علم منه يخرج من جيبه أو طيات ثوبه حية أو ثعبانًا أو عقربًا أو غير ذلك من الحيوانات السامَّة . ويعمد بعض هؤلاء الدجالين إلى جيوب الناس فيخرجون منها فواكه كالتفاح والكمثرى والخوخ والعنب فى غير مواسمها المعتادة ، ويحدث أحيانًا أن يسيلوا المياه ويُجْرُوها من ثياب الناس ، أو يُخرِجوا منها النيران. أو يُشيروا إلى عمائم الناس فإذا بها يسيل منها الماء، أو يبرز منها العقرب أو الحية ، قبل أن يفطن صاحبها إلى ذلك؛ الأمر الذى يضطره إلى الهرولة والفرار منها وهو ممتلئ رعبًا وخوفًا .

هذا وكان المرحوم إبراهيم باشا ميَّالاً إلى مشاهدة هذه الأعمال المضحكة والغرائب المسلية .

من الغرائب المسلية

ومن الغرائب أيضًا أن بمصر شجرًا باسقًا يسمى شجر الجميز، ليس فى ديار مصر شجر أكبر منه، وهى تُشبه فى الطول شجر الدلب المعروف ببلاد الروم، ولشجر الجميز ظل ظليل وارف لطيف .

وكل من كان له شىء من هذا الشجر يبادر إلى الاتفاق مع عدة أشخاص على خطة عجيبة، فهو يسبقهم إلى أرضه ويصعد إلى شجرة الجميز ويأخذ فى تشقيق فروعها وأغصانها بسكين كأنه يريد قطعها، وبينما هو كذلك إذا بهؤلاء الناس يحضرون إليه ويخاطبونه بقولهم : أيها الرجل لماذا تقطع هذه الشجرة الغضة اليانعة التى خلقها الله لنا معشر الإنسان؟! فيجيبهم هذا بقوله : إن الشجرة ملكى ومالى، أصنع بها ما أُريد، إذ نشأت فى أرضى وعاشت بها، وهى لا تزال تنمو وتكبر ولكنها لم تثمر قط ، فضلاً عن ضررها للنبات الواقع فى ظلالها، فلذا عزمت أن أجعلها حطبًا ووقودًا للنار . وعند ذلك يبادر الجماعة الذين فى الأسفل ويخاطبون الرجل بقولهم : اعمل المعروف يا رجل، تمهل وارحم هذه الشجرة الغضة فلا تقطعها فإن لها غصونًا جميلة وفروعًا باسقةً وأوراقًا لطيفة خضراء، وسوف تثمر ثمارًا يانعة إذا تركتها، ونحن نضمن لك هذا .

وفى أثناء ذلك الحوار تنزل المياه الحمراء كالدماء متدفقة من الثقوب التى أحدثها صاحب الشجرة بالسكينة فى جسمها وجذعها وفروعهاالعديدة، فيشتد جزع الجماعة ويزيدون فى الرجاء والتضرع مرة أخرى قائلين: إننا نضمن أنها ستثمر فى العام الواحد سبع مرات .

ثم يُقْبِلون على صاحب الشجرة ويأخذون السكين من يده ويطرحونها جانبًا ثم يتقدمون إلى الشجرة ويحتضنونها جميعًا معًا كأنهم يأخذون عليها العهد والمواثيق بأن تثمر، وقد يحضر فى هذه اللحظة الطريفة جماعة أخرى تشهد على ما يُقطع .

وبعد هذه العملية العجيبة تطرح الشجرة المذكورة ثمرًا كثيرًا سبع مرات فى مدى عام واحد أو ثماني مرات، من تلك الثقوب والجروح التى أحدثها السكين بها . وتشبه ثمرة هذه الشجر التين، ليس بجوفها بذر كبذر التين بل أنه خال كل الخلو، غير أن الواحدة منها تزن مقدار ما يتراوح بين العشرين والثلاثين درهمًا، وهى ثمرة سهلة الهضم لذيذة جدا، ولونها أحمر أو أصفر ومنه الأبيض . والغريب هو أن سائر الفواكه والثمار تكون فى الأغصان والفروع الرفيعة فى حين أن هذه الثمرة لا تكون إلا فى جذوع الأشجار الضخمة التى لا تقل ضخامتها عن حجم عدة رجال من الناس الملتفين المتلاصقين، ولا يخلو مكان منها من تلك الثمار اليانعة . وفى الحقيقة أن هذه الشجرة مثمرة جدا ومكانها فى علم الطب هى صفة الاعتدال، بحيث إذا أكلت من ثمارها خمس ثمار وشربت عليها الماء فإنه يحصل عندك لين لطيف، ومن خواصها أنها تزيد فى قوة الإبصار، كما أن أوراقها الخضراء بعد دقها وغليها بالماء وشربها، تنفع الإسهال والليونة الزائدة وتقفهما وتعيدهما إلى الانقباض والإمساك . وجسم هذه الشجرة أخضر اللون . وبشكل عام فإن لها خواصٌ كثيرة، حتى إن الذين يعتقدون فى الكيمياء يعرفون جيداً أن هذه الشجرة شىء عجيب وأمرها غريب .

خاصية أرض مصر

يحفرون الأرض فى مصر ويضعون فيها قرن الماعز ثم يسقونها ويروونها ويعتنون بها، فما يلبث إلا ويجدونه بعد بضعة أيام قد ازدهر هذا القرن واخضرٌ وظهر مثل القصب الأخضر (!!) .

وعمل النشادر

يستخرجون فى مصر النشادر من قاذورات الإنسان، وقد سبق ذكر المعامل الغريبة التى تنتج هذه المادة، بطريقة غريبة (!!) .

وصفة عمل العنب

ومن غرائب عامّة الفلاحين بمصر أنهم يستعجلون الحصرم فيقلبونه إلى العنب قبل الأوان بمدة شهر على الأقل ، وذلك بأن يخلطوه بالكبريت المحترق. وهذا شىء عجيب ولا شك.

وصفة عمل الشمام والبطيخ

يطلق فى مصر تعبير " رسمال " على روث الحمام ،حيث يضعه فلاحو مصر فى جذور زراعات البطيخ والشمام فينموان قبل الأوان بمدة شهر على الأقل ، وهكذا يحصلون على بطيخ وشمام لذيذين حينما يريدون .

خواص الحيوان العجيبة

يوجَد فى الجهات التى يزرع بها قصب السكر بمصر حيوان مؤنس ونسبه ابن عرس (يقصد العِرْسَة المصرية) فهو حيوان مضحك جوال كثير الحركة، وسريع القفز، حتى إن بعض الناس يربيه فى المنازل والبيوت فيأنس إلى بنى آدم ويتعلق بهم، ويوجد منه عدد كبير فى حدائق الكروم بإقليم الفيوم ، حيث تفرُّ منه الزواحف من شدة الرائحة التى تلازمه، ولا تقترب الزواحف منه مطلقًا، لأن رائحته تلك تقضى على الحيات والثعابين والزواحف السامة، فى حين إن الإنسان يستفيد منها كل الإفادة ، وهذا أيضًا شىء عجيب .

ذكر معادن الذهب

على مسيرة ساعتين من مصر وبالجانب القبلى منها يوجد بأرض جبل الجيوشى محل يدعى عين موسى، حيث يطلقون عليه أيضًا اسم جبل بجاميم، يستخرج منه جير أحمر إذا أُحرق فى النار ينتج منه الذهب، ولكن نفقات ذلك أكثر من الحاصل لقلة الحطب والوقود بمصر، ولا تزال آثار ذلك باقية حتى الآن . ويوجد منجم الفضة فى جبل " جالوت " الكائن غربى مصر، كما أنه بجانبها الشرقى بالجبل المسمى المقطم يوجد معدن الذهب، وفى ولاية الصعيد منجم الزمرد، وفى أرض البحيرة معدن الظروف، ويحصل فى جميع قراها على ملح البارود من جميع بحيرات مصر وبركها، وكذلك يستخرج ملح الطعام .

مدينة عين شمس العجيبة

كانت عين شمس مدينة عظيمة بجوار المطرية الكائنة فى شمال القاهرة على مسيرة ساعتين منها ، وهى الآن خربة، يقال إنها كانت عاصمة مملكة مندرِسة لا تزال بها الآثار العجيبة والأبنية الغريبة والتماثيل والأنصاب الهائلة وغيرها من المشاهد، ولا سيما (المسلة) العمود المربع الذى يشبه العمود الذى بميدان الخيل بإستانبول، يبلغ ارتفاعه مائة ذراع، وفى جوانبه الأربعة نقوش وكتابات بخطوط "القبابطة" (القبط) . وعلى رأسه وأعلى قمته صورة إنسان راكب عل دابّةٍ من ذوات الأربع، وهذا رمز لقدوم السلطان سليم خان إلى مصر.

وجوانب العمود الأربعة مثل الذى بميدان الخيل بإستانبول بها نقوش عجيبة ومطلسمة . وأمثال هذه الطلاسم لا توجد فى غير بلاد مصر، وهى لا تزال غير مفكوكة ولا محلولة، فالذين حاولوا حلها وفكها وبذلوا فى سبيل ذلك الجهود والمساعى ماتوا ودفنوا هنالك جميعًا .

ويذكر مؤرخو مصر أنه كان في عين شمس قصر كبير وكان له مائة وثمانون شُبَّاكًا ونافذة، تدخل الشمس كل يوم من واحدة منها، فلذا أُطلق على تلك المدينة كلها اسم عين شمس. وفي رواية أخرى أن ملكة تُدعى عين شمس أنشأت هذه المدينة، وأن الشمس لتجرى فى منازلها حتى تقطع مائة وثمانين منزلاً فترجع كما بدأت، ولا تزال آثار تلك الأبنية موجودة تدل على أنه كان بها قلعة عظيمة .

ومن العجائب والغرائب جبل الهرمين

ويقع غربى مصر على مسيرة ساعة من قصبة الجيزة، وهو عبارة عن ثلاثة جبال ليس لها مثيل فى القدم، وكل واحد منها يمثل هرم صنم من الأصنام . فيقال للهرم الأكبر (جبل بلبهيث) وللأوسط (جبل مهوية) وللأدنى (جبل أبو الهول). وما أكثر الروايات والأساطير التى تتداولها الألسنة فى أصل هذه الجبال الاصطناعية! فيقول بعض المؤرخين إنها من بناء عاد بن شداد، قبل الطوفان . ويقول آخرون إن الملك سوريد أنشأها - بإيعاز من الكهنة - مدفنًا لنفسه قبل الطوفان ؛ حيث خزَّن فيه أمواله وخزائنه، وكُتُبَ علوم إدريس النبى، وكذلك وضع أسلحته وآلاته وعُدته، وقد طلسمه طلسمات عظيمة وعيَّن عليه الموكلين بالحفظ والحراسة، وكسا الهرمين بالديباج والحرير، ثم بنى مدينة بساحل النيل أسكن بها الموكلين بالحفظ والحراسة . وكان يؤم هذين الهرمين فى ربيع كل سنة مئات ألوف من الناس من أنحاء العالم ويزورونها مثل الكعبة، ولا يزال هناك فى الهرم الشمالى باب يطل على الناحية الشمالية أيضًا، إذا دخلت منه تجد على يمينك نقوشًا على الأحجار، خلاصتها: " أنا بانى الهرمين قد أتممت بناءهما فى ست سنين. فليحاول هدمه من أساسه من يأتى بعدى ، ولا شك فى أن الهدم أسهل من البناء، وقد كسوته أنا بالديباج فليقدر الملوك الذين يأتون من بعدى على ستره بالحصير فقط " . هذا ولما قدم الخليفة المأمون من بغداد إلى مصر وأراد استخراج الكنز العظيم الذى يضمه الهرمان فى جوفهما، بذل مجهودًا كبيرًا وهمة عظيمة فى فتح ثغره بأحدهما ، وذلك بجمع أحطاب كثيرة وإيقادها بالنار، وإلقاء

الحروق والأخشاب والكتل بها، ثم رميه بالمنجنيق أحجاراً عظيمة للهدم، ومع ذلك لم يؤدِّ هذا إلاَّ إلى فتح ثغرة قدرها عشرون ذراعًا فقط . وقد وجد بها زيرًا مرصعًا بالزبرجد به ألف قطعة من الذهب تزن الواحدة أوقية، ثم عثر على قطعة حجر منقوش عليها هذه العبارة :

" أيها الطامع فى استخراج الكنز، والباحث عن الدفينة فى هذا القبر، إذا أردت أن تحصل على بغيتك فإنه يلزمك الصرف على ما أنت بصدده من المال مقدار ما تجده من الكنز ، ولو أردت أكثر من ذلك فإنك ولا شك ترحل من هذه الدنيا الفانية من غير أن تحصل على شىء" .

فما رأى جنود المأمون إلا أن ما بذلوه من الجهد والمال والعتاد قد ذهب سدًى، وأن ما عثروا عليه من الكنز لا يكاد يساوى ما أنفقوه من المال فى مدى سبعة شهور، كما أن المأمون قد تذكر ما كُتِبَ على الأحجار التى على يمين الداخل من باب الهرم المطل على الشمال ... وهو " فليغط الملوك الذين يأتون بعدى البناء بالحصر " فأمر بتغطيته. وعند ذلك قامت ريح عاصفة فأطارت الحصر إلى السماء ومزقتها إرْبًا إرْبًا، وجعلت الخدم والحشم مشتتين خائرى القوى ، وأخيراً وبفضل رأى حسين بن صالح وزير المأمون وتدبيره عدلوا عن إتمام هذا الأمر الذى كلفهم كثيراً . ولا تزال آثار ذلك الهدم الذى حدث فى عهد المأمون باقية للعيان حتى الآن، غير أن يوسف صلاح الدين عندما أراد تجديد بناء قلعة مصر أخذ الأحجار والصخور من جبال الهرمين هذه، ولا تزال أمكنة تلك الأحجار ظاهرة ، ولقد شاهدها ورآها كاتب هذه السطور .

هذا وقال " سوريد " بانى الهرمين: إنى قد بنيت هذا فى ستة أعوام، ويهدمه الذى بعدى من الملوك فى أعوام أيضًا. وبذلك أبدى عن دعوته ورغبته ، غير أن كاتب هذه السطور يدَّعى أن هذا البناء الضخم لو وضع فيه مائة قنطار من البارود الأسود مع الفحم ذى ست خزانات (وهو من المواد الناسفة فى هذا الزمن) لانقلب ذلك البناء وطار إلى الهواء ولم يبقَ منه أثر حتى قاع النيل . ومع ذلك فإنه بناء عظيم لم أر له مثيلاً على ظهر الأرض، ونحمد الله تعالى على أن مكَّننا من رؤية هذا الصنع البديع

فى عهد إبراهيم باشا الكتخدا حينما كنا نريح خيولنا التى كانت ترعى وتسرح فى جوار الأهرام ، حيث قضينا أيامًا لطيفة وأوقاتًا سعيدة فى تلك الربوع، وقد ذهبنا مرارًا لمشاهدته وتفقد معالمه وآثاره .

وحدث ذات يوم أن اتفقت جماعتنا على الذهاب جماعة للزيارة والمشاهدة فجاء معنا أتباع الإمبراطور وبهلول أغا، وغيرهم من الضباط الذين بلغ عددهم خمسة وأربعين شخصًا يحملون المشاعل والمصابيح ذات الشموع وغيرها من المصابيح المقاومة للريح . وبعد أن أزلنا الرمال والأتربة من طريق الباب الشمالى للهرم الكبير استعذنا بالله وباسمه الكريم، ودخلنا هذا البناء الشامخ ، وقد راقب كاتب هذه السطور طريقة السير والمشى قابضًا على البوصلة والساعة ناظرًا فيها بكل دقة . وبعد أن سرنا مسافة سبعمائة خطوة نحو الجنوب وجدنا طريقًا معبدًا ومسقفًا بعقود فى علو عشرين ذراعًا وبعرض عشرة أذرع ، وعلى جانبه مغارات وقاعات مبنية عليها أقبية منحوتة من الصخر ومطلية بالذهب، ومزدانة بنقوش بديعة كأنها خارجة من عمل الرسام الإيرانى " بهرام ". وكانت الغرف مليئة بعظام بنى آدم . جماجمهم، كل جمجمة تسع مائة كيلة من القمح، وهى كثيرة ما بين صغيرة وكبيرة لا يعلم عددها إلا البارى تعالى . ولقد عثر كاتب هذه السطور فى الطريق على عظمة ساق فى جلدها يبلغ طولها واحدًا وسبعين شبرًا من أشباره .

وكان هناك كثير من أمثال هذه العظام، وترقد فى مغارة كبيرة، وهناك جثث ورُفات آدمية مكفَّنة بألياف النخل، وهى عظام ولحوم مقددة، يبلغ طول الجثة الواحدة منها سبعين أو ثمانين خطوة ، بيد أن الروائح الكريهة المنبعثة من بقايا الخفافيش التى كانت مثل الغربان فى الكبر والفخامة، كانت تضايقنا وتؤذينا جدا . وقد كانت هذه الطيور الكريهة الرائحة متعلقة ومتثبتة بجميع الصخور بواسطة مناقيرها الحادة . وقد كان بعضها يرتمى على الفوانيس التى بأيدينا معرضة ريشها وأجنحتها للنار، وبعضها كان تصطدم بوجوهنا ، حتى إن بعضًا من رفقائنا قد اضطروا إلى الرجوع والعودة من حيث أتوا ، خشية أن تتسلط عليهم كائنات غير مرئية، ولكننا – نحن

الباقين – واصلنا السير مع خمسة وثلاثين شخصًا حتى أدركنا منحدرًا سهلاً ، وعلى قول المؤرخ ابن دلال، كان يطلق على جبال الهرمين هذه "برابى" فى اللسان القبطى، لأن الذى بناها أولاً هو فاين بن ضوخ بن ناصويل بن نشيد بن برابى . ولذا تدعى هذه الجبال " برابى " . ويقول إن امرأة من الفراعنة لما كانت ملكة على مصر بَنَتْ أولاً هذه الأهرام، فلذا تُطلق على هذه الجبال جبال فرعون، ويقال إن الملوك الذين هم من سلائل النساء الملكات، كانوا يجددون بناء الأهرام دائمًا قائلين : إنها من آثار أُمنا القديمة، فيجب علينا أن نعمرها دائمًا . فينفعهم من هذا أنه ملك من أبناء النساء الملكات . يقول البعض إنها من آثار الساحرة تدره چادون، وكان كل من " أسموين" و"أثريب" و"صا" كهنة يرقدون فى الهرمين. وعلى قول تاريخ الشهابى فإن أول من بنى هذه الأهرام قبل الطوفان هو صوريقة بن شهلوق بن طوميورون بن تدرسان بن الملك حال . ثم توجهنا نحو الجنوب بمقتضى البوصلة، وسرنا ساعة كاملة حتى وصلنا إلى قاعات رائعة كأنها إيوان كسرى الشهير، فى كل واحدة منها جثث متعددة ، وحالة الجثث كانت ولا شك رائعة جدا من حيث القد وطول القامة والشكل، وبجانبها حصر بالية وأقمشة متخَذة من ليف النخل الملطخ بالرمال والملوث بالتراب. وبعد أن سرنا من هذه النقطة مسافة خمسين خطوة إلى الأمام صعدنا ونزلنا منه، حيث وجدنا حوضًا مليئًا ماءً صافيًا رائعًا . بيد أن فى جوانبه الأربعة كانت طيور كالعقاب والإوز الكبيرة المخيفة الهائلة جاثمة متحفزة ، فلما رأتنا هذه الطيور رفرفت بأجنحتها بشدة ودوت القاعات كالرعد ورددت صداها، فكادت أمخاخنا تنزل من جماجمنا خلال آذاننا . حيث تجمعت علينا الخفافيش والوطاويط فلوثتنا ولوثت ثيابنا، وأرعبتنا. وهنا ارتفع صوت من بين حَمَلَة المشاعل والفوانيس من رجالنا ولم يبقَ من الشموع إلا القليل، وكانت الأضواء على وشك أن تنطفئ .

وخلاصة القول أن الخوف والهلع قد ساورانا وأحاطا بنا من كل الجوانب من شدة أصوات أجنحة تلك العقبان، ولم نستطع التقدم بعد هذا خطوة إلى الأمام، وقررنا العودة . وبينما نحن نفكر فى ما آل إليه أمرنا إذا بمشاعلنا تنطفئ، وإذا برياح شديدة باردة تهب من جانب تلك الطيور، وكادت تقضى علينا وعلى أسرجتنا

الضئيلة أيضًا، وعلى الرغم من هذا شرعنا فى العودة من حيث دخلنا ، وهنا أيضًا فوجئنا بهجوم الخفافيش مرتمية بأنفسها علينا تضرب وجوهنا والنار التى معنا، حتى ألحقت بنا أذى وتعبًا شديدين، ومهما يكن من الأمر فإننا تمكّنّا من الخروج إلى العراء سالمين بفضل العلامات التى كنا وضعناها فى طريقنا حين الدخول، وقد اجتمعنا برفقائنا الذين سبقونا بالخروج فارّين هاربين، حيث أقبلوا علينا ساخرين مستهزئين قائلين : ما هذه الوجوه الكالحة الملوثة؟ وما هذه الأحوال العجيبة التى أنتم عليها ؟ وفى الواقع أننا كنا متعبين ومضطربين جدا، غير أننا شاهدنا أشياء عجيبة وأحوالاً غريبة وتُحفًا رائعة، والله يعلم ما وراء ذلك من الطُّرَف والآثار البديعة.

هذا هو وصف كاتب هذه السطور بالدقة لأحد الهرمين، وليس به خزينة ولا دفينة كما يُقال ويُشاع سوى الجثث المدفونة . وليس هناك شك فى أن هذا البناء العجيب مطلسم، لأننا حينما وصلنا الحوض المذكور بُهتنا كُلُّنا وأصابتنا الحيرة والدهشة، وأحاط بنا الأذى من كل جهة، فعدنا بأعجوبة ولكن بكل مشقة وبلاء، وقد كادت أرواحنا تفارق أجسامنا من هول الموقف، حتى وصلنا إلى الهواء الطلق وتنفسنا الصعداء ودبَّت الحياة فينا من جديد ، نسأل الله أن لا يقدر لنا دخول هذا المكان مرة أخرى. وقد أوينا بعد ذلك إلى مخيماتنا وتناولنا الفطور وشربنا القهوة ثم قمنا وجُلنا حول الهرم من جهاته الأربع، فوجدنا أن طول الضلع الواحد من القاعدة المربعة مائتا خطوة . وعلى هذا الحال فإن المسافة الدائرية لكل منهما تكون ثمانمائة خطوة . ويبلغ حجم كل صخرة من صخورهما طولاً وعرضًا ما يتراوح بين العشرين ذراعًا والثلاثين ذراعًا، ويبلغ ارتفاع الهرم حتى القمة مائتى ذراع. والباب الذى فى شمال الهرم الكبير حيث دخلنا منه ضيق فى غاية الضيق ، غير أن الأبواب الأخرى ليست ظاهرة أو معلومة، كما أن هرم أبو الهول صغير جدا ولكن الهرمين المشهورين يعلوان بقمتيهما إلى السماء ، وهما مربعان حادّان كالجبال الشامخة . ولقد صعد كاتب هذه السطور إلى قمة الهرم الذى سبق أن دخله، فوجد بها مكانًا فسيحًا يسع عشر غرف تُقام به، كما أن الشقوق التى فى الصخور تحوى أوكارًا لطيور كالشاهين والبازى

وأفراخهما . ولقد نظرت منها إلى مصر فى الأسفل فرأيتها كلها ظاهرة للعيان من هذه الجبال العالية ، هذا وفى الجهات الأربع للهرم أبنية مطلسمة مبنية بأحجار سود إذا أردت شرحها ووصفها لاقتضى ذلك تدوين كتاب مستقل .

تتمة جبل الهرمين

إن ذا النون المصرى الذى جاء برسالة إلى النبى عليه الصلاة السلام من عند المقوقس ، وهو الذى كان قد شاع أمره وذاع صيته فى الفصاحة والبلاغة، والذى له الفضل العظيم فى ناحية شرق أخميم بالصعيد الأعلى ديار مصر ، دخل بإذن من عمرو بن العاص بعد فتحه لمصر فى جبال الأهرام هذه، واشتغل فى حل طلاسم الخطوط العجيبة محاولاً ترجمتها إلى اللغة العربية . وها هى الترجمة كما وردت بالحروف العربية فى الأصل " احذر العبيد المعتقين، والأحداث والجند المتعبدين، والنبط المتسترين " ومعناه : احترس من العبيد الذين أعتقوا ومن المحدثين ومن الجنود المتظاهرين بالعبادة ومن طائفة النبط الذين جاءوا من البادية ونشأوا بين العرب . وها ترجمة خط آخر : " يقدر المقدِّر والقضاء يضحك " . هذا وفى الهرم الصغير الذى هو بناء الحكيم قاليمون، مكتوب بيت شعر معناه كما يأتى بنصه :

تدبِّر بالنجوم ولست تدرى ورب النجم يفعل ما يريد

ومعناه : أنت أيها الإنسان تنجِّم فتفعل ما تريد، غافلاً عما يفعله رب النجوم .

أشكال طلسمات أبو الهول

هو رأس كبير فى حجم قبة حمام ، منحوت من صخر أبيض، يقع شرقى الهرم الثالث الصغير، ولا يظهر منه إلا ما فوق الرقبة، وليس له جسم آخر . رأس وعين تنظر إلى الجهة الشرقية، وله حاجبان وأذنان وأسنان ورقبة، فهو رأس ضخم يمكن أن يجلس عليه مائة رجل ! وكأن الفنان القديم الماهر استعمل آلته وبمجهود عظيم

نحت رأساً يبدو لناظره كرأس كائن حي يبتسم له ابتسامة واضحة، وجعل له خصلاً مجعَّدة ومبرومة ومفتولة، ومكورة ومسترسلة مبعثرة، فكأنه أراد إظهار فنه بإبداعٍ سَحَرَ الإعجاب وأسَرَ الأفئدة .

ويقال إن هذا الرأس كان في الزمن الماض يكلم الغادين والرائحين من الزوار، وقد جُعل له طلسم بحيث ينبئ عن هجوم عدو على مصر، أو ظهور قحط أو نزول الأمطار أو امتناعها، ومقدار فيضان النيل أو عدم فيضانه، أو موت أحد أو حياته، أو بالاختصار أنه كان يخبر عن المغيبات الخفية . فلما بلغ ذلك موسى عليه السلام ذهب إليه وقال له : إنك قادر على التكلم فيُجيب عليك أنا رسول الله الحق. فقال أبو الهول : إني أؤمن بإدريس ولا أؤمن بغيره. فغضب موسى وكان عاتيًا، وضرب أبا الهول بعصاه ولثمه عدة لثمات، وخدش فمه وأنفه وقال :" اسكت يا ملعون ". وانصرف ، ومن ذلك اليوم صمت أبو الهول ولم يعد يتكلم . ولا تزال آثار عصا موسى باقية على رأسه، ولم تزل عيناه مخدوشتين، ومع ذلك فهو من صنع إنسان بديع وأثر عجيب. وفي رواية أخرى أن السحَرة كانوا يحملونه على الكلام بسحرهم وكان يكلم النساء . وزعموا أن امرأة ثرية سُرق منها كثير فتقدمت إلى أبو الهول تستخبره عن السارق فأخبرها . فبادرت المرأة إلى الحاكم مستعينة به على تفتيش بيت السارق الذي وُجد به المال المسروق كله ، فثار اللص وصعد إلى رأس أبو الهول وبال عليه انتقامًا منه، وبطل الطلسم من ذلك اليوم، ولم يَعُد أبو الهول يتكلم . والرواية الأولى أقرب إلى العقل لأن موسى عليه السلام من أولي العزم، وبفضل معجزاته صار أبو الهول أصم أبكم عبرة للمعتبرين .

وهناك مشهد آخر عجيب على مقربة من هذا الصنع البديع، وهو معبد قد دفن بابه في الرمال والأتربة، ولكن عقد الباب الأعلى مشتمل على نقوش غريبة كأنها خطوط ولكنها لا تقرأ، على الرغم من أن لكاتب هذه السطور مهارة في قراءة طَرَفٍ منها .

ورد في تاريخ ابن جلال أنه كان في خانقاه الصلاحي صوفي متعبد يدعى محمداً، وكان يقول بحرمة صور الحيوانات . وفي سنة ٧٨١ تصدى هذا الصوفي

لتهشيم فم أبو الهـول وأنفه أكثر مما هُشمت بيد موسى عليه السلام ، وأقدم على هذا العـمل دون أن يحـصل على إذن بذلك من الحـاكم . وبينمـا هو يحـاول ذلك هبت ريح عاتية بحـكمة الله على مدينة الجيزة ، فحـالت دون وصول البرسيم والغلال وسائر الأرزاق ، إلى القـاهرة حيث غرقت فى الرمـال . فاسـتقدم الحـاكم الصوفى محـمداً المذكـور وقطعـه إرْبًا إرْبًا، وأمـر بدفنه بجـانب أبو الهـول، ولا يزال زوار أبو الهـول يرجمون قبر ذلك الصوفى المنحرف .

من نعم الله على مصر

أنه لا يوجـد بمصـر الجـراد ولم ينشـأ بها قط ، وإذا أغار عليها من بلاد أخرى فلا يعيش بها ويهلك بسـرعة، حتى إنه فى عـصـر الرسالة المحمدية حينما استولى الجـراد على مكة والمدينة فزع الصـحـابة إلى الرسـول والتـمسـوا منه الدعاء إلى الله تعالى ليزيل عنهم هذا الكرب ؛ فرفع النبى عليه السـلام أكُف الضراعة إلى الله قائلاً: يا رب ! ارفع هذا الجراد إلى مصر التى هى كنانتك . وعند ذلك قال الصحابة الكرام: يا رسـول الله إن مكة والمدينـة عالتان على مصر غذاؤهما، فإذا راح الجراد إليها فقد يعمها القحط والغلاء . ولكن الرسـول الكريم قال لهم مـا معناه أن مصر فى حفظ الله وأمانه، وذلك أن من احتقر مصر واستهان بها وظلمها ومسها بسوء لا يعمر ولا يعيش . فهذا الجراد هو جراد مصر إذا ذهب إليها لا بد أنه هالك بها . وفى الواقع أن الجراد لا يعـيش بمصـر ولا يتـوطن فـيهـا، كـمـا أن الجـامـع الأزهر لا يدخله الحـمـام والذباب والثعبان وغيرها من الحشرات والوحوش والطيور لأنه مطلسم بطلسمات نافذة المفعول (!) .

ومن الطلسمات

أنه بقلعة الكبش بمصـر حصن قـديم ، وبموازاة زاوية السلطان وتحت سلم هذه الزاوية حـوض من الرخـام الأخـضـر على شكل قطعـة مسـتطيلة مصـنوعة على شكل

سفينة . وفى قديم الزمان كان يركب هذه السفينة الحجرية أربعة أنفار يعبرون بها النيل من ضفة إلى أخرى، فإذا ركبها خمسة فلا بد أن تغرق بهم، لأن الكهنة القدماء طلسموها هكذا . وكان الناس يعلمون ذلك السر ويراعون أن لا يركبها إلا أربعة فقط ، فيعبرون النيل كالبرق الخاطف . وقد دام الحال إلى عهد كافور الإخشيد على هذا المنوال، وحدث ذات يوم أن قال كافور الإخشيد فى نفسه إن من شأن الحجر أن يغرق فى الماء، فما بال هذا الحجر " الزورق الحجرى " يجرى ويسبح فى النيل حاملاً أربعة من الركاب فى كل مرة ذهابًا وإيابًا وكأنه سفينة جارية؟! فماذا يكون أصله يا ترى ؟ وأمر بإخراجه من النيل إلى البر، ولما فحصوه فحصًا جيداً وجدوا أن بأسفله خطًا عبريا بمقدار سطر واحد، وصورة سمكة، وليس هناك غير ذلك من أشياء ظاهرة . ولقد بادر كافور الإخشيد إلى جمع علماء مصر لديه وكلفهم قراءة الخط المرموز فأبدوا عجزهم عن ذلك ؛ فاضطُر كافور الإخشيد إلى إعادة السفينة الحجرية إلى شاطئ النيل لاستعمالها كسابق عهدها، ولم يكادوا يرون السفينة تسير فى النيل حتى تبين أن الطلسم قد فسد بمجرد وقوع نظر الإنسان عليه أو بخروجه من البحر إلى البر .

ولا تزال تلك السفينة الحجرية تحت سلم زاوية السلطان مملوءة ماءًا زلالاً براقًا، يستسقى منها الرائح والغادى من الإنسان والحيوان ليل نهار، دون أن ينقص من مائها شىء ، فهى مفعمه دائمًا ولا يعرف من أين يأتى إليها هذا الماء ! وإذ إنها على طريق بولاق فهى عرضة لمرور الرائحين والغادين، وهو مشهد رائع . وقد نقش على جوانبها الأربعة ديوان سليمان عليه السلام من الإنس والجن والطيور والوحوش من الكائنات الحية مصطفه صفا بأشكالها وصورها، بقلم بديع أخّاذ ، كأنه قلم بهزادشاه قلى الرسام الإيرانى الشهير . وفى الحقيقة أنه مشهد عظيم وديوان فخم جدير بالرؤية والمشاهده ، لأن من يدقق النظر فى هذا الديوان السليمانى يُجَنُّ ويُفتَن ولا ريب، بل إنه يهون عليه الدنيا وما سوى الله من الكائنات ؛ حيث يلهم ويتساءل فى نفسه قائلاً : إذا كانت هذه الدنيا لم تبقَ لسليمان الذى كانت الإنس والجن والطيور والوحوش خاضعة له، فما بالنا نتمسك بأذيال هذه الدنيا الفانية والعَرَض الزائل؟!

ومن خواص الحجر

في جبل خضر بديار مصر نوع من الحجر يُقال إنه إذا وضع في أي فرن من أفران الخبز فاض العجين الذي به حتى يتدفق ويطفح، هكذا يقولون، ولكن كاتب هذه السطور لم ير ذلك بنفسه، إلا أني لما ذهبت بأمر من إبراهيم باشا إلى حوش عيسى لتحرير الحجاج المغاربة رويت لي هذه القصة، وقد قالوا إنه لا يزال من هذا الحجر شيء ما موجود .

وطلسمات المقياس

في جوانب حوض المقياس الأربعة خط غريب، من أثره الفعال النافذ أن يفيض النيل المبارك في كل عام .

وطلسمات أخرى للمقياس

أن سيدنا الشيخ [بترني ؟] قد أنشأ بداخل حوض المقياس تمثال تمساح، فمن ذلك اليوم لا يجري مع النيل ولا يأتي التمساح إلى أسفل ، وإذا عدَّى وفات التمساح بقوة الفيضان فإن بطنه تنقلب إلى أعلى ويهلك حالاً . فلذا يشتد خوف التماسيح عند الوصول إلى هذه النقطة فتأخذ في بلع الصخور الكبيرة فيثقل وزنها وترسب في قاع اليم، حتى ينتهي موسم الفيضان ويصفو النيل ويروق ماؤه، متغذياً بالطين والوحل في قاع النيل مدة ثلاثة شهور ، ثم تعود من حيث أتت .

ومن استخراجات النجوم

بباب القصر بمصر دير عظيم وهو الآن مدرسة، كان الكهنة القدماء قد أناروا به صورة صقر مطليٍّ بالذهب ومنقوش عليها باللغة اليونانية أن نبي آخر الزمان سيكون

على هذه الصورة والشكل، وستفتح أمته مصر وتجرى العدالة والإنصاف بها . والفاتحون لمصر هم الذين يأتون بعد محمد صلى الله عليه وسلم فى سنة ١٨ هـ فى عهد الفاروق عمر بن الخطاب ووزيره عمرو بن العاص، حيث رسموه مع ألف راكبًا جملاً أبيض وصقر الشباب رسمًا واضحًا على المرمر الأبيض، وعلى الصورة المنقوشة آية الإنجيل القائلة : إن هذا الرجل من سليل أزيون آذر. بيد أن الفجرة قد أزالوا صورة سيدنا عمرو بن العاص بمصر .

وطلسمات القلعة الداخلية

سبق وصف القلعة الداخلية أنه يوجد فى كل من العمدان الثمانية والأربعين التى فى ديوان خانة قلاوُن فن عظيم .

والحق أن بمصر مئات الآلاف من العجائب والغرائب ، ولقد شاهدت الكثير منها فكانت تحير العقول وتبلبل الأفكار من روعتها وجمالها .

الفصل السادس والخمسون

بيان المأكولات والمشروبات والنباتات والمثمرات التى توجد بمصر ولا توجد ببلاد الروم [الترك العثمانين]

قبل كل شىء يوجد فى الديار المصرية سبعة عشر صنفًا من **التمر** لا نظير لها فى بغداد والبصرة والإحساء، فهى خاصة بمصر ولذيذة جدا، **فالبلح الأبيض** ثلاثة أنواع ومنظم مثل البلح الحستاوى فى بغداد، ويذوب ويتفتت بنفسه كأنه سكر، وهو غض طازج جدا يكاد يذوب فى فم المرء من نعومتة ولطافته ، وهناك نوع آخر أقصر منه فى الطول، نواته صغيرة تشبه الشعير، وهذا أيضًا غض وناعم مثل سكرالنبات الحموى . ونوع آخر أبيض عادى له شذى كالمسك، إلا أن هذه الأنواع الثلاثة من البلح لا تجف جفافًا كبيرًا من شدة الحر حتى تصلح للنقل من بلد إلى آخر ، فهى طرية وغضة دائمًا، تباع رطبة، وليست من الكثرة حتى تصدر إلى الجهات .

ويأتى بعد هذا **البلح الأصفر**، وهو أنواع أيضًا وكلها لذيذة، من شدة نظافتها وبريقها لا تجفف أيضًا وتصرف رطبة . وأما **البلح الأحمر** فأنواعه خمسة ، أحدها البلدى الذى نشأ فى بلدة القاهرة على ماء النيل كبير الحجم وهو لطيف ولذيذ ، وآخر يقال له **البلح السلوانى**، وكذا البلح المدنى والحموى والشامى والبستانى ، والرطب منها لذيذ ومقو جدا . وما عدا هذا فإن هناك نوعًا من **البلح البنفسجى** لذيذ جدا وناعم مثل اللبان أو السكر، يكمل نضجه على الشجر . **والبلح الأسود** ثلاثة أنواع أحدها طويل الشكل والآخر مدور والثالث صغير الحجم . وهذه الأنواع الثلاثة أيضًا إذا نضجت تمامًا تكون فى غاية اللذة . والبلح سبعة أنواع ، منها صنف ناشف

وجاف جدا، صلب كالحصى، يوضع فى قِرَب من جلود الجمال ويُذهب به إلى مصر وغيرها من البلدان، وهو يشقق مثل الحصاة والزلط . ولو لبث فى مكان ما عشر سنوات لا يتسرب إليه الفساد ولا تأكله الفئران ، وقد يرطبونه فى البلاد الأخرى بالماء ويأكلونه ، وهو بلح جاف وصلب جدا . وهناك صنف يقال له **البلح الصعيدى** ربما كان عشرة أنواع ، **والبلح الأسوانى** هو الذى يوجد فى جهات الشلال وأسوان ، وهو بلح لطيف ولذيذ، ويوجد نخل ربَّانى طويل القامة كبير الثمرة حتى تبلغ الواحدة منها سبعين درهمًا أو مائة درهم وكأنها قبضة من قبضات الإنسان ، وبذرتها جوفاء كبيرة تُتَّخذ وعاءً ، وثمره ليس لذيذًا ولا سائغًا؛ فلذا لا يأكله إلا الفلاحون ، فيضعونه فى زنابيل من الطين ويجولون بها فى البلاد والقرى . وهناك **البلح القدرى** مثله كمثل العقيق اليمنى صغير الحجم ولونه أحمر وفى غاية اللذة والحلاوة، يصدر بالزنابيل إلى إستانبول وسلانيك وغيرهما من البلاد النائية . وصنف آخر يقال له **البلح البرلسى** كبير الحجم وأحمر اللون ومدور الشكل، لا يؤكل كثيراً وهو رطب، بل يتخذ منه نوع من الطرشى فى الجرار فيكون من ألذ الأشياء، وحامضه مفيد للكبد وملطف له ، يستخرج منه الخل الذى يفوق غيره من أنواع الخل .

هذا وفى مصر يخللون **البصل** بطريقة مزعجة للإنسان ، حيث تفوح رائحته الكريهة ، وهو مفيد للفلاحين إذ يقولون إنه دافع للبلغم . وهناك **مخلل الجُبْن** وأعنى طرشى الجُبْن ويتخذ من الجُبْن (= أى المش) الموضوع فى الماء المالح المحفوظ مدة سته شهور فى دنان مقفلة ، بحيث إذا فتحت هذه الدنان تفوح منها روائح كريهة يفر منها الروم (الترك) خشية أن يهلكوا من نتانتها، ولكن أولاد العرب يتجمعون حول هذه الدنان فرحين حيث يفتُّون الخبز فى ماء الجُبْن المدود وكأنه ماء الخشاف، فيأكلونه هنيئًا مريئًا مع نبيذ الديدان التى ترعرت وكبرت حتى ظهرت لها أجنحة. ولا يكتفون بذلك بل إنهم يقيمون الولائم والعزائم بعضهم لبعض من هذه الأكلة المنتنة .

الليمـون قاطع السـم هو نوع من الليمون الأصفر اللون المدور الشكل ، غير أنه كثيـر الماء رخيص الثـمن جدا ، يمكن شراء مـائة حبـة منه فى مـوسمـه ببـارة واحدة، تعطى للإنسان إكسير الحياة، وهو منعش للروح الخـالدة فلذا يطلقون عليه اسم قاطع السموم .

الليمون الحامض، يوجد بمصر من هذا الصنف شىء كثير جدا ، حيث يأتى كل سنة من إستانبول مندوب من دار الحلوى السلطانية الخاصة ليشرف على استخراج عصير هذا الليمون الحامض وتعبئته فى قنانٍ كثيرة تعد بالمئات والآلاف خصيصًا لجلالة السلطان، وذلك بفضل معاصر خاصة تنتج شرابًا .

والليمون الحلو يوجد بمصر بكثرة عظيمة، وبها **التين الحلو** اللذيذ **والرمان** وسبعة أنواع من **العنب والخوخ والمشمش**، وأما **البرقوق والزيتون** فقليل جدا .

والكمـثرى والسـفرجل يأتيـان بكثـرة من الفيـوم ، كمـا أن **التـفاح** والكمـثرى والسفرجل تأتى به السفن من طور سيناء إلى السويس ومنها بالجمال إلى مصر التى ليس بها تفاح كثير، وأما **الموز** فكثير كالجميز كثرة فائقة .

وشجر الجميز كشجر الدلب ليست ثمارهمـا فى نهاية الأغصان والفروع بل فى الجذوع ، وثمرة الجميز هذه لطيفة لطالبى الصحة، فهى كالتين منها الأبيض والأصفر والأحمر، لذيذة وشكلها الظاهرى كالتين إلا أنهـا جوفـاء ليس لهـا بذرة . فـهى تنبت مجمعة مـائة أو مـائتين وتبـاع مـائة واحدة منها ببـارة واحدة، بيد أن الحصول عليها وجنيها لمن أشق الأمور، حيث إن الإنسان إذا لم يصعد إلى شجرها قبل نضج الثمار ليقطع سُرَّتها بسكاكين عوجاء خـاصـة، فلا تكون الثمـار حلوة لذيذة، وهى فى الجملة ثمرة طيبة ذات رائحة قوية سهلة الهضم ومقوية جدا . ومنعًا لها من إغارة الطيور من العصـافير والبجعان عليهـا ، فقد يغطونها بِشِبَاك كالتى لصيـادى السمك. وظل هذه الأشجار وارف ظليل لا تؤثر فيه الشمس مطلقًا، إذ الهواء يتخلله بكل سهولة، والذى ينام فى ظلها يقوم نشطًا مستريحًا كأنه لم ينَمْ ولم تفتر همته .

ثمرة النبق مثلها فى الروم ، وهى مثلها فى اللذة والطعم والحجم تقريبًا إلا أن النبقة هذه تحتوى على بذرة واحدة وتلك فيها ست بذرات، ثم إن النبقة توجد فى أيام الشتاء وتكون على قدر الجوز وأصغر منه، ولونها أحمر فاتح وأصفر فاقع وأحمر قانٍ، وشجرها عظيم وطويل ويعمِّر كثيرًا ، ففى ضريح منصور الأنصارى فى مصر شجرة من النبق عاشت ألف سنة ، تثمر كل وقت ثمارًا غضة لطيفة، بذرها كبذر الكرز، الأمر الذى يحمل المصرى على أن يقول إن كرزنا هو النبق، غير أن طبيعة هذه الثمار قابضة .

وثمر الدوم مثله كمثل بلح طرابزون فى غيرها من البلاد، وهى فاكهة طازجة لطيفة لزجة تلصق بفم الإنسان مثل الغراء، وهو ثمر مقوٍّ لذيذ شجرته طويلة القد والقامة .

وثمر الخيار، له شجر كشجر الجوز وأوراقه أيضًا قريبة من أوراقه، وله زهور صفراء وطول الثمرة ذراع أو ذراعان ، وهى كالثعبان جديرة بالمشاهدة والرؤية، إذ هى فى الأول لونها أخضر ويسودُّ عند النضج، وفى جوفها عروق ملتوية وحلزونية من العسل الأسود . يُدْخِله الحكماء فى تركيب المعاجين الطبية ، وهو مسهل قوى يتخذ منه مربيات لطيفة، ونافع مثل السكر . وبالجملة هو دواء مقبول ومعتبر، ويتخذ من زهره الأصفر المربيات والخمائر المقبولة لدى الخاص والعام ، بيد أن أشجار هذه الثمرة مملوكة للميرى لا يستطيع صاحبها أن يقطع من واحدة من الخيار شبرًا منها؛ إذ هى أمانة الحكومة لدى هؤلاء الناس من الملتزمين، حيث تدلهم الحكومة لتصديرها إلى الآستانة العلية لاستعمال الملوك الخاصة، هذا والبيع والشراء فى هذا الصنف لا يكونان إلا من قبل الميرى حيث الثمار تبقى غضة طازجة قائمة على الأشجار، فتعد واحدة واحدة وتقيد فى الدفاتر . وويل لصاحب الأشجار إذا نقصت واحدة من تلك الثمار .

وكذا **شجر السرو** كثير جدا. وأما **فستق الشام** فلا يوجد عدا فى حديقة نقيب الأشراف . وكذا **شجر الجوز** توجد شجرة منه فى غيط الناظر أغا الكائن تحت قلعة الكبش وليس هناك سواه . بيد أن فى الفيوم شيئًا كثيرًا من هذه الأشجار .

شجر الأرز يشبه الجوز إلا أن أوراقة صغيرة وغصونه مليئة بالعناقيد الشبيهة بالسبح، فإذا نضجت هذه الحبات يثقبونها ويتخذون منها المسابح، ثم يتعجبون منها فيقولون: يا سبحان الله كيف أن الله قد خلق لعبيده حبات السبح مدورة على الأشجار؟! ولأجل ذلك يحمدون الله تعالى ثلاثًا وثلاثين مرة بقولهم: الحمد لله. ثم : الحمد لله والله أكبر. حينما يشاهدون صنع الله الذى أتقنه .

شجر السنط شجر سميك وضخم على قدر أجسام عدة أشخاص، ملتفة أوراقة كأوراق شجر الطرفاء وليس له ثمر معلوم، يتخذ من خشبه السفن والوقود ولا يترك حين الاشتعال والاحتراق رماداً أبداً بل يترك ترابًا أحمر، فهو شجر قوى جدا، ورقه يافع وهو يدق فى الهون للإسهال ويخلط بالعسل ثم يؤخذ على الريق كل يوم صباحًا . كما أن خشبه قوى وشديد جدا، حيث إن السفن المصنوعة منه تعيش فى البحار مائة سنة . ولقد وجدت أخشابًا من السنط هذا فى أساس بعض الأبنية القديمة التى مضت عليها ألف سنة بل ألف وخمسمائة سنة وأكثر، وقد صارت مثل الأبنوس فى الصلابة . فلا يوجد على وجه الأرض شجر أقوى وأشد من هذا الشجر (السنط) ومن شجر البقس ، ويقول البعض إن شجر العالم الجديد هو هذا، ولكن جو مصر وهواءها قد غير ألوانه .

وهناك **شجر السباح**، لا يكبر كثيراً وأوراقه كالطرفاء صيفًا وشتاءً مخضرة، تنمو كثيراً فى شواطئ النيل ، وهو مقبول فى مصر أيضًا ولا يثمر أبداً.

شجر الحناء يشبه البرقوق فى بلاد الروم ، ورائحته الزكية القوية تؤثر على الإنسان بفضل زهرة له لطيفة، حيث يجمعها البستانيون ويقدمونها هدايا للأعيان، وليس له ثمر أيضًا غير رائحتة الطيبة المنعشه للأرواح والمفرحه للقلوب .

وليس هذا الشجر هو الحناء الذى تستعمله النساء فى صبغ أياديهن وأقدامهن، فإن ذلك ينشأ من شجيرات توجد بالكثرة فى بلدتى (بلبيس) و(قارن) تسقى بمياه السواقى دائمًا حتى يأتى الموسم حيث تحتشد النساء والصبيان ويقطفون الأوراق

ويطحنونها فى الأرحاء . وهكذا ينتج الحناء ذات اللون البديع كل البدعة، وكم ابتهجت حينما رأيت والدتى قد خضبت قدمها بتلك الحناء البديعة .

شجر الصفصاف يوجد بكثرة فائقة بمصر، ورقه مفيد ونافع لليرقان، حيث يسحق شجره فى الهون ويُعصر ماؤه ويوضع فى كأس ويبقى ليلة فى العراء ثم يُشرب منه صباحًا على الريق ، ويزول الداء بإذن الله ويقتل الديدان أيضًا فى جوف الإنسان .

شجر الحور يوجد هنا وهناك ولا سيما فى الحدائق ذات المياه ، ويوجد بكثرة فى كل مكان .

شجر التوت منه الأبيض والبنفسجي والأسود. أما التوت الذى حوالى قصر الحاج ذى الفقار بك، الكائن فى شاطئ بركة النيل، فليس له نظير فى الربع المسكون، ولا يمكن أن يجتث جذع الواحدة منه إلا أربعة رجال أيضًا على الأقل، ولكن أغصانه وفروعه ممتدة إلى جميع جهات القصر فتظله تمامًا ، بحيث يوجد ستة وأربعون عمودًا للبناء تحت تلك الأغصان الممتدة والمتفرعة ؛ وهكذا نشأ من ذلك ديوان عظيم مظلّل بالدوحة العظيمة يسع جلوس ألفَىْ شخص فى مصطبته الواسعة العالية للطعام كل يوم . ولهذه الشجرة الكبيرة ثمرة توت كبيرة لذيذة لونها أبيض وماؤها وحلاوتها كثيرة، والخلاصة أن ليس لها نظير فى الدنيا .

شجر الآس فى غاية الوفرة والكثرة ولا يثمر مثل آس حلب .

شجر الأثل له ورق كورق السرو، وليس شجره كشجر السرو وليس له ثمر أيضًا، وخشبه مفيد للصناعات وحطبه للوقود .

شجر التمرالهندى يوجد بالكثرة فى الحدائق وله ثمر ولكن ورقه مضحك.

شجر الجوز سبق ذكره .

شجر السكسبان شجر معمر كثيراً، وهو شجر صغير ينمو فى أطراف حدائق قصب السكر ، حيث له زهره ذات رائحة مانعة لدخول الحشرات مثل الفئران والعرس لقرض القصب المذكور ، وإن الفحم الناتج من شجره يضعونه فى الحقول .

وهناك عدد كبير من الأشجار أضربنا عن ذكرها لأن ذلك يطيل بنا الكلام والحديث ويمنعنا من ذكر أشياء أخرى مفيدة فلذا اكتفينا بهذا .

الفصل السابع والخمسون

فى بيان النباتات التى تخرجها تربة مصر الطيبة من نوع المأكولات

الموز ثمر ظريف جدا، وإذا قلت إنه شجر من الأشجار فليس هو كذلك إلا أن قده وقامته كالشجر تماماً . ينمو كل سنة ويعلو عن الأرض مقدار قامة شخص، وسُمكه على قدر فخذ الإنسان ، داخله ملىء بالماء ؛ إذا عصرته تدفق الماء، وله أوراق خضراء كالألحفة والأكلمة وكأنها أعلام خضر من أعلام السفن ، ومن خلال الأوراق هذه فى الندوة تتدلى عناقيد ثمر الموز . وكل عنقود يشبه مائدة الشموع، ويتجمع الموز حول دائرة (عجلة) على صفين كأنها الباذنجان الأصفر يزيد عددها من مائة إلى مائتين . وحين ينضج يكون قد اصفر اصفراراً كاملاً وصار مثل الكهرمان فيبادرون إلى قطعة والشروع فى تناوله. نعم إنه يشبه الباذنجان فى الشكل إلا أنه لا يحتوى على بذور فى جوفه مثل الباذنجان ، فهو يكاد يكون معجوناً نباتيا لطيفًا مقويا، فيزال قشره من طرفه بكل سهولة ويصبح أكله بالسكر أيضاً. وهو مفيد جدا إذا إن أربعًا أو خمساً منه تساوى قدراً كبيراً من اللحم فى قوته الغذائية، وعلى الرغم من ذلك فهو سهل الهضم ومفيد للجسم جدا ، كما أنه يزيد فى قوة الإبصار .

يقال إنه خلق خصيصاً لأجل سيدنا أويس ، وقصته هكذا: لما بلغ سيدَنا أويس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد خرج فى غزوة أحد وسقطت ثنايا المباركة ، بادر أويس أيضاً إلى خلع أسنانه وأضراسه واحدة بعد الأخرى، قائلاً : هل هذه هى التى سقطت يا ترى من فم الرسول؟ أو هى الأخرى ، وهكذا أتى على

آخر الاثنتين والثلاثين من أسنانه وأضراسه بالخلع والقلع فى سبيل حبه الشديد لرسول الله وتعلقه به، وقد كان يُلقى فى أثناء ذلك خلوف فمه على الأرض ، فقضت حكمه الله تعالى وقدرته البالغة بأن يخلق الموز هذا من ذلك الخلوف واللعاب الذى سال به فم العبد المخلص ، وقد انتشر فى بلاد اليمن وانتقل منها إلى سائر الديار والبلاد ، وعلماء اليمن مُجمِعون على هذا القول .

وشجر الموز ينبت كالقصب من الأرض فإذا أثمر الواحد منه يقطعونه فينبت آخر بجانبه ، هكذا خُلق ونشأ ولا تغيير لخلق الله . ويوجد فى مدينة بيروت من هذا الشجر شيء كثير، فلذا اهتم به الميرى وعين لضبطه لجهته أغا خاصًا موكلاً بالمال الذى يؤخذ عنه . ويوجد منه فى مصر ودمياط شيء كثير.

وأما **الخيار** فأيضًا كثير بمصر ولكن بذوره وتقاويه تأتى كل سنة من خيار الشام، لأن التى تنبت بمصر تنقلب إلى العَجُّور ، فلذا يُضطرون إلى إحضار بذرة الخيار من الشام كل سنة .

والعجور هذا مثل الخيار إلا أنه مخطط ومعوج .

القثاء (قشاء) ، وهذا نوع آخر من الخيار طبيعته باردة ، وفى القرآن الكريم آية بها لفظ ﴿ وَقِثَّائِهَا ﴾ (البقرة ٢/٦١).

ثم **البطيخ الأصفر** ، أعنى القاون (الشمام) ينبت بمصر ويستمر سبع سنوات ، حيث يزرعونه ثلاث مرات، ويحصلون منه فى سنة واحدة على ثلاثة أصناف من القاون. والشمام أو ثلاث مرات من هذا الصنف، أولها، (دميرى) وهو نوع من القاون المدود المضلع الأخضر اللون الكثير اللذة .

ثم " **شلاّية** " الذى ينبت فى أرض الخانكة، وهو فى غاية اللذة والحلاوة .

وأما **البطيخ** " فيوجد تقريبًا فى جميع مدن مصر وبلدانها ، إلاَّ أنه رخو طرى ليس بشيء ، ولكن بطيخ البرلس جيد، إذ منه ما يكون كبير الحجم رقيق القشر أحمر الجوف احمرارًا يكاد يكون مثل دم الأنف العليا . وهناك بطيخ آخر أزرق اللون أجوف

ملىء بالماء وهذا الصنف يُرمى فى الروم ويُنبذ ولا يلتفت إليه، ولكنه يباع فى مصر ويقدر فى بعض الجهات بقطعة من الذهب ، بمقتضى جو مصر وهوائها يفيد الإنسان وينعش روحه ، فإن جوف هذا البطيخ كأنه علبة من العقيق . وإذا شرب من ماء هذا البطيخ مريض أشرف على الهلاك من شدة الحر فنجاناً أو اثنين فإن جسمه يبرد ويصير كالثلج ولا يبقى به أثر من الحرارة، ولا شك فى أن هذا شىء عجيب وحكمة بالغة من حكم الله القادر على كل شىء. ولقد أسهب داود الحكيم فى مفرداته فى البطيخ بما لا مزيد عليه، ولا يوجد هذا فى أى بلاد أخرى ، فهو صنف خاص ونوع مستقل .

العبدلاوى نوع من الشمام، إذ طعمه مثل الشمام والقاون، وشكله مستطيل مدبب الطرفين سميك من الوسط مقدار شبر أو شبرين، وفى جوفه بذور كبذور الشمام، وهو أبلق اللون كالثعابين البلقاء ، غير أنه من جهه الطعم أقرب إلى الحموضة والملوحة، وله طبع بارد ومدر للبول نافع لأداء المثانة ، ولما كان شكله على شكلِ وصورةِ الحيات والثعابين فإن المرء قد ينفر من أكله وينزعج من شكله . غير أن كتب الطب تقول إن العبدلاوى هذا خُلق بمعجزة من معجزات النبى عليه الصلاة السلام ، وهى أن كَفَرة قريش حينما تضايقوا وانزعجوا من طلوع شمس النبوة المحمدية وظهور نور الرسالة الأحمدية عمدوا إلى إلحاق أذى وإهانات شديدة وعديدة فى مناسبات كثيرة بالنبى عليه الصلاة والسلام، ولكنهم بينوا فشلهم جدا، فأخذوا فى إعمال الحيلة والشيطنة والمكر والخديعة، فمن ذلك أنهم بادروا إلى استيراد كمية من العقارب من بلاد العجم فى داخل علب ، وهى عقارب ذات سموم فعالة وتسمى بالعقارب الكاشية ، ولا تزال هذه العقارب لها شهرتها فى أنحاء العالم . فالكفرة القرشيون الملاعين ، قد أخذوا العلبة المذكورة ومعها هدايا أخرى وقدموها إلى الرسول على أمل أن تلسع تلك العقارب سيدنا الرسول صلى الله عليه وسلم حينما يفتحها . وقد سألهم النبى عن هذه الهدايا فأجابوا بقولهم : يا محمد إنها نوع من الشمام لم يظهر له اسم بعد . فقال النبى: إذن يكون اسمه " العبدلاوى " . وذلك لأن النبى عليه السلام كان شغوفًا

بالشمام ومحبا لتناوله . وقد بادر بمحضر من جميع القرشيين إلى العلبة ورفع غطاءها قائلاً : بسم الله الرحمن الرحيم . وإذا بجميع العقارب قد استحالت وانقلبت إلى ما ليس بمصر حينذاك الشمام العبدلاوى ، وأكل الرسول منه بشهية ووزع الباقى على الصحابة من الحاضرين بالمجلس، وتولت الدهشة والحيرة القرشيين، وقد أسلم منهم سبعون شخصاً بمجرد رؤية هذه المعجزة . وأما المنكرون المصرون على ضلالهم فقد قالوا: حقا إنك يا محمد لساحر عظيم . وقد انصرفوا خائبين يعمهون فى غيهم وضلالهم القديم . الآية ﴿ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي ﴾ (الأعراف ١٧٨/٧). والعبدلاوى هذا من بقايا النبى عليه السلام حتى الآن . وهذا هو السر فى أن هذه الفاكهة تشبه العقارب وأنها خاصة بمصر لا غير .

العجور الأخضر ، وهو مثل العبدلاوى إلا أنه أخضر، ومنه الأبلق المائل إلى الأخضر، وهو أشبه أيضًا بالعبدلاوى من حيث العوج والالتواء ، وله بذوره فى جوفه، وطبيعته باردة وطعمة لا يشبه طعم أى شىء آخر من النعم والأطعمة . واسمه فى بلاد الروم **قرعة مصر**، وهى قرعة مستديرة حائرة بين العجور والقرع ، وهذا الصنف فى غاية الكثرة . وهناك من أنواع القرع وأصنافها العديدة ، قرع المحشى الذى كالدورق ، وقرع الماء والقرع الإفرنجى ، فهذه الأصناف توجد بالكثرة .

ثم **حب العزيز** ينبت فى شواطئ النيل ، وهو حب كالحمص لونه يضرب إلى الصفار، وهو من البقول اللذيذة .

ثم **قصب السكر** يوجد فى جميع قرى مصر، وهو محصول عظيم.

الكوركاس (لعله القلقاس) مثله كمثل فجل بورصة (فى الأناضول) أسود اللون يأكله الفقراء .

القرنبيط مثل الكرنب نعمة من نعم الله ، فله زهور صفراء .

وهناك ما يسمى بالتركى التين الإفرنجى **(التين الشوكى)** له شجر طوله كطول شخصين من الناس وهو أخضر دائمًا وكأنه عبارة عن أوراق سميكة مفروشة

ومنبسطة بعضها فوق بعض كأنها مرصوصة فوق بعضها ، هى شجرة تتألف من أوراق سميكة لا توجد ثمارها إلا على أطراف هذه الأوراق السميكة الغليظة قد يبلغ عدد التينات التى تحملها تلك الأوراق خمس عشرة تينة تشبه الدورق، لونها أخضر ومنها الأحمر، وجوانبها الأربعة مليئة بالأشواك ، وبداخلها بذور مثل التين ولكن طعم هذا التين لا يشبه فاكهه أخرى ، وهو مغذٍ ومفيد جدا .

لوز النبى ، نوع من الشجر المسمى (أم غيلان) يفترش الأرض، قصير القامة ليس له طول، عليه عدة ثمار كاللوز فى الطعم واللذة، وقد خلقها الله تعالى خصيصًا لنبيه [محمد] حينما كان يتردد بين الحجاز والشام للتجارة ضاربًا فى تلك الطرق الطويلة الخالية من الأشجار، فكما هو موجود فى الحجاز والشام ، ينبت بالكثرة فى مصر أيضًا فهو مقوٍ ومغذٍ ولذيذ .

الملوخية : يقول البعض من الظرفاء إنها الملوكية، لأنها كانت طعامًا خاصا ببعض الملوك، وبالجملة هو نبات كالنعناع أخضر يطبخ ، مثل السبانخ، ومع كونه سهل الهضم مقوٍ جداً يأكله السود بكثرة إذ يفيد منه الطواشية .

البامية نبات أخضر مسدس الأضلاع مكسو بأشواك دقيقة، إلا أن أشواكه بعد الطبخ تتلاشى وتزول، فإذا طُهى باللحم والدهن وعُصر عليه الليمون يكون ألذ مما يمكن ويُتصور من الطعام . وفى جوف كل واحده منه حبات صفراء من العدس وحمراء أيضًا ، وقد يطهيه البعض بالثوم واللبن حيث يجعلونه بورانيا فيكون طعامًا لذيذًا وعجيبًا جدا .

ويوجد بمصر **الثوم** ولكنه ردىء جدا ومضر ، يكاد يكون من السُّمِّيَّات القتالة ، فلذا ليس مقبولاً عند الناس، فيضطرون إلى استعمال وتناول الثوم الرومى .

وليس فى مصر أرخص من بصلها وملحها ولا أكثر منهما .

كما أن **الكتان** كثير ولكن أحسن أصنافه ما ينتج فى الفيوم، إذ إن كتانها نظيف وقوى جدا، وثوب من قماش الكتان يساوى ١٥ بارة ، إلا أنه لا يستحمل كثيراً، فقميص منه لا يلبس إلا شهرين على الأكثر .

ثم **النيلة (الزهر)** نبات يختلف لونه بين الأخضر والأزرق وحين ينضج يجمع ويوضع فى دنان عظيمة وأزيار كبيرة يطبخ فيها، ثم يدق دقًا شديداً بالمطارق حتى يتحلل ويتفكك، ثم يُنقل إلى أزيار أخرى حيث يغلى حتى تنزل الرواسب إلى القاع ويبقى الخالص على الوجه فيؤخذ ويُجعل أقراصًا كالسبائك تباع للصباغين بواقع الأوقية الواحدة منها بأربعة قروش ، والنيلة هذه لا توجد فى البلاد الهندية .

وأما **البرسيم** فهو نبات عجيب ينمو ويزدهر فى اليوم التالى لبذره وزرعه، ويعلو شبراً فى الطول. مرعى خصب وعلف لجميع الحيوانات بمصر التى ليس بها مراعٍ ولا أعشاب ربَّانية (طبيعية) بأمر الله وحكمته .

القصب الريحانى (الغاب الريحانى) هو غاب طويل رقيق جدا ذو عقد بعضها فوق بعض، تُتَّخذ منه أنابيب التدخين . هذا وحُصُر مصر ذات ألوان ونقوش عديدة، تتلون كالحرباء بألوان كثيرة، ولا سيما ما يصنع منها ينشأ فى بحيرة الفيوم من مواد الحصر فيساوى الواحد منها مبلغ أربعين أو خمسين قرشًا . ولا شك أن هذا حاصل بمصر أيضًا، وقد يبدع بعض صُنَّاعها فى العمل حتى تكون الحصر آية فى الإعجاز والسحر .

الترمس حب كالبازلاء إلا أنه مبطَّط أصفر اللون مستدير، ينقع فى الماء المالح، وهناك من يطبخه ويأكله ، ومن يطحنه فى الطاحونة حيث يستحصل منه على الدقيق الذى يُستعمل فى تنظيف الأيدى ومسحها مما علق بها من الدهن قبل الغسل بالماء، لأنه يزيل الدهن والزفَر من أيدى الإنسان بكل سهولة، ولذا يوجد لدى أعيان مصر كلهم شىء كثير من هذا الدقيق، يُسْتعمل بدل الصابون بعد تناول الطعام إذ له رائحة ذكية أيضًا ، وقد يستعمله المترفُون لأجسامهم ونعومتها فى الحمام، حيث يدعكونها به

فيزيل الوسخ وآثار العرق حتى يجعل الجسم صافيًا كالبلور طريًا ناعمًا. ومن حسن حظ هذا الدقيق أنه يتمتع بأجسام الحسان والغانيات والعرائس، حيث تمسح وتدعك به فى الحمام للتنظيف والتلطيف والتطرية، ولكنه لا يفيد فى غسيل الثياب وتنظيفه مطلقًا .

وأما الفول فهو نوع من الصابون ينبت فى شواطئ الترعة الناصرية التى تمتد حتى الإسكندرية ، حيث يعمدون إلى هذا النبات فيجمعونه ويكومونه كالجبال فى مكان ما ويجزونه بالهباب (لطخ الدخان) فينقلب بعد ذلك بأمر الله إلى ما يشبه الزجاج، وإذا نقل هذا إلى مصر وأذيب بها بالنطرون مرة أخرى يتحول ذلك إلى البلور، فإذا لم يعرفوه حق المعرفة ودقوه فى الجرن ثم خلطوه بالعجين يكون غسولاً طيبًا مثل الصابون، يستعمل لغسيل، الأشياء السميكة مثل الأكلمة والأجواخ ، حيث يرغى ويزبد جيداً ويبيض الغسيل ولكنه لا ينفع فى غسيل الرفائع والرقائق مثل القمصان الرفيعة . وهذا شيء عجيب ولا شك لأنه نبات ينشأ فى مكان معشوشب ثم يحترق فى النار ويكون زجاجًا وحينما يختلط بالتراب وهو نبات يكون صابونًا وغسولاً جيداً ، وهو جدير بالنظر والالتفات إليه (يفعل الله ما يشاء) .

الحلبة : (هلبة) حب كحب العدس يُنقع فى الماء بأكياس تُصَرُّ وتدلَّى فى الماء حتى تنبت هذه الحبوب، وتخضر ملتفة ومتشابكة مثل شعور الزنج وهى مزدهرة بعروق بيضاء ، يأكلها الصبيان والصغار من الناس، وقد يُتخذ منه حساء لذيذ جدا .

ويمصر من الحبوب **القمح والشعير والفول والحمص والعدس والقطن والأرز والسمسم** بالكثرة الظاهرة أكثر مما هى فى البلاد الأخرى ، ولا ريب فى أن أرزها ألذ من أرز " وان " و " جيلان " و " الهند " وحبه أكبر وأكثر من حب ذاك، ولاسيما أرز المنزلة وفارسكور، ليس له نظير على وجه البسيطة، إذ لا يوجد معه الحصى والمواد الأجنبية ، والأرز السلطانى هو أحسن أنواع الأرز وأبيضه .

النطرون شيء كالملح يُستعمل فى مصر لتعجيل طبخ الطعام مثل اللحوم وغيرها مما لا ينضج سريعًا ، وذلك لقلة الحطب والوقود فيها . فلو وضع من النطرون شيء قليل على الطعام لأنضجه حالاً فى طرفة العين ، بيد أن استعماله وتعاطيه ممنوع من قبل الحكومة والدولة على الرغم من أنه يعجل الطبخ ، فكل من يقدم على استعماله يعرض نفسه لعقوبه الفتق، لأنهم يأخذونه ويعاقبونه بذلك ، مما يفضى إلى مشيه بعد ذلك متبخترًا كصاحب الدولة، ولذلك نرى أن أكثر أهالى مصر مصابون بالفتق ، حيث يطلق عليهم الظرفاء لقب "دولتلو" . وإذا قلت للمصرى فى أثناء الحديث "بهى دولتلو" (= يا صاحب الدولة) فإنه يتألم من ذلك وينفر ، لأن معناه بالرقة والكياسة: يا مفتوق !

ويستخرج النطرون فى مصر من بحيرة عظيمة واقفة أمام ثلاثة بحار مسماة بأسماء قبطية ، كائنة فوق الصخور الشامخة فى جبال الجانب الغربى من أراضٍ كاشفية بولاية البحيرة ، حيث يحمل منها بالجمال . جميع النطرون احتكرته الحكومة حتى الآن ، وهذا هو ما بقى من أموال قارون الشهيرة على وجه الأرض، وأما بقية أمواله فقد ساحت فى الأرض مع قارون فى بلاد البحيرة هذه. فالنطرون هذا شيء عجيب إذا وقع فيه حصان أو بغل، أو أى كائن من الموجودات، فإن ذلك كله يتحول إلى النطرون حالاً . وهذا شيء خاص بمصر فقط، فهى تصدِّره إلى جميع البلاد الأخرى، وفى بلاد الروم يستعملونه فى معامل الزجاج حيث يجعل الزجاج كالماء ثم يمحوه .

ومن خيرات مصر وبركاتها أن الغنم تلد الحملان ثلاث مرات فى العام، وأن الخضار موجود بها صيفًا وشتاءً.

فى بيان المشروبات

السوبية أعنى بوظة الأرز، سبق ذكرها .

الموزة هى البوظة التى تُستخرج من القمح، إلا أنها شديدة الإسكار ملعونة .

بريرليس مشروب يُتخذ من الزبيب الأسود يخلط بالبهار والسكر .

عرق البلح وماء العسل، ليس كالذى بالروم، فهذا مسكر شديد جدا ، يجعل الإنسان خائر القوى لا يستطيع الوقوف على قدميه .

بنج الشراب يتخذ من العسل الرومى والحشيش، يُخلطان ويبيتان ليلة فى الماء ثم ينخلان به صباحًا ويصفيان حيث يبقى ماء أخضر فهو شديد الإسكار ، فمن شرب منه جرعه لا يدرى أين يضع قدميه .

ماء الأسرار، وهذا أيضًا ينتج من خلط عَسل خليل الرحمَن (= الكرز) مع حبات الحشيش، حيث يبيتان يومين فى الماء ثم يصفى الماء ويرسب ما تبقى من الكرز فيطاف هذا الشراب على الحشيش بميدان البرميلة بالكئوس الخاصة، فينتشى بها من يريد ويظهر على ألسنتهم ما فى قلوبهم من الأسرار .

ماء عرق السوس نبات يأتى من الروم فيسحق فى المدقات وينقع فى الماء ليلة كاملة ثم يصفى بمخلاة جديدة من مخالى الخيول، حيث يحصل على مياه حمراء صافية يشربها الشاربون سائغين مرتشفين، إذ ليس له مرارة ولا كيف خاص . ولكن داود الحكيم وصفه وذكر له سبعين فائدة وخاصية ، منها – وهى الخاصية الكبرى – أنه ينظف المثانة ويطهرها ويدر البول ويخرج البلغم والفضلات والأخلاط كلها بسهولة ولين . وإذا لم يشرب أهل مصر ماء عرق السوس هذا فإنهم ولا شك يتعرضون للإصابة بداء الجذام من شدة الحر . هذا ما كتبه وذكره الحكيم المذكور ، والحق أن قوم مصر يشربون ماء عرق السوس هذا بالغدو والآصال لأنه نافع جدا .

ماء التمر الهندى، وهذا أيضًا مخصوص بمصر ليس له كيف ، سُكْر ونشوة ، إلا أنه مشروب منعش جدا كأنه يجدد الكبد ويبردها فيشتت الصفراء والسوداء لأنه مشروب حمضى .

وهكذا أكثر المشروبات موجودة بمصر ولكن أكثرها غير معلوم لنا .

الفصل الثامن والخمسون

فى بيـــــان المهن والمواد غير الموجودة فى مصر

يعلم الله وحده كم فى مصر من الرجال المصابين بالحَوَل والمكفوفين ، وعلى الرغم من ذلك لا يوجد أطباء عيون مهرة . وليس هناك الجرّاح الذى يمكن أن يُعالج " الفتق "، فالناس كثيرون بلا أطباء ، والعُصاة كثر بلا قضاة . لا يوجد فى مصر من يتحدث بمسكنة ، الغوغاء كثر والأصوات عالية. جنودها كثر بلا ضباط، ودخلها كبير بلا راعٍ أمين . هذه الكلمات قول مأثور يُقال عن مصر .

أسماء خارج قائمة الحبوب المعروفة فى مصر

خـرطل (= الخـردل) Kapliçiye، وجلودار ، وجلد ، heldine، Fazut، وحـمص، ولُوبيا ، وزعفران ، وقطن ، وفستق ، وكريز ، Kisne ، وأراسيا، ومشمشية Üvez، والفواكه مجففة = Kuruyemis، وفراولة ، ورُمّـان برى ، وتمر طرابزون ، وحب لشوم ، ومشمش ، وقسطل ، وبلوط ، ونبق ، Kuş yemiş. وحب الطير ...

أسماء خارج قائمة الأشجار المعروفة فى مصر

الأرجوان ، والدُلب ، وشجر الحور ، والزان ، والبَقْس ، والقرانيا ، والعرعر ، والزيزفـون ، والزان disbudak، والصنوبر ، والملح ، mörver، والبلوط، والملفـوف، والبندق ، والصفصاف .

وخلاصـة القول أنه لايوجـد فى مصر أحـد أنواع أشجـار هذه الثمـار المذكورة أعـلاه ، ويسـتـورد الخـشـب من جمـيع أنحـاء الأناضـول . فـالخـشب نادر ، ونقلة الخـشـب الواحـدة تزن ٨٠ أقـة خـشب ، تتكلف مـا بين ٢٠ و ٣٠ قـطعـة پـارة نقـدية . بعض الدكاكين تبيع أقة الخشب بقطعة نقدية، لذا فإن الفقير والغنى كليهما كانا يشـعـلان الخشب وروث البقـر لجَلْى النحـاس ، لذا أصـبح الجميع فى حاجة إلى الروث .

المعادن غير الموجودة فى مصر

لا يوجد فى مصـر معـادن كالحديد والنحـاس والرصـاص والقصـدير والفضـة والزئبق، أمَّا الذهب فيوجد القليل منه فى منطقة " جبل بيچاميم " . ويوجد زمرد فى الصعيد ، وفى النوبة يوجد ذهب ليِّن ويزعمون وجود ما يزيد عن ٧٠٠ بلطة ذهبية فى التراب ، ولكن أكثرها موجود فى ديار السمر، أى بلاد النوبة " أهل النوبة " . كان يتم تبـديل البلطة الذهبـيـة فى ولاية مـايمارور Maymaror بـ" خـرزة البـغل " . ويوجـد فى مصر جص أبيض ضمن المحاجر المعدنية .

ما فى مصر من زهور، بيان بالزهور المصرية :

أول حديقة فى مصـر هى جزيرة الروضـة ، بسـتان الشـمام، كان وكـأنه جنَّة إرم، ثم أصبح بسـتـانًا ثم حديقة ثم حقلاً للورود ، حيث يوجد قرنفل و بنفسج و ياسـمين وريحـان وريحـان مكى و ريحـان قنائى وصـدف و نرجس وحنَّـاء وزنبق وسنبل رومى وورد أبيض شقائق ذرى وعنق الجمل وبخور مريم وسوسن ورائحة العنبر ، وأزهار أخرى كثيرة جدا . ولكن أهل مصر ليسوا بمثل هذا القدر من الجمال والنظـافة، فـهم

لا يلتـفـتـون إلى الأشـيـاء مثل الزهـور ، اللَّهم إلاَّ الزهـر فى أرض النيل ، فـهـو زهور الأحبَّة ؛ يطلقون عليه عشب الروح ، ذلك هو نبات القمح .

بِدَع الحُكام المصريين

لو مات يهودى فى مصر فإنهم ينقلون الجثة ليلاً إلى المقابر اليهودية مقابل ٣٠٠ قرش، ويمنع النقل فى أثناء النهار .

الفصل التاسع والخمسون

أحوال شعب مصر ومناخها ومياهها.

المزايا والعيوب

لا يوجد فى مصر مصدر للمياه إلاَّ نهر النيل ، وجوها لطيف مثل جو " تبريز "، ولا يوجد بها ملاريا حيث إن الجو لا يُساعد على ذلك . والمناطق الداخلية بشكل خاص جوها لطيف جدا . أما مدن الجنوب فجوها ليس على نفس القدر من الجمال والاعتدال، وهى بلا نافورات وبلا أحواض وبلا بساتين وبلا حدائق. هذه الأشياء لا توجد فى المناطق العُلْوِيَّة الصعيدية، إلاَّ أن جوها جميل .

ومن يشعر بالمرض فى جنوب البلاد يتوجه إلى المناطق العُلْوِيَّة فى مدن الجنوب ، الشوارع ضيقة والمنازل مرتفعة ويصعد الأهالى إلى أسطح المنازل للتنسم واستنشاق الهواء الرطب ، يوجد هناك مداخل هوائية يحصلون منها على الهواء المنعش، وطبقًا للروايات فإن " أبو على بن سينا " قد عَلِم وحَبَس جميع هواء مصر وأعطى كل شخص بكرة هواء مقابل قطعة ذهب .

فى مصر تهب رياح جنوبية تُعرف بالرياح المليسيَّة وهى رياح حارَّة إلاَّ أن مياهها باردة كالثلج ، أما الرياح المعروفة بالخماسينية فهى تُزعج الناس وتجبرهم على المغادرة، وتترك المدينة غارقة فى التراب وتحت الرمال ، ومن شدة هبوب الرياح فهى تنقل سفن جدة إلى مصر ، وفى مصر لو هبت الرياح الجنوبية والشمالية خمسة أشهر فإن مصر تنعم بالوفرة لتعاقُب السفن عليها . وفى مصر مناطق جوها جميل جدًا مثل " جبل المقطم وتل قايتباى والعدلية وسبيل علاَّم والمطرية وبركة

الحـاج ". ويوجـد في المدن الجنوبية عدة قصور ، أما في أيام الخماسين فيُصبح وجه الفلاحـين أشبه بوجوه أصحاب الصرع بسبب الناموس والقمل والبراغيث وبق الخشب "اللهم احفظنا"، والسبب يرجع إلى أن بلاعات الطرقات تصبح آباراً راكدة . وفي أيام الخماسين يقومون بتنظيف هذه الآبار ، وخوفًا من الروائح الكريهة والمزعجة فإن بعض الأفراد من أصحاب المراعي والمزارع يدفعون بأطفالهم إلى المراعي الجبلية ، ومن جراء رائحة هذه الآبار فإن الأطفال الصغار تظهر في مقدمة رأس البعض منهم بقع بيضاء (قرع) وتتورم فوق المخ وتثقبه ويذوب المخ كالبالوظة ، ويخرج عن حدوده المعهودة، أي يتضخم ويموت الطفل البريء من جراء هذا الورم .

في أيام الخماسين ابتلى الله سبحانه وتعالى بني إسرائيل بخمسة ابتلاءات، وهي الطاعون والعقرب والحيَّة والمجاعة وهواء السموم ، هذه الابتلاءات الخمسة رفعها الله ببركة دعاء سيدنا موسى عليه السلام، وفي أثناء حلول هذه الأيام يبدأون في التصدق على أهل مصر، وفي أثناء هذه الأيام لا يجامع العقلاء زوجاتهم، لأنه لو أن هذا الجماع أنتج طفلاً فإنه يكون أعمى أو أعرج أو مشوَّهًا . تلك الأيام لو صادفت موسم الربيع فإذا ما جاء أجنبي وعاش في مصر فإنه ينعم بتمام الصحة والعافية، وذلك بسبب دعاء سيدنا يوسف عليه السلام الذي قال : ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ ﴿٤٦﴾﴾ (الحجر ١٥/٤٦)(*) فإن الوافدين من الغربة ينعمون بالصحة والغنى .

ولكن نقول مرة أخرى تكون عيون أولادهم حَولاء ، ويكون ابن العبد أعْور ، وعامة شعبها أصبحوا بُطناء لأكلهم الطعام النيِّئ ، وعلى الرغم من ذلك تُصبح نساؤهم

(*) قول يوسف عليه السلام كما جاء في القرآن الكريم: ﴿ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾ (يوسف ١٢/٩٩). (التحرير).

حوامل وتصبح أرجل الفلاحين كالقِرَب . وبعض علماء مصريين يقولون إن " يزيد " قطع رأس سيدنا الحسين وأرسله إلى مصر ، لذا فأتباع " يزيد " يتدحرجون فى ميدان الـ"روملى " ويضربون بأرجلهم على هذا الرأس المبارك ، فتتضخم أرجلهم لتصبح كالقربة ، ويُقال إن أولادهم يكونون كذلك .

مرة أخرى فإن وجوه وصدور العديد والعديد من الأشخاص فى مصر تتورم قطعة قطعة وتظهر فيها الخراريج ، ويطلقون على هذا الأمر " زحمة الأوروبى " وهو تعبير مهذب يعنى " جرب الأوروبى " ، والجرب منتشر جدا فى مصر ولا يعتبر عيبًا ، حتى إن الفلاحين يتناولون الطعام جنبًا إلى جنب مع أشخاص سقطت أيديهم وأرجلهم، لدرجة أن تفشى هذا المرض لا يزعجهم أصلاً ولا يسبب لهم أى قلق . والسبب وراء انتشار هذا المرض فى مصر هو حرية الجماع المُحرَّم حيث تتجول المومسات مجموعات مجموعات ويمارسن الرذيلة .

لغة أهل مصر شديدة الفصاحة ولكن الفلاحين من قوم فرعون " الأقباط " يتحدثون بلغة مخطئة ؛ فمثلاً كلمة " تعال اقعد " يختصرونها إلى " تَعاُعُدْ " . خبزهم هو الرغيف ، يقولون " شِلُيوهْ " بمعنى " ارفع " ، " مَيَّه " بمعنى " ماء " ، ودِى " بمعنى هذا .

أسماء فلاحى مصر

جاد الله ، وعطا الله ، وحيا الله ، وعبد الخالق ، وعبد الصمد ، وعبد الغفور ، وحمى الله ، وحكم ، وطه، ويس، ومرزوق ، وحامد ، وشرابى ، وطاهر ، وعبد الحى ... وما شابه، الجميع يلبس كل حسب مقدرته أنواعًا من الجُبَب ، أو عباءة حمراء ، وللنساء الشيفون والصيرمة أى القماش المقَصَّب. وألْبِسَة أرباب الصنعة أقمشة عديدة ومنقطة . إلا أنهم لا يرتدون سراويلات داخليا ، يتجولون بسيقان عارية صيفًا وشتاءً، جميع أهل مصر مسرفون ، بلا سراويل، أما علماؤها فلا يرتدون السراويل إطلاقًا ، ويتجولون دون أى حياء .

النسوة العاصيات

جميع السيدات أيضًا لا يرتدين سروايلات إلاَّ إذا كن من سيدات الأناضول، فهن يرتدين السراويلات وتوجد فى شعورهن أحزمة مُرَصَّعة، وفى أيديهن أساور، وعلى ملابسهن بروش، وعلى رءوسهن طواقٍ مُرَصَّعة بالذهب أو أخرى مُرَصَّعة بالفضة، وبعضهن يرتدين قفاطين أطلسية ومشغولات بالصيرمة، ويربطون أعلاها خُمُرًا سُودًا. وسيدات الأعيان يرتدين معاطف سمُّورية ويرتدين فى أقدامهن أحذية مُدَبَّبة وسماويَّة ويمتطين الحمير ويتجولن بها، أما فى مصر فلا توجد جميلات ، وحتى لو وجدت فلا يعشن، فلو حدث ولو واحدة فى المليون ووُلدت فتاة جميلة وصارت صبيَّة فإنها تصبح عيونها عوراء ويصيبها الحول .

أسماء النساء

مريم، وحوا ، وعذرة، وصفاء، وورقة، وأم خان (= ستخان)، وكلثوم، وربيعة، ورقية، وزينب، وستيتة وزليخة، وصالحة، ودمِرية، وعجيبة، وشناس، وطاهرة، وسامية، وماهية.

أما أسماء بنات الحبشة فإنها تُثير العجب . فمثلاً : حسيسة، وفسيسة، ونفيسة، وفتنة، وأشمتنة، وشمسية، وشمونة، وريحانة، وهدية، وحمرا، وقمرة، وغريبة، وجميلة .

أَعْرَاسُ فلاَّحى مصر

أولاً يتم عقد النكاح على قاعدة المذهب ، وساعة الزفاف يتجمع عدد من الأهل والأقارب فى الساحة . وتُطهى ملوخية وبامية وقلقاس ، ويُقدم الطعام للحاضرين . بعد حلول المساء يحضر العريس إلى الميدان وقد وضع شالاً على رأسه ويبدو فى قيافة الإنكشارية و فى خصره حزام مختوم وفى يده خنجر فضى

أو سكين لامع، ويأخذ فى التلويح بالسكين ويلف ويصول به فى الميدان ويدور به وهو يقوم بكسر بعض الأشياء ، وفى تلك الأثناء تكون العروس الحسناء كما لو كانت من الأشقياء وقاطعى الطريق . وتفتش عن زوجها وهى تصيح قائلة: لا بد إن وجدته أن أقتله .

حينما تنصرف يظهر العريس إلى الساحة قائلاً : حبيبى يريد قتلى ... فما ذنبى؟ فأنا أضع على طريقه كل هذه النقود . ثم يرمى بالنقود وهو يحصيها ويعدها على مرأى ومشهد من جميع الأشهاد كالدفتر ، ثم يتجول ويدور بين الحاضرين وقد أمسك فى يده بسكين خَشَبى ، وهو يصرخ قائلاً : لو وجدت حبيبتى سأقتلها . فى أثناء ذلك فإن العروس تظهر على الساحة مرة أخرى وبيدها سكين بينما يهرب العريس ، وهكذا كلاهما يظهر على الساحة عشر مرات بهيئات وملابس مختلفة وهم يعدون النقود ويرمونها أمام الحاضرين. فى النهاية تأتى العروس فى هيئة شيخ وتتحدث بكلمات حكيمة عاقلة ثم تنصرف ، أما العريس فإنه يحضر هذه المرة وفى إحدى يديه عصا وفى الأخرى سبحة كمسبحة الشيخ ، ثم ينطق بالشهادة ويُعلن التوحيد. على جانب آخر تُشعل المشاعل وتدق الطبول ، وتُقرأ القصائد والمواويل ويتم إركاب العروس على ظهر فرس مزينة ، ويلبسونها فروًا سمُّوريًا ويضعون على رأسها تاجًا له ثلاث ريشات متشعبة وبوجه صبوح باسم تمر العروس وهى تلقى بالسلام على الفلاحين ، وأما الأطفال والسيدات فيصيحون قائلين : " الله ينصر السلطان " .

تاج فرعون

هو عبارة عن قلنسوة كبيرة ثُمانيَّةَ الأضلاع أشبه بالقدر أو سنام الجمل، جوانبها مشغولة بالصيرمة ، وهى قلنسوة مُبطَّنة بالقطن و ذات باب مبطن بالقطيفة، أعلاها حجر من سيلان ، أطرافها مزينة بالفيروز و العقيق اليمنى .

فى هذه الساعة وفى تلك الساحة تنزل العروس عن صهوة جوادها قائلة: أين العريس ؟ تُشهر الخنجر الخشبى وتمسك بالعريس من لحيته بعد أن تكون قد أنزلته إلى أسفل، وبينما تريد هى أن تُقيِّده يدخلان معًا إلى الساحة، ويتم استرضاء العروس بأن يهب لها العريس منزلاً أو بستانًا أو عدة جوارٍ أو عدة أكياس من النقود، ويصبح الجميع شهوداً . بعد ذلك يُبعثر العريس التاج الفرعونى ويلقى بالخشبة، ومن ثم يحمل العروس إلى الكوشة ، ثم يفض بكارتها . تذهب العروس وهى بهذه الحالة من الاضطراب إلى والدتها ووالدها وتشتكى لهما وهى تُظهر دماءها . أما الأب والأم فإنهما يفتخران قائلين: ظهرت بكارة ابنتنا . لأن فى عُرف الفلاحين فإن فض البكارة شىء مهم وصعب ، فضلاً عن أنهم يخلعون تاج الفرعون عن رأس الفتاة. فى تلك الأثناء والد الفتاة وأمها يقودان العريس إلى الساحة وهم يسألونه : لماذا أرقت هذه الدماء ؟ أما هو فينكر ذلك فتنبرى الفتاة بسرعة وهى تقول : انظروا إلى ملابسه فكل أطرافها مليئة بالدماء . ويتطلع الحاضرون فيجدون أن رأس العريس وجبهته عليها دماء ، وفى الحال يمسك الأب والأم بالعريس من خصره ويطالبونه بقيمة الدم . وبينما هم يطالبون بالمزيد، يأتى والد ووالدة العريس وينشأ نزاع كبير وهم يصيحون قائلين : لقد أخذتم مالاً بغير حق وتركتم ابننا عاريًا فعلاً . ويشهد الجميع قائلين مرددين : أجل لقد فعلوا هذا . ثم يقدِّم والد العروس وأمها عدة هدايا لإسكات والد العريس وأمه ، ثم يخرج الجميع إلى الساحة ويتحدثون عن العيش معًا والعشرة ، ويحيون ذكرى روح الفرعون (Habis) ويدعون بدوام الجماع وديمومة الزواج والسعادة . فى هذا الأمر لا يسمح الفلاحون مطلقًا بتدخل الغريب أو الأبله .

سر ختان الإناث

يمتطى عدد من النسوة الحمير وينقلن الفتاة وهن يتضاحكن إلى الحمَّام ، يرجعن بها إلى المنزل مرة أخرى ، ويأتى أطباء النساء ليقمن بختانها ، ورغم ذلك فإنها تكون مثيرة فى الجماع .

ختان الأطفال الصغار

يتعاون الغنى والفقير بعضهم مع بعض من أجل ختان عشرة أطفال، يزينون الأطفال ويركِّبونهم على خيل السباق ويركب شيوخ الأحياء على خيل مطهمة ومدججة بالسلاح ويمرون معًا على المناطق ، يمرون وهم يحملون القناديل و النقالات والأعلام والرايات، وحتى جراحو الطهارة فإنهم يمرون وقد تمنطقوا هم وتلاميذهم بالمآزر الإبريمية . أمام الجميع وعلى مرأى من الأطفال يمر البهلوانات والمقلدون وهم يتمازحون ويمتطون الخيل والبغال والحمير ذات البرادع المغطاة بفراء من ذنَب الثعلب وشراشيب الحصير، تُقام الوليمة والضيافة والاحتفال لمدة ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ، تقوم فيها القيامة وتُقام الأعراس والليالى الملاح، فى تلك الليلة المسماة ليلة الطهور تُضاء كل أطراف المنطقة بالقناديل ، ومنادو الوادى يعلنون الخبر فى جميع المقاهى ، وتظل دكاكين الأكل والشراب مفتوحة حتى الصباح، الكل يأكل ويشرب ويلهو فى هذه المناسبة .

ميزات أهل مصر وخصالهم

إذا ما مرض رجل فى مصر فإن جميع أهل المنطقة يقومون بزيارته محملين بالهدايا ويستوصون به خيراً، وإذا مات فإنهم يكفنونه وينطقون بالشهادة ويذكر اسم الله أمام الباب، ثم يُغسِّلونه ويضعونه فى تابوت، ويعطِّرونه بماء الورد والريحان، ويقيمون عليه الصلاة فى الأزهر بحضور جميع العلماء والمشايخ والشيوخ ، ويكون التوحيد والذِّكر ثم ينقلونه من هناك (الأزهر) إلى المقابر ، وأحياناً يقيمون عليه الصلاة فى ميدان " يهود الروميلى " أو فى المكان المعروف بـ " سبيل المؤمنين " ويدفنونه فى جبل الجيوشى . كما يدفن الفلاحون الموتى بالقرب من مصر القديمة، وفى جنازاتهم تركب النسوة الحمير ويمسكن المناديل فى أيديهن ، ووجوهن مَكْشوفة ، ويمشين وهن يبكين ويشددن شعورهن ، وأهل مصر يزينون القبر جيداً ، ويكنُّون حرمة شديدة للميت .

مزايا أخرى لشعب مصر

لأهل مصر أيضاً سَجيَّة وخَصلْة طيبة، وهى توجُّه آلاف السيدات والرجال ليلة الجمعة وهم يمتطون الحمير ويذهبون إلى المقابر ويهبون الخاتمة ويقرأون سورة يس ، ويوزعون الصدقات على الفقراء . قبورهم عبارة عن قَبْوٍ له باب حينما يحن الوقت يفتحونها ويدفنون من الموتى فى المقبرة الواحدة من ١٠٠ إلى ٢٠٠ شخص ، كما يغطونه بالتراب بعد أن يضعوه بالكفن ... فكلما تعفن الجسد بَلِيَ الكفن ثم يغطون باب القبر بالخرسانة والجبس، لأن لصوص الكفن فى مصر كثيرون، حتى إنه فى عهد كتخدا " إبراهيم باشا " تم إعدام كثير من لصوص الكفن بالوتد وبالكفن الذى سرقوه . ويكتب المصريون التاريخ (ميلاد - وفاة) على شاهد القبر، وينثرون القمح والمياه من أجل الطيور ، ويضعون الزهور على القبر ، والسيدات لا يأخذن إذن أزواجهن من أجل الذهاب إلى القبر لأن هذا شرط أساسى فى الزواج . والرجل لا يستطيع أن يسأل : أين كنتن ؟ ! فكما أصبح عزيز مصر مغلوباً على أمره أمام زليخة ، أصبح الرجال مغلوبين على أمرهم الآن أيضاً أمام زوجاتهم .

مصدر دخل فقراء مصر

يتكسبون من أعمال فنية عديدة ويربحون منها مكاسب أخرى غريبة وجميلة : فى مصر يبيع اليهود فى مولد محرَّم (= عاشوراء) أنواعاً عدة من البخور، وينادون عليها بأصوات جميلة . أما فى ليالى الجُمَع ، فلا يمكن السير فى المقابر من كثرة الشحاذين، بعضهم حسن المظهر يقترب منك ، يُلقى بالسلام ، ويتحدث بأدب وظرف ثم يطلب صدقته قائلاً : سيدى أعطنى مصاريف أهلى وعيالى.

جال بخاطرى

دخلت أنا الدرويش المسكين ذات يوم إلى ميضأة جامع السلطان حسن من أجل الوضوء ، وحينما شعرت بالسكون وأيقنت أنه لا يوجد سواى ، أخذت أقضى حاجتى وأنا فى المرحاض، فإذا بشخص غريب يفتح علىَّ الباب ويمد يده قائلاً أعطنى صدقة يا سيدى !! فأجبته أنا الدرويش المسكين : ليس فى يدى إلاَّ الطهارة ، ولكنى أعطيك أياها، فانصرف الشخص ساخطًا قائلاً : زاد الله من نجاستك !

قابلتُ صديقى وقصصت عليه هذه الحكاية فقال : يا إلهى ! ماذا فعلت ؟ أنت مجنون ؟ وهل تُرْفض قذارة من يد رجل كهذا ؟

قلت : حسنٌ .. ولكن أنا الدرويش المسكين بينما أقضى حاجتى أيُعقل أن تُطلب منى الصدقة ... بقول صدقة لله ؟

قال صديقى : هل كان هذا الرجل أصفر اللحية و مُتوسط القامة وعريض الجبين مُستدير الوجه ، له سمات التتار ، مضىء الوجه ؟

قلت : أجل هو كذلك .

قال : إنه قطب مصر ... وكان يمتحنك . كيف دفعت النجاسة عن يده ؟ وهو أيضًا قد دعا عليك قائلاً فلتزد نجاستك ! احترس من هذه الكلمات.

حينما سمعت هذا ذهب عقلى من رأسى، وحقيقة بعد هذا الموقف ولمدة شهرين مرضت بالإسهال ، وتعافيت ... والحمد لله ؛ فإن هذا المسكين قد أوصانى بالصدقات ودفعنى إليها .

عن وصف معالمها

فى مصر يوجد آلاف من المجاذيب الطلقاء، بعضهم يأخذ النقود والآخر لا، وبعضهم لا يتحدث أبدًا . ولكن لو أن أحدًا قرأ القرآن فإنهم يسحقون صدره. بعضهم

يظل متزملاً بالكوخ حتى حلول المغرب، ولا يمكنه أن يرفع مصارعًا واحدًا من مكانه. وهناك عمامات تزن ٩٠ أوقية أو ١٠٠، بعضهم يلف عمامة من ليف النخيل ، والبعض يمشون عرايا كما ولدتهم أماتهم ، وهكذا لا يوجد نهاية لحساب البلْه ، ولا قانون يوجب مواجهتهم لأنهم اختاروا الفقر والفاقة والمحتاجون كُثر بلا مأوى ولا طعام :

والله نفتخر بالفقر والفخر Fakru Fahrile tefahür ederiz Vallahi

ولذلك نتجول فى شكل الفقراء Anin içün gezeriz Fukara Sekilde

بشأن المجاذيب

كم من الكرامات للشيخ إسماعيل صنافيرى فى طريق بولاق وهذه إحداها :

أخذنا رُمَّانًا أنا والسيد المهردار (= حامل الأختام) وصهر أحمد باشا الدفتردار ومسكين ورئيس الذواقة وعدد من الأصدقاء المقربين، وأخذنا الرُّمَّان وذهبنا إلى الشيخ الذى يعيش فى إحدى الحانات ، رأيناه يرقد على التراب عارى الجسد ... أعطيناه الرمان ... قشر واحدة وهو يقضمها ... وأعطانا وأعطى رجاله رمانة لكلٍّ على حدة . الرمان الذى أحضرناه كان عدده تسع رمانات، الموجود أصبح ثمان عشرة رمَّانة ، ثم أخذ خنجرًا من الأرض وأعطاه لنا، وأخذ خنجرًا كبيرًا وقال: انقلوا هذا إلى الباشا . ثم أخذ يكرر : فليسلم الجند وليذهب إلى بلاد الروم ، ولتأتِ بغداد .. ولتأتِ بغداد ... ولم يقل شيئًا آخر. أعطينا الخنجر للباشا قال : سبحان الله ...! وبعد تسعة أيام تمرد عليه الجنود وعزلوه .

الفصل الستون

بيان عن العلماء والشيوخ
والمدرسين والأئمة والخطباء المقبول دعاؤهم

بدايةً فإن شيخ الشيوخ فى مصر شخص مبارك ورع من أهل الحال ، يُدعى "**على الشُّمُورِلى** " Semürli، وهو أعمى مُنذ لحظة الولادة . لكنه كان يُدرِّس فى " الأزهر " فى أربعة أماكن بجوار أربعة أعمدة ، وطلابه كانوا قد بلغوا اثنى عشر ألفًا . لم يوجد شبيه له قط فى كونه وليًا ، كان يقول :" هذه المسألة فى السطر السابع من الصفحة الفلانية" وكأنه قد اطَّلع على جميع الكتب الشرعية .

تقابلت أنا المسكين الحقير معه هو نفسه وهذه هى إحدى كراماته: فإنه إذا تقابل ذات مرة مع شخص وسأله عن اسمه واسم أبيه وأمه فإنه وبعد ٢٠ عامًا يستطيع أن يدعو هذا الشخص باسمه ولقبه !

ثم هناك الشيخ " **أحمد العجمى** " ، يُعتبر واحدًا من علماء الحديث، وكان أفضل علماء عصره، يتمتع بقوة ذاكرة وحافظة قوية ماهرة ، كان يحفظ فى ذاكرته سبعين ألف حديث للبخارى المشرقى برواياتهم.

وهناك الشيخ " **شيخ الإسلام مصطفى أفندى البولوى** "، وذات مرة أراد كوبرولى محمد باشا من الشيخ إصدار فتوى بقتل دلى حسين باشا فاتح قاندية، فقال مُصطفى أفندى : لن أستطيع أن أفتى بقتل حسين باشا ، وأنا عزلت نفسى من مهمة الإفتاء . ثم نهض وترك المجلس وذهب، نادوه فلم يعد، وبالفعل لم يصدر فتوى أُخرى بعد ذلك .

أما من جاء بعده فهو " **أسير محمد أفندى** " وقد أفتى بقتل الپاشا حسين وبعد ذلك قام " كوپرولى " بعزل " مصطفى" أفندى ونفيه إلى مصر فأصبح منزله كالمدرسة ، تخرَّج فيها العلماء الثقات جدا .

المدرس " **عبد القادر أفندى** " وهو بغدادى، وقد طلب منه الكتخذا إبراهيم باشا أن يستخرج تكميلاً لابن جرير الطبرى والبخارى ومسلم ، وكان أميزهم فى علم " العَروض " ، وكان مخلصه " قادرى . وكان يكتب أشعاراً خالصة باللغة الفارسية والتركية .

الشيخ " **عبد الله المغربى** " لم يكن يشغل منصب " واعظ " لكنه كان يُدِّرس فى الأزهر.

الشيخ " **أحمد مرحوم** " صاحب علم اللدن والسلوك فى التصوف .

الشيخ " **يحيى المغربى** " الذى غلب " وانى أفندى " فى المناظرة العلمية التى تمت فى حضور الخان محمد الرابع ، وكان شخصاً شديد اللطف واللباقة واللياقة العلمية .

سعادة الشيخ " **على أفندى أبو السعادات** " وهو شقيق لحضرة الشيخ " أبو التخصيص " حضرة الشيخ " **محمد البكرى** " وهو من سلالة سيدنا أبى بكر الصديق ، ابن الشيخ " **بولة وهيب** " ، وهو شخص ورع ومهذب .

زين العابدين چلبى ، وهو شخص مرح ، لطيف الصحبة.

الشيخ "**برهان الدين الأكيرديرى**" ، وهو من أكيرديرلى Egirdirli . ومكث فى مصر ٨٠ عاماً .

الشيخ "**إبراهيم چلبى**" لم يخرج قط من منزله لمرة واحدة فى العام . وكان يقرأ " المولد " mevlüt فى الآستانة أى إستانبول ، وقطع علاقاته بالناس .

الشيخ "**محمد الكسوة دار**" أى حامل وصاحب الكسوة وكان صاحب جذبة صوفية ، وهو مشهور بـ " محمد أفندى ذى الشعر " منتسب إلى الطريقة القادرية .

فى ليلة المولد لم يستطع أن يتحمل نظر الشيخ الگولشنى فدخل إلى طريقته وتزوج بابنة الشيخ . وهو شخص عالم يجيد كتابة الشعر الفارسى والتركى ، ويكتب مخطوطات جميلة، وهو طيب العِشْرَة . وكان يحج كل ثلاث سنوات ، كان فى أكثر حجاته يذهب إلى " مكة " مترجلاً .

الشيخ "**الهراشى**" ، وهو داعية ومُفسر ، وكان يحفظ (عن ظهر قلب) كتاب مسلم والبخارى وقاموس اختر وصباح الجوهرى وخصوص لمحيى الدين عربى ، وحتى إنه كان يعطى الدروس من الذاكرة . وكان لديه أكثر من ألف طالب، وكان شديد الحدة فى أثناء إلقاء الدروس، ولكنه كان وافر المعرفة ، وكانت دروسه تُنقش فى ذهن من يسمعها .

الشيخ "**العياشى**" كان قد تَلقى العلم من الشيخ الشمورلى Semürli ، وكان مدرسًا فى جامع السلطان " المؤيد " ، حلو الحديث سخى اليدين ، يغبطه الكثير من العلماء الثقات على إتقانه الحديث بتركية جميلة .

الشيخ "**العباس**" كان شخصًا مستجاب الدعاء ، صاحب نخوة .

الشيخ "**أحمد الإسكندرانى**" كان عالمًا فاضلاً طيب العشرة، كان يُدعى بالفعل إلى إحياء المولد فى دور الكبار ، تلقى العلم عن الشيخ " على القرنى " ، كان يذهب للحج كل ٣ سنوات . فى أثناء عودته من الحج ذات مرة تقابلنا أنا وهو معًا ، وكنت أشعر بالبهجة من النعت الشريف الذى يقرأه الشيخ بكر زاده أفندى من نسل سيدنا أبى بكر .

نقيب الأشراب سيدنا "**محمد أفندى**" ، والده هو برهان الدين أفندى ، توفى وقد بلغ المائة والأربعين من عمره . صادر " حسين پاشا زاده جامبولاط " منه جميع أملاكه ، كما ذهب إلى إستانبول حتى يستولى على أملاكه الأخرى ، لكنه مات هناك من شدة الحُزن . ، ودُفن خارج حدود " أدرنة " و بجوار أمير بخارى .

الحكيم "**بيلوانى زاده**" كان يُدَرِّس لطلبته مرتين فى الأسبوع ، فى مستشفى قلاوون يُدرِّس العلاج ونصائح " داود " . كان فى علم الطب كأنه " فيثاغورس "، كان من يذهب إلى منزله يراقب نبضه ثم يعطية الدواء والشراب بما يتفق مع درجة حرارته ونبضه، كان طبيبًا بارعًا جدا حاذقًا في علم الطب .

الخطيب الشيخ "**شاهين**" ، وهو خطيب جامع Fehise مفوه .

"**سيد تاج الدين**" خادم محكمة "

إسحاق زاده " القاضيعسكر من علماء الأناضول. وطوال عمره لم يُضِعْ فرضًا من فروض الصلاة ولم يقض صلاته قضاءً قط .

القاضيعسكر "**تذكره جى أفندى**" ، القاضيعسكر "**أو شاقى زاده** " القاضيعسكر "**حفظى أفندى**"، وهم جميعًا من العلماء الأفذاذ ، رأينا أكثر من هذا . ولو كتبنا بالتفصيل عن كشف المستور عن كرامات كل واحد ، يعلم الله أنها ستكون فى عشرة مجلدات، ولكنى كتبت على قدر استطاعتى ... أنا الفقير إلى ربه .

عجائب كرامات الأطفال

فى أثناء ولاية الكتخدا " إبراهيم باشا " على مصر أصدر فرمانًا بالدعاء فى المساجد بشأن سفره إلى " قامانج "، ولكن وا أسفاه طالت فترة الفتح وزادت صعوبته وثقل الدعاء ، فقال " الباشا " ذات يوم للشيخ إسحاق زاده " مُلاً مصر " : إن أفندية ومعلمى المدارس تحت إمرتكم ، ولو أنكم أمرتهم بالاستمرار فى الدعاء لاستمروا. فما كان من الشيخ " المُلاً " إلاً أن دعا جميع معلمى المدارس للحضور ، وأركعهم على ركبهم وأخذ يضربهم بالعصا أربعين ضربة لكل منهم، فلم يكن فى الجزيرة العربية فلقة ، لأن البدو لا يرتدون سراويلات داخلية ، فمن كان يرقد على الفلقة لكى تُمد أرجله ويُضرب على راحة قدميه كان تظهر أردافه وتبدو عورته .

وحتى المدرسون ما إن يصلوا إلى مدارسهم حتى يوجعوا الطلبة ضرباً بعصيان من شجر الحور الرفيعة، ويضربونهم على الأرداف ، وكان الطلبة من ألم الضرب يشرعون في الدعــاء على البـاشــا والمُلاَّ بدلاً من أن يدعـوا لهـمـا ، وعلى الرغم من ذلك ، فإن " الباشا " كان رجلاً كريماً، في حين كان " المُلاَّ " أي الشيخ شخصًا دنيئًا وخسيسًا، والذي يضرب معلمينا هو ، ليس الباشا . وكانوا يقـولون : هيا تعالوا لتنظيم صلاة الجنازة للقاضيعسكر . ثم يُرقدون خرقة قديمة للشـيخ على لوح من الخشـب ويقيمون صــلاة الجـنازة ، ويدفنون الخـرقة في مكان مـا . وما كــان اليوم التـالي حتى رأوا المُلاَّ (الشيخ) وقد أسلم الروح ، بعد أنْ أنَّ وتوجع .

سر آخر عجيب

كان الطلبة الذين ارتدوا خرقة الشـيخ القديمة وصنعـوا منها كفنًا يبلغ عددهم اثنى عشر طالبًا، بعد مدة بدأوا في التجول والتشرد في الخرابات وأصيبوا بالخرس . إنه سر عجيب ، وكان إبراهيم باشـا يشعر بأن هذا الذي حدث كان بسببه هـو، وكان يردد ذلك كثيرًا ، وأخذ يُحسن ويجزل العطاء لجميع المعلمين وطلبة المدارس .

الفصل الحادى والستون

فى بيان السادة أولياء النعم وأميرى الأمراء
وأصحاب الخانات والأعيان الذين تعرفت عليهم فى مصر

أمير الحج "**أوزبك بك**" هو ابن أبى الشوارب " أوزبك بك " وهو من الأسر العريقة، ولديه ٥٠٠ جندى وهو بك ابن بك . "**نُوالى بك**" : وهو رجل بطل، "**وبهادور ، قانصو بك**" : وهو ابن عبد مصر ، صاحب عِلم وفضيلة." **مُقلب على بك** ": وهو رجل طيب العشرة . "**رمضان بك**" ، ذهب إلى الجهاد فى قانديه . "**قاسم بك**" . وهو ابن البشيكطاشى قاسم باشا، لديه ٥٠٠ عسكرى . "**عبد الله بك**" : وهو بوسنوى أى من بلاد البوسنة . "**ذو القادر بك**". وهو من الأباظية . "**ذلعور بك**" . وهو كذلك من الأباظية . "**إبراهيم باشا** ": كان حاكمًا على جرجا . "**أيواز بك** ": وهو من جورجيا ، "**دفتردار حسين بك**" : وهو رجل من الأناضول ، جميل الصحبة، حسن المعشر. "**قايتباى بك**" : وهو من الجركس .

أمير الحج "**يوسف بك**" : وقد تربى فى دائرة الحريم الخاص ، چركسى الأصل . (بياع الفول) "**محمد بك البقلاوى** "، وهو بوسنوى ، رجل أصيل وشهم . "**محمد بك الشواربى**" ، وهو بوسنوى . "**محمد بك الجندى**"، تربى ونشأ فى الحرم ، نُفى لأنه كان تابعًا للعصاة ، واستقرَّ فى الحرم. "**عمر بك الأعمى**" ، وهو جورجى ، ولديه عين عوراء .

من البكوات الجدد

"**إبراهيم بك**"، وأصله من الكرد . "**موسى بك**" ، وهو ابن عبد مصرى ." **محمد بك الحبشى**" ، وهو من جورجيا ، فى أثناء عمله كتخدا الإنكشارية لم يرضَ عنه الجند فى المعسكر فأحيل إلى التقاعد، وأرسل إلى " المدينة المنورة " بعد أن مُنِح رتبة السنجق .

"**چنار مصطفى بك** "، حينما كان كتخدا معكسر الإنكشارية تعاون مع العصاة من أجل عزل " أحمد باشا " ، وفى عهد " عبد الرحمن " باشا تم الإحسان عليه بتوليته إمارة جَدَّةَ لعدم رغبة إنكشارية الأوجاق (= المعسكر) فيه ، فأُعطيت إمارة المنصورة لـ " **حسين بك** " كتخدا " الجاويش " التابع لـ" عبد الرحمن باشا " ، وهو شخص من الأناضول أمير للكلام ومدبر للأمور .

السادة أولياء النعم

سيد الإنكشارية "**مصطفى أغا**"، وهو قسطمونى Kastaminulu . السيد " **مظلوم على أغا**" ، قوانداقچى (محرق) . الكتخذا "**مصطفى**" والكتخدا "**ذو الفقار**" والكتخدا "**حسين**" والكتخدا "**الحبشى**" والكتخدا "**محرم**" و"**كنعان الجاويش قارياغدى**" ومجموعة الجاوشية سليم وجمچى وچلبى وباكير وحسين وشريف ...

كان عبد الرحيم باشا يضايف الجاويش شريف وسليم وبكير دلى حسين، ورجب ، وعائلة عبد الله زاده القيرقابچى ، ووالده القيرقابچى على أغا ، الروزنامه – جى عبد الرحمن ، (كاتب الروزنامة) ، وإبراهيم كاتب الأيتام ، وعمر كاتب الأجور (أرزاق) ، وچلبى أفندى وين الجاويش حسين كاتب الجاوشيَّة (چاوشلر) وأحمد چلبى سمسار القرية ، وحسن أغا سيد العزب. وشعبان أغا رئيس " المتفرقة ، ويوسف أغا رئيس التراجمة . وأحمد أغا كتخذا العزب. وسيد حنفى . وجاويش الـ " النقيب " جاويش قوجه حسين ، ومسعود أغا مصاحب السلطان وميرزا

كاشف ، وعبد الرحمن أغا ، ونذير وأغا ، وعباس أغا ، وخزينه دار ، وشاهين محمد أغا ، وخوجه صالح أغا ، وبشير أغا ، وعبد الرحمن أغا ، وقوجه خليل أغا مربى السلطان مراد ، وداود أغا شيخ الحرم ، ومحمد أغا. مترجم العجم ، ولالاياقوت أغا جميع الأغاوات المذكورين سابقًا كانوا وزراء الملوك المقربين . يوجد غيرهم كثير لكن هؤلاء كانوا أولياء نعمتنا .

سليمان بك چركس ، وعلى أغا أمين مخازن عبد الرحمن پاشا المبتدئ ، وسليمان بك سليم أغا الصغير ، ومصطفى أفندى كبير كاتبى الإنكشارية ، وسليمان أفندى كاتب الإنكشارية الجديد ، وكتخذا سليم ، وإسماعيل كاشف ، وحسين أغا محمد والد صهر أغا كاشف البحيرة ، وقرة على الكاشف ، وأحمد أغا كاشف الشرقية ، وچالق مصطفى أغا ، وغيرهم كثيرون يقصر الوقت عن ذكرهم .

الفصل الثانى والستون

فى بيان علم النجوم وعلم الفلك والإسطرلاب ، مناخ المدن وخطوط الطول والعرض وطالع الكواكب (الأبراج) والتقدير بالميل والمسافة بين السماء والأرض ومساحتها

إن رجال العلم ، بقوة علمهم وتجاربهم الطويلة قد أعلنوا أنهم توصلوا إلى الأسرار الآتية : أن الأرض تبعد عن السماء مسافة ٣٥٩ ميلاً ومساحة بحر عُمان " تُقدر ب ٢٠,١٦٠ ميلاً . وبداخل هذه المساحة توجد مصر، وقطرها شمالاً وجنوبًا هو ٦٤٠٠ ميلٍ .

وقال ابن الوردى فى جزيرته : إن " بطلميوس " كان تحت حكمه مساحة دائرية تبلغ ٢٠١٦٠ ميلاً ، أى نحو ٨٠ ألف فرسخ . وكل ميل عبارة عن ٣٠٠٠ ذراع، والذراع الواحد يساوى ٣٠ شبراً ، وكل شبر يساوى ١٢ إصبعًا. وكل إصبع يساوى ٥ حبات من الشعير .

الأرض الخافية كانت ٧٦٣٦ ميلاً أى ٢٥٤٥ وثلث بساخ . أرض البسيطة كانت ١٣٢ ألف ألف ثم أصبحت ١,٦٠٠,٠٠٠ ألف ألف (مليون) وستمائة ألف ميل و٢٨٨ فرسخًا . هذه الكلمات هى كلمات حقيقية للحكماء بطلميوس وفَراتْفِيليكوس وبقراطوس وفيلوزوق، وجميعهم من أصحاب كل الفنون والعلوم العجيبة والغريبة . تلك الأزمنة كانت تقول إن الدنيا بعظمتها وعلمها تساوى ٢٠١٦٠ ميل ، دون أن ترى وتجوب وتجول العالم .

أما لفظ " فتحنا" Fetahna فقد تكرر . فذُكر سنة ٨٨٩ . وفى أثناء حصار السلطان " بايزيد " لقلعة الوالى آقكرمان Veli Akkerman، إذا باثنين من الرهبان

يتقابلان مع الملك وقره " شمس الدين سيواسلى " ويبشرانه قائلين : " سوف تتمكنون من فتح قلعة آقكرمان Akkirman فى اليوم الفُلانى والساعة الفلانية " . هذان الراهبان هما قالون Kalon وپادرو Padro . قالون من البرتغال وپادرو من إسبانيا . وبالفعل فُتحت قلعة آقكرمان فى اليوم والساعة اللذين حدداهما ، كما تحدث كلاهما أيضًا بشأن قلعة كيلى kili وتسلموا مفاتيحها فى اليوم الذى حدداه . هذان الراهبان لم يتقاضيا أجرًا ولم يقبلا إحسانًا قط . فسألوهما : كيف عرفتما بميعاد فتح هذه القلاع ؟ فأجابا :

"عَلِمْنا بقوة العِلْم ، ولدينا بُشريان لسلطاننا .. إن ابنكم سليم الذى فى طرابزون سوف يصبح سلطان مصر وأميرًا على مكة والمدينة ، وولدكم سليمان سيكون صاحب القيزيل ألما Kizilelma (٤٧) ، أما ملكنا فله بشارة عظيمة أيضًا ، فأنت سوف

(٤٧) القيزيل ألما Kizil Elma : مصطلح شعبى أطلقه الأتراك العثمانيون على روما، وكان يُعتبر بشارة النصر، وظل هذا المفهوم هو السائد حتى عصر سليم الثالث. كان يُتخذ رامزًا لكل الفتوحات المتجهة نحو أوروبا، فكان أوروبا بالنسبة للأبطال الغزاة هى التفاحة الحمراء "قيزيل = أحمر، وألما = تفاحة". وحتى عندما ثار جنود الإنكشارية ضد النظام العسكرى الجديد كانوا يرددون أنهم ليسوا فى حاجة إلى هذا النظام، "أظهر لنا العدو، ونحن نستل الحسام ونغوص بين جيش الأعداء. ونهدم تاج هذا الملك فوق رأسه ونذهب حتى قيزيل ألما"، فإن هذه القيزيل ألما التى يقصدها الجنود كانت أوروبا، وبخاصة روما عاصمة الإمبراطورية الرومية الغربية.

وحتى قبل هذا التاريخ لم يكن هذا المصطلح يسقط من أفواه الإنكشارية، وكان يعنى بالنسبة لهم أن "أهل الإسلام" سيفتحون البلاد حتى يصلوا إلى القيزيل ألما.

وكانت هذه العبارة "قيزيل ألما" تعنى أقصى الحدود التى يمكن أن تصل إليها غزوات جيوش السلطان سليمان القانونى. وحتى الإنكشارية كانوا يتغنون بأنهم عندما يصلون إلى التفاحة الحمراء (= القيزيل ألما) فإن النمسا لن ترى الفرح ولن يبقى بها سرور.

وكل الشروح تُبين أن القيزيل ألما هى الغاية الأسمى بالنسبة للترك ، وهى أقصى حدود النصر. هى كما توصلت إلى ذلك فى بحث عن القيزيل ألمًا : المدينة الفاصلة التى يجب أن يصل إليها الفاتح التركى، وهى أقصى نقطة جغرافية يمكن أن يصل إليها الترك. =

تكون من أعظم الملوك ، وأنا أقول لعل هذا المُلك يكون من نصيبك فقد طفت بالعالم ، وپادرو طاف مدة يقول إنها ١١٠ أعوام .

كلانا قد طاف حول العالم ٧ مرات . وبقوة العلم ذهبنا إلى خارج بوغاز سبتة Septe واتجهنا نحو الغرب بـ ٧٠,٠٠٠ ميل فاكتشفنا العالم الجديد . بها كل ما لا يوجد هنا « مالا عين رأت ولا أذن سمعت » ، مياهها ذهب ، جبالها معادن ، صحاراها مكسوة بالعشب. إنها دنيا لم تطأها قدم بعد ، إنها عالم بكر ، فجئت أبشرك بها علها تكون من نصيب مولاى.

قال الولى " بايزيد " : لا بد لنا من فتح مكة و المدينة ومصر ، فهى لنا أوْلَى، أما ذهابنا إلى أرض كثيرة البحار فليس له داعٍ ، فضم مصر أولى بمجهودنا .

حينما قال هذا ، إذا بالراهبين يُقبِّلان الأرض ويخرجان ويصلان بعد ذلك إلى البابا ويقصان عليه ما حدث ، فأعطى ملك أسبانيا أوامره بسفر ١٢ سفينة حربية، وأصبحت إسبانيا مالكة للدنيا الجديدة ، ثم من بعدهم الإنجليز ثم الفلمنك . لقد استولى على هذه الدنيا الجديدة ١٨ ملكًا .

جميع هؤلاء الملوك كانوا فى حروب بعضهم مع بعض من أجل الدنيا الجديدة، حتى من بعد فتح الأويوار Uyvar . وصلنا مع السفير قره" محمد باشا " إلى قيصر

= وهناك من يتصور أن القيزيل ألما المقصودة هى قبة كنيسة سانت بيير التى تُعتبر أعلى وأكبر بناء فى روما، والتى غُلِّفت بالنحاس الأحمر بدلاً من الرصاص ولذلك تبدو حمراء. وإذا كان البطل الأسطورى أتيلا لم يستطع أن يُفتت أوروبا ويمزقها قبل التاريخ، فإن الأتراك العثمانيين قد نجحوا فى ذلك بعده بألف سنة، واستطاعوا أن يأخذوا تفاحة أوروبا الحمراء القسطنطينية وكنيسة الأياصوفيا، وإن العثمانيين قد جعلوا الوصول، بل والحصول على التفاحة الحمراء هدفًا استراتيجيا وسياسيا بالنسبة لهم. وكان المخطط أن الجيش العثمانى بعد أن يفح ڤينا كان سيتقدم إلى باقى أوروبا ليرفع الأعلام العثمانية هناك. وجعل جَديك أحمد باشا هذه الحدود عند جنوب إيطاليا، وجعلها "ضياكوك آلب" الهدف الأسمى للترك الذى يستحق أن نتجه إليه (انظر : محمد ذكى پاقالين. جـ٢. ص ٢٧٨ – ٢٧٩).

النمسا، ووصلنا برسائل القيصر إلى مدينة لونشات lunçat على ساحل البحر المحيط، فوجدنا سفنًا كالكراكات أو القلاع السوداء Karakalarl ، كل واحدة منها كانت تتسع لثلاثة آلاف شخص . فى داخل هذه السفن يوجد من أهل هذه المناطق الجديدة أناس قصار القامة يعلوهم الريش . سألنا المترجمين عن أحوال هذه الدنيا الجديدة . كانوا يسبُّون البابا اوات وپادرا وقالون . وكانوا يقولون : " كنا فى عالم مريح حتى جاء هؤلاء الخبيثون فقصرت أعمارنا بسبب حروبهم ".

والحاصل أن هذين الراهبين مع طول عمرهما قد ساحا خلال العالم بقوة العلم، واطَّلعا على تواريخه وتوخيا الدقة فى الجغرافية والأطلس، ثم كتبا علمهما فى شكل عالم فلقد جالا الدنيا عدة مرات من شمالها إلى جنوبها ومن شرقها إلى غربها ، وكتبا أن هذه الدنيا تقدر مساحتها بـ ٧ آلاف ميل ، الآن فإن هذه الدنيا يُحيطها البحر المحيط Bahri Muhit وإنهما فى أثناء تجوالهما على ساحله وجدا هذه الاكتشافات . الآن فإن الأقيانوس Okyanus والمحيط الهندى Hint Ok- yanus والداينماركة Danimarka، الدنيا الجديدة والبحَّارة البرتغال يتحركون طبقًا للخرائط التى وضعها القديس پادرا وقالون ولديهم ثقة كبيرة بهذه الخرائط ومكتوب بها ومحدد عليها الأماكن الضحلة والموانئ الجميلة المحيطة بالعالم الجديد .

وعلى اليابسة كتبا جميع الجبال والصحارى ومنابع الأنهار وطولها ، وطبقًا لما هو مكتوب فإن العالم القديم كان ٨٧ ألف ميل كل ميل عبارة عن ٤٠٠ ذراع، كل ذراع هو ٢٤ إصبعًا ، والميل الواحد ٤٠٠ قدم. والحكماء القدامى قد قسموا الأرض تبعًا للأسطرلاب إلى ٧ أقاليم :

الإقليم الأول

إن الأسطرلاب هو الذى يحدد الأقاليم تبعًا لبعض الخطوط الطولية والعرضية، وإنهم يعتبرون ذلك الخط الذى ينطلق من فوق جبل القمر الذى يخرج منه هو بداية الخط الممتد علميا من الشرق إلى الغرب، ويطلقون عليها رادّة Radde ، وجميع المدن التى تقع عليه لها نفس خط الطول والعرض .

فى الإقليم الأول : كان يوجد مركز للإقليم وهو الحبشة التى تقع فى جنوب مصر، وكانت تحت حكم البرتغال Portakal . يُطلق عليه فى علم الفلك (مدار الجدى - أو مدار السرطان) . فى نهاية الإقليم الثانى يوجد خط يُطلق عليه (خط الاستواء - أكواتر) عرض الإقليم الأول (خط العرض) هو ١٢ْ (درجة) و ٤٠(دقيقة) .

فى جنوب خط الاستواء الحرارة شديدة لدرجة لا يُطاق معها ارتداء عباءة حتى إنه لا يُعتبر إقليمًا صالحًا للحياة . وهذه الأطراف أى المناطق تُعد بحر عُمان ، أى أوقيانوس . لكن توجد بعض المدن قريبة من إقليم الحبشة . والزنج خلف خط الاستواء على موقع ١٦ درجة و ٢٥ دقيقة (١٦,٢٥َ) ولكنها غيرمأهولة بالسكان ، لذا فهى ممتلئة بالحيوانات مثل الفيلة والقرود، إلخ .

وحتى أنا الفقير عندما كنت أطوف وأتجول فى بلاد الفونج خلال شهر يوليو من عام ١٦٧٢م = ١٠٨٣ هـ ذهبت إلى ما بعد خط الاستواء سبعة وعشرين يومًا وارتفعنا ربع دائرة وكان خط الطول ساعة و ١٦ درجة و ٢٣ دقيقة . وكان هناك وسط الإقليم الأول ، بحيث إنه ٢٤,٦ْ. وأطول يوم يكون ١٣ ساعة .

الإقليم الثانى

بدايته وجدت هكذا عرض٢٧ , ٢٠ْ أطول نهار له يستمر ١٣ ساعة.

الإقليم الثالث

بدايته خط عرض ٣َ٥,٢ْ٧ وأطول نهار له ١٣ ساعة و٤٥ دقيقة، متوسطه خط عرض ٢َ٧ ,٣ْ٢ وأطول نهار له ١٤ ساعة وربع .

الإقليم الرابع

أولّه الإسكندرية ورشيد ودمياط . وكانت مصر تتكون من ثلاثة أقاليم . بداية الإقليم الرابع عند خط ٤َ٥,٣ْ٥ وخط طوال ١٤ ساعة ... يتوسطها خط عرض ٢َ٢,٣ْ٦ أطول نهار له ١٤ ساعة ونصف .

الإقليم الخامس

وبدايته خط عرض ١َ٥,٣ْ٨ وخط طول ١٥ ساعة ... يتوسطه خط عرض ١َ٥,٤ْ١ وخط طول ١٥ ساعة ونصف .

الإقليم السادس

بدايته خط عرض ٢َ٢,٤ْ٣ وخط طول ١٥ ساعة وربع، يتوسطه خط عرض٣َ,٤ْ٥ وخط طول ١٦ ساعة ونصف .

الاقليم السابع

وبدايته خط عرض ٢َ٤,٤ْ٨ وأطول نهار له ١٣ ساعة ، يتوسطه خط عرض ١َ٩, ٤ْ٨ وخط طول ١٢ ساعة وربع .

حتى هذا فإن الفقير بلا رياء أوليا ، وفى عام ١٦٦٦ م = ١٠٧٧ هـ فى أثناء فرار محمد كيراى إلى الداغستان بعد عزله ، وفى داغستان ، ذهبنا إلى منطقة خان قره بوداق ومن هناك إلى ديار طارخوى Tarhuy وقارون Karon وآندرى Andri ثم أتينا إلى دميرقاپى Demirkapl ووصلنا بالسفن إلى قلعة تَرَك Terek التابعة للمسكوف moskuf ، ثم أدركنا بحر الخزر بالسلامة بعد قضاء ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ .

ومن هناك تحركنا إلى ولاية قازان Kazan فى ستة أيام ، ومن هناك نحو الشمال فى تسعة أيام مرورًا بساحل الخزر Hazar تارة وبصحراء دشتى القپچاق Desti تارة أخرى ، ثم مرة أخرى توغلنا فى صحراء هيهات Heyhat نحو الشمال ٢٠ يومًا وأتينا إلى إقليم كبير على ساحل نهر إيديل Idel وولاية خشديك Hesdik حيث يوجد سبعمائة ألف من أُمة محمد صلى الله عليه وسلم ولهم العديد من المدارس والجوامع .

كل عام يقدمون الجزية إلى الموسكوف ألف خراج biner وكل خراج ألف قطعة ذهبية سنويا (ألف ألف). وتجولنا فى ديارهم لمدة سبعة أشهر خلال الشتاء القارس، ثم وصلنا إلى قلعة يوؤانوچ Yuvanoçالتى تقع خلف نهر إيديل Idil .

كان الليل والنهار هناك ٢١,٠٠ ساعة ونصفًا وكان الصباح يبزغ فى الساعة ١٥,٢٠ ، ولا تُقام هناك صلاة العشاء . يوجد علماء جيدون yahsi يقرأون القرآن ويترجمون معانيه إلى اللغة الروسية.

أغلبية الإقليم السابع تابعة لبلاد الموسكوف Moskov ، فالدنسك Danlsk واللاخ Lah والفاغفور Fagfur و القراكوف Karakov ، والچخ Çeh والإسفچ Isfeç، كلها بلاد تقع فى الإقليم السابع، ولكن ليس بها إعمار بسبب شدة الشتاء فى إقليم الموسكوف Moskov .

وقد خُربت، كما خُربت ديار القالميق Kalmlk . وفى أثناء تجوالى أنا الفقير بين چاليق Çallk ونــهـر إيديل idil وجــدت أننا على خط عــرض ٦٣ و خط طول ٢١,٥ ساعة ، والواقع أن بزوغ الشمس فى الفلك يستغرق وقتًا يكفى لعمل شوربة Fakse ، وتأثيـر الشـمس يكاد يكون مـعـدومًا فـى الأساس، ولا بد من ارتداء اثنين من الفـرو . ولكن كفار الخشدق Hesdek والموژيك Müjikv التابعين لديار الموسكوف Moskov شـديدو الحمق ، وجبناء لايتصفون بالشجاعة، وليس هناك حدائق ولا بساتين . ومع هذا فالأعشاب والمحاصيل والحيوانات كثيرة ، والمحصول أى القمح الكيلة تُعطى ١٠١ كيلة وأراضيها خصبة جدا . وقد تعرفت على بابوات الموسكوف Moskov وسألتهم عدة أسئلة ؛ فقالوا: وجلسنا فى جزيرة تُسمى قولوندور Kolondur فى داخل محيط متجمد فى نهاية الإقليم السابع . بِحارها متجمدة لمدة ٦ أشهر، ولمدة ستة أشهر لا تشرق الشمس ، ويَعُمُّ الظلام والليل ساعتين والنهار ٢٢ ساعة .

فسألت : كم يومًا يستغرق الطريق من ساحل إيديل idil ؟ فقالوا : مرت أربعة أشهر مُنذ خروجنا من هناك . وكانت شدة الشتاء قد مزقت وجوههم . والقرطبى قد كتب فى مسالكه أن الإقليم الأول إذا ما قَدِّر أن يبدأ من الشرق فإنه يمر من شواطئ حــوافٍ بلاد القاضى Kadibilad ثم يدخــل بلاد الحبشة . ويصل إلى جزيرة لوكه Lüke ومن هــناك إلى شبه جــزيرة العرب ثم ساحل اليمن والمغرب، ويجد نهايته فى بحر المغـرب. ومن مدن الإقلـيم الأول المعـروفة : طوغـار وعُمـان وعـدن وحضرموت وصنعاء ...

الإقليم الثانى(*)

يضم بجانب اليمن والهند والسند والأحساء بحر لحسا Lahsa ، وصحراء تهامة Tihame، وشبه الجزيرة العربية و بحر الحجاز ومكة والطائف والمدينة، ويقطع بحر القلزم Kuzum (= الأحمر) ويصل إلى مدن إفريقية وصولاً إلى بحر المغرب .

(*) لم يرد ذكر الأول هذه المرة.

الإقليم الثالث

ويضم السند والهندستان وكندهار وقابل (= كابول) وقرمان وچيروت Çirut وسواحل سجيستان Segistan وإصطخر Istahr وشيرازة وشلكر Selker والغور Gür والأهواز Ihvaz والكوفة وبغداد والأنبار Anbar والهند والشام وحماة Hama وحمص Humus وصور Sur وعكة Akka والرملة Bemle والصاوة Save وطبرية Taberiye وغزة وبيت المقدس وعسقلان ومداين وتنيس Tenis ودمياط Dimyat ورشيد Resit والإسكندرية والفسطاط والفيوم والمدن الشرقية وتونس والجزائر وطنجة وفاس والأندلس وقرطبة ومرانكوش Merankus .

الإقليم الرابع

يمتد من مالطة مروراً بالسند وخراسان وسمرقند وبلخ وبخارى وهيرات Hlrat وأصفهان و سرخس و طوس Tus وبلاد الجبل Cebilistan ونيسابور ونهاوند ودينور Dinur وحلوان Hlvan ونُصيبين Nusoybin والموصل Musul وخوجند Hucend وفرغانة Fergana والرَّقة Rakka ثم شمال الشام وحلب وقيصرية وأنطاكيا والشام Sam وطرابلس وطرسوس Tarsus وأضنة وطوطوس ومعمورية Mamuriyye وسليفكة Silifke´ وقبرص وكريت Girid وجزيرة ميجينا Mijine والبرتغال وإسبانيا والجنوة Cineviz وفرنسا والعالم الجديد أمام سواحل فرنسا . ولكن إقليمه لم يتحدد .

الإقليم الخامس

ويضم الصين مروراً بمدن يأجوج yecüc، ويصل إلى بعض مدن خراسان والختن Hoten، والأناضول وقرامان وآداليا Adayla ويمر بالبحر الأبيض و Kavlara

والبندقية و Bundukoni وفندك Vendik ودودوشكا Duduska وينتهى عند بحر ألمانيا . ومرة أُخرى تمتد أمامه الدنيا الجديدة مسافة ٧٠٠٠ ميل .

الإقليم السادس

يمتد من الخزر Hazar ويمر بترجان Tercan دون أن يصل إلى طبرستان، وينتهى عند بحر المغرب والقسطنطينية . ومدن فرنسا بالكامل تقع في هذا لإقليم . كانوا يصنِّفون إستانبول على أنها فى الإقليم السادس إلاًّ أنها تقع فى نهايات الإقليم الخامس لأن خط طول إستانبول ١٥ ٤١ وخط العرض ١٥ ساعة .

الإقليم السابع

شمالاً عند نهاية سور بلاد يأجوج Yecüc وبه ديار " ترك " و" الصقالبة " والموسكوف Moskof واللخ Leh والچك Çek وإسقاج Isvaç والفلمنك Felemenk ودوتكارقيزى Donkar Kzl والدينمارك وألمانيا واللونچات Lunçat، وتمتد أمامه بلاد الإنجليز والعالم الجديد على مدى سبعة آلاف .

سبعة(*) أقاليم أخرى متنوعة

الإقليم الأول

يحتوى على ٢٠ جبلاً و٣٠ نهرًا كبيرًا، وجميع أهله من ذوى اللَّون الأسود ، عدا أهل السودان فلونهم أبيض ، وأيضًا مصر ضمن هذا الإقليم .

(*) كذا فى الأصل، والمذكورة بعدُ ثمانية.

الإقليم الثانى

به ٢٧ جبلاً ، و٢٧ نهرًا ، وسكانه سمر اللَّون ، ويمتد أيضًا إلى مصر وسواحل نهر النيل .

الإقليم الثالث

به ٣٠ جبلاً و٢٢ نهرًا كبيرًا إلاَّ أن جميع الأنهار المتفرعة فى مصر متفرعة عن نهر النيل، وهذا الإقليم أيضًا يمر بمصر . ومصر تنقسم إلى ثلاثة أقاليم جميعها كبيرة ، يمتلكها ٧٠ مالكًا وأطرافها ١٨,٠٠٠ ميل ، والطريق من منبع النيل حتى مصابِّ البحر الأبيض يستغرق مسيرة ٨ أشهر ولا يوجد نهر بمثل هذا الطول على وجه الأرض .

الإقليم الرابع

يضم ٢٥ جبلاً و٢٢ نهرًا ، وسكانه بيض اللَّون .

الإقليم الخامس

يضم ٣٠ جبلاً و ١٥ نهرًا ، وسكانه بيض اللَّون .

الإقليم السادس

به ١١ جبلاً و٤٠ نهرًا أهمهما نهر الطونة Tuna. وهذا النهر به ١١٠ منازل أى مراحل . ويُقابل ٧٠٠ نهر . ويصب فى البحر الأسود عن طريق خمسة روافد . وهذا

النهر تسْبح فيه سفن ترامس وظابيّن Zarbln Trans والقَرَامُوْرسل Karamüsel وتصل إلى ڤيينا Viyana وبراغ Prag و ألمانيا وبحمد الله طفت بنهر الطونة Tuna خمس مرات .

الإقليم السابع

به ١٠ جبال ، وبخاصة جبل الوند بالقرب من الـ " داغستان "، حيث لا يماثله جبل على وجه الأرض فى الارتفاع . لأنه لم يستطع أحد أن يتسلقه حتى قمته . وهناك غيلان وحيوانات متوحشة وبه ٤٠ نهراً . ونهر قوربان Kurban ينحدر من هذا الجبل ويمر من خلال بلاد الداغستان وبلاد الچركس ويصب فى البحر الأسود عند بوغاز يلسكة yeliske وأداخون Adahun فى جانب قلعة تمروك Temrok بالقرب من جزيرة طامان Taman، ونهر تَرك Terek أيضًا ينحدر من هذا الجبل ويصب فى بحر الخزر Hazer ، ورجال هذا الإقليم حُمْر اللَّون وشجعان .

الإقليم الثامن

به ١٠ جبال و٤٠ نهراً ، أهمها هو نهر إيديل Idil عرضه ما بين ٤٠ و٥٠ ميلاً وعمقه ما بين ٣٠ و ٤٠ ذراعًا ، وأهله بيض اللَّون . وفى سياحتى (أنا العبد الفقير) والتى امتدت واحداً وأربعين عامًا ، أول نهر رأيته بعينى هو نهر إيديل Idil وهو أكبرها يليه نهر جاييق Caylk ثم شط العرب ، ثم نهر النيل .

وطبقًا لرواية الحكيم بطلميوس يوجد على وجه الأرض ٢٠٠ نهر كبير و٤٠ ألف نهر صغير. وطبقًا لرواية ابن إسحاق يوجد ١٤٨ جبلاً كبيراً على وجه الأرض .

أوصاف سبعة أقاليم أُخرى

الإقليم الأول

طوله من الشرق إلى الغرب ١٢٥٠ فرسخًا وعرضه ١٩٠ فرسخًا به ١٠٠٠ مدينة خمسون منها كبيرة جدا ، وجميع ولاياتها من السود ، كالحبشة واليمن وصنعاء وناخچيوان Nahicvan ونوغار Nogar وقارص Kars وسرنديب والهند وسرندى وفاس فى غرب الصين ومارانكوس والسودان والفونج Fonc وبورنو Bornu .

الإقليم الثانى

طوله ٢٤٠٠ فرسخًا وعرضه ١٣٦ فرسخًا . به ٢٧ جبلاً مرتفعًا و٢٠٠ نهر . بدايته من خوجند Hocend والهند والسند وماموريياس Mamuriyyes والحيرة Hire وكند Kend، والجزائر ونجد وتهامة Tehamye ويثرب yetrep والحجاز وبحر القلزم Kulzum وبلاد البربر وإفريقيا ومصر .

الإقليم الثالث

طوله ٢٩٢٥ فرسخًا وعرضه ٩٠ فرسخًا . به ٢٠٠٠ نهر . بدايته من موغان Mogan فى شمال الصين وكنهار وقابيل (= كابول) وزلبلستان وسستان وقيرمان وفارس Fars وسواحل عمان Umman، والبصرة والأحسا Lahsa وإصطخر Istahr وشيراز ونيشابور وغور Gur والأهواز Ihvaz والعراق وبغداد والشام وفاركين Fer-kin عمود الإسكندرية وموقان Mokan وإفرنسيَّة Efrensiyye وينتهى عند البكرية Bekiriyye .

الإقليم الرابع

طوله ٢٧٠٠ فرسخ وعرضه ١٠٢ فرسخ . به ٢٥ جبلاً و٣٢ نهراً . بدايته من التبت ، خارخير Harhir، وخراسان Horasan، وبلخ وبخارى ومولتان Moltan، وطبرستان ودايلن Deylin ، وقزوين ، والرى Rey وقوم Hkm وقوشان Kasan وهمدان وحلوان Hovlan وشهرزور والموصل Muysll، ونصيبين Nusaybir ، وينتهى فى آلمان Alman وحلب وأنطاكيا وطرسوس وعمورية وقبرص وكيريت Girid والبندقية venedik .

الإقليم الخامس

طوله ٢٥٥٠ فرسخًا وعرضه ١٠٢، به ١٠٤٠ نهرًا و٣٥ جبلاً و٣٠ واديًا . مدنه تبدأ بغور Cur وقانة Kane وقاش وخارزم والتبت والجوزة وأرمينيا وبخارى وسمرقند وخوجند وطشقند وگولكنت Gölkent وكند Kend وسنجان Sincan وكيرمان Kirman وأنطاكيا وبودين فى ديار النمسا وأستورجون وسيدوارة وقانجة Kanijeوبلجراد أستولنى Ustolni Belgrad، وطاطا Tata وپاپا Papa وقومران Komran ويانيق yanik پوژران Pojran وشَمارتين Samartin وپوژاخ Pojah وپشپاهيل Pespehil وبج Bec وبراغ Prag وصونچات Sunçat وينتهى عند أمستردام ، وأمامه بلاد الإنجليز .

الإقليم السادس

طوله ٢٣٨٠ فرسخًا وعرضه ٩٠ فرسخًا ، به ٣٧ نهرًا و ١٠٧٠ مدينة، بدايته عند سور يأجوج ومأجوج ويضم فى شماله بلاد خراسان وخارزم وبلاد الجاج وأذربيجان والأرمن والأخلاط وورومية وينتهى عند الأندلس .

الإقليم السابع

طوله ٢٢٠٦ فراسخ، عرضه ١٤٠ فرسخًا . أكبر ولاية تقع فى بلاد الفاغفور . ويضم بلاد القازاق Kazak والمغول Mogol والبغول Bogol والموسكوف Moskov والدشتى قبچاق destikipçak، والتاتار tatar، والقريم Kirim واللاخ leh والچاخ Çeh والدانيسا Deniska والإسقاچ Isfaç، وينتهى فى بلاد الفلمنك Felemenk وفى مواجهته جزيرة إنجليزية . أطراف هذه الجزيرة ٨٠٠٠ ميل . وعاصمة ملوكها هى لندرا (= لندن) Landra .

وقد وصلها والدنا الدرويش محمد ظللى إلا أننى العبد الفقير لم أصل إليها، وعلى الرغم من أننى قد وصلت إلى ميناء لونشاط Lunçat المواجه لها فإننى لم يكن لى نصيب الانتقال إلى الجهة المواجهة .

مصر

تقع مصر فى وسط الإقليم الثالث عند خط طول ٣٠ ٢٧ أطول نهار لها ١٤ ساعة ، ١٣ و٤٥ ، ولايتها حارة طبقًا للكواكب، ولما لم تكن بُنيت فى ساعة المريخ فإن الفتنة والمنازعات والقتل ليست قليلة فيها، أما طالعها فشديد القوة . دائمًا بها رخاء وثراء . فى مصر أيضًا سر إلهى ، لو حدث أى حادث فى أى مكان بالعالم تظهر عنه الشائعات فى مصر قبل حدوثه بأربعين يومًا . فمثلاً ظهرت شائعة تقول : " اليوم تم فتح قامانيچه "... وبعد أربعين يومًا أتى مندوب للوزير وأحْضَر " فتح نامه " لسنة ١٦٦٩ (١٠٨٠ هـ) . وظهرت إشاعة تقول: " مات الوزير "... وفى اليوم الثانى والعشرين وصل خبر موت ابن كوپريلى Köprülü . مرة أخرى قال أحد الحمقى ": سقط الپاشا "... وفى اليوم السابع عَزَلوا " أحمد پاشا " الدفتردار من الوزارة .

هذا التأثير - على أية حال - مرجعه إلى وجود أضرحة آلاف من الرسل وآل البيت والأولياء فى مصر .

الفصل الثالث والستون

فى بيان الأضرحة النُّورانية للمجاهدين والأئمة والصحابة الكرام والأولياء الكبار والقضاة والمشايخ والعلماء والسلاطين القدماء الموجودة فى مقابر مصر

بدايةً فإن فى جبل المقطم الواقع فى شرق مصر توجد معابد سيدنا موسى و هارون وعيسى . وفى عهد عمرو بن العاص – فاتح مصر – دُفِنَ فى هذا الجبل سبعة عشر ألفًا من الصحابة ، ويُطلق على هذا الجبل اسم " الجيوشى " Cüsi، عند شروق الشمس فإن ظِل الجبل يمتد على ساحل النيل حتى الفسطاط ، وهناك أحاديث نبوية تقول " الذين دُفنوا فى ظل المقطم هم أصحاب الجنة ". طبقًا لإحدى الروايات ؛ فإن المقطم هو اسم أحد أولاد حضرة سيدنا نوح عليه السلام ، وكان يقطن هذا الجبل ، لهذا السبب سُمى بهذا الاسم .

فيما يلى العظماء المدفونون فى هذا الجبل والذين زرناهم :

بدايةً عمرو بن العاص فاتح مصر ، وأبو ناصر الغفارى وكان شيخ السحرة . وكان مصاحبًا للأنبياء . ثم عبد الله بن الحارث Haris، ويامن Yamen شقيق سيدنا يوسف، وأفرايم (= أفرام) بن سيدنا يوسف، وصاريم بن يهود، والسيدة هاجر، والملك الريَّان عزيز مصر، وزليخة ، جميعهم مدفونون فى سفح جبل المقطم . ومن الصحابة عبد الله بن ثلمة السلمى ، ويوجد به مسجد سيدنا موسى ، وبه مكث سيدنا عيسى مع والدته السيدة مريم ثلاث سنوات . وقد قام أحمد بن طولون بترميم أعتاب ابن يامن شقيق سيدنا يوسف، ويظهر على قمة الجبل إلى الآن أثر لبناية " تَنُّور فرعون "، وفى أعلى الجبل مسطحات مِلك وليل ودجلة والمصطفين،

والوديان تستغرق ٦ ساعات حتى تصل إلى " عين موسى" والناس تصطاد الجيران Ciran والأرنوب Ernob فى هذه الصحراء ، وهى أماكن للتنزُّه . وهناك أيضًا مقدسات الأخ هارون وزير سيدنا موسى، وعلى الحافة العلوية لهذا المكان توجد كتابة : " أمر بإنشاء هذه الزاوية المباركة الوزير ابن جعفر بن العرب" .

إن مسجد حضرة الزبير ومسجد الصخرة قد حُفِرا فى صخرة، ومساجد الديلمى Deylimi والشريف الجرجانى فى سفوح جبل الجيوشى Çusi هذا . وكذلك يوجد مسجد معروف هو مسجد " محمود " ومسجد" وَلْوه" velve وقد تم ترميمهما فى عام ١٤١٦ هـ) .

والسادات شقيق بستان الراعى ، وكانا شقيقين، وقد عاشا فى مصر، وهما من الصحابة . وقد ماتا معًا فى ليلة القدر، وما زال يغمرهما النور فى ليلة القدر . ومساجد الشيخ القوغائى Kogai ومحمود وولْوه velve مساجد قديمة، وهى أماكن تُرْجى فيها إجابة الدعاء .

وتُوجد مقابر الصحابيَّين الجليلين عبد الله بن الحارث وعبدالله بن حُذيفة السَّخمى، وقد كُتب عليهما " ماتا فى خلافة حضرة عثمان رضى اللّه عنه"، وأمير الروم عبد الله بن حُذافة مات فى عهد عمر بن الخطاب، والشيخ عُقبة بن أمير الجُهينى، وقد نال الشهادة فى فتح مصر ، ويوجد فى جامع عمرو بن العاص نسخة من القرآن الكريم الذى كُتب بإذن من سيدنا عثمان، وهو مدفون فى ظلال جبل المقطم ، وفى عام ١٦٥٤ م = ١٠٦٥ هـ رأى نوح أفندى إمام والى باشا مصر أبو النور خاصكى محمد، وكان من سلحدارى السلطان محمد ، رأى فى منامه من يقول له : " أنقذونا من تُراب المذلّة هذه ورممونا وعمِّرونا فليعمِّركم الله ". وعليه فقد قام الباشا بتأسيس جامع وتكية وعمارة خيرية وسبيل ومكتب وإمارة سبيل ومكتبة طفل (= مدرسة أطفال) وخمسين بيتًا للفقراء، وأمر بإقامة سور حولها . ووقف عليها أوقافًا كثيرة، وأصبحت عامرة جدا ، وأمر بإقامة قُبة دون رصاص أعلى الشيخ عقبة ، وبجواره أيضًا ضريح . وعلى أطراف المقصورة يوجد شمعدان

مطليٌّ بالذهب وقناديل مزخرفة ، وكُتب على العمود الرخامى الموجود بجانب شاهد القبر : " هنا مقام العارف بالله الشيخ عُقبة بن عامر الجُهَينى، من الصحابة الكرام " . جدَّد هذا المكان المبارك محمود باشا سلحدار السلطان محمد الرابع سنة ١٦٥٥ م = ١٠٦٦ م .

مشهد حضرة السيدة نفيسة

وهى مدفونة فى الأطراف الجنوبية لمصر ، لها كرامات وخيرات عظيمة . غير هذا فإن خلفاء العباسين أيضًا مدفونون هناك ، وهناك خط طويل على الطرف الأعلى لقبتها. وعلى كنار مقصورات الجامع يقول :" أمر ببناء هذا المكان المبارك المتوكل على الله عبد العزيز جمادى الأول ١٨٦ " . بابها مبطن ومُغطى بالحرير الأخضر ، مدفونة داخل مقصورة رباعية الزوايا .

الإنسان الذى يراها فجأة تأخذه الرعشة ، ولا أحد يجرؤ على النظر إلى مقصورتها، وكل الأطراف مزينة بزينة مرصعة للغاية . الزائرون واحداً واحداً يقدِّمون لها هدايا قيمة جداً ، وأرضية المقام مغطاة بالسجاجيد الحريرية ، وتُقرأ الخاتمة فى الأوقات الخمسة ، معظم زوارها من النساء .

ومدفون حولها اثنان من أولادها هما " القاسم والطيب "، وحتى فى أثناء وفاة حضرة السيدة " نفيسة " كانت تقول لولديها الاثنين "أتأتيان معى فى سفرى للآخرة؟ " وقالا هما أيضًا: " أجل نأتى " . فقالت :" ما دام الأمر هكذا فسلما أمانتيكما". وفى الحال أسلم الشيخان الروح ، وفى كل عام فى شهر ربيع الأول يُقام مولد لمدة ٣ أيام .

وها هى أسماء لأشخاص آخرين يرقدون ها هنا : ابن سيدنا على ابن حسن ، سيدنا يحيى بن زيد (شقيق السيدة نفيسة من الأب والأم).

عدا السادة هؤلاء الحسين بن سيدنا على والحسن بن الحسين إسماعيل جد الرسول ، ابن حسن بن حسين بن سيدنا على ، إسماعيل جددو اسمه (إسماعيل أديبنه) وابنه إبراهيم طباطبا وسيدنا القاسم ابن شريف الحجاز و(هذه السلسلة مكتوبة على أطراف المقصورة المرمرية) . وهناك أيضًا قبر محمد يحى وابن القاسم من أحفاد سيدنا على ، وهناك مشهد رأس " زيد بن على بن حسن بن سيدنا على " ومشهد رأس " إبراهيم بن عبد الله " وهذا الرأس المبارك ، أمام محراب المسجد النبوى وهو مزار" . وقد كُتِب " هذا البناء ، شيده وشاده العلاَّمة " وأما مشهد محمد بن أبى بكر فهو عبارة عن قبة خربة فى خارج غرب مصر " القاهرة"، وأعلى الباب مكتوب عبارة " بناء علاَّمة العصر " ويوجد بالقرب منه مشهد حضرة الإمام " زين العابدين " . والمستكفى بالله – من العباسيين – هو الذى أسس هذه العمارة . وفى مطلع كل شهر يُقرأ (المولد الشريف) وهو مدفون تحت قبة عالية جدا . وعلى أطرافها الأربعة توجد أعمدة مرمرية، وهناك كرسى وعظ فى طرف القبلة بالنسبة إلى القبر . وهناك حجرات فى أنحاء الفناء الأربعة . وباب الفناء يُفتح ناحية الشمال يوجد أعلى عتبته " هذا مشهد " الإمام على بن زين العابدين بن الإمام حسين بن الإمام على بن أبى طالب بن عبدالملك " سنة ١٢١ ".

ولكن الغريب هنا أننى أنا العبد الفقير فى أثناء وجودى فى بغداد عام ١٦٤٨ م = ١٠٥٨ م زرنا مشهد حضرة " زين العابدين " أيضًا هنالك . ثم فى عام ١٦٧١ م = ١٠٨٢ هـ وصلنا إلى " البقيع " فى " المدينة " قمنا بزيارة زين العابدين أيضًا بجوار العباس .

مزار أمة التابعين

توجد قبور الشيخ يشكر فى فناء جامع ابن طولون ، وبالقرب من الباب الجديد الشيخ طباطبا بمائة خطوة يوجد الشيخ أبو محمد عبد الله بن وهب بن مسلم ، ومالك فاطمة بنت عبد الحميد ، وناعم بن خير، وابن أخته أبو إسماعيل ، والشيخ "

أتى بن أنس ، وابن أبى ضب، وروح بن عبدالجبار ، وخير بن سريح، والليث بن سعد ، وقبر القاضى بكر ، وابن قُتية (صار قاضياً على مصر) ، والشيخ جَزل، والشيخ أتى ، وخير ابن نعام ، وأبو إسماعيل ابن أخيه ، وفاطمة بنت عبد الحميد ، والشيخ طباطبا، فقبورهم جميعًا هنا ، وقبر فرج (وهو غلام طباطبا) ، ومكتوب فوق حجر المقصورة (يحيى بن بكر هو صاحب الموطأ) .

ثم قبر نفع الله عبد الرحمن[ابن سيدنا عثمان من السيدة ابنة الرسول (صلى الله عليه وسلم)] ومن ثم عبد الله بن رواحة، ثم قبور أبى الجيش على بن أحمد بن طولون ، وشريف .... المكرمى، وفاطمة بنت محمد، وقبورهم على قارعة الطريق ... وزوارهم لا ينقطعون قط مطلقًا.

الشيخ جامع مدفون فى برية قايتباى ، وأبو بكر الأدفوى ، فهو بالقرب من مشهد الحسين ، وكذلك الشيخ أبو الحسن عبد الرحمن أيضًا مدفون هنا ، والشيخ ط إمام أبى إسحاق بن إبراهيم فهو مدفون فى جبل المقطم ، والشيخ أبو الحسن فهو بالقرب من الجامع العتيق ، وكذلك قبور القاضى ، أبو الحسن على وأبو عبد الله محمد وأبو النصر سراًج الأمير الذى توفى عام ٩٢٦م = ٣١٤ هـ، وقد دفن فى مسجد السراًجين .

الوزير أبو الحسن وأبو الفتح التُّورانى قد دفنا معًا فى مكان واحد، وأبو البسطامى و مالك العرب ، دُفنا معًا فى المقابر الخفيفة فى ضريح باصقين Baskin . ودُفن الجرجانى فى صحراء قايتباى، وأما الشيخ ناطق " Natlk فهو مدفون بالقرب من قبة قايتباى، وبالقرب منه عُقبة عمر القدسى ، وابن الجوهرى الذى توفى عام ١٠٨٨ م = ٤٨١ هـ، وهو مدفون بالقرب من أبى البركات أبى العباس الخطاط أحمد بن دُبًلى الذى مات عام ٩٨٣م = ٣٧٣ هـ وقبره فى جانب القِبلة . الشيخ أبو الفادى والشيخ أبو طالب – من أحفاد العباسى الهاشمى – فهما بالقرب من الإمام الشافعى البزًّاز Bezzaz، والشيخ أبو الحسن على ، والكندى Kindi فقد دفنا بالقرب من حضرة الفوقاعى. وقبر تميم الدرانى فهو فى ناحية منزل الشيخ بكر ، وعبد الملك بن حسن

الذى مات فى ذى الحجة عام ١٠٤٠ م = ٤٣٢ هـ ،فهو يرقد فى سفح جبل الجيوشى ، وكذلك الصائم العفيف الواسطى Saümül Afif، والشيخ أبو الحسن الصابى ، وأبو الليث ذو النون أبو الرابع سليمان ، والفقيه أبو الثريا، فهم يرقدون فى سفح هذا الجبل .

فاطمة السَوداء ، وابن هاشم ، وإدريس الخولانى، فهم فى الجبَّانة الكبيرة. والذين لهم مزارات أخرى هم : خدافة اليمن وشافقران بن عبد العزيز وعبد الله بن عَوْفاض الزهرى ومشهد سيد أخي كلثوم بنت القاسم من أحفاد سيدنا على والسيد يحيى بن الحسين بن سيدنا على قبر سلامة بن اسماعيل و مشهد أمنية بنت موسى الكاظم ، والسيد محمد بن إبراهيم (حفيد سيدنا الحسين) ، وستّنا السيدة زينب [من أحفاد سيدنا على] والسيدة [ستنا] أسيا ، وقد تم دفنهم تحت قلعة مصر. وبالقرب منهم وعلى طريق الإمام الشافعى قبور الشيخ أبو الحسن ، ومالك ، والشيخ صالح المالك، وقبر هند بنت عبد الرحمن بن عوف .

الشيخ محمد عبد الله بن عبد الحاكم، كاتب السلطان، وهو مدفون فى بركة النَّابش، وأبو عبد الله محمد الذى مات عام ٨٨١م = ٢٦٨ هـ ودفن فى الجيوشى Cüsi .

السيدة فاطمة بنت جعفر الصادق ، وابن سعد الوَهْرِى ، وأبو محمد إسماعيل قورة ، وأبو بكر الدقَّاق ، وعبد الوهاب بن القاضى نصر البغدادى، والإمام ابن عمر ، وعثمان ، وقبر كافور Kauforo الإخشيد فى الجبَّانة الكبيرة، والوزير جعفر الفرات ، والشيخ حسن الورَّاق ، والشيخ أبو حسن على، وسهل الدين نورى (توفى سنة ٩٤٢م = ٣٣١ هـ) ، والشيخ أبو عبد الله عبد الرحمن ، وأبو بكر الإسطبل ، وأبو المعالى مقام الفقيه، لم يأت مؤرخ مثله مُنذ عصر سيدنا إدريس، ولو حَلَّ السهو والنسيان بأى إنسان فإذا ما جاء إلى مزاره هذا وظل لمدة سبعة أيام على معدة خاوية ولم يأكل سوى سبع حبات عنب أسود لأصبح عَقْله مثل أرسطو (مات عام ١١٥٦ م = ٥٥١ هـ) .

الشيخ جحا وهو نصر الدين خواجة العرب، والشيخ العثماني الشامي ، (وكراماته الجَلِيَّة مسجَّلة في طبقات الشعراني) ، وأحمد بن طولون المتوفى عام ٨٨٤ م = ٢٧١ هـ، ودفن بجوار عفاف والد سيدنا عثمان ، وحضرة زوجة سيدنا أبي بكر . وليكن معلومًا أنه في أطراف " قاهرة " مصر الأربعة يعني في الفسطاط المدينة القديمة وفي مدينة بولاق وبالقرب من الإمام الشافعي وفي خارج وداخل مراعي قايتباي توجد اثنتا عشرة جَبَّانة، حيث يرقد الأولياء والأنبياء وآل البيت والرسل .

بيت :

لو طلبت من الدنيا ماذا بقي على الأرض

لجعلتها تقول أين جم وأين دارا فهم يرقدون موتى (٤٨) .

وطبقًا للمعنى: فكم من مئات المرات من الآلاف من الشيوخ والعلماء المباركين هم مدفونون . وكم مرة منذ سيدنا آدم وسيدنا نوح عُمِّرت وكم مرة خُرِّبت وهُدِّمت مقابر الأولياء والأنبياء . فلنقرأ الفاتحة على روح كل منهم ولنُهْدِها إليهم . والعارف هو الذي يقول :

"مَنْ لا يُعاني من ألم العشق يبقى وحيدًا

وكل إنسان لا يصير سلطانًا للعلم

Derdi askl çekmiyen askdan veley biganedir

Bivesile her kisi sultana olmaz asina

وكل مَنْ هو دون وسيلة لا يمكنه أن يكون عارفًا للسلطان (٤٩).

---

(٤٨) نه لردن أرضه قالمشدر ديلا دنيايي سويلة تسن كيمي جمدر كيمي دارا ياتان موتاي سويله تسن .

(٤٩) دردعشق چكمه بن عشقدن ولوى بيگانه در بى وسيلة هو كيش سلطانه اولمزآشينهه.

هناك حــديث شـريف : " لو تَحــيَّرتم فى أمـر مــا " فاطلبوا المسـاعـدة فى أهل القبور" . وعندما وصــلنا إلى مصــر، فى حِجَّتــنا الــشريفة الأولى ، كانت هناك جبَّانة فى الجنوب من سراى مصر قطعنا فيـها طريقًا رمليا من ألفَىْ خطوة حتى ووصلنا إلى وسط القصبة .

مشهد حضرة الإمام الشافعى
شيخ الشيوخ إمام الهمم العلامة الإمام الهمام

شـيخ المشـايخ الحـمـد لله أن وفـيت نذرى ومـرَّغت وجـهى بـأعـتـابه، وأهديت خـتـم القــرآن إلى روحــه الشــريفة، وهو مدفــون فى الطرف الشـمالى لقبة عالية مشيدة من الصــخـر. وداخل هذه القـبة فـإن كل طرف مـغطى بأجـمل المرمـر ، ومـعلق بهـا قناديل عـالية القيـمـة، وداخل القبة مُـغطى كلَّه بأجـمل أنوا ع الرُّخـام، وخطوط فى غاية الجـمال مكتوبة على جدرانها، وهناك مـحـراب مغطى بسجـاد حريرى " ibrisimi فى طرف القبة الجنوبى، وأعلى قبـته مـغطى بالرصـاص . هذه الطبـقة من الرصـاص ليست لوحًـا من ثلاثة أذرع مـثل رصـاص بلاد الروم بل هـى لوح رصـاص له أربع زوايا خشـبيـة بـحـجم طبـقـة الورق الأُحـادية، ويقـولون إن بداخله ذهبًـا . وتوجـد سـفـينـة فى طرف العلم، يضـعــون بداخلهـا القـمــح والشـعــير من أجل الطــيـور، ومـدفـون حـوله العـديد من المشـايخ والوزراء، أعلـى مـقـصــورة الإمام الشـافـعى مغطى بالحرير الأخـضر المقصَّب ، وهناك عدة قضبان حول المقصورة وشمعدانات كبيرة مَذهَّبَة عند طرفى القدم والرأس، وناحية الرأس عمود من المرمر مكتوب عليه نسب الإمـام الشافعى. ولقد ولد فى مدينة " غزة " وتوفى عن عمر يناهز الرابعة والخمسين ، وقد مكث فى حضن والدته ثلاث سنوات!

وقد ولد فى أثــناء وفاة حضرة الإمـام الأعظم الإمام مـحمد، وأخذ العلم عن الإمام مالك . وأيضًا داخل هذه القبة وعلى الناحية الغربية من القبة مـدفون صـاحب الخيرات السلطان مـحـمـد الكردى الذى أسس هذه البناية ، ووالدته الملكة الست شـمسـة ، ومكتـوب على القبة العليا للباب الآية الكريمة: ﴿ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ ﴾(الحجر ١٥/٤٦).

الله يعلم حساب هؤلاء الراقدين حول هذه القبة، وهؤلاء هم الذين زرناهم : الشيخ أبو الحسن البكرى وشيخ الإسلام زكريا الأنصارى والشيخ نجم الدين ، والشيخ فرحان الحصنى ، والشيخ شيبان الراعى ... وأعتاب الإمام الشافعى حى مختلف ، مكوَّن من ستمائة منزل . وتتدلى من نوافذ طبقاتها المتعددة الزنابيل، والذين يسألون الصدقات يحركون هذه الزنابيل ، وصاحب المنزل يُقدم نقوداً أو طعامًا، والطريق مكتظ بالشحاذين. وفى هذه القصبة يوجد جامع ومدرسة وحوض وسبع تكايا ، وحجرات ، وعمارتان وما يقرب من عشرة دكاكين، وأصحاب الخيرات هما سلطان محمد الكردى والملك الكامل، والمياه تأتى من النيل، وليلة السبت من كل أسبوع فإن الصالحين يوحدون الله " يَذْكرون " على الدُّف والقدوم، ويشعلون المشاعل والقناديل وينشدون الأشعار والقصائد والموالد، ويتجمع الحَفَظة فى تلك الليلة ويقرأون ما بين ستمائة وألف ختمة، وفى كل عام فى شهر المولد يتجمع العديد من مئات الآلاف من بنى آدم ويزينون المآذن والأسواق والمتاجر بالقناديل ويقرأون المولد على مدى يومين وليلتين على الطرف الغربى لقبة الإمام الشافعى. وخارج النافذة حضرة الشيخ البكرى مدفون مع أجداده ، وفى معيته سبعون سلطانًا من السلاطين.

وعلى بعد ٢٠٠ خطوة من مقام الإمام الشافعى هذا يوجد:

حضرة الإمام أبو الليث بن الشيخ
الفقيه سيِّد عبد الرحمن أبو الحارث

كان شيخًا للإسلام فى إقليم مصر، وهذا السلطان أيضًا مدفون تحت قبة عالية فى الجبَّانة الكبيرة ، فضلاً عن جامع ومدرسة وتكية وسبيل وعمارة وحوالى ٢٠٠ منزل للفقراء. والقبة الموجودة فيها المقصورة تتسع لخمسمائة شخص ، وهناك يتجمع علماء مصر ويقرأون القرآن ، ومكتوب على عتبته :

أصــدر السلطــان الملك قـانصـوه الغـورى أمـره بإنشـاء هذا المرقد المبارك عـام ١٢٢٣ م = ٦٢٠ هـ . وهنـاك آيـة كـريمة فى الطرف العلوى جـهـة اليـسـار من البـاب وتحـتـهـا " الإخـلاص شـريف " وتحتـهـا كتب " تاريخه فى ١٣٧٠ م = ٧٧٢ هـ . وقد قرأت أنا العبد الفقير سورة يس وأهديتها إلى روحه . وبالقرب من مزار أبى الليث يوجد قبر داود باشا من وزراء سليمان خان ، بالإضافة إلى جامع وتكية وعمارة وسبيل . وعلى جـانبه الأيمن يرقد ابنه الأكبر الشيخ مـحمد العنقا ، وعلى الجـانب الأيسر يرقد ابنه الأصـغر عبد الله العُقـاب ، وهما على الطريقة الشـاهينيـة. كانوا يبتعدون عن الجميع ويتعبدون وليس لهم راتب من أى مكان .

كتيبة من الوجوه الخيرة تنتظر القناعة الكافية

لكن الله تعـالى يرسل نفـقـاته .وفى مـصـر بالقرب من المولوى خـانة (= خـانة المولوية) مدفن الشيخ " إدريس بن عباس والد الإمام الشافعى . إلاً أن العبد الفقير كان قد زار مقام الشيخ إدريس فى غزة ، وأما الشيخ عبد الله العراقى فمدفون فى قصر العينى . وغير هو ---- ؛ فيوجد بالقرب من درب الكنيسة. مشهد الشيخ أبو بكر المعرًف " مشـهد وقبر " الطويل " فى طريق السيدة نفيسة [والبعض يُطلق عليه مقام الأربعين] وبجوار " أبو بكر التلسماتى " ، وبقربه قبر وزير السلطان نصر الدين (أدرك السلطان " سليم " وهو بالمـائتين من عمره) ومقام سيدنا موسى بالقرب من " باب – الناس " وأمًا الشيخ حسن الشاذلى فقبره بالقرب من كوبرى " الدكًة " . (الذين يعانون من الصرع إذا قرأوا حزب " الباهر " ٤٠ يوماً يشفون) ، وقد توفى عام ١٢٥٨ م = ٦٥٦ هـ . بالقرب منه مزار الشيخ صـاقـينة ، ومـرقـد الشـيخ مـرزوق الكفافى بالقرب من سراى قاضى العسكر ، ومرقد الشيخ محمد عنان بالقرب من قنطرة الليمـون . ومرقـد الشيخ حنفى بالقرب من درب الجميز . وبالقرب من باب الشعرية يوجد مزار الشيخ الشعراوى (يوجد له مؤلفات كثيرة جدا) ومزار السلطان

أيبك التركماني يوجد في مكان صنّاع السكر داخل مصر ، ومزاره بلا قبة وحوائط جوانبه من المرمر الأبيض . والسلطان أيبك هو زوج السلطانة شجر الدر التي أرسلت كسوة سوداء إلى الكعبة وذات يوم ضجرت شجر الدر من زوجها ، وعزمت على قتل أيبك في الحمام بمساعدة الجواري إلاَّ أن أيبك خطف السيف من إحدى الجواري وأصبح مشهرًا سيفه وهو عار ، على حين كانت شجر الدر تتابع ما يحدث من نافذة أعلى القبة ، ومن فرط الانفعال سقطت بها القبة من أعلى لأنها كانت شديدة السِّمنة . وقَتَل أيبك شجر الدر ومات هو أيضًا متأثرًا بجراحة . قبر شجر الدر عامر ومزدحم .

المتوكل على الله، من عباسيي مصر ، مدفون أمام قبة نقيب الست نفيسة والحاكم بأمر الله [كان يُنير ليالي مصر القاهرة بالمشاعل ويحولها نهارًا، وكان يأمر بقتل من يخرج للشارع نهارًا ، فقد حوَّل الليل إلى نهار والنهار إلى ليل، وقد كان الجميع يخرجون للتسوق ليلاً . تولى الخلافة ٤١ عامًا، ثُم قُتِل] وهو مدفون بجوار السيدة نفيسة، وقد أسس جامعًا كبيرًا في باب النصر. وقد ملأ جامع الأزهر بروث الخيل. كما أن الخليفة المقتصد بالله أيضًا مدفون بالقرب من السيدة نفيسة، وفي زمن الخليفة المتوكل على الله أيضًا كان برقوق الچركسي سلطانًا .

وفي أثناء ذلك كان السلطان العثماني هو بايزيد الصاعقة ، وكان يرسل سفيرًا إلى المتوكل على الله ، وقد أهدى هو أيضًا إلى بايزيد سجادة ونسخة من القرآن الكريم وسيفًا و حصانًا وخرافًا ومنشورًا . استمر المتوكل على الله خليفة ٤٥ سنة ومات في عهد السلطان فرج ودفن بالقرب من السيدة نفيسة .

الواصل بأمر الله دُفن بجوار السيدة نفيسة عام ١٣٨٦ م = ٧٨٨ هـ والمقتصد بالله توفى عام ١٤٤١ م = ٨٤٥ هـ وكذلك الخلفاء المستكفي بالله والمستنجد بالله دفنا بالقرب من السيدة نفيسة ، وقد وصل إلى علم السلطان محمد الفاتح خبر وفاته

وحـزن لذلك . وقـد أرسل إلى السلطان قـايتـبـاى مـع برهان الدين المُغلوى - وهو من خلفاء آق شمس الدين - ناموسية من الصيرمة لكى يتم بها تغطية مقصورته .

المتوكل على الله كان مع السلطان سليم حين دخول مصر . اصطحبه السلطان سليم معه إلى إستانبول واستضافه فى سراى إبراهيم باشا، وبعد وفاة السلطان سليم الأول كان ينادم ويصاحب السلطان سليمان ، وحينما توفى والده فى مصر طلب من السلطان " سليمان " السماح له بأن يأخذ محل والده فى الخلافة، فأرسله السلطان أيضًا إلى مصر بسفن القبطان پالاق مصطفى پاشا ، واستقبله داود پاشا فى مصر ، وجلس على عرش أجداده ، ومات فى سراى " داود پاشا " عام ١٥٤٣ م = ٩٥٠ هـ ، وبه كانت نهاية الخلفاء العباسيين . وعدد الخلفاء العباسين فى مصر ١٧ خليفة، وكانوا يعتبرون فى مرتبة ومنزلة شيخ الشيوخ فى مصر، وكانت الخطبة وسك العملة بأسمائهم ولكن الحكومة (أى السلطة) كانت فى يد السلاطين الچركس .

يوسف صلاح الدين بن أيوب شادى الكردى، من الأيوبيين سلاطين مصر، وهم سبعة أشخاص . وصلاح الدين دفن فى جامعه عام ١١٩٣ م = ٥٨٩ هـ وبعضهم يقولون إنه دفن فى الشام إلاَّ أن هذا غير صحيح، فكل شىء مؤرخ ومُدَوَّن على قبره.

والملك الكامل مدفون بالقرب من دار الحديث، وكان الملك أشرف قد استولى على قلعة عكة من كفار إسبانيا ، ومات فى مصر، ودفن أيضًا بجوار جامعه . والملك العزيز مدفون بجوار الجامع الذى بناه بنفسه ، أما شقيقه الملك الفضل فقد تم عزله بسبب بخله ودناءته فى عهد الملك أشرف - من الأيوبيين - تم إعطاء القدس للفرنجة (= الأوروبيين) مات فى الشام ، وأحضر نعشه إلى مصر .

الملك صالح نجم الدين مات فى مدينة المنصورة ، وكان الملك المظفر طوران شاه حينما مات والده فى قلعة حصن كييف وفى الحال استدعته والدته شجر الدر وجعلته حكمدارًا . فى أثناء ذلك كان الفرنجة (= الأوروبيون) قد استولوا على دمياط فأعاد

تحرير دمياط عام ١٢٥٠ م= ٦٤٨ هـ . ثم ثار الجند فى مصر وقتلوه، وهو مدفون بجوار والده، وبعهده انتهت دولة الأيوبيين .

ثم تزوجت شجر الدر بأيبك التركمانى وأصبح هو حكمداراً . وأسد الدين شيركوه Sirgüho دفن بجوار جامع الأشرفية فى قيشلاق قايتباى ، ومقام السلطان المؤيد من عند الله خلف باب الحديد. كما دُفن هنا أيضًا خامس ملوك الچركس الملك مظفر السعداء وهو سادس ملوك الچركس، والملك طاهر التتارى " توفى عام ١٤٢١ م = ٨٢٤ هـ وهو مدفون فى جبَّانة " الفقير" وأعلاه توجد عبارة (فاتح حلب) . والملك العزيز والملك جمال الدين يرقدان بالقرب من جامع الأشرفية . والملك العزيز عماد الدين مدفون بجوار جامع الإمام الشافعى ، والملك مُعز الدين يرقد على طريق مراعى قايتباى .

الملك سيف الدين مات بعد أن شدد قبضته على أسفل أذنه، وقد دُفن بجوار عُمر بن الفارض . السلطان طومانباى مدفون على يمين جامع العَدْليَّة الخاص بالسلطان محمد بن السلطان الغورى، وقد توفى ١٥١٧ م = ٩٢٢ - ٩٢٣ هـ . ذو النون المصرى مدفون فى سفح جبل المقطم، ولقد كان قبطيا وواحداً من ندماء المقوقس ملك مصر وقد أُرسل سفيراً إلى حضرة سيدنا النبى (صلى الله عليه وسلم) وحينما رأى الرسول (صلى الله عليه وسلم) أشهر إسلامه . وهو شيخ الأطباء وكان عالمًا وشاعراً . فى خارج مصر بخاصة الجنوب وعلى بعد ٦٠٠ خطوة يوجد قبر أبى السعود الجارحى فى مكان يضم جامعًا وتكية، ومولده مزدحم فى كل عام .

رأس سيدنا الحسين مدفون بالقرب من خان الخليلى، فلقد قام الجيش الذى بعث به يزيد بقطع الرأس المبارك لسيدنا الحسين فى كربلاء . وقد أرسل إلى مصر ، وهناك تدحرج فى الميدان، إلاَّ أن أقدام جميع الذين ضربوا هذا الرأس المبارك قد تضخمت وانتفخت حتى أصبحت كالقِرَب، وإذا بامرأة تقطع رأس ابنها وتقذف به فى الميدان وتأخذ رأس الحسين المبارك وتخفيه، ثم تم دفنه فى خان الخليلى ".

والمكان مضاء بالقناديل ليلاً ونهاراً .

بيت:

الحســـن والحســـين عتقـــا رضى الله تعالــى عنهمـــا

عليهما وعلى آلهما السلام وليكن مقامها روضة سلام

Anlara Aline Selam olsun Yerleri ravza-i Selam olsun.

وهناك زيارة حضرة عمر بن الفارض في سفح جبل الجيوشى بالمقطم وهو من قبيلة بنى سعد .

وقد ألف قصيدة باسم طى لم يظهر على الساحة شخص يضاهيه فى مصراع واحد منها . حتى أرسل إليه من الشام محيى الدين العربى خبرًا يستأذن فيه قائلاً : " أتأذن لى بأن أناظر قصيدتك ... ؟ فردَّ عليه هو أيضًا قائلاً : إن فتوحاتكم المكِّيَّة هى نظير لها .

وفى كل يوم جمعة يقرأ العاشقون (المتصوفة) أجزاءً من هذه القصيدة وينتشون بها فى أعتابه ، ويُصبح الجامع فى أيام الجمع مزدحمًا على غير العادة ويُقرأ " المولد " على روح النبى (صلى الله عليه وسلم) ، ويقولون إن أرواح جميع الأنبياء تكون حاضرة .

وأيضًا فى سفح جبل الجيوشى Cüsl يوجد جامع الشيخ الجيوشى وتكيته وعدة منازل، وهو يرقد فى الزاوية اليسرى من الجامع . وهناك آلاف من المغارات تحت سفح هذا الجبل ، فى هذه المغارات يعيش الكثير من الفقراء على الزهد والرياضة الروحية، فالشيخ محمد الغمراوى يفطر مرة فى الأسبوع ، وكذلك الشيخ على المغازى فهو ضعيف واهن يعيش فى إحدى هذه المغارات ، والزائرون يحضرون الطعام، تحسبهم أغنياء من التعفف ، وعلى الرغم من أنه يأكل كثيرًا فإنه لم يُرَ قط وهو يدفع الحاجة ... ومغارته دائما بها رائحة الزعفران . والشيخ رجب الشاهيوانى يعيش فى هذه المغارات منذ ٤٨ عامًا ، حتى إن أحد القساوسة جاء للشيخ وعرض

عليه قائلاً : لأبق معك دون أن آكل أى شىء. دعوة للشهامة والرجولة، إلاّ أن القسيس يموت فى اليوم الثامن عشر بينما أكمل الشيخ رجب أربعين يومًا لم يأكل حتى حبة واحدة من القمح . بالقرب منه شاعر اسمه معصوم بلغرادى .

وكذلك يعيش هنا فى مغارة واحدة كل من الشيخ فُرْسِى خورى Fürsi güri ومرسى الطرابورانى Traborani ، وحمداً لله أن تصاحبت مع هؤلاء الأحبة . وأسفل هذه المغارات يوجد الشيخ عبد الله المغاورى ... وهذا السلطان كان صاحب سحر .

ولقد أمر الجن أن تقتلع هذه الجبال حتى لا تكون الرحلة شاقة على الحجيج بين مصر ومكة، ثم مات هنا . ومدفون فى هذه المغارة أكثر من أربعين وليا ، على باب المغارة مكتوب عبارة تقول : أمر ببنائها الملك المظفر الطاهر بايبارس (= الظاهر بيبرس) . وابنه أفرايم وسرابر بن يعقوب وزليخة عزيز مصر ، والملك الريان. وبالقرب من هنا أيضًا مقام كل من سيدنا موسى وعبد القادر الجيلانى " وأولاد الشيخ عيسى .

وكذلك فى سفح جبل المقطم أستانة الشيخ السادات المغربى، ومدفون هنا أجداده وأولاده الذين يقتربون من أربعين شخصًا . فى كل سنة وفى منتصف شهر شعبان يتجمع نحو مائتى ألف شخص ويقيمون مولداً كبيراً، وفى حياة الشيخ كان الشيخ أبو التخصيص صاحب السجادة يُقيم الولائم ويُطلق لقبًا على كل شخص ويُعلق على عنقه شالاً كشميريا. ومرة أخرى بالقرب من هذا توجد مزارات أبى السعود العشاير ، والشيخ أحمد رفاعى فى أعقاب جامع السلطان حسن ، وبالقرب من سوق الدلالين Dellal يوجد مزار الشيخ شمس الدين الحنفى وبه تكيته وجامعة . وهناك مزار أبو هريرة فى قصبة الجيزة . وأبو هريرة من قبيلة قريش ، وقد صاحب خالد بن الوليد فى حرب الشام ورافق سيدنا عمر فى سفره إلى القدس وذهب مع عمرو بن العاص فى حربه على مصر، ونال الشهادة فى مصر .

وعلى أستانته (= أعتابه) أوقاف عدة آلاف من القرى والترب والسقاية .

مولد أبى هريرة

مولده فى كل عام فى شهر تموز (يوليو) يستمر ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ، وتَشعُ فيه مئات الآلاف من المشاعل والقناديل ، وتمتلئ صحراء الجيزة بالخيام . فى شرق المزار توجد عين ماء يطلقون عليها عين أبى هريرة تروى آلافُ القرى وتزرع على هذا الماء، وإلاً فلا شىء يأكلونه . فى شهر تموز ينهال الماء أربعين يومًا ثم يصير دمًا أحمر فى أيام المولد ، وفى أثناء ذلك اليوم تشرب النساء الحائضات من هذا الماء فتتطهرن من حيضهن ، وحينما ينتهى المولد يرجع الماء إلى عادته .

وشيـخ هذا المزار يملأ الأباريق والقُلَل من هذا الماء ويرسله هدية إلى أشراف وأعيان مصر ، وهم يشربون بنية الشفاء . إنه مثل ماء زمزم بطعمه ولذته بحق الله وهذا الماء طبيعته مُسْهِلة وهو يُعْطى دواء لسبع وسبعين مرضًا كما يقولون ، ومن يشربْ من هذا الماء مرة لا يُصَبْ بأى مرض لمدة سنة ، ويجب أن يُشرب فى ذلك اليوم بهذا الاعتقاد ... وهو مفيد من أجل الرعشة والبَرَص والجذام . فى هذا اليوم يتم بيع مئات الآلاف من الأوانى الفخارية والأكواب، وكذلك فى يوم المولد يتم بيع كمية كبيرة من الزبادى والقشدة ، يُصبح داخل وخارج الزائرين أبيضَ كالزبادى، وأكثر الزائرين يمتطون الحمير ويذهبون لزيارة الأهرام Ehramlar .

عبرة أُخرى

فى الجيزة ، وفى يوم المولد هذا، فإن عِظام أبى هريرة يقولون إنها عظام الأقباط الذين تحاربوا مع الصحابة الكرام . ولكن ما إن يوافى شهر تموز (فى يوليو) والذين استشهدوا معه حتى تتحرك عظامهم، ومرة أخرى يقولون إن الأرض لا تقبلهم فى شهر تموز (= يوليو) وتلفظهم خارجها . وبعض الأقباط يأخذون العظام معهم وينقلونها إلى منازلهم.

وبداخل مصر وعلى ساحل الخليج Haliç مدفون الشيخ الحلوانى فى داخل الجامع، وبالقرب من باب النصر يوجد قبر (عين الغزالى) ، وفى أعلى القلعة وفى تكية عبد القادر الجيلانى بداخلها مدفون معه الشيخ محمد الأنصارى والشيخ عبد الله الزيلعى، ثلاثتهم مدفونون داخل التكية الجيلانية فى مكان واحد .

وفى القلعة الداخلية وفى حرم جامع سليمان باشا الطواشي يوجد قبر حضرة الشيخ سارية الجبل ، حتى إن سارية عندما كان قائداً للجيش ويحارب العجم ، وكان جيش المسلمين على وشك الانهيار ، فى تلك الأثناء كان سيدنا عمر يخطب الجمعة فى المدينة ، فصاح ثلاث مرات : [يا سارية ... الجبل] فقال الجميع : [سارية فى ديار العجم ! من المؤكد أن " عمر " ....] غير أنه فى نفس اليوم سمع سارية وجيشه صوت عمر فأعطوا ظهرهم للجبل ، وانعكست الآية وتخلصوا من الهزيمة ... وأعملوا سيوفهم فى رقاب العجم . وداخل قبة سيدنا سارية مدفون أكثر من ستين آخرين .

بداية : الشيخ داود والشيخ قاسم والشيخ يحيى والشيخ إسماعيل والأم وستُّنا آسيا زوجة فرعون مدفونة بالقرب من ترب زليخة على مقربة من حضرة ابن يامن .

وكانت آسيا بكراً، وقتلها فرعون لأنها آمنت بسيدنا موسى، وبعض التفاسير تقول إن موسى سوف يتزوجها فى الجنة ، وقد أمر الملك طوطيس ببناء قبة فوقها فى سفح جبل الجيوشى، ويوجد قبر عبد الله بن طارة ، كان وزيراً للمأمون فى العهد العباسى، وقد تُوفى عبد الله من جراء سقوط صخرة عالية حينما كان المأمون يحاول هدم جبل الأهرام . وهو مدفون على مقربة من ابن يامن ، ومكتوب عليه ما يلى :

" المأمون بن هارون الرشيد خليفة عصره . سنة ٨٢٠ م = ٢٠٥ هـ " .

بالقرب من الجيزة ، وفى قرية تُدعى بوصير Busir يوجد قبر الخليفة (مروان الحمار) آخر خلفاء الدولة الأموية . وقد أتى إلى هنا بعد أن هرب بعد هزيمته فى معركة الذاب Zap وهنا أمسك بعبد الله الماذنى وأمر بقطع رأس عمر بن الجرجانى .

بيت :

إذا ما ابتُلي شخص بالغمّ وأصبح في مُشكل

فكل الدنيا لا تساوى شيئًا بجوار الانتقام من العدو

يرقد جثمان الشيخ عبد الله ابن عمرو بن العاص في مصر ، وفي أسيوط في الصعيد الأعلى وعلى ساحل النيل يوجد مزار الإمام جلال الدين السيوطي الشافعي وأبي الليث وهناك سبعمائة أثر وهناك أيضًا مدفن السلطان الجاوي Caveli ، الحوائط الداخلية للقبة مغطاة بأنواع عديدة من المرمر، وعلى العتبة العليا هذه الآية مسطرة: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ (الرحمن ٥٥/٢٦ – ٢٧) والتاريخ المحفور على المرمر هو ١٣٠٢ م = ٧٠٢ هـ .

وفي مزار كبير يرقد الشيخ سيد حسين الأخلاطي " وعندما فرغت سجادته (= مولويته) ، أُرسل إليها سماونه زاده من علماء يلديرم بايزيد بعلوفة مقدارها ثلاثمائة بارة مصرية . اسمه الأصلي هو الشيخ بدر الدين بن محمد بن إسماعيل ابن عبد العزيز . وقد ألف آثار جامع الفضول وشرح المقصود وأنفع الجواهر . والشيخ "حمودة " مدفون بجوار سماط السبّاعين وإبراهيم الكلشني من شعراء السلطان محمد الفاتح .

كما توجد قبور الشيخ يوسف العجمي بالقرب من جامع الأزهر ، وقبر الشيخ تاج الدين وهو ملاصق لسوق الغنم بالقرب من تكية السلطان دنغيز Dengiz، وشيخ أولاد عنان بالقرب من منزل الشيخ البكري، وقبر الشيخ ، أبوالبَشَر " خارج الباب الجديد هو وقبر الشيخ صالح البلقيني، الشيخ ، محمد البكري كان ولي نعمتنا، مات عام ١٦٧٦ م = ١٠٨٧ هـ . أصبح ابنه الشيخ أبو المواهب خليفة له . والچلبي الصغير الشيخ زين العابدين له أستانة (= أعتاب) كبيرة وافرة النعمة. يُقرأ مولده كل سنة .

وفى صحراء العادلية وفى أثناء حرب السلطان سليم مع طومانباى استطاع الچركسى الشجاع قورت باى أن يشق الجيش العثمانى ويقتل الوزير سنان باشا الطواشى ظنا منه أنه السلطان سليم . وما زال الچركس يزورون قبر قورت باى حتى الآن ، وحقًا كان رجلاً بطلاً وشهمًا ، ووسط مدينة مصر (= القاهرة) تمامًا وبالقرب من باب الحديد يوجد مزار إبراهيم الگلشنى ، وتاريخ وفاته مُسطَّر حيث مات قطب الزمان إبراهيم سنة ١٥٣٣ م = ٩٤٠ هـ . فى عهد السلطان سُليمَان أجريت مناقشات علمية مع " أبى السعود ، وقد أفحم كل علماء الروم . ووالده هو عمر الروشنى كان متصوفًا وعالمًا كبيرًا . وبداخل قبورهم مدفون كل من ابن أحمد حيانى ١٥٦٩ م = ٩٧٧ هـ والشيخ ابن على الصفوى فى ١٥٩٦ م = ١٠٠٥ هـ والشيخ حسن أفندى ١٦٠٢م = ١٠١٢ هـ وصهره محمد چلبى ١٦٠٥ م = ١٠١٤ هـ .

وهنا أيضًا دفن الشيخ محيى الدين الأدْرِنى . وفى شرق مصر القديمة مدفن الشيخ البغدادى ، وبالقرب منه كنيسة تُسمى دير الشهودى أى شىء يدخلها غير الإنسان والطير يموت فى التو. ويدخل البدو والعرب تلك الكنيسة للتخلص من القمل والبراغيث . وعلى بعد خمسمائة خطوة منها يرقد الشيخ هويدا ، كراماته كثيرة ومكشوف عنه ، حتى أصبح فى درجة القطب غانم المقدسى عالى العلم وله مزار كبير . بالقرب منه الشيخ سنان شاهين والشيخ تيرالى أمين المتوفى عام ١٥٧٩ م = ٩٨٧ هـ ومعروف أفندى وبدرى چلبى السبروزى، ويرقد محمد آلتى پارمق فى جامع المارزبانية وهو من أُسكوب . Ököplü وهو مشهور باسم چاكير قوچورزاده . وله أثر عظيم القيمة باسم سير النبى وقد توفى عام ١٦٢٣ م = ١٠٣٢ هـ .

الشيخ زاهرالدين أردبيلى جاء من تبريز فى عهد سليم خان وأصبح نديمًا وخليلاً للسلطان . ثم سافر مع الخائن أحمد باشا إلى مصر بنية الحج ،

وأعلن عصيـانه بمـجرد وصـوله فقتلا ودُفن فى مزار كبير فى حجرة واحدة مع " أحمد باشا. له كتاب من مـائة قطعـة وأى فائدة منه، فلم يبق منه غير اسمه . لكل أجَلٍ كتاب .

والحقيقة أن العَالِم و الشحَّاذ ، والعوامُّ والخواصُّ كلهم سيمرون من جسر الأجل. حسين باشا مات فى مصر وهو شيخها وعلم دينى Molla وقبره بجوار الإمام الشافعى ومكتوب هذا التاريخ أعلى عتبته العليا :

مقام حسين أفندى دار السلام ١٦١٤ م = ١٠٢٣ هـ .

محمد أهلى أفندى هو شقيق طبيب زاده عبد الرحمن أفندى ويرقد فى ساحة مسجد مسيح باشا وعبد الباقى الشهير دروسون زادة أفندى مات فى مصر فى أثناء توليه مولويتها ودُفن فى مقبرة كبيرة .

قبر المحمى زاده مصطفى بالقرب من الإمام أبى الليث وأبى بكر الكفورى وهو مشهور بكراماته ومدفون بالقرب من الشيخ شاهين . رضائى محمد چلبى هو ابن " قاضى " قونية " الشيخ بيرى أفندى، وكلمة رضائى هى تاريخ مولده (١٥٩٢ م = ١٠٠١ هـ . بينما أرخ الإسلام على هذا التأريخ أنه تاريخ موته [١٩٢٩ م = ١٠٣٩] (١٣٠٩ هـ Ah vah rizayi (sene .

أما تاريخ عطائى أفندى فهو الآخر (١٦٢٩ م = ١٠٣٩ هـ).

yakdi derünu dag-I Firakl Rizaylnin .

إن ألم الفراق أحرق داخل رياضى .

وسيل الدموع لم يُحقق وصال القلب .

وبكى القلب دماً من تدفق الدم الجديد .

وقال عطائى تأريخاً لموته داغ ديل (سنة ١٠٣٩) .

المرحوم چلبى رضا النبيل الأديب ، المؤلف ، حافظ قاموس الأخترى Ohteri مدفون فى مصر بجوار جامع مشهد الإمام الحسين . مولانا جمالى زاده هو أبو شيخ الإسلام العالم الرومى " على جمالى " أفندى ومدفون بجوار أبى الليث .

بيان بكرامات حضرة شيخ الشيوخ على الشُمُورلى

بداية ؛ فإنى أنا العبد الفقير - قليل العلم ، كثير الخطايا - حينما ذهبت إلى مصر عام ١٦٧٢م = ١٠٨٣ هـ قمت بزيارة الأولياء والأنبياء ، ثم تعرفتُ على الشيوخ الكبار الذين كانوا على قيد الحياة آنذاك . أولاً ؛ قَبَّلت يد حضرة الشيخ الشمورلى - الذى ولد أعمى فى جامع الأزهر ، ثم قرأتُ عليه الكتاب المعنْوَن بالكهستابى Kuhista-ni وظللتُ فى خدمته ثلاث سنوات . كان فصيحًا بليغًا محررًا فوق العادة . ووقع طريح الفراش لمدة شهرين فى السنة التى تولى فيها القاضى عبد الرحمن پاشا ولاية مصر . كان ضعيفًا للغاية إلاَّ أنه لم يفقد ذكاءه وطلاقته قط . حتى إن ابنة الشيخ كانت تقص على زوجها القاضى زوج ابنة الشيخ وهو قد نقل إلينا أن الشيخ فى بعض الليالى المباركة كان يقول : " نعم يا رسول الله ... نعم يا رسول الله " أى أنه كان يتحدث مع الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم حتى إنه ذات يوم ونحن جالسون وطلابه فى حضوره قال :

" هذا العام فى أى يوم يتوجه الحجاج إلى بركة الحاج ... ؟ فقال القاضى منصور: يوم الخميس ١٨ شوال . فسأل قائلاً : كم يومًا بقى على قدوم ذلك اليوم ؟

وبمجرد أن قلت " يومان " فإذا به ينهض من سريره بثياب النوم كطاوس الجنَّة ويرقص وينشد السَّماع . فشملتنا جميعًا الحيرة! غرق الشيخ بالعرق ، ثم حدثنا جميعًا قائلاً : "بارك الله لكم جميعًا ، يا أبنائى لى رجاء ؛ حينما يخرج موكب الحجيج ضعونى فى تابوت ، ومرِّرونى من داخل جامع الأزهر وليضعْنى طلابى وجيرانى فى مزار كبير حتى يتسنى لى مشاهدة موكب الحجيج كل عام " .

فرِح جميع الطلاب ، إلاَّ أن بعضهم بكى . ومرة أُخرى قال : " أخبروا الشيخ مَتْبول " والقيِّم على تربه إبراهيم العراقى على بك المُلَقَّب من علماء مصر ، وليصل إليهم رجلٌ ويقُولْ لهم فليستعدوا لمشاهدة الحجيج من بعدنا " . فقد كانا يُحْتضران . وما إن جاء الخبر حتى تفضل بالقول : إن شاء الله يجدون الحياة الأبدية ... وقد تفضل بالقول : إننى كنت قد دعوت على الفقيه عبد الفتاح دعاءً سيئًا وقد كان من أقرباء الشيخ الشعراوى وقُبل الدعاء ومزقوه إرْبًا إربًا عند باب العزب ، ولى رجاء منكم اقرأوا القرآن على رُوحه واختموه أربعين ختمة فى الأزهر ووزعوا الحلوى على الفقراء فى ليلة الجمعة ، ثم وضع رأسه على الوسادة .

حكمة الله

لقد أسلم الشيخ الروح مع مرور فوج الحجيج فى اليوم الثامن عشر من ذلك الشهر فتجمع الناس وأقاموا عليه الصلاة فى الأزهر ودفنوا الشيخ هنالك فى قبره ، ويراه المسافرون، وتحققت كراماته ومات على بك المُلقب والشيخ مَتْبول ودفنوه هنالك أيضًا .

وقد تفضل بالقول أيضًا : " إننى كنت قد دعوت دعاء سيئًا على الفقيه عبد الفتاح الذى كان من أقارب الشيخ الشعراوى . وقُبِل الدعاء . ومزقوه إرْبًا إرْبًا الشيخ إسماعيل الصنائيرى كان مجذوبًا عارى الرأس حافى القدمين . لم يكن يتقابل مع أحد ، كان يضحك مع بعض الذين يحبهم . وقد أسس القاضى جلال تربة لهذا السلطان فى حياته، وقد أشار إلى حرب العثمانيين مع الموسكوف " الروس " بقولته :

جاء السرور فى شهر رمضان وكان تاريخها هو ما يلى : فتح قازاق . موسكوف البيضاء سنة ١٦٧٨ م = ١٠٨٩ هـ .

الفصل الرابع والستون

فـي بيان أسماء الأحياء الكبيرة وطرق كل الأعيان

والشوارع الرئيسية (= شوارع السلاطين) التي زرناها في مصر أم الدنيا

بداية ، فمن القلعة الداخلية فى مدينة مصر القاهرة إلى أسفل المدينة هناك ألف شارع، ويطلقون على المسافة من باب السيدة نفيسة إلى باب النصر درب السلطان، ومن أسفل [بين القصرين] يتشعب الطريق إلى اثنين ويطلقون على المسافة حتى باب الفتوح درب الحاكم بأمر الله ومن درب الشعرية إلى خارجها يطلقون عليه " درب الظاهرية ويطلقون على سقوط طايلون وداخلها درب العباسية .

ومنها حتى أسفل يطلقون عليه درب الباب الجديد ، والمنطقة التى خلفها يسمونها باب بولاق Buluk وكوبرى السبوع Subu . وما خلفها يطلقون عليها درب ووقت الدلال Derbi Ve vikatüd Dellal .

بالقرب منه درب قنطرة سنقر Kantaras Sunkur ، وحى عابدين، ودرب باب الدباغين ودرب الشوارح Sevarih، ودرب الأزبكية ، ودرب قنطرة الليمون، ودرب الراطل Ratll، ودرب باب اللوق ، ودرب الخراطين ، ودرب بين القصرين ، ودرب قاضى عسكر ، ودرب خان الخليلى ، ودرب خط الجمَّالية، وحارة السقا يعنى سوق الفضة ، ودرب الفحَّامين ، ودرب الغورى Gavrl، ودرب " البندقانى "، وباب الزُّحومة Zahhome، وسوق الشَّوايين Sevayin، وباب زويلة ، وحارة الولى (شُقَّ هذا الطريق فى ساعة لأن السلطان قايتباى لم يُرِد العبور من أمام باب الصوباشى أى مدير الأمن) ، وسوق الخيَّامين ، وسوق الحضريَّة Hlzlriyye ، وسوق طايلى، وحارة الخليفة، وسوق

المغارة ، وسوق حضرة السيدة حنًا Hina ، وسوق المزار الطويل ، وسوق أمير الإسطبل Emirahur، وحارة السقايين ، وحارة النصارى ، وحارة الموسيقى ، وسوق الرومى ، والدّرب الأحمر الذى يبعد عن سراى الپاشا حتى جامع الأزهر ٣٣٠ خطوة .

شوارع قاهرة مصر :

من المضيفة التى كانت لهذا العبد الفقير فى القلعة الداخلية حتى حمام السپاهية (=الخيالة) ومن أمام باب مسعود آغا ، وسراى إيواز بك Ivez bey مسافة تبعد ٢١٠٠ ألفين ومائة خطوة . حتى سراى النقيب برهان أفندى ، ومرة أخرى من قصرنا ... أسفل من أمام جامع [آلتى پارمق] حتى سراى النقيب ألفان وثلاثمائة خطوة ومن الغرب باب الغرب Azepler وميدان الروملى ، والصليبة Salibe ، ومن كوبرى السبوع من الباب الجديد، حتى منزل الدفتردار قايطاس بك نحو ثلاثة آلاف خطوة. وهذه هى الشوارع المشهورة .

حتى هنا نهاية الجزء الثالث من الرحلة

حيث انتهى الرحّالة من زياراته

ومشاهداته لمدينة القاهرة

مصر أم الدنيا ...

وبعد ذلك سوف يتابع الرحّالة العثمانى رحلته إلى مدن الدلتا

ويعود إلى القاهرة ثم يتجه إلى الصعيد الأعلى حتى يصل إلى

الشلال متابعًا رحلته إلى بلاد الفونج فالسودان والحبشة

ثم يعود إلى القاهرة متاخمًا للبحر الأحمر حتى
القصير فبنى سويف والفيوم ، وسوف نتابع
ذلك خلال الأجزاء التالية .

المؤلف فى سطور :

وُلد أوليا فى إستانبول عام ١٠٢٠هـ = ١٦٧٧م وتربى وترعرع فى أحضان السراى العثمانى . واسمه الكامل أوليا چلبى بن درويش محمد ظلّى .

- أتقن إلى جانب التركية : الفارسية والرومية والأرمنية والعربية حتى صار حافظًا ومقرئًا للقرآن الكريم ومنشداً للتواشيح الدينية لجمال صوته ودراسته للموسيقى .
- صار منادماً للسلطان مراد الرابع .
- كان قريبًا للصدر الأعظم ملك أحمد باشا وقد مكّنه ذلك من مرافقته فى الكثير من الحروب والقيام بالعديد من المهام، فطاف بمعظم دول آسيا وأوروبا التى كانت معروفة فى زمنه .
- حج بيت اللّه الحرام عام ١٠٨٢هـ = ١٦٧١م ، ثم رافق قافلة الحج المصرى عند العودة برًا ، فكتب عن كل ما رأته عيناه وسمعته أذناه فى مصر والسودان وبلاد الحبش طوال سنوات الرحلة التى دامت ثمانى سنوات .
- كتب عن القاهرة مصر أم الدنيا وعن آثارها وجوامعها ومدارسها وعمارتها ومتنزّهاتها واحتفالاتها ومواكبها والعلماء والأئمة الذين يرقدون فى مراقدها ومدافنها وأضرحتها وموالد الأولياء والصالحين بها وبسائر مدن مصر العامرة .
- تابع رحلته إلى الدلتا وسلك طريقَىْ دمياط ورشيد حتى وصل إلى الإسكندرية وكتب عن كل مآثرها وقلاعها وعاداتها وأعرافها وتنوُّع سكانها .

- عاد إلى أم الدنيا مصر ، فوجد حامية عسكرية متجهة إلى الصعيد الأعلى فرافقها ... كتب عن كل ما رآه فى بلاد الصعيد وبلاد النوبة وبلاد الفونج حتى دخل السودان والحبشة وعاد إلى مصر عن طريق البحر الأحمر فالقصير وبنى سويف والفيوم وأكمل الكلام عن مصر المحروسة .
- استعانت الحملة الفرنسية على مصر بما جاء فى هذا الكتاب من معلومات قيِّمة عن كل ما يتصل بمصر من آثار وأعراف وتقاليد، إلخ .

المترجم فى سطور:

- الصفصافى أحمد المرسى القطورى (دكتور) .
- تدرج فى سلك التعليم العالى منذ ١٩٦٣م حتى صار أستاذًا متفرغًا فى الدراسات التركية والعثمانية والآذارية والتركمانية فى الجامعات المصرية .
- له العديد من المؤلفات حول الحضارة والثقافة التركية والعثمانية تجاوزت العشرين كتابًا . إلى جانب ما يتجاوز الخمسة عشر كتابًا مترجمًا .
- انتُدب وأُعيرَ وسافر أستاذًا زائرًا فى العديد من الجامعات العربية والتركية والأوروبية .
- ترجم عن العثمانية والتركية والآذارية أعمالاً تاريخية وإبداعية وفنية نُشرت ضمن ترجمات المجلس الأعلى للثقافة والعديد من دور النشر والمجلات فى مصر والمغرب وتونس والمملكة العربية السعودية ومجلة الأدب الإسلامى العالمية ونال منها الجائزة الأولى عن الترجمة الإبداعية .

التصحيح اللغـــوى : محمود عبد الرازق جمعة
الإشــراف الفـنـى: حــسن كــامل